روايات BONNIE GARMUS

بوني غارموس

دروس في الكيمياء

«يُحزنني أنني أنهيتُها»
- نايجيلا لوسون

«رواية تتطاير البهجة من كلّ صفحاتها»
- إليزابيث داي

ترجمة: علاء عودة

الأهلية

م+ك+ت+ب+ة ← سر من قرأ

دروس في الكيمياء

الأهليّة للنشر والتوزيع

e – mail: alahlia@nets.jo

الفرع الأوّل (التوزيع)

المملكة الأردنيّة الهاشميّة، عمّان، وسط البلد، بناية 12

هاتف 4638688 6 00962، فاكس 4657445 6 00962

ص. ب: 7855 عمّان 11118، الأردن

: AlAhliaBookstore

: alahlia_bookstore

الفرع الثاني (المكتبة)

عمّان، وسط البلد، شارع الملك حسين، بناية 34

◆

دروس في الكيمياء / رواية إنجليزيّة

بوني غارموس / الولايات المتحدة الأمريكية

ترجمة: **علاء عودة** / فلسطين، سوريّة

◆

الطبعة العربيّة الأولى، 2023

حقوق الطبع محفوظة

◆

تصميم الغلاف: **زهير أبو شايب**، عمّان، هاتف ***95297109 7 00962***

◆

الصفّ الضوئيّ: **إيمان زكريّا خطّاب**، عمّان، هاتف ***95349156 7 00962***

مكتبة

t.me/soramnqraa

المملكة الأردنية الهاشمية

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية

(2022/12/6278)

823

غارموس، بوني

دروس في الكيمياء / بوني غارموس؛ ترجمة علاء مأمون عوده .- عمان:الأهلية للنشر والتوزيع، 2022

( ) ص .

ر. إ. : 2022/12/6278.

الواصفات : /الروايات الانجليزية//الأدب المترجم//الأدب الانجليزي/

يتحمل المؤلف كامل المسؤولية القانونية عن محتوى مصنفه ولا يعبّر هذا المصنف عن رأي دائرة المكتبة الوطنية أو أي جهة حكومية أخرى.

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 9957 - 39 - 486 - 8

مكتبة
t.me/soramnqraa

بوني غارموس

دروس في الكيمياء

ترجمة: علاء عودة

الأهلية

هذه الرّواية عمل خياليّ ؛ جميع الأسماء والشّخصيّات والأماكن والحوادث الواردة في سياقها هي إمّا وليدةُ مخيّلةِ الكاتبة وإمّا مستخدمةٌ على نحو مفترَض ، وأيُّ تشابهٍ بينها وبين أشخاصٍ حقيقيّين ، أحياء أو موتى ، أو أحداث أو مواقع حقيقيّة ما هو إلّا محض صدفة.

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط

telegram @soramnqraa

إلى أمّي، ماري سْوَالو غارموس

مكتبة
t.me/soramnqraa

نوفمبر 1961

في عام 1961، عندما كانت النّساء يرتدين فساتينَ بياقاتٍ وزَمّةٍ عند الخصر، ويلتحقن بنوادي البستنة، ويَقُدنَ سيّاراتٍ تُقِلُّ فيالقَ من الأطفال بلا أحزمة أمانٍ دون أن يتردَّدن للحظة؛ قبل أن يخطر ما سيُسمّى حراكَ السّتّينيّات على بال أحد، ويُصبحَ حدثًا بارزًا يُمضي أنصارُه الأعوامَ السّتّين التّالية في التّأريخ له؛ حين كانت الحروب الكبيرة قد انتهت والحروبُ السّرّيّة بدأت لتوّها فأخذ النّاس يفكّرون بطريقة جديدة مؤمنين أنّ كلّ شيء ممكن، كانت والدةُ مادلين زُوت امرأةً في الثّلاثين من عمرها، تنهض قبل الفجر يوميًّا وفي يقينها شيءٌ واحد: أنّ حياتها انتهت.

وعلى الرّغم من هذا اليقين، تتوجّه إلى المختبر كي تحزمَ الغداءَ لابنتها.

وقودٌ من أجل التّعلُّم، تكتب إليزابيث زوت على قصاصة ورقٍ صغيرة قبل أن تدسّها في علبة طعام ابنتها. ثمّ تتوقّف قليلًا، يدُها تحمل قلمَها الرّصاص في الهواء، كأنّها تعيد النّظر في أمرٍ ما. *شاركي في الألعاب الرّياضيّة خلال الفرصة لكن لا تتركي الصّبيان يفوزون*

أوتوماتيكيًّا، تكتب على قصاصةٍ أخرى. ثمّ تتوقّف من جديد، تنقر بقلمها الرّصاص على الطّاولة. *الأمرُ ليس من صنع خيالك*، تكتب على ثالثة: *معظمُ النّاسِ مُريعون.* تضع القصاصتين الأخيرتين فوق محتويات العلبة.

معظم الأطفال الصّغار لا يجيدون القراءة، وإن كانوا يجيدونها فنادرًا ما يتجاوز الأمرُ كلماتٍ من قبيل «كلب» و«ذَهَبَ». غير أنّ مادلين تقرأ منذ سنّ الثّالثة، وقد أتمّت الآن -وهي في الخامسة- معظمَ أعمال ديكنز.

مادلين طفلة من *هذا* النّوع؛ بوسعها أن تدندن كونشيرتو لِباخ لكنّها غير قادرة على ربط حذائها بنفسها، بوسعها أن تشرح دوران الأرض لكنّها تتعثّر في لعبة إكس-أو. وهذه هي المشكلة؛ ففي حين يتمّ الاحتفاء بالأطفال ذوي العبقريّة الموسيقيّة دومًا، لا أحد يكترث للقرّاء المبكّرين، وهذا لأنّ القرّاء المبكّرين يجيدون شيئًا سيجيده الآخرون في نهاية المطاف، لذا الأسبقيّة ليست أمرًا مميّزًا، بل مزعج فقط.

مادلين تفهم هذا، ولذلك تحرص كلّ صباح -بعد أن تغادر والدتُها وتنشغل جارتُها هارييت الّتي تجالسها- على أن تُخرج القصاصات من علبة طعامها وتقرأها ثمّ تضعها مع الأوراق السّابقة داخل صندوق حذاء تحتفظ به في القسم الخلفيّ من خزانتها. وحالما تدخل إلى المدرسة، تتظاهر أنّها مثل بقيّة الأطفال: أمّيّة بصيغة أو بأخرى. بالنّسبة إلى مادلين، الاندماج يتفوّق في أهمّيته على كلّ ما سواه، وحجّتُها في ذلك دامغة: أمّها لم تندمج مع من حولها يومًا، وانظروا ماذا حدث لها.

هناك، في بلدة كومنز جنوبَ كاليفورنيا، حيث الطّقس دافئٌ في العموم إنّما ليس أكثر من اللّازم، والسّماء زرقاء في العموم إنّما ليس أكثر من اللّازم، والهواء نظيف لأنّ الهواء كان نظيفًا آنذاك ببساطة؛ هناك ترقد مادلين في سريرها بعينين مغمضتين، وتنتظر. تدرك أنّ ثمّة قبلةً رقيقة لن تلبث حتّى تُطبَع على جبينها، وأنّ الملاءات ستُدَسّ بعناية تحت كتفيها، ثمّ ستُهمَس جملة «اغتنمي يومَكِ» في أذنها. وبعد دقيقة، سوف تسمع دورانَ محرّكِ سيّارة، وانسحاقَ الحصى تحت عجلات البليموث وهي تتراجع خارجةً من مدخل السّيّارات، وتعشيقةَ ناقلِ الحركة وهو يُحرَّك من وضعيّة الرّجوع إلى الغيار الأوّل. وبعدئذٍ تنطلق والدتها -الّتي تعاني إحباطًا مستمرًّا- في طريقها إلى الاستديو التّلفزيونيّ، حيث تشدّ مئزرًا حول خصرها وتدخل موقعَ تصوير.

البرنامج يدعى «العشاء عند السّادسة»، وإليزابيث زوت هي نجمته بإقرارٍ من الجميع.

بايــــن

لأنّها في ما مضى كانت باحثةً في الكيمياء، إليزابيث زوت امرأةٌ تتمتّع ببشرةٍ لا تشوبها شائبة وأسلوبٍ بيّنٍ خليقٍ بشخصٍ ليس متوسّطَ السّويّةِ ولن يكون كذلك يومًا.

وكما يحدث مع كلّ النّجوم اللّامعين، فقد اكتُشِفَت اكتشافًا. بيد أنّ القصّة -في حالة إليزابيث- لم تحتوِ على متجر مثلّجات، ولا مصادفة عابرة في مكان عامّ، ولا تعارف رتّبَه الحظّ. بل، عوضًا عن ذلك، حدث الأمر بسبب سرقة -وتحديدًا سرقة طعام- قادت إلى اكتشافها.

القصّة بسيطة: طفلةٌ اسمها أماندا باين، تستمتع بالطّعام على نحو قد يعتبره بعضُ المختصّين ذا دلالة، كانت تأكل غداءَ مادلين. وهذا لأنّ غداء مادلين لم يكن متوسّطَ السّويّة. ففي حين يعلكُ بقيّةُ الأطفال شطائرَ زبدة الفستق والمربّى، كانت مادلين تفتح علبةَ طعامها لتجد شريحةً سميكة من لازانيا اليوم السّابق، وحصّةً جانبيّةً من الكوسا ذات القوام الزّبديّ، وثمرة كيوي مستوردة قُطِّعَت إلى أرباع، وخمس حبّات طماطم كرزيّة مستديرة كاللّؤلؤ، ومملحة مورتون[1] صغيرة،

(1) مورتون: علامة تجاريّة أمريكيّة شهيرة تبيع ممالح جاهزة معبّأة. (المترجم)

وقطعتين ما تزالان دافئتين من البسكويت برقائق الشّوكولاتة، إلى جانب ترمس أحمر ذي نقوش مربّعة مليء بحليبٍ شديدِ البرودة.

هذه المحتويات كانت ما يجعل الجميع يرغبون بغداء مادلين، بمن فيهم مادلين نفسها. غير أنّ مادلين كانت تقدّمه إلى أماندا لأنّ الصّداقة تستلزم التّضحية، وكذلك لأنّ أماندا هي الوحيدة في المدرسة الّتي لا تسخر من غرابةِ مادلين الّتي لم تعد تخفى عليها.

لم تبدأ إليزابيث تتساءل عمّا يحدث إلى أن لاحظت أنّ ملابس مادلين صارت تتهدّل على هيكلها المهزول مثل السّتائر الرّديئة. وفقًا لحساباتها، راتبُ مادلين الغذائيّ يوفّر بالضّبط ما يتطلّبه النّموّ المثاليّ، الأمر الّذي يجعل فقدان الوزن غيرَ واردٍ من النّاحية العلميّة. أهي طفرةُ نموٍّ إذًا؟ كلّا، لأنّها أخذت عمليّةَ النّموّ بعين الاعتبار ضمن حساباتها. اضطرابُ أكلٍ مبكّر؟ هذا غير محتمل، فمادلين تأكل مثل حصان على العشاء. ابيضاض دم؟ كلّا بالطّبع. إليزابيث ليست من النّوع الّذي يهوّل الأمور؛ لا تقضي اللّيل في سريرها تتخيّل أنّ ابنتها ابتُليَت بداءٍ عضال من غامض الغيب. هي تبحث دائمًا عن التّفسير المعقول بوصفها عالمة، وحالما التقت بأماندا باين ورأت الآثار الحمراء الّتي خلّفتها صلصة البومودورو على شفتيها الصّغيرتين، أدركت أنّها عثرت على ضالّتها.

«سيّد باين»، قالت إليزابيث وقد اقتحمت الاستديو التّلفزيونيّ المحلّيّ متجاهلةً السّكرتيرة بعدَ ظهيرة أربعاء: «أنا أتّصل بك منذ ثلاثة أيّام، ولم تُلهمك اللّباقةُ أن تعاود الاتّصال ولو مرّةً واحدة.

اسمي إليزابيث زوت، أنا والدة مادلين زوت، ابنتانا تلميذتان في مدرسة وودي الابتدائيّة، ولقد أتيتُ إلى هنا كي أخبرك أنّ ابنتك تدّعي صداقةَ ابنتي زيفًا». ولأنّه بدا محتارًا، أضافت: «ابنتك تأكل غداء ابنتي».

«غـ.. غداء؟»، بالكاد استطاع والتر باين أن يتلفّظ بالكلمة، وهو يحاول استيعاب المرأة الّتي تقف أمامه متوهّجة، بمريولها الأبيض الّذي يبعث هالةَ ضوءٍ مقدّسٍ لا يتّضح فيه سوى تفصيل واحد: حرفَي اسمها «إ. ز.» المرسومين بزخرفةٍ حمراء فوق الجيب.

«ابنتك أماندا»، انقضّت إليزابيث من جديد: «تأكل غداء ابنتي، ويبدو أنّ هذا يحدث منذ شهور».

لم يستطع والتر إلّا أن يحدّق. وهي واقفة أمامه، بنحولها الفارع، وشعرٍ له لون الزّبدة على التّوست المحروق تردّه إلى الخلف وتثبّته بقلم رصاص، يداها على خصرها، شفتاها لا تعتذران عن حُمرتهما، بشرتها وضّاءة، أنفها مستقيم. كانت تنظر إليه من عليائها مثل مُسعِفةٍ في ساحة معركة تقيّم إذا ما كان يستأهل الإنقاذ أم لا.

«وتظاهرُها بصداقة مادلين كي تحصل على غدائها»، تابعت: «أمرٌ يستوجب التّوبيخ بكلّ تأكيد».

«مـ.. من أنتِ مرّةً أخرى؟»، تأتأ والتر.

«إليزابيث زوت!»، صاحت في وجهه: «والدة مادلين زوت!»

أومأ والتر برأسه، محاولًا أن يفهم. بحكم مسيرته الطّويلة في إنتاج برامج ما بعد الظّهيرة التّلفزيونيّة، هو مُلِمٌّ بالدّراما. لكن هذا؟

تابع تحديقه. كانت مذهلة، وهو *ذاهلٌ* أمامها حرفيًّا. أتراها جاءت لتقدّم تجربةَ أداءٍ لبرنامجٍ ما؟

«أنا آسف»، قال أخيرًا: «لكنّ جميع شواغر أدوار الممرّضات مُلئت».

«أستميحكَ عذرًا؟»، ردّت بانفعال.

ساد سكوتٌ طويل.

«أماندا باين»، كرّرت.

رمش بعينيه. «ابنتي؟ أوه»، قال وقد نال منه التّوتّر فجأةً: «ماذا عنها؟ هل أنت طبيبة؟ هل أنت من المدرسة؟»، هبّ واقفًا على قدميه.

«رحمتَك يا ربّ، لا»، أجابت إليزابيث: «أنا عالمةُ كيمياء، وأتيتُكَ الآن من هاستينغز في استراحة غدائي لأنّك لم تُقدِم على معاودة الاتّصال بي». ولمّا لم تبارح الحيرةُ وجهَه، وضّحت: «معهد هاستينغز للبحوث؟ «حيث نسبق إلى البحوث غير المسبوقة»؟»، تنهّدت من العبارة التّرويجيّة الفارغة. «الفكرة أنّني أبذل مقدارًا هائلًا من الجهد لإعداد غداء مغذٍّ لمادلين، وهذا أمرٌ لا أشكّ أنّك أنت أيضًا تكافح كي توفّره لطفلتك». وإذ استمرّ على التّحديق فيها منشدهًا، أضافت: «لأنّك تهتمّ بنموّ أماندا المعرفيّ والبدنيّ. لأنّك تعرف أنّ هذا النّموّ يعتمد على توفير التّوازن الصّحيح بين الفيتامينات والمعادن».

– الحقيقة هي أنّ السّيّدة باين...

– أجل، أعرف. في عِداد المفقودين. لقد حاولتُ التّواصل معها لكن قيل لي إنّها تعيش في نيويورك.

- نحن مُطلّقان.

- يؤسفني سماع هذا، لكن لا علاقة للطّلاق بالغداء.

- قد يبدو الأمر هكذا، لكن...

- بوسع الرّجال أن يعدّوا الغداء يا سيّد باين، هذا ليس مستحيلًا من النّاحية البيولوجيّة.

«بكلّ تأكيد»، قال موافقًا وهو يطبطب على كرسيّ بارتباك: «من فضلك يا سيّدة زوت، تفضّلي بالجلوس».

«لقد وضعتُ شيئًا في السّيكلوترون»، قالت بنبرة لا تخلو من الغضب وهي تلقي نظرةً على ساعتها: «هل وصلنا إلى تفاهم أم لا؟»

- سيكلو...

- مسرّع الجسيمات دون الذّرّيّة.

نظرت إليزابيث إلى الجدران، فوجدتها مليئة بالملصقات المؤطّرة الّتي تُعلن عن مسلسلات سوب أوبرا[1] ميلودراميّة وبرامج مسابقات مبهرَجة.

«أعمالي»، قال والتر، وقد اعتراه إحراج مفاجئ من فظاظة هذه الأعمال: «لعلّكِ شاهدتِ أحدها؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) سوب أوبرا: نمط من المسلسلات الدّراميّة الطّويلة الّتي تُبثّ نهارًا على التّلفاز أو الرّاديو، يركّز على العلاقات العاطفيّة، ويتميّز بعدم وجود نهاية محدّدة مكتوبة عند بدء إنتاجه، وقد يصل إلى آلاف الحلقات. (المترجم)

استدارت لتواجهه من جديد. «سيّد باين»، قالت بأسلوب أكثر استرضاءً: «يؤسفني أنّني لا أملك الوقت ولا الموارد كي أعدّ الغداء لابنتك. كلانا يعلم أنّ الطّعام هو العامل المحفّز الّذي يفتح عقولنا ويجعل عائلاتنا تتماسك ويحدّد مستقبلنا، ومع ذلك...»، انخفضت نبرتها، وأخذت عيناها تتضيّقان محاولةً استيعابَ ملصقِ سوب أوبرا يُظهر ممرّضةً تمنح مريضًا رعايةً غيرَ معتادة. «أهناك من يملك الوقت كي يعلّم الشّعبَ بأكمله إعدادَ طعامٍ له معنى؟ أتمنّى لو كان بوسعي، لكنّني لا أستطيع. ماذا عنك؟»

ما إن استدارت كي تغادر حتّى قال باين بسرعة - إذ لم يكن يريدها أن تذهب ولا يفهم تمامًا ما هو على وشك أن يخرج به: «مهلًا، أرجوكِ قِفي... *أرجوك*. ما.. ما هذا الّذي قلتِه لتوّك؟ بشأن تعليم الشّعب بأكمله إعداد طعام له.. له معنى؟»

عُرِض «العشاء عند السّادسة» للمرّة الأولى بعد أربعة أسابيع. ورغم أنّ الفكرة لم تُثِر حماسةَ إليزابيث تمامًا -لكونها باحثة في الكيمياء- فقد قبلت بالعمل للأسباب المعتادة: أنّه يدرُّ مالًا أكثر وأنّ لديها طفلة تُعيلها.

منذ أوّل يوم شدّت إليزابيث فيه مئزرًا حول خصرها ودخلت موقع التّصوير، كان الأمر واضحًا: إنّها «تمتلكها»، والضّمير هنا يعود إلى ذلك الطّابع الموارب الّذي يثير اهتمام المشاهدين. لكنّها أيضًا إنسانٌ متنفِّذ؛ شخص مباشر وصارم إلى درجة جعلت تكوينَ رأيٍ بها أمرًا غيرَ هيّن. فبينما يقدّم برامجَ الطّبخ الأخرى طهاةٌ أرِقّاءُ الجانب يُفرغون

زجاجات نبيذِ شيري بمرح، كانت إليزابيث زوت تتّسم بالجدّيّة؛ لا تبتسم أبدًا، لا تُطلق الدّعابات بتاتًا، وأطباقُها بسيطة وعمليّة مثلها.

في غضون ستّة أشهر، صعد نجمُ برنامج إليزابيث. خلال سنة، رسخت مكانتُه بين النّاس. وبعد سنتين، كان قد أثبت سطوتَه الباهرة وقدرتَه، ليس على المؤالفة بين الأهالي وأبنائهم فقط، بل كذلك بين المواطنين وبلدهم. ليس من المبالغة قولُ إنّ الأمّةَ قاطبةً كانت تجلس إلى المائدة كي تأكل ما إن تُتمّ إليزابيث زوت الطّبخ.

حتّى نائب الرّئيس، ليندون جونسون، كان يشاهد برنامجها. «أتريد أن تعرف رأيي؟»، قال ذات مرّة وهو يصرف مراسلًا صحفيًّا لحوحًا: «أرى أنّه يحسن بك أن تقلّل من الكتابة وتزيد من مشاهدة التّلفاز. ابدأ بـ«العشاء عند السّادسة»؛ تلك الّتي تُدعى زوت تعرف ما تفعله».

ولم يجانب الصّوابَ في ما قاله. لم يكن المشاهد يصادف إليزابيث زوت وهي تشرح طريقة إعداد شطائر الخيار الصّغيرة أو كعك السّوفليه الخفيف، فوصفاتها كانت صحّيّة: يخنات وطواجن، طبخات تُعَدُّ في قدور معدنيّة كبيرة. كانت تؤكّد على المجموعات الغذائيّة الأربع، وتؤمن بالحصص اللّائقة، وتصرّ أنّ الأطباق الّتي تستحقّ أن تُحضَّر يُشترط أن تكون قابلة للتّحضير في أقلّ من ساعة، وتُنهي كلّ حلقة بجملتها اللّازمة: «أيّها الأطفال، جهّزوا الطّاولة. والدتكم تحتاج إلى لحظةٍ لنفسها».

لكن بعد ذلك كتب صحفيٌّ بارز مقالةً عنوانها «لماذا نحن مستعدّون لتناول أيّ طبق تقدّمه»، أشار إليها لِمامًا في سياقها باسم

«ليزا اللّذيذة»، فالتصق بها لقبُ التّحبّب هذا -لأنّه كان لمّاحًا ومتناغمَ الحروف في آنٍ معًا- بسرعةِ التصاقِه بورق الصّحف الّذي طُبِعَ عليه. ومنذ ذلك اليوم فصاعدًا، راح الغرباء ينادونها «لذيذة»، لكنّ ابنتها مادلين نادتها ماما؛ فرغم أنّها طفلة لا أكثر، كان بوسعها أن ترى على الفور أنّ هذا اللّقب ينتقص مواهبَ أمِّها. إنّها عالمة كيمياء، وليست طبّاخة تلفزيونيّة. وإليزابيث، الواعية تجاه ذاتها أمام ابنتها الوحيدة، شعرت بالخجل.

كانت إليزابيث أحيانًا ترقد في سريرها ليلًا وتتساءل كيف وصلت حياتُها إلى هذا. لكنّ تساؤلها لا يدوم طويلًا، فهي تعرف الجواب بالفعل.

... كان اسمُه كالفِن إيفانز.

الفصل 3

معهد هاستينغز للبحوث

قبل عشر سنوات، يناير 1952

كان كالفن إيفانز يعمل هو الآخر في معهد هاستينغز للبحوث، لكن -على عكس إليزابيث الّتي تعمل في بيئة مزدحمة- لديه مختبر كبير ينفرد به.

بالنّظر إلى سجلّ إنجازاته، ربّما كان يستحقّ المختبر. فمع بلوغه سنّ التّاسعة عشرة، كان قد ساهم بأعمال بحثيّة حاسمة ساعدت الكيميائيَّ البريطانيَّ الشّهير فريدريك سانغر على حصد جائزة نوبل؛ في الثّانية والعشرين، اكتشف طريقةً أسرع لاصطناع البروتينات البسيطة؛ في الرّابعة والعشرين، توصّل إلى فتحٍ علميٍّ يتعلّق بتفاعليّةٍ ثنائيّ بنزو السّيلينوفين تكفّلَ بوضع صورته على غلاف مجلّة *الكيمياء اليوم*. وإضافةً إلى ذلك، فقد ألّفَ ستّ عشرة ورقة علميّة، وتلقّى دعوات إلى عشرة مؤتمرات دوليّة، وعُرِضَت عليه زمالةٌ في هارفارد، مرّتين، ورفضها، مرّتين؛ ذلك من جهةٍ لأنّ هارفارد كانت قد رفضت الطّلب الّذي قدّمه للدّراسة الجامعيّة فيها قبل سنوات، ومن جهة أخرى لأنّ... حسنًا، في الحقيقة، ما من سبب آخر. لقد كان كالفن رجلًا ألمعيًّا، لكن إن كان فيه عيب واحد، فهو امتلاكه قدرةً على حمل الضّغائن.

وعلاوةً على حمله للضّغائن، كانت له سمعة في نفاد الصّبر. فكما هي حال الكثير من الألمعيّين، لم يكن بمقدور كالفن -بكلّ بساطة- أن يفهم كيف لا يملك أحدٌ آخر ما يملكه هو. وكان انطوائيًّا أيضًا، وهذا ليس عيبًا بحقّ، لكنّه كثيرًا ما يتمظهر على شكل تحفُّظ وانعزال. والأسوأ من كلّ ذلك أنّه كان مجدِّفًا.

كما يمكن لأيّ شخصٍ غير مجدّف أن يقول، صحبة المجدّفين ليست ممتعة. وهذا لأنّ المجدّفين لا يرغبون بالمطلق في التّحدّث إلّا عن التّجديف. ضع مجِّدفَين اثنين أو أكثر في غرفة واحدة، ولن تلبث المحادثة حتّى تنتقل من المواضيع الطّبيعيّة مثل العمل والطّقس إلى قصص طويلة بلا مغزى عن القوارب والبثور والمجاديف والمقابض وماكينات الإرغ[1] وحركات المعصم والتّمارين والقبض والإفلات والاسترداد ومدّة الجولات ووضعيّات الجلوس والضّربات والانزلاقات والانطلاق والاستقرار والتّسريع وما إذا كانت المياه «مسطَّحةً» حقًّا أم لا. ومن هذه النّقطة، يتقدّم الحديث عادةً إلى ما حدث من أخطاء في آخر جولة، وما قد يحدث من أخطاء في الجولة التّالية، وعلى من وقع و/ أو سيقع اللّوم في ذلك. وفي مرحلة ما، سيمدّ المجدّفون أيديهم ويقارنون بين الثّخانات الجلديّة في كلّ منها. وإن كنتَ منحوسًا بحقّ، قد تلي ذلك دقائقُ عدّةٌ من إحناء الرّؤوس توقيرًا فيما يسرد أحدُهم أحداثَ الجولة المثاليّة الّتي بدا كلُّ شيء يسيرًا فيها.

(1) الإرغ: ماكينة مخصّصة للتّدريب على التّجديف. (المترجم)

في ما خلا الكيمياء، كانت رياضةُ التّجديف الشّيءَ الوحيد الّذي يُكنّ كالفن له شغفًا حقيقيًّا. في الواقع، التّجديف هو السّبب الّذي جعل كالفن يتقدّم بطلبٍ إلى هارفارد في المقام الأوّل: أن تجدّف لصالح هارفارد، عام 1945، كان يعني أنّك تجدّف لصالح أفضل من في المجال. أو *ثاني* أفضل من في المجال للدّقّة. إذ أنّ جامعة واشنطن كانت الأفضل بلا منازع، لكنّ جامعة واشنطن تقع في سياتل، وسياتل شهيرة بالأمطار. كالفن كان يكره المطر. وعلى ذلك، انتقلت عيناه إلى بقيّة الجامعات في القائمة، فاستقرّتا على كامبريدج الأخرى(1)، تلك الّتي في إنجلترا، ليكشف بذلك زيفَ إحدى أكبر الخرافات الّتي تُروى عن العلماء: أنّهم ماهرون في إجراء الأبحاث.

حين جدَّفَ كالفن في نهر كام لليوم الأوّل، أمطرت. وفي اليوم الثّاني أمطرت. وفي الثّالث أيضًا. «أتمطر هكذا *طوال* الوقت؟»، سأل كالفن متذمّرًا فيما كان يرفع مع زملائه في الفريق القاربَ الخشبيّ الثّقيل ليحملوه على أكتافهم ويجرّوا أقدامهم إلى حوض المراكب. «أوه، على الإطلاق»، طمأنوه: «الطّقس في كامبريدج معتدل بحقٍّ في العادة». ثمّ تبادلوا النّظرات كأنّهم يؤكّدون ما كانوا يشتبهون به منذ وقت طويل: الأمريكان حمقى.

لسوء الحظّ، كانت حماقته تمتدّ أيضًا إلى ميدان المواعدة – وهذه مشكلة كبيرة بما أنّ كالفن أراد بشدّةٍ أن يقع في الغرام. على مدار

(1) جامعة هارفارد تقع في مدينة تسمّى كامبريدج أيضًا، تابعة لولاية ماساتشوستس الأمريكيّة. (المترجم)

السّنوات السّتّ الموحشة الّتي قضاها في كامبريدج، استطاع أن يدعو خمس نساء إلى الخروج في موعد، ومن بين هؤلاء الخمس واحدةٌ فقط قبلت بموعدٍ ثانٍ، ولم يكن هذا إلّا لأنّها ظنّته شخصًا آخر عندما ردّت على الهاتف. مشكلته الرّئيسيّة كانت انعدام التّجربة؛ كان أشبه بكلبٍ استطاع، بعد سنوات من المحاولة، أن يقبض على سنجاب ثمّ لم يملك أدنى فكرة عمّا يجب أن يفعله به.

«مرحبًا... آه»، قال حينذاك، قلبه يدقّ مضطربًا، يداه رطبتان، وذهنه قد تحوّل فجأةً إلى ورقة بيضاء حالما فتحت الفتاةُ الباب: «ديبي؟»

«اسمي ديردري»، تنهّدت الفتاة، وهي تلقي أولى ما سيكون سلسلةً طويلة من النّظرات على ساعتها.

على العشاء، تأرجحت المحادثةُ بين التّحليل الجزيئيّ للأحماض العطريّة (كالفن)، وأيّ فيلم تُراه يُعرض حاليًّا في دور السّينما (ديردري)، واصطناع البروتينات اللّاتفاعليّة (كالفن)، وإذا ما كان يحبّ الرّقص أم لا (ديردري)، ثمّ انظري كم السّاعة، لقد تجاوزت الثّامنة والنّصف، وعليه أن يخرج في جولة تجديف صباحًا لذا سوف يأخذها إلى المنزل مباشرةً (كالفن).

من نافلة القول أنّ الجنس كان شحيحًا بعد مواعيد كهذه. بل، في الحقيقة، لم يكن ثمّة جنس أصلًا.

«لا أصدّق أنّك تواجه صعوبة»، كان زملاؤه في فريق كامبريدج يقولون له: «الفتيات يعشقن المجدّفين»، وهذا غير صحيح، «وعلى

الرّغم من كونك أمريكيًّا، فأنت لستَ سيّئ الطّلعة»، وهذا أيضًا غير صحيح.

جزء من المسألة كان يكمن في وقفة كالفن. طوله ستّة أقدام وأربعة إنشات، مهزولٌ فارغُ القامة، لكنّ جذعه يتدلّى إلى اليمين - لعلّ هذا ناتج عن تجديفه في ميسرة القارب دائمًا. غير أنّ المشكلة الأكبر كانت وجهَه. له سيماءٌ تنضح بالوحدانيّة، مثل طفلٍ تَعيّن عليه أن يربّي نفسه بنفسه؛ عينان رماديّتان كبيرتان وشعر فوضويّ ضارب إلى الشُّقرة وشفتان تشوبهما مسحة أرجوانيّة، هاتان تظلّان متورّمتين طوال الوقت تقريبًا لأنّه تعوّد أن يمضغهما. وجهه من الوجوه الّتي قد يصنّفها البعض على أنّها سهلة النّسيان؛ تقاطيعُ تحت السّويّة المتوسّطة لا تلمّح بتاتًا إلى التّوق أو الذّكاء الكامن وراءها، باستثناء مَعْلَمٍ واحد حاسمِ الأهمّيّة - أسنانه، الّتي كانت مستقيمة وبيضاء، وكانت تستردُّ حقَّ كاملِ صفحةِ وجهه كلّما ابتسم. لحسن الحظّ، ولا سيّما بعد أن وقع في غرام إليزابيث زوت، كان كالفن يبتسم طيلة الوقت.

تقابلا -أو بالأحرى تبادلا الكلمات- للمرّة الأولى صباحَ يومِ ثلاثاء في معهد هاستينغز للبحوث؛ مختبر البحوث الخاصّ الّذي تُضيئه شمسُ جنوب كاليفورنيا والّذي قَبِلَ كالفن وظيفةً فيه -بعد تخرُّجِه في كامبريدج بدرجةِ دكتوراه خلال وقت قياسيّ ليجد بانتظاره ثلاثة وأربعين عرضَ توظيف يتخيّرُ منها- بسبب سمعته من جهة، لكن بسبب معدّلات هطول الأمطار في الدّرجة الأولى، إذ لم تكن تمطر كثيرًا في كومنز. أمّا إليزابيث، من ناحيتها، فقد قبلت عرضَ هاستينغز لأنّه العرض الوحيد الّذي تلقَّته.

لدى وقوفها أمام مختبر كالفن إيفانز، انتبهت إلى عدد من لافتات التّحذير الكبيرة:

ممنــوع الدّخول
منطقـة تجـارب
لا أذونات دخول
يُرجــى الابتعـاد

ثمّ فتحت الباب.

«مرحبًا»، نادت ترفع صوتها فوق صوت فرانك سيناترا، الّذي كان يلعلع من جهاز أسطوانات هاي-فاي يتوسّط الغرفة في تنافرٍ مع ما حوله: «أحتاج أن أتحدّث إلى المسؤول هنا».

وإذ بوغِتَ كالفن من سماع صوت، أطلّ برأسه من خلف جهاز طرد مركزيّ كبير.

«عفوًا يا آنسة»، نادى ساخطًا، ونظّارة الوقاية تحجب عينيه عن ذلك الشّيء الّذي يُبقبق على يمينه أيًّا كان: «الدّخول إلى هذه المنطقة محظور، ألم ترَي اللّافتات؟»

«*بلى*»، صاحت إليزابيث متجاهلةً نبرته وهي تقطع المختبر لتطفئ الموسيقى: «هاك، الآن نستطيع أن نسمع بعضنا».

أخذ كالفن يمضغ شفتيه ويشير بيده. «لا يمكنك الدّخول إلى هنا»، قال: *«اللّافتات»*.

«أجل، حسنًا، لقد قيل لي إنّ في مختبرك فائضًا من الدّوارق، ونحن لدينا نقص في الأسفل. كلّ شيء مُبيَّنٌ هنا»، قالت تدفع نحوه ورقة: «أمين المخزن وضّح المسألة».

«لم أسمع شيئًا بهذا الخصوص»، قال كالفن وهو يعاين الورقة: «وأنا آسف، لكن لا. أحتاج إلى كلّ دورق. لعلّ من الأفضل أن أتحدّث إلى أحد الكيميائيّين من قسمكم. قولي لرئيسك أن يتّصل بي»، استدار عائدًا إلى عمله، وضغط زرّ تشغيل الهاي-فاي في طريقه.

لم تتحرّك إليزابيث من مكانها. «تريد أن تتحدّث إلى أحد الكيميائيّين؟ شخص غيري؟»، صاحت فوق صوت فرانك.

«أجل»، أجابها. ثمّ لانت نبرتُه بعض الشّيء: «انظري، أعرف أنّ الذّنب ليس ذنبك، لكن ما كان يجدر بهم أن يرسلوا سكرتيرةً إلى هنا كي تنجز المهامّ الكريهة نيابةً عنهم. والآن، أعلم أنّك قد تجدين صعوبةً في فهم هذا، إلّا أنّني منهمك في أمر هامّ. من فضلك، أخبري رئيسك أن يتّصل بي وحسب».

تضيّقَت عينا إليزابيث. لم تكن تستسيغ الأشخاص الّذين يبنون افتراضاتٍ على أساسٍ ما يبدو لها أماراتٍ بصريّةٍ عفا عليها الزّمن، كما أنّها لا تستسيغ الرّجال الّذين يرون -حتّى إن كانت سكرتيرةً فعلًا- أنّ كونها سكرتيرة يعني عجزها عن فهم كلمات تتجاوز «اطبعي ثلاث نسخ من هذه على الآلة الكاتبة».

«يا للمصادفة»، صاحت وهي تتوجّه مباشرةً نحو أحد الرّفوف وتأذن لنفسها بأخذ صندوق دوارق كبير: «أنا أيضًا مشغولة». ثمّ سارت إلى الخارج بخطًى واثقة.

يعمل في معهد هاستينغز للبحوث ما يربو على الثّلاثة آلاف شخص، لهذا احتاج كالفن أكثر من أسبوع كي يتعقّب أثرها، وحين وجدها أخيرًا بدت لا تتذكّره.

«نعم؟»، قالت وهي تلتفت لترى من الّذي دخل مختبرها؛ على وجهها نظّارة وقاية كبيرة تكبّر عينيها، وزوجٌ من القفّازات المطّاطيّة الكبيرة يكسو يديها وساعديها.

«مرحبًا»، قال: «هذا أنا».

«أنا؟»، سألته: «هلّا حدّدتَ أكثر؟». استدارت عائدةً إلى عملها.

«أنا»، قال كالفن: «فوقكم بخمسة طوابق؟ الّذي أخذتِ دوارقَه؟»

«لعلّكَ ترغب أن تبقى خلف تلك السّتارة»، قالت تومئ برأسها إلى اليسار: «لقد وقع حادث صغير هنا الأسبوعَ الماضي».

«تعقُّبُ أثركِ صعبٌ حقًّا».

«هلّا سمحت؟»، قالت له: «الآن *أنا* منهمكة في أمر هامّ».

انتظر بصبرٍ ريثما تُنهي أخذ قياساتها، وتدوّن الملاحظات في دفترها، وتعيد معاينة نتائج اختبار البارحة، ثمّ تذهب إلى الحمّام.

«ما تزال هنا؟»، سألته حين عادت: «أليس لديك عمل تقوم به؟»

- أطنان.

- لا يمكنك أن تستعيد دوارقك.

- إذًا فأنتِ تتذكّرينني.

- أجل، لكن دون حنين.

- جئتُ كي أعتذر.

- لا داعي.

- ما رأيك بغداء؟

- لا.

- عشاء؟

- لا.

- قهوة؟

«اسمع»، قالت إليزابيث، وقفّازاها الكبيران يتّكئان على وركيها: «ينبغي أن تعلم أنّك بدأت تزعجني».

أشاح كالفن بوجهه شاعرًا بالإحراج. «أرجو المعذرة بصدق»، قال: «سأذهب».

«أكان هذا كالفن *إيفانز*؟»، سألها أحدُ فنّيي المختبر وهو يشاهد كالفن يخطّ طريقَه بين خمسة عشر عالِمًا يعملون متلاصقي المرافق ضمن منطقة لا تتجاوز ربع مساحة مختبره الخاصّ: «ما الّذي كان يفعله هنا؟»

«خلافٌ ثانويٌّ على ملكيّة بعض الدّوارق»، أجابت إليزابيث.

«دوارق؟»، تلكّأ: «مهلًا». التقط أحد الدّوارق الجديدة. «صندوق الدّوارق الكبير ذاك الّذي قلتِ إنّك عثرت عليه الأسبوع الماضي، كان *له*؟»

«أنا لم أقل قطّ إنّني عثرت على دوارق؛ قلت إنّني *حصلت* على دوارق».

«من كالفن إيفانز؟»، قال: «هل جُننتِ؟»

- ليس من النّاحية التّقنيّة.

- هل قال لك إنّ بوسعك أن تأخذي دوارقه؟

- ليس من النّاحية التّقنيّة، لكن كانت معي استمارة.

- أيّة استمارة؟ تعلمين أنّ عليك مراجعتي. تعلمين أنّ طلب التّجهيزات من ضمن مهامّي.

- أفهم ذلك. لكنّني أنتظر منذ أكثر من ثلاثة شهور. لقد طلبتُ منك أربع مرّات، وملأت خمسة طلبات توريد، وكلّمت د. دوناتي بهذا الشّأن. بصراحة، لم أعرف ماذا أفعل بعد. البحث الّذي أعمل عليه يعتمد على تأمين هذه التّجهيزات. *إنّها مجرّد دوارق.*

أغمض الفنّيّ عينيه. «أصغي إليّ»، قال وهو يفتحهما ببطء كأنّه يريد إضفاء طابعٍ مسرحيٍّ على غبائها: «أنا أعمل هنا قبلك بزمن طويل، وأعرف كيف تسير الأمور. تعلمين بماذا يشتهر كالفن إيفانز، أليس كذلك؟ إلى جانب الكيمياء؟»

«أجل، بامتلاك فائض من المُعدّات».

«لا»، قال: «يشتهر بحمل الضّغائن. الضّغائن!»

«حقًّا؟»، قالت وقد أُثيرَ اهتمامُها.

كانت إليزابيث زوت تحمل الضّغائن هي الأخرى. غير أنّ ضغائنها مُدَّخَرةٌ في الدّرجة الأولى لمجتمع بطريركيٍّ قائم على فكرة أنّ النّساء أقلّ؛ أقلّ قدرةً، أقلّ ذكاءً، أقلّ إبداعًا. مجتمع يؤمن أنّ الرّجال يذهبون إلى العمل ويقومون بأمور هامّة - يكتشفون الكواكب ويطوّرون المنتجات ويسنّون القوانين، فيما تبقى النّساء في المنزل ويربّين الأطفال. هي لا تريد أطفالًا - تعرف هذه الحقيقة عن نفسها، لكنّها أيضًا تعرف أنّ الكثير من النّساء الأخريات يُرِدنَ أطفالًا ومسيرةً مهنيّة. وما المشكلة في هذا؟ لا شيء. فهذا بالضّبط ما يحظى به الرّجال.

لقد قرأت مؤخّرًا عن دولةٍ يعمل فيها كلا الوالدين ويساهمان معًا في تربية الأطفال. أين كان هذا مرّةً أخرى؟ السّويد؟ لا تتذكّر. لكنّ زبدة القول هي أنّ الأمر شغّالٌ على خير ما يرام؛ الإنتاجيّة أعلى، والرّوابط الأسريّة أقوى. رأت نفسها تعيش في مجتمع كهذا، مكان لا يظنّها سكرتيرةً كلَّ مرّة بشكل أوتوماتيكيّ، مكان -حين تعرض نتائجَ بحثِها في اجتماعٍ ما- لا يتحتّم عليها فيه أن تُهيّئ نفسها للرّجال الّذين سيتكلّمون دائمًا قبل أن تتمّ كلامها أو -وهذا أسوأ- سيُنسَب الفضلُ إليهم في أعمالها. هزّت إليزابيث رأسها. حين يتعلّق الأمر بالمساواة، فإنّ عام 1952 يمثّل خيبةَ أملٍ حقيقيّة.

«عليكِ أن تعتذري إليه»، كان فنّيُّ المختبر يقول مُصرًّا: «حين تأخذين الدّوارق اللّعينة كي تعيديها إليه، تَذَلَّلي. لقد وضعتِ مختبرَنا بأكمله في خطر محدق، وأظهرتِني بصورة سيّئة».

«سيكون كلّ شيء على ما يرام»، قالت إليزابيث: «إنّها دوارق».

لكن بحلول الصّباح التّالي، كانت الدّوارق قد اختفت، وحلّت محلَّها نظراتٌ مُبغِضةٌ من بعض زملائها الكيميائيّين الّذين باتوا يرَون

هم أيضًا أنّها وضعتهم على حافةِ هاويةِ ضغائنٍ كالفن إيفانز ذائعة الصّيت. حاولت أن تكلّمهم، بيد أنّ كلًّا منهم أعرض عنها بطريقته الخاصّة. ولاحقًا، فيما كانت تسير قرب ردهة الاستراحة، تناهت إلى سمعِها شكاوى أولئك الزّملاء أنفسهم منها - مِن أخذِها لنفسها على محمل الجدّ أكثر من اللّازم، من أنّها تظنّ نفسها أفضل منهم جميعًا، من رفضِها دعوةَ كلٍّ منهم إلى الخروج في موعد، حتّى العُزّاب من بينهم، ومن أنّ الطّريقة الوحيدة الّتي يمكن أن تكون قد حصلت بها على درجة الماجستير من يو سي إل إيه[1] في الكيمياء العضويّة هي الطّريقة *القاسية*؛ وترافقت كلمةُ «قاسية» مع إيماءاتٍ فظّةٍ وضحكات مكبوتة. من تُراها تظنّ نفسها على أيّة حال؟

«ينبغي أن يضعها أحدٌ عند حدّها»، قال أحدهم.

«هي ليست ذكيّة إلى هذه الدّرجة أصلًا»، أصرّ آخر.

«إنّها قحبة»، جزمَ صوتٌ مألوف. رئيسُها في العمل، دوناتي.

إليزابيث، المعتادةُ على الكلمات الأولى، صُعِقَت من الأخيرة. ضغطت ظهرَها على الجدار، تغلبها نوبةٌ من الغثيان. إنّها ثاني مرّة تُنعَت فيها بهذه الكلمة؛ المرّةُ الأولى -المرّةُ الشّنيعة الأولى- كانت في يو سي إل إيه.

لقد حدث ذلك قبل عامين تقريبًا. كانت آنذاك مرشّحةً لنيل درجة الماجستير ولم يتبقَّ أمامها سوى عشرة أيّام كي تتخرّج، وكانت

(1) UCLA: جامعة كاليفورنيا، لوس أنجلس. (المترجم)

لم تزل في المختبر عند التّاسعة مساءً، واثقةً أنّها عثرت على مشكلةٍ في بروتوكول الاختبار. وبينما هي تنقر على الورقة بقلم رصاصٍ رقمِ اثنين مَبريٍّ حديثًا، مُقلِّبةً حدسَها على أوجُهِه، سمعت البابَ يُفتَح.

«أهلًا؟»، نادت. لم تكن تترقّب دخولَ أحد.

«ما تزالين هنا»، قال صوتٌ خالٍ من المفاجأة. مُشرِفُها.

«أوه. أهلًا، د. مايرز»، قالت وهي ترفع رأسها: «أجل، أراجع بروتوكول الاختبار من أجل الغد. أظنّني عثرت على مشكلة».

فتح البابَ أكثرَ قليلًا، ودخل. «أنا لم أطلب منك أن تفعلي هذا»، قال والانفعالُ يُذيِّلُ صوتَه: «أخبرتك أنّ كلَّ شيء جاهز».

«أعلم»، أجابته: «لكنّني أردتُ أن ألقي نظرةً أخيرة».

لم تكن مبادرةُ «النّظرة الأخيرة» شيئًا تحبّ إليزابيث أن تفعله، بل كانت شيئًا تعلم أنّ *عليها* أن تفعله في سبيل الحفاظ على مكانها ضمن فريق أبحاث مايرز المكوَّن بأكمله من الذّكور. ليس أنّ أمرَ أبحاثه يهمّها حقًّا؛ فعمله لا يخرج عن النّطاق الآمن المضمون، ولا يمكن اعتباره سَبّاقًا بأيّ شكل. وعلى الرّغم من الانعدام الملحوظ للنّزعة الإبداعيّة المقرون بغيابٍ مُقلقٍ للاكتشافات الجديدة، كان مايرز يُعتبر من صفوة باحثي الحمض النّوويّ منقوص الأكسجين في الولايات المتّحدة.

لم يكن مايرز يروق لإليزابيث، ولا لأحد عمومًا. ربّما باستثناء يو سي إل إيه، الّذين يحبّونه لأنّ الرّجل ينشر أوراقًا علميّةً تفوق بعددها ما ينشره أيّ شخص آخر في المجال. سرُّ مايرز؟ هو لا يكتب

الأوراق، طلّابه في الدّراسات العليا هم من يفعلون. لكنّ الفضل دائمًا يُنسب إليه بالكامل في كلّ كلمة، دون أن يغيّر في بعض الأحيان سوى العنوان وبضع عبارات هنا وهناك قبل أن يمرّر المؤلَّف على أنّه ورقةٌ مختلفة تمامًا؛ وهذا أمر بمقدوره أن يفعله، فمن ذا الّذي يقرأ ورقةً علميّة من ألفها إلى يائها؟ لا أحد. وبذلك كان عدد أوراقه يزداد، وتزدهر معه سمعتُه. هكذا صار مايرز باحثًا كبيرًا في الحمض النّوويّ: بسبب الكمّيّة.

إلى جانب موهبته في تكديس الأوراق العلميّة، كان مايرز يشتهر أيضًا بكونه رجلًا داعرًا. أقسام العلوم في يو سي إل إيه لا تضمّ الكثير من النّساء، لكنّ القلائل الموجودات -ومعظمهنّ سكرتيرات- يُصبحن محطَّ انتباهِه غيرِ المرغوب. وعادةً ما يغادرن بعد ستّة أشهر، بثقة مهزوزة وأعين منتفخة، ويعزون الأمرَ إلى أسباب شخصيّة. إلّا أنّ إليزابيث لم تغادر - لا يمكنها أن تفعل، فهي تحتاج إلى درجة الماجستير. لذا كانت تتحمّل الامتهانات اليوميّة -اللّمسات، التّعليقات البذيئة، الإيحاءات النّابية- حريصةً على توضيح أنّها لا تُبدي أيَّ اهتمام. إلى أن استدعاها ذاتَ يومٍ إلى مكتبه، كي يتكلّما بشأن إلحاقها ببرنامج الدّكتوراه خاصّته في الظّاهر، ثمّ -عوضًا عن ذلك- أقحم يده تحت تنّورتها. أبعدت يدَه بالقوّة حانقةً، ثمّ هدّدت برفع تقريرٍ فيه.

«إلى من؟»، قال ضاحكًا، ثمّ عاتبها على أنّها «ليست مرحة» وصفعَ مؤخّرتها، طالبًا منها أن تذهب وتحضر له معطفه من خزانته المكتبيّة، وهو يعرف أنّها ما إن تفتح بابها حتّى تجد جدرانها مكسوّة بصور نساء عاريات الصّدور، بعضهنّ منبطحات -بوجوهٍ خاليةٍ من

التّعابير- على أيديهنّ وركبهنّ، وقد استقرّ فوق ظهورهنّ حذاءُ رجلٍ بزَهوِ المنتصرين.

«هنا»، قالت له: «الخطوة الحادية والتّسعون في الصّفحة مئتين واثنين وثلاثين. درجة الحرارة؛ أنا متأكّدة تمامًا أنّها أعلى من اللّازم، ما يعني أنّ الإنزيم سيصبح خاملًا، وهذا سوف يَحرِف النّتائج».

ترصّدها د. مايرز من مكانه عند الباب: «هل أطلعتِ أحدًا آخر على هذا؟»

«كلّا»، أجابت: «انتبهتُ إليه للتّوّ».

«إذًا لم تتحدّثي مع فيليب». فيليب كان مساعد الأبحاث الأوّل لدى مايرز.

«كلّا»، أجابت: «لقد غادر لتوّه. أنا واثقة أنّني ما زلت أستطيع اللّحاق به...»

«لا داعي»، قاطعها: «هل من أحد آخر هنا؟»

«ليس على حدّ علمي».

«البروتوكول صحيح»، قال بحدّة: «أنتِ لستِ الخبيرة بيننا. كفّي عن التّشكيك في موثوقيّتي، ولا تذكري هذا لأيّ أحد. هل تفهمين؟»

«كنت أحاول أن أقدّم العون لا أكثر يا د. مايرز».

نظر إليها، كأنّه يتحقّق من صدق عرضِها. قال: «وأنا أحتاج إلى عونك»، ثمّ استدار إلى الباب وأقفله.

ضربتُه الأولى كانت صفعةً براحةٍ مفتوحة فتلَت لها رأسها إلى اليسار مثل كرةِ حبلٍ تلقّت ضربة مُتقَنة. شهقت من الصّدمة، ثمّ استطاعت أن تجلّس نفسها؛ فمُها ينزف وعيناها مشرعتان عن آخرهما لا تصدّقان ما حدث. تجهّمَ كأنّ النّتائج لم تُرضِه، ثمّ ضربها مجدّدًا، وهذه المرّة أطاح بها عن الكرسيّ. مايرز كان رجلًا ضخمًا – نحو 250 باوندًا، وقوّته ناتجة عن الاكتناز لا اللّياقة البدنيّة. انحنى إلى حيث ترقد على الأرضيّة، وقبض على وركيها رافعًا إيّاها مثل رافعة تشيل حمولةً رخوةً من الخشب، ليحطّ بها على الكرسيّ من جديد كأنّها دمية محشوّة بالخِرَق. ثمّ قلَبَها على بطنها راكلًا الكرسيّ بعيدًا، وأطبق لها وجهَها وصدرها بعنفٍ على الطّاولة الفولاذيّة. «لا تتحرّكي، يا قحبة»، أمرَها وهي تتقلّب لتقاومه، فيما أصابعه السّمينة تخمشها تحت التّنّورة.

شهقت إليزابيث. طعمُ المعدن يملأ فمها وهو يهرسها؛ يدٌ ترفع تنّورتها إلى خصرها والأخرى تقرص جلد باطن فخذيها. ولأنّ وجهها مُطبَقٌ على الطّاولة، كانت بالكاد تستطيع أن تتنفّس، ناهيك بالصّراخ. راحت ترفس حانقةً مثل حيوانٍ وقع في مصيدة، بيد أنّ رفضَها للإذعان لم يزده إلّا غيظًا.

«لا تقاوميني»، حذّرها والعرقُ يتقطّر من بطنه على قفا فخذيها، لكنّ ذراعها تحرّرت بينما هو يتحرّك. «اثبتي *مكانَك*»، أمرَها ساخطًا، وهي تتلوّى تحته إلى الأمام والخلف وتشهق مصدومة، فيما يسحق جذعُه المنتفخُ جسدَها مثل قرص بان كيك. وفي بادرةٍ أخيرة تُذكّرها مَن صاحبُ الأمر والنّهي هنا، قبض على شعرها وشدّه بقوّة. ثمّ

أولجَ فيها مثل سكران لا يقوى على حمل نفسه، متأوّهًا من إشباع رغبته، إلى أن قوطعت تأوّهاتُه قبل الذّروة بصرخة وجع.

«سحقًا!»، صاح مايرز رافعًا وزنَه عنها: «يا ليسوع، سحقًا! ما هذا؟». دفعها بعيدًا، يشغله ألمٌ هائل منبثق كالحمم من جنبه الأيمن. أطرق ينظر إلى لحم خصره المندلق، محاولًا أن يفهم مَبعثَ الألم، لكن كلّ ما رآه كان ممحاةً ورديّةً صغيرةً تبرز من ناحيته الحرقفيّة اليمنى، يحيط بها خندقٌ ضيّقٌ من الدّم.

قلم الرّصاص رقم اثنين. بيدها المنفلتة، كانت إليزابيث قد عثرت عليه وأمسكته، ثمّ أقحمته في جنبه مباشرةً. وليس قسمًا منه فقط، بل كلّه. رأسه المبريّ الحادّ، خشبه الأصفر الودود، حلقته الذّهبيّة اللّامعة - كامل إنشاته السّبعة مقابل سبعة إنشات كاملة من لحمه. وبفعلها هذا، لم تمزّق أمعاءه الغليظة والدّقيقة فقط، بل مسيرتها الأكاديميّة أيضًا.

«هل أنت طالبة هنا *حقًّا*؟»، سألها ضابطُ شرطةِ الحرم الجامعيّ بعد أن أخذت سيّارةُ إسعافٍ د. مايرز وذهبت: «أحتاج أن أرى بطاقتك الجامعيّة».

إليزابيث، بملابسها الممزّقة ويديها المرتجفتين والكدمة الكبيرة الّتي بدأت تبرز على جبينها، نظرت إليه غيرَ مصدّقة.

«سؤالي مشروع»، قال الضّابط: «ما الّذي تفعله امرأة داخل مختبر في مثل هذا الوقت من اللّيل؟»

«أنا طـ.. طالبة دراسات»، تأتأت تشعر أنّها موشكة على التّقيّؤ: «في الكيمياء».

زفرَ الضّابطُ كأنّه لا يملك وقتًا لمثل هذا الهراء، ثمّ أخرج مفكّرةً صغيرة. «لمَ لا تخبرينني بما *تظنّين* أنّه حدث».

أمدَّته إليزابيث بالتّفاصيل، وقد أبهتت الصّدمةُ صوتَها. بدا كأنّه يدوّن كلامها، لكن حين استدار كي يخبر ضابطًا آخر أنّ «كلّ شيء تحت السّيطرة»، انتبهت أنّ صفحة المفكّرة خالية.

«من فضلك، أنا.. أحتاج إلى طبيب».

أطبق مفكّرتَه: «أترغبين أن تقدّمي إفادةَ تندُّم؟». ثمّ ألقى نظرةً على تنّورتها كأنّ خامةَ القماشِ بحدّ ذاتها تمثّل دعوةً صريحة. «أنتِ أقدمتِ على طعن الرّجل، سيكون من صالحك أن تُظهري بعضَ النّدم».

نظرت إليه بعينين غائرتين: «لقد.. لقد أخطأتَ فهمي يا حضرة الضّابط. هو الّذي اعتدى عليّ. أنا.. أنا دافعت عن نفسي. أحتاج إلى طبيب».

زفرَ الضّابط. «لا إفادةَ تندُّمٍ إذًا؟»، قال وضغط كبسة قلمه.

حدّقت فيه، شفتاها منفرجتان قليلًا وجسدها يرتعد. أطرقت تنظر إلى فخذها حيث انطبع أثرُ يد مايرز بحوافّ أرجوانيّة واهية، ولجمت رغبةَ التّقيّؤ الّتي تلحّ عليها.

رفعت عينيها في اللّحظة المناسبة كي تراه ينظر إلى ساعته، وهذه الحركة الصّغيرة كانت كلّ ما تطلّبَه الأمر. مدّت يدها وانتزعت بطاقتها من بين أصابعه. «بلى يا حضرة الضّابط»، قالت بنبرةٍ مشدودةٍ

مثل أسلاك سياجِ سجن: «الآن إذ أفكّر في الأمر، أجد نفسي نادمة بالفعل على شيء واحد».

«أفضل بكثير»، قال: «ها قد بدأنا نتفاهم»، ضغط قلمه من جديد، «هاتي ما عندك».

«أقلام الرّصاص»، أجابت.

«أقلام الرّصاص»، كرّر وهو يدوّن الكلام.

رفعت رأسها لتلاقي عينيه، وخيطُ دمٍ يسيل من صدغها: «أنا نادمة لأنّني لا أحمل المزيد منها».

الاعتداء، أو «الحادث المؤسف» - كما سمّته لجنةُ القبول قبل أن تلغي لها طلب التحاقها ببرنامج الدّكتوراه رسميًّا، كان من جريرتها. لقد ضبطها د. مايرز وهي تغشّ؛ كانت تحاول إجراء تغيير في بروتوكول اختبارٍ كي تَحرف نتائجَ التّجربة - ها هو يملك الدّليل، ولمّا واجهها بالأمر رمت نفسها عليه تَعرض علاقةً جنسيّة. حين لم ينجح ذلك، نشب اشتباكٌ بدنيّ. وقبل أن يستوعب ما يحدث، وجد قلمَ رصاصٍ قد أُقحِمَ في أحشائه. إنّه محظوظ لكونه ما يزال حيًّا.

لا أحد تقريبًا صدّق هذه القصّة، فسمعة د. مايرز تسبقه. لكنّه في الوقت نفسه رجلٌ مهمّ، ويو سي إل إيه لا تنوي أن تخسر شخصًا في مكانته. استُبعدَت إليزابيث؛ لقد أتمَّت رسالة الماجستير خاصّتها، وكدماتُها ستُشفى، وسيكتب أحدهم توصيةً لها. هيّا.

وهكذا انتهى بها المطاف في معهد هاستينغز للبحوث. والآن، ها هي ذي، خارجَ ردهة الاستراحة في هاستينغز، تضغط ظهرَها على جدار، وتحسّ بالغثيان في معدتها.

رفعت عينيها فوجدت فنّيَّ المختبر يحدّق فيها. «هل أنتِ على ما يرام يا زوت؟»، سألها: «سحنتُك تبدو غريبة».

لم تُجِب.

«حقّكِ عليّ يا زوت»، اعترف: «ما كان ينبغي أن أُهوّلَ موضوع الدّوارق هكذا. أمّا بالنّسبة إليهم»، أمال رأسه باتّجاه الرّدهة - كان واضحًا أنّه سمع الحديث، «فهكذا يتكلّم الرّجال، تجاهليهم».

لكنّها لم تستطع أن تتجاهلهم. ففي الواقع، في اليوم التّالي مباشرةً، نقلَها رئيسُها، د. دوناتي - الّذي نعتها بالقحبة، للعمل على مشروع جديد. «سيكون أسهل بكثير»، قال: «أكثر ملاءمةً لمستواكِ الفكريّ».

«لماذا يا د. دوناتي؟»، سألته: «هل كان في عملي خطأ ما؟». لقد كانت هي قوّةَ الدّفعِ في كواليس مشروع مجموعتها البحثيّة الحاليّ، ونتيجةً لذلك كانوا على وشك أن ينشروا النّتائج. غير أنّ دوناتي اكتفى بالإشارة نحو الباب. وفي اليوم التّالي، كانت قد فُرِزَت للعمل على دراسةِ أحماضٍ أمينيّة متدنّيةِ المستوى.

وإذ لاحظ فنّيُّ المختبرِ تناميَ استيائها، سألها لماذا تريد أن تكون عالمِةً على كلّ حال.

«لستُ أريد أن أكون عالمة»، ردّت منفعلة: *«أنا عالمة!»*. وبينها وبين نفسها، لم تكن تعتزم أن تترك رجلًا بدينًا في يو سي إل إيه، أو رئيسها، أو حفنة من الزّملاء محدودي التّفكير يَحولون بينها وبين أهدافها. لقد سبق لها أن غلبت صعابًا، وسوف تصمد أمام ما ينتظرها.

غير أنّ الصّمود لا يسمّى صمودًا إن كان سهلًا. مع مرور الشّهور، امتُحنَت جلادتُها مرارًا وتكرارًا. الشّيء الوحيد الّذي كان يمنحها متنفَّسًا هو المسرح، وحتّى هذا كان يخيّبها أحيانًا.

كان مساءَ سبت، بعد حادث الدّوارق بنحو أسبوعين. كانت قد اشترت تذكرةً لـ*الميكادو*؛ أوبريت يُفترض أن تكون مضحكة. ورغم أنّها تتطلّع إلى مشاهدتها منذ وقت طويل، فقد أدركت مع تكشُّفِ خيوط القصّة أنّها لا تراها مضحكة على الإطلاق. كلمات الأغاني عنصريّة، والممثّلون بِيض، وكان واضحًا بسماجة أنّ الشّخصيّة الرّئيسيّة الأنثى ستُلام على آثام الجميع. الأمر برمّته ذكّرها بالوضع في العمل. قرّرَت أن تختصر خسائرها وتغادر في الاستراحة.

وشاءت الصّدفةُ أن يكون كالفن إيفانز هو الآخر هناك تلك اللّيلة، ولو كان بمقدوره أن ينتبه إلى المسرحيّة لربّما شاركَ إليزابيث جميع آرائها. بيد أنّه كان في موعدٍ أوّل مع سكرتيرة من قسم البيولوجيا، وكانت معدته مضطربة. أوّل الأمرين كان خطأً: فالسّكرتيرة عرضت عليه مرافقتها إلى الأوبريت فقط لأنّها اعتقدت أنّ شهرته تعني ثراءه، وهو -لأنّه تحسّس من عطرها الّذي تدمع له الأعين- رمشَ عدّة مرّات، ما ظنّت معناه «من دواعي سروري».

بدأ الغثيان خلال الفصل الأوّل من المسرحيّة، لكنّه -مع نهاية الفصل الثّاني- كان قد بلغ نقطةَ الغليان. «أنا آسف»، همس قائلًا: «لكن لا أشعر أنّني بخير. سوف أغادر».

«ماذا تقصد؟»، قالت بارتياب: «لا تبدو لي في حال سيّئة».

«أشعر باضطراب في معدتي»، أجاب متمتمًا.

«طيّب، لا تؤاخذني، لكنّني اشتريت هذا الفستان خصّيصًا من أجل اللّيلة»، قالت: «ولن أغادر قبل أن أكون ارتديته مدّةَ السّاعات الأربع بأكملها».

ألقى كالفن بعضَ النّقود من أجل سيّارة الأجرة نحو وجهِها المشدوه، ثمّ هُرع خارجًا إلى البَهو، يسير مباشرةً باتّجاه الحمّامات ويده على بطنه، محاذرًا أن يخضخض معدتَه الواقفة على شعرة.

الصّدفة شاءت كذلك أن تكون إليزابيث قد وصلت إلى البهو في اللّحظة نفسها، ومثل كالفن، هي أيضًا كان تسلك طريقها نحو الحمّامات. إلّا أنّها، حين رأت الطّابور الطّويل، دارت على عقبيها مُحبَطة، وبحركتها تلك ارتطمت مباشرةً بكالفن، الّذي تقيّأ عليها من فوره.

«يا ألله»، قال يلتقط أنفاسه بين انقباضتين: «يا يسوع».

ذاهلةً للوهلة الأولى، استجمعت إليزابيث زمامَ نفسها ووضعت يدًا مواسيةً على الجذع المحنيّ أمامَها - متجاهلةً الفوضى الّتي حلّت للتّوّ بفستانها. «هذا الرّجل متوعّك»، نادت إليزابيث نحو طابور الحمّامات، دون أن تدرك بعد من يكون: «هلّا استدعى أحدكم طبيبًا؟»

لكنّ أحدًا لم يفعل. كلّ المصطفّين أمام الحمّامات أخلوا المكان على الفور، في استجابةٍ للرّائحة الكريهة وأصوات التّوعّك العنيفة.

«يا إلهي»، أخذ كالفن يقول مرارًا وتكرارًا، ممسكًا ببطنه: *«يا إلهي»*.

«سأحضر لك منديلًا ورقيًّا»، قالت إليزابيث برفق: «وسيّارة أجرة». ثمّ أمعنت النّظرَ في وجهه، وقالت: «لحظة، ألا أعرفك؟»

بعد عشرين دقيقة، كانت تساعده على دخول منزله. «أعتقد أنّ بوسعنا حذفَ احتمالِ الهباء المتطاير من ثنائيّ فينيل أمين الزّرنيخ»، قالت: «بما أنّ أحدًا غيرك لم يتأثّر».

«حربٌ كيماويّة؟»، شهق ممسكًا بطنه، «آمل ذلك».

«ما هو على الأرجح سوى شيءٍ تناولتَه»، قالت: «تسمّمٌ غذائيّ».

«أوه»، تأوّه، «أنا خَجِلٌ للغاية. أعتذر بشدّة. فستانك. سأدفع أجرة التّنظيف».

«لا بأس»، قالت: «لم يتّسخ كثيرًا». ساعدته في الجلوس على كنبته، وهناك انهار على نفسه في كومة كبيرة.

- لستُ.. لست أتذكّر متى كانت آخر مرّة تقيّأت فيها، ناهيك بحدوث ذلك *على الملأ*.

- هذه الأمور تحدث.

«كنت في موعد»، قال: «أيمكنك أن تتخيّلي؟ تركتُها هناك».

«لا»، قالت، محاولةً أن تتذكّر آخر مرّة كان لديها فيها من تخرج معه في موعد غراميّ.

ظلّا صامتين بضع دقائق، ثمّ أغمض عينيه، فاعتبرت ذلك تلميحًا كي تغادر.

«مجدّدًا، أنا آسف للغاية»، همس قائلًا عندما سمعها تتّجه نحو الباب.

«أرجوك، لا داعي إلى الاعتذار. ما هي إلّا ردّة فعل، تنافر كيميائيّ. نحن عالِمان، ونتفهّم هذه الأمور».

«لا، لا»، قال بوهن يريد التّوضيح: «أتحدّث عن افتراضي أنّك سكرتيرة ذلك اليوم... عن طلبي منك أن تجعلي رئيسك يهاتفني»، كرّر: «أنا آسف حقًّا».

أمّا هذا فلم تملك ردًّا عليه.

«نحن لم نتعارف بشكل رسميّ»، قال: «أنا كالفن إيفانز».

«إليزابيث زوت»، أجابت وهي تجمع أغراضها.

«حسنًا يا إليزابيث زوت»، قال مجترِحًا ابتسامةً صغيرة: «لقد أنقذتِ حياةً».

لكن كان واضحًا أنّها لم تسمع.

«بحث الحمض النّوويّ منقوص الأكسجين خاصّتي كان يركّز على الأحماض عديدة الفوسفوريك بوصفها عواملَ تكثيف»، قالت لكالفن وهما يتناولان القهوة في الكافتيريا الأسبوعَ التّالي: «وكان يسير على ما يرام حتّى آخر لحظة. غير أنّني فُرِزتُ لمشروع آخر منذ الشّهر الماضي، دراسة أحماض أمينيّة».

- لكن لماذا؟

- دوناتي... ألا تعمل تحت إمرته أنت أيضًا؟ أيًّا يكن، لقد قرّر أنّ عملي ليس ضروريًّا.

- لكنّ البحث في عوامل التّكثيف شديدُ الأهمّيّة من أجل التّقدّم في فهم الحمض النّوويّ...

«أجل، أعرف، أنا أعرف»، وافقَته، «هذا هو الموضوع الّذي كنت أخطّط لاستقصائه في رسالة الدّكتوراه، رغم أنّ ما يثير اهتمامي بحقٍّ هو النّشوء اللّاحيويّ».

- النّشوء اللّاحيويّ؟ النّظريّة الّتي تقول بنشوء الحياة من أشكال غير حيّة شديدة البساطة؟ هذا ساحر، لكنّك لا تحملين دكتوراه.

- كلّا.

- لكنّ النّشوء اللّاحيويّ موضوعٌ لحمَلةِ الدّكتوراه.

- لديّ ماجستير في الكيمياء، من يو سي إل إيه.

«الأكاديميا»، أومى مُبديًا التّعاطف، «باتَت أمرًا قديمًا، فأردتِ الانسحاب».

«ليس تمامًا».

تلَت ذلك لحظةٌ طويلة من الصّمت الباعث على الضّيق.

«انظر»، بدأت من جديد، ساحبةً نفسًا عميقًا: «فرضيّتي عن الأحماض عديدة الفوسفوريك هي كالتّالي».

وقبل أن تنتبه، كانت قد تكلّمت معه لأكثر من ساعة، وهو يومئ ويسجّل الملاحظات، مقاطعًا إيّاها من حين إلى آخر بأسئلة مفصّلة، تجيب عنها بلا مشقّة.

«كنت لأحرزَ تقدّمًا أكبر»، قالت: «لكن كما ذكرت لك، لقد «أعيدَ فرزي». وقبل ذلك، كان الحصول على أبسط التّجهيزات من أجل متابعة عملي الحقيقيّ أمرًا شبهَ مستحيل». لهذا السّبب، تابعت الشّرح، ضاقت بها السّبل فاضطرّت أن تسرق معدّات وتجهيزات من مختبرات أخرى.

«لكن لماذا كان الحصول على التّجهيزات بهذه الصّعوبة؟»، سألها كالفن، «لدى هاستينغز الكثير من المال».

نظرت إليزابيث إليه كما لو كان قد سأل لتوّه كيف يمكن، رغم كلّ حقول الأرزّ هذه، أن يوجَد أطفال يتضوّرون جوعًا في الصّين. «التّمييز الجنسيّ»، أجابته، وأخذت قلم الرّصاص رقم اثنين، الّذي تضعه طوال الوقت إمّا خلف أذنها وإمّا في شعرها، ونقرت به على الطّاولة مشدّدةً على كلامها، «إضافةً إلى السّياسة، المحسوبيّات، التّحيّز، والإجحاف العامّ».

أخذ يمضغ شفتيه.

«لكنِ التّمييز الجنسيّ في الدّرجة الأولى»، قالت.

«أيّ تمييز جنسيّ؟»، سأل ببراءة: «ما الّذي قد يجعلنا لا نريد نساءً في ميدان العلوم؟ هذا ليس منطقيًّا، نحن بحاجة إلى كلّ العلماء الّذين نستطيع أن نحظى بهم».

نظرت إليزابيث إليه، مشدوهة. كانت قد شكّلت انطباعًا أنّ كالفن إيفانز رجل ذكيّ، بيد أنّها الآن أدركت أنّه من أولئك النّاس الّذين لا يكونون أذكياءَ سوى في نطاقٍ واحد ضيّق. راحت تتفحّصه عن كثب أكبر، كأنّها تقيّم ما قد يلزم لجعله يستوعب. جمعت شعرها بكلتا يديها، ولفّته مرّتين قبل أن تعقده أعلى رأسها، ثمّ ثبّتت العقدةَ بقلمها الرّصاص. «عندما كنتَ في كامبريدج»، قالت بأناة، مُرجعةً يديها إلى الطّاولة: «كم عدد العالمات النّساء اللّاتي كنت تعرفهنّ؟»

«ولا واحدة. لكنّ كلّيّتي كانت مخصّصة للذّكور».

«أوه، فهمت»، قالت: «لكن بالتّأكيد كانت النّساء يحظين بالفرص نفسها في أماكن أخرى، صحيح؟ إذًا كم عدد العالمات النّساء اللّاتي تعرفهنّ؟ إيّاك أن تقول "مدام كوري"».

نظر إليها من جديد، مستشعرًا متاعبَ تلوح في الأفق.

«المشكلة يا كالفن»، قالت بنبرة جازمة: «هي أنّ نصف عدد السّكّان يضيع هباءً. الأمر لا يقتصر على كوني لا أستطيع الحصول على التّجهيزات الّتي أحتاج إليها كي أتمّ عملي، بل القصّة أنّ النّساء لا يستطعن تحصيل التّعليم الّذي يحتجن إليه كي يفعلن ما يُفترض بهنّ أن يفعلنه. وحتّى لو ارتدنَ الكلّيّات، فهنّ لن يرتدن في حياتهنّ مكانًا مثل كامبريدج. ما يعني أنّهنّ لن ينلن الفرص نفسها ولا سوف يُمنحنَ الاحترامَ نفسه، سيبدأن من القاع ويَبقَين هناك. ولا تجعلني حتّى أبدأ الكلامَ عن الأجور. وكلّ هذا لأنّهن لم يرتدنَ جامعةً ما كانت لتقبلهنّ بين طلّابها في المقام الأوّل».

«أنت تقولين»، قال بروِيّة: «إنّ عددًا أكبر من النّساء يُرِدنَ فعلًا أن يَدخلن ميدانَ العلوم».

أشرعَت عينيها. «*طبعًا نريد ذلك*. ميدان العلوم، ميدان الطّبّ، ميدان الأعمال، ميدان الموسيقى، ميدان الرّياضيّات. كلّ الميادين الّتي تخطر ببالك». ثمّ سكتت قليلًا، لأنّ حقيقة الأمر هي أنّها لا تعرف سوى حفنة من النّساء اللّاتي يرغبن أن يعملنَ في العلوم أو حتّى في أيّ ميدان آخر. معظم النّساء اللّاتي قابلتهنّ في الجامعة زَعمنَ أنّ الشّهادة الوحيدة الّتي جئن لنيلها هي شهادة الزّواج. كان أمرًا محبِطًا، كأنّهنّ جميعهنّ قد شربن شيئًا جعلهنّ يفقدن رشدهنّ مؤقّتًا.

«لكن عوضًا عن ذلك»، تابعت: «النّساء في المنازل، يُنجبن الأطفال وينظّفن السّجّاد. إنّها عبوديّة مشرعَنة. حتّى النّساء اللّاتي يرغبن أن يكنّ ربّات منزل يجدن عملهنّ موضعَ إساءة فهم تامّة، إذ يبدو أنّ الرّجال يعتقدون أنّ أكبر قرارٍ تتّخذه أمٌّ لديها خمسةُ أولاد في يومها هو لون طلاء أظافرها».

تخيّل كالفن خمسةَ أولاد فارتعد.

«بشأن عملك»، قال محاولًا إعادة توجيه مسار المعركة: «أظنّ أنّ بوسعي إصلاح الأمر».

«لا أريد منك أن تصلح شيئًا»، قالت: «أنا قادرة تمامًا على إصلاح وضعي بنفسي».

- كلّا، غير صحيح.

- المعذرة؟

- لستِ قادرةً على ذلك، لأنّ العالَم لا يسير بهذه الطّريقة. الحياة ليست عادلة.

أثار هذا غيظَها، أن يحدّثها هو عن غياب العدل. من أين له أن يعرف أبسطَ الأمور عن ذلك؟ همّت تقول شيئًا، لكنّه قاطعها.

«انظري»، قال: «الحياة لم تكن عادلةً يومًا، ومع هذا فأنت لا تكفّين عن التّصرّف كما لو أنّها كذلك، كما لو أنّ كلّ شيءٍ سيتّخذ شكلَه الصّحيح ما إن تُصوِّبي بضعة أخطاء. وهذا لن يحدث. تريدين نصيحتي؟». وقبل أن يتسنّى لها أن تقول لا، أضاف: «لا تتحايلي على النّظام، بل تفوّقي عليه في الذّكاء».

جلست صامتة، تقلّب كلماته. كان الكلام منطقيًّا على نحو مزعج ومجحف للغاية.

«والآن إليك مصادفة محظوظة: أنا أحاول أن أعيد النّظر في موضوع الأحماض عديدة الفوسفوريك منذ عام، ولم أصل إلى نتيجة. بوسع عملك البحثيّ أن يغيّر هذا. إن أخبرتُ دوناتي أنّني أحتاج أن أستند إلى نتائجك، ستعودين إلى مشروعك بدءًا من الغد. وحتّى إن لم أكن بحاجة إلى عملك -رغم أنّني أحتاج إليه- فأنا مدين لك. مرّةً بسبب موضوع السّكرتيرة، وأخرى بسبب الاستفراغ».

ظلّت إليزابيث على صمتها. ورغم أنّ هذا يخالف ما تؤمن به، فقد شعرت أنّها تلين للفكرة. هي لا تريد ذلك: لا تروق لها فكرة الحاجة إلى التّفوّق على الأنظمة في الذّكاء. لمَ لا تكون الأنظمة ذكيّةً من الأساس؟ كما أنّها لا تحبّ أن يُسدى إليها معروفٌ بتاتًا، فالمعروف ينطوي دائمًا على شيء من الغشّ. ومع ذلك فهي تملك أهدافًا. وبحقّ

اللّعنة، لماذا ينبغي بها أن تكتفي بالجلوس مكتوفة اليدين؟ الجلوس لم يصل بأحد يومًا إلى أيّ مكان.

«انظر»، قالت بنبرة موجَّهة، وهي تردّ عن وجهها خصلةً منفلتة: «آمل ألّا تظنّني أتسرّع في الاستنتاج، لكنّني واجهتُ متاعبَ في الماضي وأريد أن أكون واضحة: أنا لن أواعدك. هذا عمل، ولا شيء أكثر. لستُ مهتمّة بإقامة علاقة من أيّ نوع».

«ولا أنا»، أصرّ: «هذا عمل، لا أكثر ولا أقلّ».

«لا أكثر ولا أقلّ».

ثمّ حملا الكوبين وصحنيهما وذهبا في اتّجاهين متعاكسين، كلٌّ يتمنّى من قلبه أنّ الآخر لم يكن يعني ما قاله.

الفصل 4

مدخل إلى الكيمياء

بعد نحوِ ثلاثة أسابيع، كان كالفن وإليزابيث يسيران إلى باحة السّيّارات، وارتفع صوتهما.

«فكرتُك مغلوطة تمامًا»، قالت: «أنت تغفل عن أساسيّات طبيعة اصطناع البروتين».

«على العكس»، قال وهو يفكّر أنّ أحدًا لم يغلّط فكرةً من أفكاره يومًا، وها قد حدث ذلك الآن ولم يَرُق له كثيرًا: «لا أصدّق أنّك تتجاهلين أمرَ البنية الجزيئـ...»

-لستُ أتجاهـ...

- أنتِ تنسين الرّابطتين التسـ...

- إنّها ثلاث روابط تساهميّة...

- أجل، لكن فقط عندما...

«اسمع»، قاطعته بحدّة إذ وقفا أمام سيّارتها: «هذه مشكلة».

«ما هي المشكلة؟»

«أنت»، قالت بحزم، تشير إليه بكلتا يديها: «أنت المشكلة».

«لأنّنا لا نتّفق؟»

«ليست هذه المشكلة»، أجابت.

«إذًا *ما* هي؟»

«إنّها...»، لوّحت بيدها تلويحةً مبهمة، ثمّ أشاحت بنظرها إلى البعيد.

تنهّد كالفن، ووضع يده على سطح سيّارتها البليموث الزّرقاء القديمة منتظرًا التّقريعَ الّذي يعلم أنّه قادم.

خلال الأسابيع القليلة الأخيرة، التقى هو وإليزابيث ستَّ مرّات - اثنتين على الغداء وأربعًا لشرب القهوة، وكان كلُّ لقاءٍ قد مثّلَ أوجَ نهارِه وحضيضَه في آنٍ معًا. الأوج لأنّها أكثر امرأةٍ قابلها في حياته ذكاءً وبصيرةً وسحرًا، وأجل، أكثرهنّ جاذبيّةً على نحوٍ يستوجب الفزع. أمّا الحضيض، فلأنّها كانت تبدو كلّ مرّة في عجلة من أمرها كي تغادر، وكلّما غادرت يقضي بقيّةَ نهاره يائسًا ومُحبَطًا.

«المعلومات الّتي تمّ التّوصّل إليها مؤخّرًا بخصوص دود القزّ»، قالت: «في آخر عدد من *ساينس جورنال*. هذا ما كنت أقصده حين قلت "الجزء المعقَّد"».

أومى برأسه كأنّه فهم، بيد أنّه لم يكن يفهم، وليس في ما يتعلّق بدود القزّ فقط. لقد كان يبذل جهدًا هائلًا -كلّما التقيا- كي يثبت أنّه لا يملك أدنى مصلحة معها في ما يتجاوز النّطاق المهنيّ. لم يعرض أن يدفع ثمنَ قهوتها، لم يتطوّع لحمل صينيّة غدائها، وحتّى لم يفتح لها الباب - ولا تلك المرّة حين كانت الكتب متراكمة فوق ذراعيها إلى درجةٍ لم يستطع معها أن يرى رأسها. ولم يُغشَ عليه حين ارتطمت به

خطأً وهي ترجع عن المغسلة فالتقط أنفُه نفحةً من شعرها. لم يكن يعرف أصلًا أنّ بوسع الشّعر أن يملك مثل تلك الرّائحة - كأنّه غُسِلَ في حوضِ أزهار. أتُراها لن تُظهر له شيئًا من التّقدير على سلوكه المهنيّ المحض هذا؟ الأمر مثير للغيظ برمّته.

«الجزء المتعلّق بالبومبيكول»، قالت: «لدى دود القزّ».

«بالطّبع»، أجاب بنبرة فاترة، يفكّر كم كان غبيًّا حين التقاها للمرّة الأولى. كيف ظنّها سكرتيرة، وطردها من مختبره. ثمّ ماذا عمّا حدث لاحقًا؟ لقد تقيّأ عليها. قالت إنّه ليس أمرًا جللًا، لكن هل ارتدت ذلك الفستان الأصفر مرّةً أخرى على الإطلاق؟ كلّا. رغم قولها إنّها لا تحمل الضّغائن، كان واضحًا له أنّها تفعل. وبصفته بطلًا في حمل الضّغائن عن نفسه، فهو يعرف كيف تسير هذه الأمور.

«إنّه مرسالٌ كيميائيّ»، قالت: «عند إناث دود القزّ».

«دود»، قال متهكّمًا: «عظيم».

تراجعت خطوةً إلى الخلف، إذ بوغتت من استخفافه. «لستَ مهتمًّا»، قالت وقد احمرّت أطراف أذنيها.

«بتاتًا».

سحبت إليزابيث نفسًا قصيرًا، ثمّ تشاغلت بالبحث عن مفاتيحها في حقيبتها.

يا لها من خيبة هائلة. ها هي تلتقي أخيرًا بشخص تستطيع أن تتحدّث إليه بالفعل، شخصٍ تراه متناهيًا في الذّكاء والبصيرة

والسّحر (وجذّابًا على نحوٍ يستوجب الفزع حين يبتسم)، وإذا بهِ لا يبدي اهتمامًا. على الإطلاق. لقد التقيا ستّ مرّات في الأسابيع القليلة الأخيرة، ولم تسمح للّقاء أن يخرج عن إطار العمل في كلّ مرّة، ولا هو، غير أنّ التزامَه شارفَ على بلوغ حدّ الوقاحة. ذلك اليوم حين لم تستطع حتّى أن ترى الباب لأنّ الكتب كانت متراكمة فوق ذراعيها؟ لم يتعب نفسَه ويساعدها. ومع هذا، كلّما كانا معًا، تشعر بهذه الرّغبة الملحّة الّتي لا تُقاوَم بتقبيله. وهذا ليس من شيمها *بالمرّة*. ورغم ذلك، بعد كلّ لقاء -تنهيه بأسرع ما استطاعت لخوفها من أن تُقبّله- كانت تقضي بقيّة نهارها يائسةً ومُحبَطة.

«عليّ أن أذهب»، قالت.

«مثل كلّ يوم»، ردّ باقتضاب. لكنّ أيًّا منهما لم يبرح مكانَه، بل أدار كلٌّ رأسَه في الاتّجاه المعاكس كأنّه يبحث عن الشّخص الّذي كان يهدف أساسًا إلى مقابلته في باحة السّيّارات، رغم أنّ السّاعة تقارب السّابعة من ليلة جمعة وليس في البّاحة الجنوبيّة الآن سوى سيّارتين: سيّارته وسيّارتها.

«مخطّطات كبيرة لعطلة الأسبوع؟»، غامرَ أخيرًا.

«أجل»، كذبت.

«استمتعي»، ردّ بانفعال، ثمّ استدار وسار مبتعدًا.

تابعته بنظرها للحظة، ثمّ دخلت إلى السّيّارة وأغمضت عينيها. كالفن ليس غبيًّا. هو يقرأ *ساينس جورنال*، ولا بدّ أنّه عرف ما كانت تلمّح إليه حين ذكرت البومبيكول؛ الفرمون الّذي تفرزه إناثُ دود

القزّ لجذب الشّركاء من الذّكور. دود، قال بطريقة تكاد تكون وحشيّة. يا له من وغد. وكم كانت هي حمقاء، إذ تطرّقت إلى موضوع الحبّ للمرّة الأولى بهذه السّماجة في باحة سيّارات، فقط كي تُقابَل بالصّدود.

لستَ مهتمًّا، قالت له.

بتاتًا، أجاب.

فتحت عينيها وأقحمت المفتاح في فتحة التّشغيل. هو غالبًا يفترض أنّها تسعى خلف المزيد من التّجهيزات المخبريّة لا أكثر على كلّ حال. فبالنّسبة إلى رجل، ما الّذي قد يجعل امرأةً تأتي على ذكر البومبيكول مساءَ جمعةٍ في باحة سيّارات خاوية فيما يهبّ النّسيم النّاعم من الغرب حاملًا رائحةَ الشّامبو باهظِ الثّمن خاصّتها مباشرةً إلى داخل تجويفه الأنفيّ إذا لم يكن ذلك جزءًا من مخطّطٍ للحصول على المزيد من الدّوارق؟ لا يخطر ببالها أيُّ سبب آخر. باستثناء السّبب الحقيقيّ: أنّها بدأت تقع في غرامه.

حينئذٍ تمامًا سمعت طرقًا حادًّا على يسارها، فرفعت عينيها لتجد كالفن يشير إليها كي تُنزل زجاج نافذتِها.

«لستُ أسعى خلف تجهيزاتك المخبريّة اللّعينة!»، صاحت به حالما أنزلت الزّجاج الّذي يفصل بينهما.

«وأنا لستُ المشكلة»، ردّ بانفعال وقد انحنى وصار وجهُه أمام وجهَها تمامًا.

نظرت إليزابيث إليه تستشيط غضبًا. *كيف يجرؤ؟*

نظر كالفن إليها. *كيف تجرؤ؟*

ثمّ غلبَها ذلك الشّعور مجدّدًا، نفسه الّذي يعتريها كلّ مرّة تكون فيها معه، لكنّها هذه المرّة تصرّفت حيالَه، إذ مدّت يديها كلتيهما وجذبت وجهَه نحوها، فعقدَت قبلتُهما الأولى بينهما رابطةً دائمةً حتّى الكيمياء لا تستطيع تفسيرها.

الفصل 5

قِيَمٌ عائليّة

افترض زملاءُ إليزابيث في المختبر أنّها تواعد كالفن إيفانز لسببٍ واحد فقط: شهرته. فبوجود كالفن في جيبها الصّغير، لن يستطيع أحد أن يَقربها. بيد أنّ السّبب كان أبسط بكثير: «لأنّني أحبّه»، كانت لتقول لو أنّ أحدًا سألها، لكن لم يسأل أحد.

وكان الأمر نفسه بالنّسبة إليه. لو أنّ أحدًا سأل كالفن، لقال إنّ إليزابيث زوت أكثر شيء يعزّه في العالم، وليس لكونها جميلة، ولا لكونها ذكيّة، بل لأنّها تحبّه وهو يحبّها بنوعٍ محدّدٍ من الامتلاء، من الاقتناع، من الثّقة التّامّة، يؤكّد إخلاصَ واحدهما للآخر. كانا أكثر من صديقين، أكثر من نَجِيَّين، أكثر من حليفين، وأكثر من حبيبين. لو اعتبرنا العلاقات أحجيّةَ بازل، فعلاقتهما محلولة مذ بدأت - كأنّ شخصًا هزّ الصّندوق وأفرغه ثمّ تفرَّج من عَلٍ وشاهدَ القطعَ تسقط في أماكنها الصّحيحة بالضّبط، ليتشابك بعضها ببعضٍ تشابكًا وثيقًا، فتُشكّل صورةً تبدو منطقيّةً تمامًا. كانا يثيران غيظ بقيّة الأزواج.

في اللّيل، بعد ممارسة الحبّ، يرقدان على ظهريهما في الوضعيّة نفسها دائمًا؛ ساقه تتّكئ على ساقها، ذراعُها فوق فخذه، ورأسه مائل نحو رأسها، ويتحدّثان: أحيانًا عن التّحدّيات الّتي تعترضهما، وأحيانًا

أخرى عن مستقبلهما، ودائمًا عن عملهما. ورغم الوهن التّالي للجماع، كثيرًا ما تستمرّ أحاديثهما إلى ساعات الصّباح الأولى، وحين تكون بشأن نتيجةِ بحثٍ أو تركيبة معيّنة، ينتهي المطاف كلّ مرّة بأن ينهض أحدهما أخيرًا ويسجّل بعض الملاحظات. ورغم أنّ حميميّة بعض الأزواج تميل إلى التأثير سلبًا في عمل الفردين، كان الأمر على العكس تمامًا بالنّسبة إلى إليزابيث وكالفن. كانا يعملان حتّى وهما لا يعملان، واحدُهما يحفّز إبداعَ الآخر وابتكارَه ويُمدّه بوجهة نظر جديدة. ومجتمع العلماء الّذي سينظر في ما بعد إلى إنتاجيّتهما متعجّبًا، كان سيتعجّب أكثر على الأغلب لو أدرك أنّ معظمَ الإنتاج يُنجَز وهما عاريان.

«أما زلتِ مستيقظة؟»، همس كالفن متردّدًا ذات ليلة وهما راقدان في السّرير: «لأنّني أردتُ أن أشاورَكِ في موضوع، بشأن عيد الشّكر».

«ماذا عنه؟»

«لقد اقترب موعده، وسألتُ نفسي إن كنتِ تنوين الذّهاب إلى بيت أهلك، وإن كان ذلك، فهل تخطّطين لدعوتي إلى مرافقتك و»، سكت قليلًا، ثمّ لفظ ما تبقّى دفعةً واحدة: «التّعرّف على عائلتك».

«ماذا؟»، ردّت إليزابيث همسًا: «*بيت أهلي*؟ لا. لستُ ذاهبةً إلى بيت أهلي. قلتُ لنفسي لعلّنا نحتفل بعيد الشّكر هنا، معًا. إلّا إذا... حسنًا، أكنتَ أنت تخطّط للذّهاب إلى بيت أهلك؟»

«على الإطلاق»، قال.

في الأشهر القليلة الماضية، تحدّث كالفن وإليزابيث في كلّ شيء تقريبًا - الكتب والمسيرة المهنيّة والمعتقدات والطّموحات والأفلام والسّياسة، وحتّى مسبّبات التّحسُّس. كان ثمّة فقط استثناء واحد جليّ: العائلة. لم يكن الأمر متعمّدًا - ليس في البداية على كلّ حال، لكن بعد مرور شهورٍ دون فتح هذه السّيرة، بدا واضحًا أنّها قد لا تُفتح أبدًا.

ليس القصد أنّ واحدهما لا يبالي بمعرفة جذور الآخر. فمن ذا الّذي لا يرغب بالغوص في أعماق طفولة شريكه ومقابلة جميع المشتبَهين المعهودين - الوالد الصّارم، الشّقيق التّنافسيّ، الخالة المجنونة؟ ليس هما بالتّأكيد.

وهكذا صار موضوع العائلة أشبه بغرفة معزولة بشريطٍ ضمن جولة في منزل تاريخيّ؛ يظلّ من الممكن للمرء أن يمدّ رأسه ليأخذ فكرة ضبابيّة عن أنّ كالفن نشأ في مكان ما (ماساتشوستس؟) وأنّ لإليزابيث إخوة (أم أخوات؟)، لكن لن تسنح له الفرصة كي يدخل ويسترق نظرةً إلى خزانة الأدوية. إلى أن فتح كالفن سيرةَ عيد الشّكر.

«لا أصدّق أنّني أسأل عن هذا»، تجاسر أخيرًا على قطع الصّمت الكثيف، «لكنّني انتبهتُ أنّني لا أعرف من أين أنتِ».

«أوه»، قالت إليزابيث: «حسنًا. من أوريغون، في الأغلب. أنت؟»

«من آيوا».

«حقًّا؟»، سألته، «كنت أظنّك من بوسطن».

«لا»، قال بسرعة: «هل من إخوة؟ أخوات؟»

«أخ»، قالت: «أنت؟»

«ليس لديّ»، قال بنبرة باردة.

ظلّت راقدةً لا تتحرّك، تحاول فهمَ نبرته. «هل كنتَ تشعر بالوحدة؟»، سألته.

«أجل»، أجاب بفتور.

«أنا آسفة»، قالت وأخذت يده تحت الملاءات: «ألم يُرِد والداك طفلًا آخر؟»

«يصعب أن أحدّد»، قال بصوتٍ حادّ الطّبقة: «ليس هذا سؤالًا من النّوع الّذي يطرحه الأطفال على ذويهم، صحيح؟ لكن على الأغلب. بالتّأكيد».

- ثمّ...

- ماتا عندما كنت في الخامسة. أمّي كانت حبلى في شهرها الثّامن حينها.

«يا إلهي. أنا آسفة للغاية يا كالفن»، قالت إليزابيث وهبّت جالسة: «ما الّذي حدث؟»

«قطار»، أجاب بنبرة تقريريّة: «دهسَهما».

«كالفن، أنا آسفة جدًّا. لم أكن أملك أدنى فكرة».

«لا عليكِ»، قال: «هذا حدث منذ زمن طويل، أنا لا أتذكّرهما حقًّا».

«لكن...»

«دورك»، قال على نحو مبتور.

- كلّا، مهلًا، مهلًا يا كالفن، من الّذي ربّاك؟

- عمّتي، لكنّها ماتت هي الأخرى.

- ماذا؟ كيف؟

- كنّا في السّيّارة وأصيبت بنوبة قلبيّة، نطّت السّيّارةُ عن حافة الطّريق واصطدمت بشجرة.

- ربّاه.

- اعتبريه من تقاليد العائلة، الموت في حوادث سير.

- هذا ليس مضحكًا.

- لم أتقصّد أن أكون مضحكًا.

«كم كان عمرك؟»، تابعت إليزابيث بإلحاح.

«ستّة».

زمّت أجفانَها. «ثمّ وُضِعتَ في...»، ذوى صوتُها.

«دارِ بَنين كاثوليكيّة».

«ثمّ...»، لقّنَته، كارهةً نفسها على فعل ذلك. «كيف كان الوضع؟»

سكت قليلًا كأنّه يحاول إيجاد جواب صادق لهذا السّؤال ذي البساطة الفاحشة. «عصيبًا»، قال أخيرًا، بصوت منخفض إلى درجة بالكاد سمعته معها.

على بعد ربع ميل، صفرَ قطارٌ فانكمشت إليزابيث. كم ليلة رقد كالفن هنا وسمع ذلك الصّفير ففكّر في والديه الميتين وذاك الّذي كاد

يكون شقيقه دون أن ينبس ببنت شفة؟ إلّا إذا -ربّما- لم يكن يفكّر فيهم قطّ؛ لقد قال إنّه بالكاد يتذكّرهما. لكن من تُراه يتذكّر؟ وكيف *كان* أولئك الّذين يتذكّرهم؟ وحين قال «عصيبًا»، ما الّذي كان يعنيه بالضّبط؟ أرادت أن تسأله، بيد أنّ نبرته -القاتمة الخفيضة الغريبة- حذّرتها من الخوض أبعد. وماذا عن حياته اللّاحقة؟ كيف استطاع أصلًا أن يتعلّم التّجديف في آيوا، ناهيك بشقّ طريقه إلى كامبريدج كي يجدّف هناك؟ والكلّيّة؟ من دفع تكاليفها؟ وتعليمه المبكّر؟ لا يبدو أنّ بوسع دار بنين في آيوا تقديم الكثير في ما يخصّ التّعليم. أن يكون المرء ألمعيًّا شيء، لكن أن يكون ألمعيًّا في غياب الفرص فهذا شيء آخر تمامًا. لو أنّ موتسارت وُلد لدى عائلة فقيرة في بومباي عوضًا عن عائلة رفيعة في سالزبورغ، أتُراه كان ليؤلّف السّيمفونيّة رقم 36 على سلّم دو؟ مُحال. إذًا كيف بدأ كالفن من الصّفر ليصير واحدًا من أكثر العلماء حظوةً في العالم؟

«كنتِ تقولين»، قال بصوتٍ متخشّبٍ وهو يشدّها كي ترقد بجانبه من جديد: «أوريغون».

«أجل»، أجابت، متهيّبةً من سرد قصّتها.

«أتزورينها كثيرًا؟»، سألها.

«لا أزورها أبدًا».

«لكن *لماذا*؟»، كاد كالفن يصيح سؤالَه صياحًا، مصدومًا من تبديدها لعائلةٍ صالحةٍ تمامًا، عائلة ما تزال حيّةً على الأقلّ.

«أسباب دينيّة».

سكتَ كالفن، إذ شعر كأنّ شيئًا فاته.

«أبي كان... خبيرًا دينيًّا من نوع ما»، فسّرت له.

- كان ماذا؟

- يمكنك أن تسمّي الأمر إتجارًا بالله.

- لست أفهم...

«شخص يَعِظُ منذرًا بالويلات كي يجني المال. كما تعلم»، قالت والخجل يملأ صوتها: «من أولئك الّذين يجعجعون عن اقتراب النّهاية لكن لديهم حلّ -معموديّة مخصّصة أو تميمة باهظة الثّمن على سبيل المثال- يؤجّل يومَ القيامة قليلًا».

«أيكسب النّاسُ عيشًا من هذا؟»

أدارت رأسها نحوه: «أوه، بالطّبع».

ظلّ صامتًا، يحاول أن يتخيّل ذلك.

«على كلّ حال»، تابعت: «كنّا مضطرّين إلى الانتقال بكثرة نتيجةً لذلك، فليس بوسعك أن تظلّ تخبر الجميع أنّ النّهاية وشيكة إن كانت النّهاية لا تجيء أبدًا».

- ماذا عن والدتك؟

- هي الّتي كانت تُعدّ التّمائم.

- كلّا، أقصد هل كانت متديّنةً جدًّا هي الأخرى؟

تردّدت إليزابيث: «فقط إن كنتَ تعتبر الجشعَ دينًا. هذا ميدان فيه منافسة شديدة يا كالفن، فهو يُدرّ ربحًا هائلًا. غير أنّ أبي كان ذا موهبة فذّة، والكاديلاك الجديدة الّتي يشتريها كلّ عام خيرُ برهان. إن

تحرّينا الدّقّة، أظنّ أنّ موهبة أبي في الاحتراق العفويّ هي ما جعلته يبرز بين نظرائه».

– لحظة، *ماذا؟*

– من الصّعب حقًّا أن تتجاهل شخصًا يصيح «أعطني إشارة» ثمّ يندلع اللّهب في مكان ما.

– مهلًا، أتقولين...

«كالفن»، قالت مرتدّةً إلى نبرتها العلميّة القياسيّة: «أتعلم أنّ الفستق الحلبيّ سريعُ الاشتعال بطبيعته؟ هذا ناتجٌ عن محتواه الدّهنيّ العالي. الفستق الحلبيّ يُخزَّن عادةً في شروط صارمة من حيث الرّطوبة والحرارة والضّغط، لكن ما إن يطرأ تغيير على هذه الظّروف حتّى تُنتج الإنزيماتُ المحطِّمة للدّهن الموجودة في الفستق أحماضًا دهنيّةً حرّةً تتفكّك حين يمتصّ الفستقُ الأكسجين ويطرح ثنائيَّ أكسيد الكربون. والنّتيجة؟ النّار. أنا أُقرُّ لأبي بأمرين اثنين: أنّ بوسعه استحضار حريقٍ عفويٍّ كلّما احتاج إلى إشارة ملائمة من الله»، هزّت رأسها، «ربّاه، كم تكلّمنا عن الفستق الحلبيّ».

«والأمر الثّاني؟»، سألها مذهولًا.

«أنّه كان الشّخصَ الّذي عرّفني على الكيمياء»، تنهّدت، «يجدر بي أن أشكره على هذا كما أظنّ»، قالت بمرارة: «لكنّني لا أفعل».

أدار كالفن رأسه إلى اليسار، محاولًا أن يخفي خيبتَه. في تلك اللّحظة، أدرك كم كان يرغب في لقاء عائلتها، كم تمنّى أن يجلس إلى مائدة عيد شكرٍ محاطًا بأشخاص سيصبحون *له* أخيرًا كما صار هو لها.

«أين أخوكِ؟»، سألها.

«ميت»، أجابت بصوت قاسٍ: «انتحار».

«انتحار؟»، فرغ صدرُه من الهواء: *«كيف؟»*

– شنق نفسَه.

– لكن... لكن *لماذا*؟

– لأنّ أبي أخبره أنّ الله يكرهه.

– لكن... لكن...

– كما قلتُ لك، أبي كان يمتلك قدرةً كبيرةً على الإقناع. إن قال إنّ الله يريد شيئًا، فالله يحصل عليه عادةً. علمًا أنّ الله هو أبي.

توتّرت معدةُ كالفن.

مكتبة
t.me/soramnqraa

«هل... هل كنتما مقرَّبَين؟»

أخذت نفسًا عميقًا: «أجل».

«لكنّني لا أفهم»، ألحّ: «لماذا قد يفعل والدك شيئًا كهذا؟». حوّل انتباهَه نحو السّقف المظلم. هو لا يملك خبرةً تُذكَر مع العائلات، لكنّه لطالما افترض أنّ الانتماء إلى العائلة أمرٌ مهمّ: متطلَّبٌ أساسيٌّ للاستقرار، يعتمد المرء عليه كي يجتاز الشّدائد. لم يخطر له يومًا أنّ العائلة قد تكون هي نفسها هذه الشّدائد.

«جون، أخي، كان مثليًّا»، قالت إليزابيث.

«أوه»، قال كأنّه فهم لتوّه: «أنا آسف».

رفعت جذعها متّكئةً على مرفقها وحدّقت إليه في الظّلام. «ما الّذي يُفترض *بهذا* أن يعنيه؟»، ردّت منفعلة.

«حسنًا، لكن... كيف عرفتِ؟ من المؤكّد أنّه لم يخبرك بنفسه».

«أنا عالمة يا كالفن، أتتذكّر؟ كنت *أعرف*. على كلّ حال، ما من شيء خاطئ في المثليّة؛ إنّها أمر طبيعيّ تمامًا، من الحقائق البسيطة في بيولوجيّةِ البشر. ليست لديّ أدنى فكرة لماذا لا يعرف النّاسُ هذا. أما عاد أحدٌ يقرأ مارغريت ميد[1]؟ الفكرة أنّني كنت أعرف أنّ جون مثليّ، وهو كان يعرف أنّني أعرف. كنّا نتحدّث في الأمر. هو لم يختَرَ ذلك؛ لقد كان جزءًا من هويّته ببساطة. وأفضل ما في الأمر»، قالت بحسرة: «أنّه كان هو الآخر يعلم بشأني».

«يعلم أنّكِ...»

«*عالمة!*»، أجابت إليزابيث بانفعال. «انظر، أتفهّم أنّ هذا أمر قد يصعب عليك أن تستوعبه نظرًا إلى ظروفك الخاصّة الرّهيبة، لكن رغم أنّنا قد نولد لعائلات، فهذا لا يعني بالضّرورة أنّنا ننتمي إليها».

- لكنّنا ننتمي...

- لا. عليك أن تفهم هذا يا كالفن. الأشخاص الّذين مثل أبي يبشّرون بالحبّ في مواعظهم لكنّ الكراهية تملؤهم، لا يمكنهم التّسامح مع أيّ شخص يهدّد معتقداتهم الضّيّقة. يومَ ضبطَت أمّي أخي ممسكًا يدَ فتًى آخر، انتهى كلّ شيء. وبعد عامٍ قضاه يسمع أنّه

(1) مارغريت ميد (1901 - 1978): عالمة أنثروبولوجيا ثقافيّة أمريكيّة. (المترجم)

منحرف عن جادّة الطّبيعة وأنّه لا يستحقّ الحياة، خرج إلى السّقيفة ومعه حبل».

قالت ذلك بنبرة عالية أكثر من اللّازم، كما يفعل المرء حين يبذل جهده كيلا يبكي. مدّ يده نحوها فتركته يأخذها في حضنه.

«كم كان عمرك؟»، سألها.

«عشرة»، قالت: «وجون كان في السّابعة عشرة».

«حدّثيني عنه أكثر»، قال يسترضيها: «كيف كان؟»

«أوه، كما تعرف»، راحت تغمغم: «لطيفًا، حنونًا، يخاف عليّ. جون هو الّذي كان يقرأ لي كلّ ليلة، ويضمّد ركبتيّ حين تتسحّجان، ويعلّمني كيف أقرأ وأكتب. كنّا نتنقّل كثيرًا، ولم أكن بارعةً بحقٍّ في إقامة الصّداقات، لكن كان لديّ جون. كنّا نمضي معظم وقتنا في المكتبة، وصارت بمثابة ملاذٍ لنا - الشّيءَ الوحيد الّذي نستطيع أن نعوّل عليه من بلدة إلى أخرى. وهذا مضحك بعض الشّيء إن فكّرت فيه».

- ماذا تعنين؟

- لأنّ والديّ كانا يعملان في *تجارة* الملاذات.

أومأ برأسه.

«ثمّة شيء واحد تعلّمتُه يا كالفن: النّاس يتوقون دائمًا إلى حلٍّ بسيط لمشاكلهم المعقّدة. أسهل بكثير أن تؤمن بشيء لا تستطيع رؤيته، لا تستطيع لمسه، لا تستطيع تفسيره، ولا تستطيع تغييره، عوضًا عن أن تؤمن بشيءٍ قابل لكلّ ذلك»، تنهّدت: «أعني أن تؤمن بنفسك»، تقبّضت معدتُها.

ظلّا راقدين بصمت، يخوضان في بؤس ماضيهما.

- أين والداكِ الآن؟

- أبي في السّجن. انتهى المطاف بإحدى إشارات الله خاصّته إلى التّسبّب في مقتل ثلاثة أشخاص. أمّا أمّي، فقد تطلّقت، ثمّ تزوّجت من جديد، وانتقلت إلى البرازيل. ما من قوانين تُلزم بتسليم المطلوبين لحكوماتهم هناك. هل ذكرتُ أنّ والديّ لم يدفعا ضرائبَ في حياتهما؟

أفلت كالفن صفيرًا طويلًا بصوت منخفض. حين ينشأ المرء على حِميةٍ ثابتةٍ من الأسى، يصعب عليه أن يتخيّل أنّ أطباق الآخرين قد تكون مليئةً بحصصٍ أكبر حتّى من حصّته.

«إذًا بعد أن... مات أخوك... ظللتِ أنت ووالداك فقط...»

«لا»، قاطعته، «بل ظللتُ وحدي. كثيرًا ما كان والداي يغيبان لأسابيع دفعةً واحدة، وفي غياب جون بات عليّ أن أحقّق الاكتفاء الذّاتيّ. وهذا ما فعلتُه، علّمتُ نفسي كيف أطبخ وأجري التّصليحات المنزليّة الصّغيرة».

- والمدرسة؟

- لقد أخبرتُك... كنت أذهب إلى المكتبة.

- هذا فقط؟

التفتت إليه: «هذا فقط».

ظلّا راقدين معًا مثل شجرتين مقطوعتين. وعلى بُعد بضعة مبانٍ، رنَّ جرسُ كنيسة.

«حين كنت طفلًا»، قال كالفن بهدوء: «اعتدتُ أن أقول لنفسي إنّ كلّ يوم هو يوم جديد، وإنّه يمكن لأيّ شيء أن يحدث».

أخذت يدَه من جديد. «وهل ساعدك هذا؟»

ارتخى فمُه إذ تذكّر ما كشفه له الأسقفُ في دار البنين عن أبيه. «أعتقد أنّ ما أريد قوله هو أنّه ينبغي بنا ألّا نترك أنفسنا عالقين في الماضي».

أومت برأسها، تتخيّل صبيًّا تيتّمَ لتوّه يحاول إقناعَ نفسه أنّ المستقبل مشرق. لا بدّ أنّ هذا صنفٌ خاصٌّ من الشّجاعة؛ أن يتحمّل طفلٌ أسوأَ الأمور، ورغم كلّ قانونٍ في الكون وكلّ دليلٍ يشير إلى العكس، يقرّر أنّ اليوم التّالي قد يكون أفضل.

«كلُّ يومٍ يومٌ جديد»، كرّر كالفن كأنّه ما يزال ذلك الطّفل. لكنّ ذكرى ما علمه عن أبيه ما زالت تثبت أنّها كثيرة عليه، لذا توقّف. «اسمعي، أنا مُتعَب. دعينا نكتفِ بهذا القدر».

«علينا أن ننال قسطًا من النّوم»، قالت، دون أن تتثاءب.

«يمكننا أن نتحدّث في هذا في وقت لاحق»، قال منخفضَ الهمّة.

«ربّما غدًا»، كذبت.

الفصل 6

كافتيريا هاستينغز

لا شيء يثير السّخطَ أكثر من أن يشهد المرءُ الحصّةَ غير العادلة الّتي يملكها شخص آخر من السّعادة. وبالنّسبة إلى بعض زملائهما في معهد هاستينغز للبحوث، كانت حصّة إليزابيث وكالفن غيرَ عادلة. هو لأنّه ألمعيّ، وهي لأنّها جميلة. وحين ارتبطا، تضاعفت حصّتهما غير العادلة بشكل أوتوماتيكيّ، فصارت غيرَ عادلة بالمرّة.

أسوأ ما في الأمر، وفقًا لهؤلاء، هو أنّهما لم يكسبا حصّتيهما باستحقاق - بل وُلِدا هكذا ببساطة، ما يعني أنّ حصّتهما غير العادلة من السّعادة ليست ناتجةً عن العمل الجادّ، بل عن الحظّ الجينيّ. وحقيقةُ أنّ الثّنائيَّ قرّرا ضمّ هِباتِهما غير المستحقّة في علاقةٍ غراميّةٍ ذاتِ محتوًى عالٍ من الشّهوانيّة على الأرجح، يضطرّ البقيّةُ أن يشهدوها على الغداء كلّ يوم، جعلت الأمرَ أسوأ بكثير.

«ها قد شَرَّفا»، قال جيولوجيٌّ من الطّابق السّابع: «باتمان وروبن».

«سمعتُ أنّهما يسكنان معًا، أتعرف ذلك؟»، سأله زميله في المختبر.

«الجميع يعرف ذلك».

«أنا لم أكن أعرف»، قال ثالثٌ اسمُه إيدي متجهّمًا.

راح الجيولوجيّون الثّلاثة يتفرّجون على إليزابيث وكالفن وهما يختاران طاولةً شاغرةً وسطَ الكافتيريا، وكانت صلصلةُ الصّواني وأدوات الطّعام تقرقع في الأنحاء مثل وابل الرّصاص. وفيما هدَّدَت الرّائحة الكريهة للسّتروغانوف[1] الّذي تقدّمه الكافتيريا بخنقِ بقيّة الموجودين في القاعة، وضع كالفن وإليزابيث مجموعةً من الحافظات البلاستيكيّة المفتوحة على الطّاولة أمامهما؛ دجاج بِالبارميزان، غراتان بطاطا، وسلطة من نوعٍ ما.

«أوه، هكذا إذًا»، قال أحد الجيولوجيّين: «الطّعام هنا لا يرتقي إلى مقامهما».

«قطّتي تأكل طعامًا أفضل من هذا»، قال الجيولوجيّ الآخر مُبعدًا صينيّته.

«مرحبًا يا رفاق!»، زقزقَت الآنسة فراسك، سكرتيرةٌ دائمةُ الجذل عريضةُ الوركين من قسم شؤون الموظّفين. وضعت فراسك صينيّتها، ثمّ تنحنحت وهي تنتظر إيدي، فنّيَّ مختبرٍ جيولوجيًّا، كي يسحب لها كرسيًّا. فراسك تواعد إيدي منذ ثلاثة أشهر، ورغم أنّها تحبّ أن تقول للنّاس إنّ الأمور تسير بينهما على خير ما يرام، فهذا ليس صحيحًا. إيدي شخصٌ غير ناضج وله نزعات فلّاحيّة؛ يمضغ طعامَه بفمٍ مفتوح، يقهقه بعالي صوتِه على نكاتٍ غير مضحكة،

(1) ستروغانوف: طبق روسيّ شهير ينتشر في معظم أنحاء العالم، يتكوّن من شرائح اللّحم والفطر والكريمة والبصل والطّحين والزّيت أو الزّبدة مع الملح والفلفل، ويمكن أن يُضاف إليه النّبيذ الأبيض. (المترجم)

ويقول أشياءَ مثل «ويلااه ويلي». ومع ذلك، هو يتمتّع بصفةٍ واحدة شديدة الأهمّيّة: أنّه أعزب. «شكرًا لك يا إيدي»، قالت حين انحنى وجذب الكرسيّ لها: «كم هذا لطيف!»

«تفضّلي ولكن على مسؤوليّتك»، حذّرها أحد الجيولوجيَّين، مشيرًا برأسه نحو كالفن وإليزابيث.

«لماذا؟»، قالت: «ماذا لدينا هنا؟». فتلت جذعَها فوق كرسيّها لتنظر إلى حيث أشار. «يا ربّ العرش»، قالت تتلصّص على الثّنائيّ السّعيد: «*مجدّدًا؟*»

راح الأربعة يراقبون بصمت فيما أخرجت إليزابيث دفترًا ومرّرته إلى كالفن. تمعّن كالفن في الصّفحة، ثمّ أدلى بتعليق. هزّت إليزابيث رأسها، وأشارت إلى شيء محدّد. فأومى كالفن موافقًا، وأمال رأسه إلى الجانب، ثمّ بدأ يمضغ شفتيه ببطء.

«إنّه غير جذّاب *بالمرة*»، قالت فراسك باشمئزاز. لكن لأنّها تعمل في شؤون الموظّفين، وينبغي بالعاملين في شؤون الموظّفين ألّا يعلّقوا أبدًا على مظاهر الموظّفين الخارجيّة، أضافت: «وبهذا أقصد فقط أنّ الأزرق ليس لونَه».

تناول أحد البيولوجيَّين لقمةً من السّتروغانوف، ثمّ ترك شوكتَه مستسلمًا. «أسمعتم آخر الأنباء؟ لقد رُشِّحَ إيفانز لجائزة نوبل مجدّدًا».

ندّت تنهيدة جماعيّة عن كلّ من حول الطّاولة.

«حسنًا، هذا أمر عديم المعنى»، قال الآخر: «يمكن لأيّ أحد أن يُرشَّح».

«أوه، حقًّا؟ هل سبق لك أن رُشِّحت؟»

ظلّوا يراقبون متحجّرين، وبعد بضع دقائق، مدّت إليزابيث يدها إلى الأسفل وأخرجت رزمةً مغلّفةً بورق مشمّع.

«ما هذا برأيكم؟»، سأل أحدُ الجيولوجيّين.

«مخبوزات»، قال إيدي بصوتٍ ملؤه الرّهبة: «إنّها تخبز أيضًا».

راقبوها تقدّم البراوني إلى كالفن.

«رحمتك يا إلهي»، قالت فراسك ساخطة: «ماذا تقصد بـ«أيضًا»؟ يمكن لأيّ شخص أن يخبز».

«أنا لا أفهمها»، قال أحد الجيولوجيّين: «لقد بات إيفانز في حوزتها، لماذا ما تزال هنا؟»، سكت قليلًا كأنّه يقلّب كلّ الاحتمالات. «إلّا إذا»، استدرك: «كان إيفانز لا *يريد* أن يتزوّج منها».

«لماذا تشتري البقرةَ وأنت تستطيع الحصول على الحليب مجّانًا؟»، لمّح الجيولوجيّ الآخر.

«لقد نشأتُ في مزرعة»، أدلى إيدي بدلوه: «البقر يتطلّب الكثير من العمل».

رمقته فراسك بطرف عينها، كان يغيظها أنّه لا يكفّ عن مدّ عنقه نحو زوت مثل نبتةٍ تميل إلى ضوء الشّمس.

«أنا اختصاصيّة في السّلوك البشريّ»، قالت: «في مرحلة معيّنة كنتُ أعمل لنيل درجة دكتوراه في علم النّفس». نظرت إلى رفاق مائدتها، آملةً أن يسألوها عن طموحاتها الأكاديميّة، لكنّ أحدًا لم يُبدِ

أدنى اهتمام. «أيًّا يكن، لهذا أستطيع أن أقول بثقة: إنّها هي الّتي تستغلّه».

في الطّرف الآخر من القاعة، رتّبت إليزابيث أوراقها ثمّ نهضت. «يؤسفني أن أقطع نقاشنا يا كالفن، لكن لديّ لقاء».

«لقاء؟»، قال كالفن، كأنّها أعلنت لتوّها أنّها ذاهبة لحضور تنفيذ حكمٍ بالإعدام. «لو أنّك تعملين في مختبري لما اضطُررتِ أبدًا إلى حضور اللّقاءات».

- لكنّني لا أعمل في مختبرك.

- لكنّك تستطيعين.

تنهّدت متشاغلةً بالحافظات البلاستيكيّة. بالطّبع، سيسرّها أن تعمل في مختبره، بيد أنّ هذا ليس ممكنًا. هي عالمة كيمياء في بداية مسيرتها، وعليها أن تشقّ طريقها بنفسها. حاوِلْ أن تتفهّم، هكذا قالت له أكثر من مرّة.

«لكنّنا نعيش معًا، وما هذه إلّا الخطوة التّالية منطقيًّا». حين يرجع الأمر إلى إليزابيث، هو يعلم أنّ الكلمةَ الفصل تكون للمنطق.

«هذا كان قرارًا اقتصاديًّا»، ذكّرته. وهذا صحيح بالفعل في ظاهره. كالفن هو من طرح الفكرة، قائلًا بما أنّهما يمضيان معظم أوقات فراغهما معًا، فالمنطقيّ من النّاحية المادّيّة أن يتشاركا السّكن. ومع ذلك، إنّه العام 1952، وفي عام 1952 لم يكن من المعتاد أن تسكن النّساء العازبات مع رجال، لذلك فوجئ بعض الشّيء من إليزابيث حين لم تتردّد. «سأدفع النّصف»، قالت آنذاك.

أزالت قلم الرّصاص من شعرها وأخذت تنقر به على الطّاولة منتظرةً ردَّه. لم تكن تعني فعليًّا أنّها ستدفع النّصف، فدفع النّصف مستحيل. راتبها بالكاد يتخطّى عتبة السّخيف، والنّصف خيارٌ غير وارد على الإطلاق. وعلى كلّ حال، المنزل مسجَّلٌ باسمه - هو وحده سيستفيد من المزايا الضّريبيّة. بناءً على ذلك، لن يكون النّصف عادلًا. أعطته لحظةً ليقوم بالحسابات بنفسه. النّصف مبلغٌ مبالغٌ فيه بشدّة.

«النّصف»، قال متفكّرًا، كأنّه يدرس الأمر.

كان يعلم أصلًا أنّها لا تستطيع أن تدفع النّصف. هي لا تستطيع حتّى أن تدفع ربعًا. وهذا لأنّ هاستينغز يدفعون لها أجرًا شحيحًا - نحو نصف ما يتقاضاه رجل في منصبها، الأمر الّذي كان قد اطّلع عليه في ملفّها الوظيفيّ، حين تجاوز صلاحيّاتِه واختلس نظرةً إليه. على كلّ حال، هو ليس ملتزمًا برهن عقاريّ؛ لقد أتمّ دفع ثمن البنغل[1] الصّغير خاصّته العامَ الماضي بعائدات جائزةٍ في الكيمياء وندم على ذلك من فوره. ألا يقول النّاس: «إيّاك أن تضع كلّ بيضك في سلّة واحدة»؟، هو فعل ذلك.

«أو»، قالت وقد أشرق وجهُها: «ربّما أمكننا التّوصُّل إلى اتّفاقيّةِ مقايَضة. تفهم قصدي، كما تفعل الدّول».

- مقايضة؟

- الإيجار مقابل خدمات أقدّمها.

---

(1) البنغل: نمط شائع من المنازل ذات الطّابق الواحد، وتكون مساحته صغيرةً في العادة. (المترجم)

جمد كالفن من فوره، إذ كان قد سمع كلّ النّمائم الّتي تتحدّث عن الحليب المجّانيّ.

«العشاء»، قالت: «أربع ليالٍ في الأسبوع». وقبل أن يتسنّى له الرّدّ قالت: «حسنًا، خمس ليالٍ. لكن هذا عرضي الأخير. أنا طبّاخة جيّدة يا كالفن، والطّبخ علمٌ جدّيّ. في الواقع، إنّه كيمياء».

وهكذا فقد انتقلت للعيش معه، وسار كلّ شيء على ما يرام. لكن فكرة المختبر؟ كانت ترفض حتّى أن تضعها في حسبانها.

«لقد رُشِّحتَ توًّا لجائزة نوبل يا كالفن»، ذكّرته وهي تُطبق غطاء الحافظة على ما تبقّى من البطاطا: «للمرّة الثّالثة خلال خمس سنوات. أريدُ أن يُحكَم عليّ بناءً على عملي، لا على عملٍ يظنّ النّاسُ أنّك قمتَ به نيابةً عنّي».

«لا يمكن لأيّ شخص يعرفكِ أن يظنّ ذلك».

أفرغت الحافظةَ من الهواء، ثمّ التفتت تنظر إليه: «هذه هي المشكلة، لا أحد يعرفني».

هكذا كانت تشعر طيلةَ حياتها. لا يضع النّاس تعريفًا لها بناءً على ما تفعله هي، بل على ما فعله آخرون. في الماضي، كانت إمّا ذرّيّة مُفتعِل حرائق، ابنة زوجةٍ متسلسلة، أخت مثليٍّ شنق نفسه، وإمّا طالبة دراسات تحت إشراف داعرٍ شهير. والآن هي صاحبة كيميائيٍّ ذائع الصّيت. لكنّها لم تكن يومًا إليزابيث زوت وحسب.

وفي المناسبات النّادرة الّتي لا تُعرَّف فيها عن طريق تصرّفات الآخرين، كان يُصرَف النّظر عنها باعتبارها شخصًا ضئيلَ الشّأن أو صيّادةَ أثرياء، بناءً على أكثر شيء تكرهه في نفسها: مظهرها، والّذي صادف أن يكون مثل مظهر أبيها تمامًا.

كان هو السّبب الّذي جعلها تكفّ عن الابتسام. فقبل أن يصبح مبشّرًا إنجيليًّا، أراد أبوها أن يكون ممثّلًا. وكان يتحلّى بكلٍّ من الكاريزما والأسنان المناسبة لذلك - وقد رُكِّبَت لهذه الأخيرة تيجانٌ على أيدي أخصّائيّين. الأمر الوحيد النّاقص؟ الموهبة. لذا حين بات واضحًا أنّ التّمثيل ليس خيارًا واردًا، أخذ مهاراته إلى خيمِ اجتماعات المبشّرين حيث استطاعت ابتسامتُه الزّائفة أن تبيع النّاسَ بضاعةَ نهايةِ العالم. ولهذا السّبب، في سنّ العاشرة، ما عادت إليزابيث تبتسم. وتلاشى الشَّبَه.

لم تظهر ابتسامتُها من جديد حتّى دخل كالفن إيفانز إلى الصّورة. أوّل مرّة كانت تلك اللّيلة في المسرح عندما استفرغ على فستانها. لم تميّزه باديءَ الأمر، لكن حين فعلت، ورغم الفوضى الّتي لحقت بها، انحنت لتلقي نظرةً أفضل على وجهه. كالفن إيفانز! صحيح أنّها كانت فظّةً بعض الشّيء معه بعد أن كان هو فظًّا معها -الدّوارق- لكنَّ انجذابًا فوريًّا لا يُقاوَم ومضَ بينهما.

«أما زلتَ تعمل على هذه؟»، سألته تشير إلى حافظة شبه فارغة.

«كلّا»، أجاب: «كُليها أنتِ، قد يُفيدكَ الوقود الإضافيّ».

في الواقع، كان يخطّط أن يأكلها، لكنّه مستعدٌّ للتّخلّي عن الحُريرات الإضافيّة إن كان هذا يجعلها تبقى. كما هي الحال مع إليزابيث، هو لم

يكن يومًا شخصًا اجتماعيًّا، بل الحقيقة أنّه لم يُقِم روابطَ حقيقيّةً مع الآخرين قبل أن يعثر على هواية التّجديف. المعاناة البدنيّة -كما تعلّم منذ زمن طويل- تربط بين النّاس بطريقة لا تقدر عليها الحياةُ اليوميّة. وهو ما يزال على تواصل مع زملائه الثّمانية في فريق كامبريدج، بل حتّى قابل واحدًا منهم الشّهر الماضي حين زار نيويورك من أجل حضور مؤتمر. لقد أصبح المقعدُ أربعة -ما زالوا ينادون بعضهم بأرقام مقاعدهم- طبيبَ عصبيّة.

«صار لديك ماذا؟»، سأله المقعد أربعة آنذاك متفاجئًا: «*صاحبة*؟ طيّب، أحسنتَ يا ستّة!»، قال وصفعه على ظهره، «وأخيرًا يا رجل!»

أومأ كالفن برأسه متحمّسًا، وراح يتحدّث بإسهاب عن عمل إليزابيث وعاداتها وضحكتها وكلّ شيء آخر يحبّه فيها. لكنّه شرح له أيضًا، بنبرةٍ أكثر تجهّمًا، كيف أنّه، رغم كونه يقضي كلّ أوقات فراغه مع إليزابيث (فهما يسكنان معًا، ويأكلان معًا، ويذهبان إلى العمل ويعودان منه بالسّيّارة معًا)، لا يشعر أنّ هذا يكفي. ليس الأمر أنّه لا يستطيع أن يعيشَ يومَه دونها، قال للمقعد أربعة، بل أنّه لا يرى *المغزى* من عيش يومه دونها. «لا أدري ماذا أسمّيه»، أفضى إليه بعد أن عرض حالتَه كاملة: «هل أنا مدمنٌ عليها؟ هل أعاني من التّعلّق المرضيّ؟ أيُعقَل أنّني مصاب بورمٍ دماغيّ؟»

«ربّاه يا ستّة، هذا يسمّى السّعادة»، أجابه المقعد أربعة: «متى موعد الزّفاف؟»

لكن هذه هي المشكلة. لقد وضّحت إليزابيث تمامًا أنّها ليست مهتمّة بالزّواج. «ليس الأمر أنّني أستنكر الزّواج يا كالفن»، قالت له أكثر من مرّة: «بيد أنّني أستنكر كلّ الّذين يستنكرون أنّنا لسنا متزوّجَين. ألا توافق؟»

«أوافق»، أجاب كالفن، وهو يفكّر كم يودّ أن يقول لها هذه الكلمة أمام مذبحِ كنيسة. لكن حين نظرت إليه مترقّبةً المزيد، أضاف على عجل: «أنا أرى أنّنا محظوظان فعلًا». ثمّ ابتسمت له بصدقٍ جعلَ دارةَ دماغه تتعطّل. وحالما افترقا، قاد سيّارته إلى متجر مجوهرات قريب، ونقّل نظره بين التّشكيلات إلى أن عثر على أكبر ماسةٍ صغيرة يستطيع تحمّل ثمنها. وظلَّ هكذا طوال ثلاثة شهور، يحتفظ بالعلبة الصّغيرة في جيبه محمومًا من الحماسة بانتظار اللّحظة المناسبة تمامًا.

«كالفن؟»، قالت إليزابيث وهي تُتمّ لملةَ أغراضها عن طاولة الكافتيريا: «أتصغي إليّ؟ قلتُ إنّني ذاهبة لحضور زفافٍ غدًا. في الواقع، أنا من شبائن العروس لو تستطيع أن تصدّق هذا»، رفعت كتفيها في حركة متوتّرة، «لذا ربّما ينبغي أن نناقش دراسة الأحماض اللّيلةَ إن كان هذا يناسبك».

– من سيتزوّج؟

– صديقتي مارغريت... السّكرتيرة من قسم الفيزياء؟ هي الّتي سألتقيها بعد ربع ساعة، من أجل تجريب الفستان.

«مهلًا، أنتِ لديك *صديقة*؟». كان يظنّ أنّ إليزابيث ليس لديها سوى زملاء عمل، علماء يعترفون بمهارتها ويحجّمون نتائجها.

أحسّت إليزابيث بوجنتيها تتورّدان من الإحراج. «حسنًا، أجل»، قالت بارتباك: «أنا ومارغريت نتبادل الإيماءات في الدّهاليز، وقد تكلّمنا عدّة مرّات عند ركن القهوة».

أراد كالفن لتعبيره الوجهيّ أن يبدو كما لو كان هذا وصفًا منطقيًّا للصّداقة.

«حدث الأمر في اللّحظة الأخيرة. لقد مرضت إحدى شبائنها، ومارغريت تقول إنّ من الضّروريّ أن يكون عدد شبائن العروس مساويًا لعدد أشابنة العريس». رغم أنّها ما إن قالت هذا حتّى أدركت أنّ ما تحتاج مارغريت إليه حقًّا هو فتاة قياسها 6 وليس لديها مخطّطات لعطلة الأسبوع.

الحقيقة أنّها ليست ماهرة في إقامة الصّداقات. كانت تقول لنفسها إنّ سبب ذلك هو أنّها كانت تتنقّل كثيرًا، وكان لديها والدان سيّئان، وفقدت أخاها. لكنّها تعرف آخرين اختبروا صعابًا ولا يعانون من هذه المشكلة، بل بدا أنّ بعضهم صار *أفضل* في إقامة الصّداقات - كما لو أنّ شبح التّغيير المستمرّ أو الحزن العميق كشفَ لهم عن أهمّيّة إقامة الرّوابط أينما استطاعوا وفي أيّ وقت كان. ما خطبها؟

ثمّ هناك فنّ الصّداقات الأنثويّة اللّامنطقيّ بحدّ ذاته، وكيف يبدو أنّه يتطلّب قدرةً على كتم الأسرار وإفشائها في آنٍ واحدٍ بالاستناد إلى مهارة دقيقة في تحديد الوقت المناسب. كلّما انتقلت إلى بلدة جديدة، كانت الفتيات يَنتحين بها جانبًا في مدرسة الأحد ويُفضين إليها بأنفاس مقطوعة عن إعجابهنّ بفتيان معيّنين. كانت تصغي إلى

هذه الاعترافات، وتَعِدُ صادقةً ألّا تُفشيها أبدًا. وتفي بوعدها. وهذا هو الخطأ، إذ تبيّن أنّه يُفترض بها أن تفشي الأسرار، فمهمّتها بوصفها بيتَ أسرارٍ تتمثّل في خيانة الثّقة وإخبار الفتى س أنّ الفتاة ع تراه جميلًا، محفّزةً بذلك تفاعلًا متسلسلًا من الاهتمام المتبادل بين الطّرفين. «لماذا لا تخبريه بنفسك؟»، تقول لإحدى مدّعيات صداقتها أولئك: «ها هو أمامك». حينئذٍ تنسحب الفتيات مرتاعات.

«إليزابيث»، ناداها كالفن: «إليزابيث؟». انحنى فوق الطّاولة ونقر على يدها. «آسف»، قال عندما أجفلت: «أظنّ أنّني أضعتُكِ للحظة. أيًّا يكن، كنت أقول لتوّي إنّني أحبّ حفلات الزّفاف. سأذهب معك».

في الحقيقة، كان يكره حفلات الزّفاف، إذ ظلّت طيلة سنوات تذكّره أنّه ما يزال بلا حبيبة. لكنّها الآن معه، وغدًا ستكون على مقربة شديدة من مذبح كنيسة، وهو يفترض أنّ هذا القرب قد يكون من شأنه أن يعدّل نظرتها إلى الزّواج. حتّى أنّ هذه النّظريّة لها اسمٌ علميّ: التّداخل التّرابطيّ.

«لا»، أجابت سريعًا: «دعوتي لا تتضمّن مُرافقًا، إلى جانب أنّه كلّما قلّ عدد الّذين يرونني في هذا الفستان كان الأمر أفضل».

«هيّا بحقّك»، قال يمدّ ذراعه على طولها في المسافة الفاصلة بينهما ليُجلسها من جديد: «لا يمكن أن تكون مارغريت تتوقّع ذهابك بمفردك. أمّا بالنّسبة إلى الفستان، فأنا واثق أنّه ليس بهذا السّوء».

«أوه، بل بهذا السّوء وأكثر»، قالت مرتدّةً إلى نبرة اليقين العلميّ الحصيفة خاصّتها: «فساتين الشّبائن تُصمَّم بحيث تجعل مظهرَ النّساء اللّاتي يرتدينها غيرَ جذّاب؛ وبهذا تبدو العروس أفضل مظهرًا من المعتاد. إنّها ممارسةٌ مصطلحٌ عليها، استراتيجيّةٌ دفاعيّةٌ أساسيّةٌ لها منشأ بيولوجيّ. المرء يرى أشياءً من هذا القبيل في الطّبيعة طوال الوقت».

عاد كالفن بأفكاره إلى حفلات الزّفاف الّتي حضرها فأدرك أنّها قد تكون على حقّ: هو لم يشعر ولو مرّة واحدة برغبة في دعوة شبينةٍ إلى الرّقص. أيمكن أن تمتلك الفساتين كلّ هذا التّأثير فعلًا؟ نظر عبرَ الطّاولة إلى إليزابيث، يداها تتحرّكان في الهواء بثبات وهي تصف الفستان: بطانة إضافيّة عند الوركين، زمّةٌ غير متقنة عند الخصر والصّدر، شريطة ضخمة معقودة تغطّي الرّدفين. فكّر في الأشخاص الّذين يصمّمون هذه الفساتين؛ كيف يتعيّن عليهم، مثلهم مثل مصنّعي القنابل وممثّلي البورنوغرافيا، ألّا يُفصحوا عن طريقتهم في كسب العيش.

- حسنًا، لطفٌ منكِ أن تمدّي لها يدَ العون. لكنّني ظننتُ أنّك لا تحبّين حفلات الزّفاف.

- لا، الزّواج فقط هو الّذي لا أحبّه. لقد تحدّثنا في هذا يا كالفن، وأنت تعرف رأيي. لكنّني سعيدة من أجل مارغريت. في الأغلب.

- في الأغلب؟

«حسنًا»، قالت: «هي لا تنفكّ تكرّر كيف أنّها، بحلول ليلة الأحد، ستصبح أخيرًا السّيّدةَ بيتر ديكمان. كأنّ تغييرَ اسمِها هو خطّ النّهاية في سباقٍ تخوضه مذ كانت في السّادسة من عمرها».

«سوف تتزوّج من *ديكمان*؟»، سألها: «الّذي يعمل في قسم البيولوجيا الخلويّة؟». لم يكن ديكمان يروق له.

«بالضّبط»، أجابت: «لم أفهم يومًا لماذا يُتوقَّع من النّساء حين يتزوّجن أن يبدّلن أسماءهنّ القديمة كالسّيّارات المستعملة، فيخسرن اسمَ العائلة وأحيانًا حتّى الاسم الأوّل -السّيّدة *جون* آدمز! السّيّدة *إيب* لينكولن!- كأنّ هويّاتهنّ السّابقة لم تكن إلّا وسائل ملء شواغر مؤقّتة استخدمنها لبضعةٍ وعشرين عامًا ريثما يصبحن أناسًا حقيقيّات. السّيّدة بيتر ديكمان. إنّه حكمُ تأبيد».

لكن إليزابيث إيفانز، في المقابل، قال كالفن لنفسه، *اسمٌ ممتاز.* وقبل أن يستطيع كبحَ جماح نفسه، راح ينقّب في جيبه بحثًا عن العلبة الزّرقاء الصّغيرة، ودون تردّد، وضعها أمامها. «لعلّ هذا قد يحسّن مظهرَ الفستان»، قال وقلبُه يخفق بالسّرعة القصوى.

«علبة خاتم»، أعلنَ أحد الجيولوجيّين: «استعدّوا يا أولاد: هنالك خطوبة تجري على قدم وساق». لكنّ وجه إليزابيث كان فيه شيءٌ لا يبدو على ما يرام.

أطرقت إليزابيث تنظر إلى العلبة ثمّ رفعت عينيها نحو كالفن، وكانتا مشرعتَين عن آخرهما من الفزع.

«أنا أعرف موقفكِ من الزّواج»، قال كالفن مستعجلًا: «لكنّني أعطيتُ الأمر كثيرًا من التّفكير، وأعتقد أنّنا أنتِ وأنا سنحظى بنوعٍ

مختلف من الزّواج. سيكون خارج السّويّة المعهودة تمامًا، بل حتّى سيكون ممتعًا».

- كالفن...

- كما أنّ هنالك أسبابًا عمليّة تدفعنا إلى الزّواج، فالضّرائب ستنخفض على سبيل المثال.

- كالفن...

«على الأقلّ انظري إلى الخاتم»، توسّل: «أنا أحمله معي أينما ذهبتُ منذ شهور. أرجوك».

«لا أستطيع»، قالت مشيحةً بوجهها: «لن يكون من شأن هذا سوى أن يزيد صعوبة الرّفض».

لطالما أصرّت أمُّها أنّ مقياس قيمة المرأة هو جودة زواجها. «كان بوسعي أن أتزوّج بيلي غراهام[1]»، كثيرًا ما ادّعت: «لا يخطرَنّ لكِ أنّه لم يُبدِ اهتمامًا. بالمناسبة يا إليزابيث، عندما يحين الوقت وتُخطَبين، أصرّي على أكبر ماسة ممكنة. بهذه الطّريقة، إن لم تنجح الزّيجة، يكون بوسعك أن ترهني الماسة». وكما اتّضح، كان كلامُ الأمّ نابعًا من خبرة. حين قدّم الوالدان أوراق الطّلاق، تبيّن أنّه قد سبق لها الزّواج ثلاث مرّات.

(1) بيلي غراهام (1918 - 2018): مبشّر إنجيليّ أمريكيّ وصل إلى الشّهرة بعد دعم الإعلام الوطنيّ له عام 1949. (المترجم)

«أنا لن أتزوّج»، كانت إليزابيث تقول لها: «بل سوف أصبح عالمة، والعالمات النّاجحات لا يتزوّجن».

«أوه، حقًّا؟»، تضحك الأمّ: «فهمت. تظنّين إذًا أنّك ستتزوّجين عملَك كما تتزوّج الرّاهباتُ يسوع؟ لكن قولي ما شئتِ عن الرّاهبات... هنّ على الأقلّ يعلمن أنّ زوجهنّ لن يقضي وقتَه في الشّخير»، تقرص ذراعَ إليزابيث، «ما من امرأةٍ تقول لا للزّواج يا إليزابيث، ولن تكوني استثناءً».

فتح كالفن عينيه عن آخرهما: «أترفضين؟»

- أجل.

- *إليزابيث!*

«كالفن»، قالت متأنّيةً، تمدّ يديها على الطّاولة نحو يديه وهي تمعن النّظر في وجهِه الّذي انكمش: «ظننتُ أنّنا اتّفقنا على هذا. كونَك عالمًا أنت نفسك، أدري أنّك تتفهّم لماذا ليس الزّواج خيارًا واردًا عندي».

غير أنّ تعبيرَ وجهه لم يكن يوحي بتفهّمٍ من هذا القبيل.

«لأنّني لا أستطيع المخاطرة بجعل مساهماتي العلميّة تحتجب وراء اسمك»، وضّحت له.

«صحيح»، قال: «بالطّبع. هذا واضح. إذًا فالأمر تضاربٌ مهنيّ».

«بل هو تضاربٌ مجتمعيّ بالأحرى».

«طيّب، هذا **بغيض!**»، صاح وجعل كلّ من كان لا يتفرّج بعد يوجّه اهتمامَه كاملًا نحو الثّنائيّ المنكود في الوسط.

«كالفن»، قالت إليزابيث: «لقد تناقشنا في هذا».

«أجل، أعلم. أنت تستنكرين تغييرَ الاسم، لكن هل حدث وأوحيتُ إليكِ يومًا أنّني أريدك أن تغيّري اسمَك؟»، قال محتجًّا: «كلّا. بل إنّني في الحقيقة *أتوقّع* منكِ أن تحتفظي به». وهذا ليس صحيحًا تمامًا، إذ كان يفترض أنّها ستتّخذ اسمَه. ومع ذلك تابع كلامه: «لكن على كلّ حال، ينبغي ألّا تتوقّف سعادتُنا المستقبليّةُ على إذا ما كانت حفنةٌ من الأشخاص قد تناديكِ خطأً بالسّيّدة إيفانز. سوف نصحّح لهؤلاء الأشخاص». بدا الوقتُ غيرَ مناسب بالمرّة كي يخبرها أنّه أضاف اسمها إلى صكّ ملكيّة البنغل الصّغير خاصّته - إليزابيث إيفانز، هذا هو الاسم الّذي أعطاه لكاتب المقاطعة. سجّل ملاحظةً ذهنيّةً للاتّصال بالكاتب حالَ عودته إلى مختبره.

هزّت إليزابيث رأسها: «سعادتنا المستقبليّة لا تتوقّف على زواجنا أو عدمه يا كالفن، على الأقلّ ليس بالنّسبة إليّ. أنا ملتزمة بك كامل الالتزام، الزّواج لن يغيّر هذا. أمّا بالنّسبة إلى من يقول ماذا، فالأمر لا يقتصر على حفنة من الأشخاص، بل المجتمع - مجتمع البحث العلميّ على وجه التّحديد. كلّ عمل أقوم به سوف يحمل اسمَك فجأة، كأنّك أنت من أنجزتَه. وفي الواقع، معظم النّاس سوف *يفترضون* أنّك من أنجزتَه ببساطة لأنّك رجل، بل وبالأخصّ لأنّك كالفن إيفانز. لا أريد أن أكون ميليفا أينشتاين أو استير ليدربيرغ أخرى يا كالفن، أنا أرفض ذلك. وحتّى لو اتّخذنا كامل الإجراءات القانونيّة اللّازمة لضمان ألّا يتغيّر اسمي، سيتغيّر رغم ذلك. الجميع

سينادينى السّيّدة كالفن إيفانز، بل سوف *أصبح* السّيّدة كالفن إيفانز. كلّ بطاقة معايدة، كلّ كشف حسابٍ مصرفيّ، كلّ إشعار من مكتب الإيرادات الدّاخليّة سيُرسَل إلى السّيّد والسّيّدة كالفن إيفانز. لن تعود إليزابيث زوت الّتي نعرفها موجودة».

«وأن تكوني السّيّدة كالفن إيفانز هو دون ريبٍ أسوأ شيء يمكن أن يحدث لك في حياتك»، قال والبؤس قد هدّمَ وجهَه.

«أريد أن أكون إليزابيث زوت»، أجابت: «هذا أمرٌ مهمٌّ عندي».

جلسا دقيقةً في صمتٍ مضطرب، والعلبة الزّرقاء الصّغيرة المقيتة ملقاةٌ بينهما مثل حَكَمٍ سيّئٍ في مباراةٍ محتدمة. رغمًا عن إرادتها، ألفَت نفسها تتساءل كيف يبدو الخاتم.

«أنا آسفة حقًّا»، كرّرت.

«ليست مشكلة»، قال بجفاء.

أشاحت بوجهها.

«إنّهما ينفصلان!»، هسهسَ إيدي للآخرين: «لقد انتهى أمرُهما لا محالة!»

سحقًا، فكّرت فراسك، *ها قد عادت زوت إلى السّوق.*

إلّا أنّ كالفن لم يستطع أن يتركَ الموضوع في حال سبيله. بعد ثلاثين ثانية، غافلًا تمامًا عن عشرات الأعين المتعلّقة بهما، قال بصوتٍ

خرج أعلى بكثيرٍ ممّا كان ينويه: «حبًّا *بالله* يا إليزابيث، ما هو إلّا اسم، ليس أمرًا مهمًّا. أنت ستظلّين أنت، هذا ما يهمّ».

«أتمنّى لو كان هذا صحيحًا».

«إنّه صحيح»، ألحّ: «ما قيمة الاسم؟ لا شيء!»

رفعت عينيها يحدوها أملٌ مفاجئ: «لا شيء؟ طيّب، في هذه الحالة، ما رأيك أن تغيّر اسمك؟»

- إلى ماذا؟

- إلى اسمي. إلى زوت.

نظر إليها بانشداه، ثمّ قلبَ عينيه. «مضحك جدًّا»، قال.

«ولمَ لا؟»، سألته بصوت لا يخلو من الحدّة.

«تعرفين لِما لا. الرّجال لا يفعلون هذا. على أيّة حال، لديّ عملي، وسمعتي. أنا...»، تلكّأ.

- ماذا؟

- أنا... أنا...

- *قلها*.

- حسنًا. أنا مشهور يا إليزابيث، لا يمكنني أن *أغيّر* اسمي كأنّ شيئًا لم يكن.

«أوه»، قالت: «لكن لو لم تكن مشهورًا، *عندئذٍ* ما كنت لتجد بأسًا في تغيير اسمك إلى اسمي. أهذا ما تعنيه؟»

«اسمعي»، قال وهو يأخذ العلبة الزّرقاء الصّغيرة: «إنّني أفهمك. لستُ أنا من سنَّ هذا التّقليد؛ هكذا هي حال الأمور. حين تتزوّج المرأة، تتّخذ اسمَ زوجها، وتسعة وتسعون فاصلة تسعة بالمئة من النّساء لا يمانعن هذا».

«ولديكَ دراسةٌ من نوعٍ ما تدعم هذا التّصريح الجازم»، قالت.

- ماذا؟

- أنّ تسعة وتسعين فاصلة تسعة بالمئة من النّساء لا يمانعن هذا.

- حسنًا، لا. لكن لم يسبق لي أن سمعتُ أيّة شكاوى.

- والسّبب الّذي يمنعك من تغيير اسمك هو أنّك مشهور. رغم أنّ تسعة وتسعين فاصلة تسعة بالمئة من الرّجال غير المشاهير يصادف أنّهم يحتفظون بأسمائهم أيضًا.

«مرّةً أخرى»، قال مُقحمًا العلبة الصّغيرة في جيبه بقوّةٍ مزّقت طرف القماش عند الزّاوية: «أنا لم أُحدِث التّقليد. وكما بيَّنتُ سابقًا، أنا أؤيّد... كنتُ أؤيّد احتفاظك باسمك تأييدًا كاملًا».

- كنت.

- ما عدتُ أريد الزّواج منك.

أرجعت إليزابيث ظهرَها على الكرسيّ بحركة قاسية.

«انطلقت صافرةُ النّهاية!»، نعقَ أحدُ الجيولوجيّين شامتًا: «عادت العلبةُ إلى الجيب!»

جلس كالفن يستشيط غضبًا. لقد كان نهارُه عصيبًا من الأساس، فقد تلقّى صباحًا مجموعةً جديدة من رسائل النّصب، معظمها من أناس يدّعون أنّهم أقرباء انقطعت صِلاتُهم به منذ زمن طويل. وهذا ليس أمرًا غير معتاد؛ منذ أصابَ شيئًا من الشّهرة أخذ النّصّابون يكتبون إليه بالجملة. «عمٌّ لأبيه» أراد منه أن يستثمر في مشروعه الخيميائيّ؛ «أمٌّ حزينة» ادّعت أنّها أمّه البيولوجيّة وأرادت أن تعطيه هي مالًا؛ شخصٌ يقول إنّه ابن عمّه ويحتاج إلى نقود. إضافةً إلى رسالتين من امرأتين تدّعيان أنّهما أنجبتا منه ويجب أن يدفع ما يترتّب عليه الآن، وهذا على الرّغم من أنّ المرأة الوحيدة الّتي نام معها في حياته هي إليزابيث زوت. هل سينتهي هذا يومًا؟

«إليزابيث»، قال مستجديًا، وهو يعزق شعرَه بأصابعه: «أرجوكِ افهميني. أريد لنا أن نكون عائلة - عائلةً *حقيقيّة*. الأمر مهمٌّ عندي، ربّما لأنّني فقدتُ عائلتي، لست أعرف. ما أعرفه هو أنّني منذ التقيتُك شعرت أنّنا ينبغي أن نكون ثلاثة. أنت، أنا، و.. و...»

اتّسعت عينا إليزابيث من الفزع. «كالفن»، قالت مذعورة: «ظننتُ أنّنا اتّفقنا بهذا الشّأن أيضًا».

«حسنًا، نحن لم نتحدّث عن هذا بشكل حقيقيّ قطّ».

«بلى، تحدّثنا»، أصرّت: «تحدّثنا دون أدنى شكّ».

«تلك المرّة فقط»، قال: «ولم يكن حديثًا بحقّ. ليس حقًّا».

«لا أعرف كيف تستطيع أن تقول هذا»، قالت وقد نال الذّعرُ منها: «لقد اتّفقنا بصيغةٍ جازمة: لا أطفال. لا أصدّق أنّك تتكلّم هكذا، ما الّذي حدث لك؟»

- صحيح، لكنّني كنتُ أفكّر أنّ بوسعنا...

- كان كلامي واضحًا...

«أعلم»، قاطعها: «لكنّني كنت أفكّر...»

«لا يمكنك أن تغيّر رأيك ببساطة في هذا الموضوع».

«حبًّا بالقدّيس بطرس يا إليزابيث»، قال وقد بدأ الغضب يجتاحه: «لو تتركينني أنهي كلامي...»

«تفضّل»، ردّت بانفعال: «أنهِ كلامك!»

نظر إليها مُحبَطًا. «كنت أفكّر فقط أنّ بوسعنا أن نتبنّى كلبًا».

غمرَ الانفراجُ وجهَها. «كلب؟»، قالت: «كلب!»

«يا لعنة الله»، علّقَت فراسك بصوتٍ منخفض لمّا انحنى كالفن كي يقبّل إليزابيث، فتردّد صدى رأيِها في أنحاء الكافتيريا على الفور. من كلّ صوب، هوَت أدوات الطّعام على الصّواني في رنينٍ مستسلم، ورُكلت الكراسي إلى الخلف في هزيمة نَكِدة، وألقيَت المناديل في كرات مكرمشة متّسخة. إنّها الضّوضاء الخبيثة للغيرة المتأصّلة، النّوع الّذي لا يُفضي إلى نهاية سعيدة أبدًا.

ستّة ونصف

العديد من النّاس يذهبون إلى مُستولِدي الكلاب كي يجدوا ضالّتهم، وآخرون إلى زريبة الكلاب الضّالّة، لكن في بعض الأحيان - لا سيّما حين يكون الأمر مقدَّرًا، يعثر الكلبُ المناسب على صاحبه بنفسه.

كان مساءَ سبت، بعد نحو شهر، وقد خطفت إليزابيث نفسَها إلى متجر الأطعمة الجاهزة القريب لتحضر شيئًا من أجل العشاء. وعندما غادرت المتجر، بذراعين تثقلهما قطعة سلامي كبيرة وكيس مشتريات، راقبها كلبٌ أجربُ كريهُ الرّائحة مختبئٌ في ظلال الزّقاق وهي تمرّ قربه. رغم أنّ الكلب لم يبرح مكانَه منذ خمس ساعات، فقد ألقى نظرةً واحدة عليها، ثمّ حمل نفسَه وتبعها.

صادف أنّ كالفن كان واقفًا عند النّافذة حين رأى إليزابيث قادمة نحو المنزل، يتبعها كلبٌ على مسافة خمس خطوات. وفيما تفرّج عليها وهي تمشي، اعترت أوصالَه رعدةٌ غريبة. «إليزابيث زوت، أنت سوف تغيّرين العالم»، سمع نفسه يقول. وما إن قال ذلك حتّى أيقن أنّه صحيح؛ إليزابيث سوف تنجز شيئًا ثوريًا وضروريًا يتكفّل بتخليد

اسمها رغمَ فيلق الرّافضين الّذي لا ينتهي. وكما لو أنّها تنوي إثبات ذلك، ها هي اليوم تحظى بأوّل مُريديها.

«مَن صديقُك؟»، نادى من مكانه، ينفض آثار ذلك الشّعور الغريب.

«ستّة ونصف»، ردّت بعد أن ألقت نظرة على معصمها.

كان ستّة ونصف في حاجة ماسّة إلى حمّام. طويل، رماديّ، نحيل، يغطّيه فروٌ أشبه بالأسلاك الشّائكة يجعله يبدو قد نجا من الإعدام بالكهرباء في اللّحظة الأخيرة. وقف دون حركة وهما يفركانه بالشّامبو، نظرتُه لا تحيد عن إليزابيث.

«أعتقد أنّ علينا محاولة البحث عن مالكه»، قالت إليزابيث على مضض: «أنا متأكّدة أنّ هنالك شخصًا يأكله القلق».

«هذا الكلب ليس له مالك»، طمأنها كالفن، وكان محقًّا. لم تَعُد الاتّصالاتُ اللّاحقة بالزّريبة ولا الإعلانات ضمن عمود المفقودات في الصّحيفة بأيّة نتيجة تُذكَر. لكن حتّى لو حدث ذلك، فستّة ونصف وضّح نواياه وانتهى الأمر: سوف يبقى مكانه.

في الواقع، «مكانك» كانت أوّل كلمة يتعلّمها، رغم أنّه في غضون أسابيع كان قد تعلّم خمس كلمات أخرى على الأقلّ، وهذا أكثر ما فاجأ إليزابيث - جاهزيّة ستّة ونصف للتّعلّم.

«أترى أنّه استثنائيّ؟»، سألت كالفن أكثر من مرّة: «يبدو أنّه يلقطها على الطّاير».

«إنّه يُبدي امتنانَه»، أجاب كالفن: «يريد أن يُرضينا».

إلّا أنّ إليزابيث كانت على حقّ: لقد تلقّى ستّة ونصف تدريبًا كي يلقط الأشياء على الطّاير.

كي يلتقط القنابل، على وجه التّحديد.

قبل أن ينتهي به المطاف في ذلك الزّقاق، كان بين مجموعة من الكلاب ضمن دورة تدريب على تعقّب رائحة القنابل في معسكر بندلتون، قاعدة مشاة البحريّة القريبة. ولسوء الحظّ، فقد فشل فشلًا ذريعًا. ليس أنّه لم يبدُ قادرًا قطُّ على التقاط رائحة القنبلة في الوقت المناسب فحسب، بل تعيّن عليه أيضًا أن يتحمّل الثّناء الّذي يُغدَق على كلاب الجيرمان شيبرد المعتدّة بنفسها الّتي تنجح في المهمّة كلّ مرّة. وقد سُرِّحَ من الخدمة آخرَ الأمر -دون تشريفات- بقرارٍ من مدرّبه الغاضب، الّذي حمله بسيّارته إلى الطّريق السّريع وألقاه في مكان مهجور. بعد أسبوعين عثر على طريقه إلى ذلك الزّقاق، وبعد أسبوعين وخمس ساعات كان يُفرَك بالشّامبو على يد إليزابيث الّتي تناديه ستّة ونصف.

«هل أنت متأكّد أنّ بوسعنا اصطحابه إلى هاستينغز؟»، سألت إليزابيث كالفن وهو يُدخله إلى السّيّارة صباحَ الاثنين.

- بالطّبع، لِمَ لا؟

- لأنّني لم يسبق لي أن رأيت كلبًا آخر في العمل، كما أنّ المختبرات ليست آمنة إلى هذه الدّرجة.

«لن تغفل أعينُنا عنه»، قال كالفن: «ليس من الصّحّيّ أن تُترَكَ الكلاب بمفردها طيلة النّهار، فهي بحاجة إلى التّحفيز».

هذه المرّة، كان الحقّ مع كالفن. كان ستّة ونصف يحبّ معسكر بندلتون لأنّه لم يكن وحيدًا هناك قطّ، لكن بالدّرجة الأولى لأنّ المكان منحَه شيئًا لم يسبق له أن حظي به: الغاية. بيد أنّه كان يواجه مشكلة.

أمام الكلب الشّمّام خياران اثنان في التّعامل مع القنابل: أن يجد القنبلة في الوقت المناسب الّذي يسمح بتفكيكها (وهذا المفضَّل)، أو أن يلقي بنفسه على القنبلة مقدّمًا بذلك التّضحية القصوى لإنقاذ الوحدة (ليس مفضّلًا، رغم أنّه يضمن له وسامًا بعد الوفاة). وفي التّدريب لا تُستَخدم سوى القنابل الزّائفة، لذا أكثر ما يمكن لكلبٍ أن يحصّله حين يرمي بنفسه على القنبلة هو دويٌّ مزعج يليه انفجار ضخم لطلاء أحمر.

الدّويّ هو السّبب، كان يُفزع ستّة ونصف حتّى يكاد قلبُه يتوقّف. لذا بات كلَّ يوم، حين يُصدر مدرّبُه أمرَه «جِدْها»، ينطلق شرقًا من فوره، رغم أنّ أنفه يكون قد أعلمه أنّ القنبلة موجودة

على بعد خمسين ياردة غربًا، ثمّ يشير بخَطمه إلى أحجار وصخور مختلفة، منتظرًا أن يعثر أحد الكلاب الأخرى الأكثر شجاعةً على الشّيء اللّعين أخيرًا ويتلقّى مكافأتَه قطعةَ بسكويت. إلّا إذا كان الكلب بطيئًا أو غِرًّا للغاية فانفجرت القنبلة، حينها لا يحصل سوى على حمّام.

«لا يمكنك أن تدخل كلبًا إلى هنا يا د. إيفانز»، قالت الآنسة فراسك لكالفن: «لقد تلقّينا شكاوى».

«لم يشكُ أحدٌ لي»، أجاب كالفن رافعًا كتفيه، رغم يقينه من أنّ أحدًا لن يجرؤ أساسًا.

تراجعت فراسك على الفور.

في غضون بضعة أسابيع، كان ستّة ونصف قد أجرى عمليّة جردٍ لكامل موجودات حَرَمِ هاستينغز، فحفظ عن ظهر قلبٍ كلَّ طابقٍ وغرفة ومخرَج، كرجل إطفاء يتحضّر لكارثة. وحين يتعلّق الأمر بإليزابيث زوت، يكون متنبّهًا بأعلى الدّرجات. لقد عانت في ماضيها - بوسعه أن يستشعر ذلك، وهو مصمّمٌ ألّا تعاني مجدّدًا على الإطلاق.

وكان الأمر نفسه بالنّسبة إلى إليزابيث. كانت تستشعر أنّ ستّة ونصف قد مرّ هو الآخر بمعاناة تفوق قصصَ ترك الكلاب على جانب الطّريق المعتادة، وهي أيضًا شعرت بالحاجة إلى حمايته. في الواقع، هي

الّتي أصرّت أن ينام قربَ سريرهما رغم أنّ كالفن رأى المطبخَ خيارًا أفضل، لكنّ إليزابيث فازت في النّهاية وبقي، قانعًا تمامًا، باستثناء الأوقات الّتي تشتبك فيها أطرافُ كالفن وإليزابيث فيتحوّلان إلى كتلة فوضويّة متشابكة، ويتخلّلُ اللّهاثُ والضّوضاء حركاتِهما الخرقاء. الحيوانات تفعل ذلك أيضًا، لكن بكفاءة أكبر بكثير. إنّ البشر، كما لاحظ ستّة ونصف، يميلون إلى المبالغة في تعقيد الأمور.

حين تحدث هذه الاشتباكات في الصّباح الباكر، تنهض إليزابيث بعدها بقليلٍ كي تُعدّ الفطور. فرغم أنّ الاتّفاق تضمّن في الأصل تحضير العشاء خمسَ ليالٍ في الأسبوع مقابل الإيجار، لقد أضافت الفطور أيضًا، ثمّ الغداء. بالنّسبة إلى إليزابيث، لم يكن الطّبخُ مهمّةً نسائيّةً مقرّرةً سلفًا، بل هو -كما قالت لكالفن- كيمياء، وهذا لأنّ الطّبخ كيمياءٌ بالفعل.

عند 200 °م/ 35 د= خسارة جزيء H_2O لكلّ مول سكروز؛ المحصّلة 4 خلال 55 د= $C_{24}H_{36}O_{18}$، كتبت على دفتر. «لهذا السّبب عجينةُ البسكويت ليست متماسكة»، نقرت بقلمها الرّصاص على سطح المنضدة: «ما تزال جزيئات الماء زائدة عن اللّازم».

«كيف تسير الأمور؟»، نادى كالفن من الغرفة المجاورة.

«كدتُ أخسر ذرّةً في عمليّة التّماكُب»، ردّت: «أظنّني سأعدّ شيئًا آخر. هل تشاهد جاك؟»

كانت تقصد جاك لالان، عرّاب اللّياقة التّلفزيونيّ الشّهير، وهو رجلٌ عصاميٌّ مولَعٌ بالصّحة يشجّع النّاس على تحسين عنايتهم

بأجسامهم. لم تكن تحتاج أن تسأل حقًّا، فبوسعها سماع جاك يصيح «فوق، تحت، فوق، تحت» مثل يويو بشريّ.

«أجل»، أجاب كالفن منقطعَ الأنفاس، فيما كان جاك يطالب بتكرار الحركة عشر مرّات أخرى. «أتنضمّين إلينا؟»

«إنّني أُمَسِّخُ البروتين»، صاحت.

«والآن، الجري في المكان»، هتف جاك.

بصرف النّظر عمّا قاله جاك، الجريُ في المكان هو الشّيء الوحيد الّذي لا يفعله كالفن. عوضًا عن ذلك، نفّذ تمارين معدة إضافيّة ريثما راح جاك يجري في مكانه منتعلًا ما يشبه كثيرًا خُفَّ الباليه. لم يكن كالفن يرى المغزى من الجري داخل المنزل في خفّ باليه، بل كان يقوم بجَريِهِ في الخارج منتعلًا حذاءَ تنس. وهذا جعله من روّاد الهرولة، أي أنّه كان يهرول قبل أن تصبح الهرولة رياضةً ذات شعبيّة بزمن طويل، قبل حتّى أن تُسمّى هرولة. ولسوء الحظّ، بما أنّ مفهوم الهرولة لم يكن مألوفًا لدى الآخرين، كان قسمُ الشّرطة المحلّيّ يتلقّى وابلًا ثابتًا من الاتّصالات بخصوص رجلٍ بالكاد يستر نفسه يركض في الحارات نافثًا الهواءَ دفعاتٍ قصيرة قويّة من بين شفتيه الضّاربتين إلى اللّون الأرجوانيّ. ولأنّ كالفن يركض دائمًا في المسارات الأربعة أو الخمسة نفسها، سرعان ما اعتاد رجالُ الشّرطة هذه الاتّصالات. «هذا ليس مجرمًا»، صاروا يقولون: «ما هو إلّا كالفن، إنّه لا يحبّ أن يركض في مكانه منتعلًا خفَّ باليه».

«إليزابيث؟»، ناداها من جديد: «أين ستّة ونصف؟ هابي على التّلفاز».

هابي هو كلب جاك لالان، يظهر في البرنامج من حينٍ إلى آخر، وكلّما ظهر كان ستّة ونصف يغادر الغرفة. وقد استشعرت إليزابيث أنَّ في كلب الجيرمان شيبرد شيئًا يكدّر ستّة ونصف.

«إنّه معي»، أجابت.

ممسكةً بيضةً في راحة يدها، التفتت إليه. «إليك نصيحة يا ستّة ونصف: إيّاك أن تفقش البيض على حافة الزّبديّة، فهذا يزيد احتمال تناثر شظايا القشرة. الأفضل أن تحضر سكّينًا حادّةً رفيعة، وتنزل بها على البيضة كأنّك تضرب بالسّوط. أترى؟»، قالت ومحتوى البيضة ينزلق إلى قعر الزّبديّة.

راقبها ستّة ونصف بعينين لا ترمشان.

«الآن أنا أمزّق الرّوابط الدّاخليّة في البيضة كي تستطيل سلاسلُ الأحماض الأمينيّة»، قالت له وهي تخفق: «ما سيسمح للذّرّات المتحرّرة أن ترتبط بذرّات أخرى متحرّرة على نحو مماثل. ثمّ سأجعل المزيج يتّحد في قوامٍ رخو، وأفرده على سطح مصنوع من خليطة حديد وكربون، حيث أعرّضه لحرارة مضبوطة، مقلّبةً إيّاه باستمرار حتّى يبلغ مرحلةً قريبة من التّخثّر».

«لالان حيوان»، أعلن كالفن وهو يدخل إلى المطبخ متهاديًا بِتيشيرت مبتلّ.

«أتّفق»، قالت إليزابيث وهي ترفع المقلاة عن النّار وتُنزل البيض في طبقين: «لأنّ البشر حيوانات بالفعل، من النّاحية التّقنيّة. مع أنّني أحيانًا أرى الحيوانات الّتي نعتبرها حيوانات أكثرَ تقدّمًا بكثير منّا نحن الحيوانات الّذين لا نعتبر أنفسنا حيوانات رغم أنّنا كذلك». نظرت إلى ستّة ونصف طلبًا للتّأييد، لكن حتّى هو ما كان بمقدوره أن يُعربَ هذه الجملة.

«حسنًا، لقد أعطاني جاك فكرة»، قال كالفن وهو يرخي جثّتَه الكبيرة على كرسيّ: «وأظنّ أنّك ستحبّينها. سوف أعلّمكِ التّجديف».

- ناولني كلوريد الصّوديوم.

- سوف تحبّينه. بوسعنا أن نجدّف في قارب زوجيّ، وربّما مزدوج المجاديف. سنتفرّج على الشّمس وهي تشرق فوق الماء.

- لستُ مهتمّةً حقًّا.

- يمكننا أن نبدأ غدًا.

كالفن ما زال يخرج للتّجديف ثلاثة أيّام في الأسبوع، لكن في قارب مفرد حصرًا. وهذا ليس غريبًا بين نخبة المجدّفين: ما إن يعتاد واحدُهم على التّجديف في قاربِ فريقٍ يعرف أفرادُه بعضَهم على المستوى الخلويّ، حتّى يجد صعوبةً في التّجديف برفقة آخرين. إليزابيث تعرف كم يشتاق إلى قاربه في كامبريدج، لكنّ التّجديف لا يثير اهتمامها مع ذلك.

«لا أريد. إضافةً إلى أنّك تجدّف في الرّابعة والنّصف صباحًا».

«أنا أجدّف في الخامسة»، قال كأنّ هذا يجعل الأمر أكثر منطقيّةً بكثير: «إنّما أغادر المنزل في الرّابعة والنّصف».

- لا.

- لماذا؟

- لا.

- لكن لماذا؟

- لأنّ ذلك يتزامن مع موعد نومي.

- بسيطة، نخلد إلى السّرير مبكرًّا.

- لا.

«سأعرّفكِ أوّلًا على ماكينة التّجديف، نحن نسمّيها الإرغ. لديهم بعضٌ منها في مستودع القوارب، لكنّني سوف أصنع واحدةً للاستخدام المنزليّ. بعد ذلك ننتقل إلى قارب، قاربٍ رفيع. وبحلول أبريل، سنجد أنفسنا ننزلق على وجه الماء في الخليج، ونتفرّج على شروق الشّمس، فيما نسمع حركات مجاديفنا تضبط إيقاعًا متوازنًا».

لكن رغم قوله هذا، كالفن يعلم أنّ الأمر غير ممكن. فأوّلًا، لا أحد يتعلّم التّجديف في غضون شهر واحد. معظم النّاس، حتّى بوجود إشرافٍ اختصاصيّ، لا يتمكّنون من التّجديف جيّدًا خلال سنة، وأحيانًا ثلاث، وكثيرون لا يتمكّنون من ذلك أبدًا. أمّا في ما

يتعلّق بالانزلاق على وجه الماء، فلا يوجد شيء من هذا القبيل. للوصول إلى مرحلة قد يصبح التّجديف فيها شبيهًا بالانزلاق، لا بدّ أن يكون المرء بلغ المستوى الأولمبيّ، والتّعبير الّذي سيعلو وجهَه حينئذٍ وهو يخوض في مسار السّباق لن يوحي بالرّضى الهادئ بل بالعذابات المكبوحة، ويترافق هذا أحيانًا مع نظرة تصميم، نظرةٍ تشي أنّ صاحبها بمجرّد انتهاء السّباق سيبدأ التّخطيط للبحث عن رياضة جديدة. ومع ذلك، ما إن طرح الفكرةَ حتّى أُغرِمَ بها. التّجديف في قاربٍ زوجيّ مع إليزابيث. أيّة عَظَمة!

- لا.

- لكن *لماذا*؟

«هكذا. لأنّ النّساء لا يجدّفن». لكنّها، بمجرّد نطقها لهذه الكلمات، لم تلبث أن ندمت.

«إليزابيث زوت»، قال متفاجئًا: «أتُراكِ تقولين إنّ النّساء *لا يستطعن* أن يجدّفن؟»

وبهذا حُسم الأمر.

في الصّباح التّالي، غادرا البنغل في الظّلام؛ كالفن يرتدي تيشيرته وبنطاله الرّياضيّ القديمين، وإليزابيث ترتدي أيًّا كان ذلك الّذي استطاعت أن تجده وكان له مظهر رياضيّ ولو من بعيد. وحين توقّفت السّيّارة عند مستودع القوارب، أطلّ كلٌّ من ستّة ونصف

وإليزابيث من النّافذة فأبصرا بضعة ظلال بشريّة على الرّصيف المائيّ تقوم بحركات جمبازيّة.

«ألا ينبغي أن يفعلوا هذا في الدّاخل؟»، سألته: «الضّوء لم يطلع بعد».

«في صباح كهذا؟». كان الجوّ ضبابيًّا.

- ظننتك لا تحبّ المطر.

- هذا ليس مطرًا.

للمرّة الأربعين على الأقلّ، وجدت إليزابيث نفسها تشكّك في صواب هذه الخطّة.

«سنبدأ بشيء سهل»، قال كالفن يقودها هي وستّة ونصف إلى داخل المستودع، وهو بناء مُتنخِّر تنبعث منه روائح العفن والعرق. ولدى مرورهم بصفوفٍ من قوارب التّجديف الخشبيّة الطّويلة المرتّبة في طبقات تبلغ السّقفَ مثل أعواد تنظيف أسنان مكدّسة بأناقة، أومأ كالفن برأسه إلى شخصٍ رثِّ المنظر تثاءب وردّ له الإيماءة، فالمحادثة ليست ممكنة بعد. ثمّ توقّف حين وجد ما كان يبحث عنه، ماكينة تجديف - الإرغ، وكانت مدسوسة في إحدى الزّوايا. أخرجها من محلّها، ووضعها في منتصف المكان بين أكداس القوارب.

«الأهمّ فالمهمّ»، قال: «التّكنيك». جلس وبدأ يشدّ، فتحوّلت أنفاسه بسرعة إلى سلسلة من الانفجارات الموجعة القصيرة الّتي لم

تبدُ سهلةً ولا ممتعة. «السّرّ يكمن في إبقاء المعصمين مستقيمين»، نفَخ: «والرّكبتين إلى الأسفل، وإشراك عضلات المعدة في العمليّة، و...»، لكنّ ما قاله بعد ذلك أيًّا كان ضاع وسط إلحاح أنفاسه، وخلال بضع دقائق بدا أنّه نسي وجود إليزابيث من أساسه.

انسلّت مبتعدة، ستّة ونصف بجانبها، وذهبت تستكشف المستودع. ثمّ توقّفت أمام منصب يحمل غابةً من مجاديف طويلة على نحوٍ لا يصدّق، جعلت المكان يبدو مخصّصًا للعمالقة. بجوار المنصب توجد خزانة جوائز كبيرة، بدأ ضوء الصّباح الباكر لتوّه يكشف عن مخزونها من كؤوس فضّيّة وبدلات تجديف قديمة تشهد على أصحابها الّذين أثبتوا أنّهم الأسرع أو الأكفأ أو الأشدّ بأسًا، أو ربّما الثّلاثة معًا. أشخاص شجعان، وفقًا لكالفن، أظهروا من التّركيز ما أوصلهم إلى خطّ النّهاية قبل الجميع.

بجانب البدلات صورٌ فوتوغرافيّة لشبّانٍ أقوياءِ البنية مع مجاديف عملاقة، لكن ثمّة شخص آخر أيضًا: رجل له حجمُ قامةِ مُحترفي الفروسيّة، جدّيّتُهُ واضحةٌ وضوحَ ضآلة بنيته، وفمه ثابتٌ في خطّ متجهّمٍ حازم. الدّفّاف، كما كان كالفن قد أخبرها؛ الشّخص الّذي يُملي على المجدّفين ما يفعلونه ومتى يفعلونه: زيادة معدّل الضّربات، الانعطاف، اللّحاق بقارب آخر، رفع السّرعة. راق لها أنّ شخصًا مُنمنمًا يُمسك بأعِنّةِ ثمانية خيول جامحة: صوته أمرُهم النّافذ، يداه دفّتهم، تشجيعه وقودهم.

استدارت تشاهد بقيّة المجدّفين الّذين بدؤوا يتوافدون، كلٌّ يومئ بإجلال لكالفن المستمرّ في تمرينه على الماكينة الصّاخبة، وبعضهم يكشف عن شيءٍ من الحسد حين يرفع معدّل الضّربات بسلاسةٍ واضحة استطاعت إليزابيث نفسها أن ترى فيها علامةً على القدرات الرّياضيّة الأصيلة. مكتبة سُر مَن قرأ

«متى ستجدّف برفقتنا يا إيفانز؟»، سأله أحدُهم وهو يصفعه على كتفه: «يمكننا أن نستغلّ هذه الطّاقة خيرَ استغلال!». لكن إن كان كالفن قد سمع أو أحسّ بشيء، فهو لم يُبدِ أيّة استجابة. أبقى عينيه إلى الأمام، وجسده ثابتًا.

إذًا، قالت لنفسها، هو أسطورة هنا أيضًا. كان الأمر واضحًا، لا من خلال الإجلال الّذي يُبدونه فحسب، بل في خنوعهم وهم يحاولون العمل حوله وحول الموقع السّخيف الّذي احتلّه - كان كالفن قد وضع ماكينة التّجديف في منتصف مساحة المستودع تمامًا. نظر الدّفّاف يُقيّم الموقف والانزعاجُ ظاهر عليه.

«إلى العمل!»، صاح بمجدّفيه الثّمانية، فخفّوا إلى مواضعهم عند جانب قاربهم الثّقيل، وأجسادهم تستعدّ لرفعه. «أخرجوه»، أمرهم: «حين أعد إلى الاثنين، ارفعوه على الأكتاف».

لكن كان واضحًا أنّهم لن يبرحوا مكانهم - ليس مع وجود كالفن في المنتصف.

«كالفن»، همست إليزابيث تستحثّه راكضةً إلى ورائه: «أنت تعترض طريقهم، عليك أن تغيّر مكانك». إلّا أنّه تابع ما يفعله.

«يا ليسوع»، قال الدّفّاف ينفث الهواء من بين شفتيه: «*هذا* الرّجل». نظر بطرف عينه إلى إليزابيث، ثمّ أشار إليها بإبهامه في حركةٍ حادّة كي تتنحّى جانبًا، واتّخذ وضعيّة قرفصاء خلف أذن كالفن اليسرى مباشرةً.

«كال، عليهم يا وحش»، راح يدمدم: «حافظ على عمق ضرباتك يا بن العاهرة، أمامنا خمسمئة نقطعها وأنت لم تنتهِ بعد. قارب أكسفورد قادم من الميمنة وقد بدأ يتقدّم».

نظرت إليزابيث إليه مبهوتة. «*المعذرة*، لكن...»، همّت تقول.

«أعرف أنّ هذا ليس كلّ ما عندك يا إيفانز»، قاطعها مزمجرًا: «لا تخبّئ قدراتك أيّها الماكينة بنت الزّنا. حين أعدّ إلى الاثنين أريد منك عشرين ضربة قويّة متتالية. عند *الاثنين*، حين أقول *أنا* لك، ستجعل قِحابَ أكسفورد هؤلاء يرجعون إلى أسرّتهم، ستجعل هؤلاء الأولاد يتمنّون لو أنّهم موتى، سوف تقتلهم يا إيفانز. شدّ حيلك يا أخي، لقد بلغنا اثنتين وثلاثين ونحن في طريقنا *اللّعين إلى الأربعين*. حين أقول لك: واحد، اثنان، انطلق، عشرون ضربة **يا بن القحبة!**»، صاح: «**الآن فورًا!**»

لم تعرف إليزابيث أيّهما صادم أكثر: اللّهجة الّتي يستعملها الرّجل صغير البنية، أم تفاعل كالفن الحارّ مع تلك اللّهجة. خلال لحظات من سماع كلماتٍ مثل «أيّها الماكينة بنت الزّنا» و«قحاب أكسفورد»، اكتسى وجهُ كالفن بتعبيرٍ مجنون لا يُرى عادةً سوى في أفلام الزّومبي منخفضة الميزانيّة. صار يجدّف بضرباتٍ أقوى

وأسرع، وينفث أنفاسَه بصوتٍ عالٍ بدا معه أشبه بقطارٍ تعطّلت مكابحُه. ومع ذلك فالرّجل صغير البنية لم يَقنع؛ ظلّ يصيح بكالفن، يأمر بالمزيد وينال المزيد، فيما هو يعدّ الضّربات تنازليًّا مثل ساعة توقيت غاضبة: عشرون! خمس عشرة! عشر! خمس! ثمّ اختفى العدُّ لتحلّ محلَّه كلمتان بسيطتان ما كانت إليزابيث لتستطيع أن تتفّق معهما أكثر.

«كفى تجديفًا»، قال الدّفّاف، وبإيعازٍ من هاتين الكلمتين تداعت جثّةُ كالفن الثّقيلة إلى الأمام كأنّه أصيب برصاصة في ظهره.

«كالفن!»، صاحت إليزابيث وهرعت إليه: «يا إلهي!»

«إنّه بخير»، قال الدّفّاف: «أليس كذلك يا كال؟ والآن أزِحْ هذه الماكينة الخرائيّة عن خِلقتنا».

فأومى كالفن برأسه يعبّ الأكسجين عبًّا. «على.. الفور.. يا.. سام»، قال يلهث بين جرعة هواء وأخرى: «وشكرًا.. لك.. لكن.. أوّلًا.. أريد.. أن.. أعرّفك.. على.. إليز.. إليز.. إليزابيث زوت.. شريكتي.. الجديدة.. في القارب.. الزّوجيّ».

ومن فورها، أحسّت إليزابيث بكلّ الأعين في المستودع تتّجه نحوها.

«شريكةٌ في قارب زوجيّ مع إيفانز»، قال أحد المجدّفين فاغرًا عينيه: «ماذا فعلتِ؟ فزتِ بميداليّة ذهبيّة في الألعاب الأولمبيّة؟»

«ماذا؟»

«إذًا فكنتِ تجدّفين في فريق نسائيّ؟»، سألها الدّفّاف وقد بدأ الموضوع يثير اهتمامَه.

«في الواقع، كلّا، لم يسبق لي حقًّا أن...»، ثمّ توقّفت. «توجد فرق *نسائيّة*؟»

«إنّها تتعلّم»، شرح كالفن ما إن بدأ يلتقط أنفاسَه: «لكنّها تملك ما يتطلّبه الأمر»، شهق بعمق، ثمّ نهض عن الماكينة وبدأ يسحبها خارج الطّريق، «بحلول الصّيف ستجدوننا نمسح وجهَ الخليج برفقتكم».

لم تكن إليزابيث متأكّدة ممّا يعنيه ذلك بالضّبط. نمسح وجه الخليج؟ هو لا يقصد المنافسة، أليس كذلك؟ ماذا عن التّفرّج على شروق الشّمس؟

«حسنًا»، قالت بنبرةٍ خفيضة، ملتفتةً إلى الدّفّاف، إذ ذهب كالفن كي ينشّف جسمَه: «لستُ واثقةً إن كنتُ حقًّا...»

«بلى»، قاطعها الدّفّاف قبل أن تستطيع إتمام جملتها: «لا يمكن أن يطلب إيفانز من أحد ركوبَ قارب معه إن لم يكن على قدر المهمّة»، ثمّ أغمض إحدى عينيه ونظر إليها متأمّلًا، «أجل، أنا أيضًا أرى ذلك».

«ماذا؟»، قالت متفاجئة. لكنّه كان قد أدار ظهره وراح يصيح بالأوامر لنقل القارب إلى الرّصيف. «حرّكوا أقدامكم»، سمعته يهتف: «وامشوا بثبات». وخلال لحظات، اختفى القارب خلف الضّباب الكثيف، واعتلت وجوهَ الرّجال حماسةٌ غريبة على الرّغم من أولى قطرات المطر الكبيرة الباردة الّتي تنذر بها ينتظرهم من مشقّة.

تجاوُز

في أوّل يومٍ لهما في الماء، قلبت هي وكالفن القارب الزّوجيّ وسقطا في الماء. في اليوم الثّاني، انقلب القارب. في اليوم الثّالث، انقلب القارب.

«ما الخطأ الّذي أرتكبه؟»، قالت لاهثةً من خلف أسنانٍ تصطكّ، وهما يدفعان القارب الطّويل الرّفيع نحو الرّصيف. كانت قد أهملت إخبارَ كالفن حقيقةً صغيرةً عن نفسها: أنّها لا تجيد السّباحة.

«كلّ شيء»، أجاب متنهّدًا.

«كما سبق وذكرت»، قال بعد عشر دقائق وهو يشير إلى ماكينة التّجديف، قاصدًا أنّ عليها الجلوس رغم ملابسها المبلّلة: «التّجديف يتطلّب أن يكون التّكنيك مثاليًّا».

وفيما هي تعدّل وضع سِناد القدمين، راح يشرح لها أنّ المجدّفين يلجؤون عادةً إلى الإرغ حين تكون المياه هائجةً أكثر من المقبول، أو حين يريدون قياس المدّة، أو عندما يكون المدرّب في مزاجٍ عكر حقًّا. وإن قاموا بعملهم على الإرغ بشكل صحيح، لا سيّما في اختبارات

اللّياقة، يكون الاستفراغ أمرًا مألوفًا. ثمّ ذكر أنّ التّدريب على الإرغ يستطيع أن يجعل أسوأ يومٍ في الماء يبدو جيّدًا للغاية.

مع ذلك، هذا هو بالضّبط ما يكون من نصيبهما كلّ مرّة: أسوأ الأيّام. في الصّباح التّالي مباشرةً وجدا نفسيهما قد سقطا في الماء من جديد، وكلّ هذا لأنّ كالفن ظلّ يُغفل حقيقةً بسيطة محدّدة: أنّ التّجديف في قارب زوجيٍّ مفردِ المجداف هو الأصعب. الأمر أشبه بمن يبدأ تعلّم الطّيران بالتّدرُّب على طائرة B-52. لكن ما الخيارات الّتي يملكانها؟ كان يعلم أنّ الرّجال لن يتركوها تجدّف معهم في قارب أكبر، كالقارب الثّمانيّ مثلًا؛ فإلى جانب كونها أنثى، انعدام خبرتها يعني أنّها ستفسد جولة التّجديف. بل وأسوأ، فربّما تفقد السّيطرة على مجدافها فتكسر بضعة أضلع. هو لم يخبرها عن هذا النّوع من الحوادث بعد، والأسباب واضحة.

أعادا قلبَ القارب وصعدا إلى متنه.

- المشكلة أنّكِ لا تنجزين حركة الانزلاق بصبرٍ كافٍ، عليكِ أن تتمهّلي بحقّ الجحيم يا إليزابيث.

- أنا أجدّف ببطء.

- كلّا، أنتِ تستعجلين، وهذا من أسوأ الأخطاء الّتي يمكن للمجدّفين أن يقترفوها. أتعرفين ماذا يحدث كلّما استعجلتِ في حركة الانزلاق؟ يُميتُ اللهُ هرّةً صغيرة، كلّ مرّة.

- أوه، حبًّا بالله يا كالفن.

- كما أنّ حركة القبض لديك بطيئة جدًّا. الهدف هو التّحرّك بسرعة، تتذكّرين؟

«أوه، *هكذا* باتت الأمور واضحة من غير ريب»، صاحت من مؤخّر القارب: «تمهّل كي تزيد سرعتك».

صفعها على كتفها كما لو أنّها بدأت تفهم الفكرة أخيرًا: «بالضّبط».

شدّت قبضتها على المجداف مرتجفة. يا لها من رياضة غبيّة. طوال الدّقائق الثّلاثين التّالية، حاولت أن تلتفت إلى أوامره المتناقضة: *ارفعي يديك؛ لا، أخفضيها! انحني إلى الخارج؛ ربّاه، ليس إلى هذه الدّرجة! يا يسوع، جذعُكِ يتدلّى، شفرةُ المجداف مرتفعة، أنت تستعجلين، لقد تأخّرتِ، تحرّكتِ مبكّرًا!* إلى أن بدا أنّ القارب نفسه قد سئم من الأمر برمّته فقذفهما إلى الماء من جديد.

«ربّما كانت هذه فكرة سيّئة»، قال كالفن وهما يسيران عائدين إلى مستودع القوارب، والقاربُ الثّقيل يعضّ لحمَ كتفيهما المشبعَ بالماء.

«ما مشكلتي الرّئيسيّة؟»، قالت مهيّئةً نفسها للأسوأ وهما يعيدان القارب إلى الرّفّ. لطالما شدّد كالفن على أنّ التّجديف يستلزم أعلى مستويات العمل الجماعيّ، وهذه مشكلةٌ بما أنّها -وفقًا لأقوال رئيسها- لا تجيد العمل ضمن فريق. «قل لي، لا تُخفِ عليّ».

«الفيزياء»، أجاب كالفن.

«الفيزياء»، كرّرت بارتياحٍ ظاهر: «حمدًا لله».

«لقد فهمت»، قالت وهي تتصفّح مرجعَ فيزياء في وقت لاحق من اليوم نفسه أثناء الدّوام: «التّجديف مسألة بسيطة: الطّاقة الحركيّة مقابل إعاقة القارب ومركز الكتلة». دوّنت بضع معادلات.

«والجاذبيّة»، أضافت: «وقوّة الطّفوّ والنّسبة والسّرعة والتّوازن والتّكييف وطول المجداف ونوع الشّفرة...». كلّما قرأت تكتب المزيد، فتكشف دقائقُ التّجديف شيئًا فشيئًا عن نفسها في خوارزميّات معقّدة. «أوه، حبًّا بالسّماء»، قالت وهي تُرجع ظهرها: «التّجديف ليس *بهذه* الصّعوبة».

«يا يسوع!»، هتف كالفن بعد يومين حين انطلق قاربهما يمخر الماءَ دون عوائق: «*من* أنتِ؟». لم تقل شيئًا، وأخذت تكرّر المعادلات في رأسها. ولدى مرورهما بقارب رجالٍ ثمانيٍّ ساكنٍ في وضع استراحة، أدار كلُّ مجدّفيه رؤوسهم ليتفرّجوا عليهما.

«أرأيتم ذلك؟»، صاح الدّفّاف بفريقه غاضبًا: «أرأيتموها كيف تزيد عمقَ ضرباتِها *دون* تجاوُزٍ في مدّ الذّراعَين؟»

ومع ذلك، بعد نحو شهر، اتّهمها رئيسها، د. دوناتي، أنّها تفعل ذلك بالضّبط. «هذا تجاوزٌ يا آنسة زوت»، سكت قليلًا وضغط على كتفها: «النّشوء اللّاحيويّ موضوعُ دكتوراه جامعيٌّ مملٌّ لا أحد يلقي له بالًا. ولا تسيئي فهم ما أقوله، لكنّه يفوق استيعابَك الفكريّ».

«وكيف بالضّبط *يُفترض* بي أن أفهم هذا؟»، رفعت كتفها لتدفع يدَه عنها.

«ماذا أصابك هنا؟»، قال متجاهلًا نبرتها وأخذ أصابعَها المضمَّدةَ في يديه: «إن كنتِ تواجهين صعوبةً مع معدّات المختبر، تعلمين أنّ بمقدورك طلب المساعدة من أحد الرّفاق».

«إنّني أتعلّم التّجديف»، قالت وانتزعت أصابعها منه. على الرّغم من تحسّنها في الآونة الأخيرة، فقد لاقت فشلًا ذريعًا في عدّة جولات لاحقة.

«التّجديف، ها؟»، قال دوناتي وقلَب عينيه. *إيفانز*.

كان دوناتي هو الآخر يمارس التّجديف في ما مضى، بل ويمارسه في هارفارد دونًا عن غيرها، وآنذاك جعله حظُّه العاثر يجدّف مرّةً واحدةً ضدّ إيفانز وقاربِ كامبريدج العزيزِ على قلبه في سباق هينلي اللّعين. وبشكلٍ مدروس، أُلقِيَ اللّوم في خسارتهم الكارثيّة (بفارق سبعة أضعاف طول القارب) -الّتي لم يشهدها سوى حفنة من الأشخاص بالكاد استطاعوا أن يلمحوها لمحًا من خلف بحرٍ من القبّعات العملاقة- على وجبةِ سمكٍ وبطاطا تناولوها في اللّيلة السّابقة، عوضًا عن طنّ البيرة الّذي أفرغوه في أجوافهم بعدها.

بصياغة أخرى، كانوا جميعهم ما يزالون مخمورين عند الانطلاق.

وبعد السّباق، طلب منهم مدرّبهم أن يذهبوا ويهنّئوا فريق كامبريدج المتغطرس. عندئذٍ علم دوناتي للمرّة الأولى أنّ واحدًا من فتيان كامبريدج أمريكيّ، بل وأمريكيّ يُضمر الضّغائن لهارفارد لسببٍ ما. وفيما هو يصافح إيفانز، استطاع دوناتي أن يتلفّظ بـ «أداء موفّق»، لكن عوضًا عن الرّدّ بالمثل، قال إيفانز: *«ربّاه، هل أنت مخمور؟»*

وعلى الفور تكوّن لدى دوناتي نفورٌ منه، نفورٌ تضاعف ثلاثًا عندما علم أنّ إيفانز لا يدرس الكيمياء مثله فحسب، بل هو *ذلك*

الإيفانز - *كالفن* إيفانز، الرّجل الّذي كان قد ترك بصمةً فارقةً منذ ذلك الوقت في عالم الكيمياء.

أيكون إذاً من المفاجئ -بعد سنوات، عندما قبل إيفانز عرضَ هاستينغز فائقَ الإهانة الّذي دبّره دوناتي بنفسه- أنّ دوناتي لم يقابله بالتّرحاب والحفاوة؟ أوّلًا، إيفانز لم يتذكّره - هذه وقاحة. ثانيًا، بدا أنّ إيفانز ما زال يحتفظ بلياقته البدنيّة - هذا مزعج. ثالثًا، لقد قال إيفانز لـ*الكيمياء اليوم* إنّه قَبِلَ الوظيفة، لا بناءً على سمعة هاستينغز اللّامعة، بل لأنّ *الطّقس اللّعين هناك يروقه*. دون مبالغة، هذا الرّجل وغد. لكن هنالك عزاءٌ واحدٌ مع ذلك. دوناتي هو مدير قسم الكيمياء، وهذا ليس فقط لأنّ والده يلعب الغولف برفقة المدير التّنفيذيّ، أو لأنّ الصّدفة شاءت أن يكونَ فليونَ[1] الرّجل، وبالتّأكيد ليس لأنّه تزوّج من ابنته. زبدة القول: إيفانز العظيم سوف يعمل *تحت إمرته*.

وللتّأكيد على أنّه الدّيك الأكبر هنا، قام باستدعاء هذا المتبجّحِ إلى اجتماع، ثمّ تأخّر عشرين دقيقة عمدًا. لكن لسوء الحظّ، استقبلته قاعةُ اجتماعاتٍ خاوية، لأنّ إيفانز لم يكن قد جاء من الأساس. «آسف يا دينو»، قال له إيفانز لاحقًا: «أنا لا أحبّ الاجتماعات كثيرًا».

«اسمي *دوناتي*».

والآن؟ إليزابيث زوت. لم تكن زوت تروق له، فهي مجترئة وذكيّة ومتشبّثة برأيها، والأسوأ أنّ ذوقها في الرّجال مريع. وعلى

(1) الفليون في المسيحيّة هو الابن بالمعموديّة. (المترجم)

عكس آخرين كثر، هو لا يرى زوت جذّابة. ألقى نظرة على صورة لعائلته في إطار فضّيّ: ثلاثة صبيان بآذان كبيرة يقفون في كنفِ إيديث ذات المنقار الحادّ وهو بجانبها. هو وإيديث فريقٌ بالطّريقة الّتي يُفترض أن يكون الزّوجان فريقًا بها: ليس من خلال هوايات مشتركة مثل *التّجديف* بحقّ اللّعنة، بل على النّحو الّذي يليق اجتماعيًّا وبدنيًّا بجنسٍ كلٍّ منهما. هو يعود باللّحم المقدّد إلى المنزل، وهي تفرّخُ الأطفال. إنّه زواج طبيعيّ مثمرٌ يُقرّه الله. أَوَلا ينام مع نساء أخريات؟ يا له من سؤال، أليس هذا أمرًا يفعله الجميع؟

«... وهي فرضيّتي الضّمنيّة...»، كانت زوت تقول.

مؤخّرته والفرضيّة الضّمنيّة سواء. هذا هو الشّيء الآخر الّذي يكرهه في زوت: أنّها لا تكلّ ولا تملّ. متصلّبة. لا تعلم متى تستسلم. كلّها خصائص مُجدِّف، الآن إذ يفكّر في ذلك. هو لم يمارس التّجديف منذ سنين. أيوجد في البلدة فريق نسائيّ حقًّا؟ لا شكّ، إذ يستحيل أن تكون تجدّف مع إيفانز. لا يمكن أن يتنازل المجدّفون النّخبة مثل إيفانز ويركبوا قاربًا برفقة شخص مبتدئ، حتّى لو كانوا ينامون مع هذا الشّخص. كلّا؛ *لا سيّما* إذا كانوا ينامون مع هذا الشّخص. أغلب الظّنّ أنّ إيفانز سجّلها في فريقٍ ما للمبتدئات، وزوت، الّتي أرادت إثبات أنّها على قدر المهمّة - *كالمعتاد*، ساقت في القصّة. ارتعد من فكرةِ حفنةِ مجدّفات يتخبّطن، وشفرات مجاديفهنّ تضرب الماء مثل مَلَاوِقَ[1] خارجةٍ عن السّيطرة.

(1) جمع مِلوَقة أو ملوق: أداة ذات طرفِ عاملٍ عريض ومرن، تستخدم لمزج المواد (كالأطعمة أو المواد الدّوائيّة أو الجصّ والطّلاء) وبسطها. (المترجم)

«... أنا مصمّمةٌ على خوض هذا الموضوع إلى آخره يا د. دوناتي...»، قالت زوت بنبرةٍ جازمة.

أجل، أجل، ها هي ذي. النّساء اللّاتي على شاكلتها دائمًا ما يستخدمن كلمة «مصمّمة». حسنًا، هو مصمّم أيضًا. اللّيلة الماضية تمامًا توصّل إلى طريقة جديدة للتّعامل مع زوت. سوف يسرقها من إيفانز. وهل من طريقة أفضل كي يردّ الجميل للرّجل العظيم؟ ثمّ، حالما يحوّل روايةَ إيفانز-زوت الغراميّة إلى مسرحِ حادثةٍ دون ناجين، سوف يتركها ويعود إلى زوجته ربّة المنزل -الحبلى مرّةً أخرى- وأولاده الّذين يصدّعون الرّؤوس، دون أدنى ضرر.

خطّته بسيطة: أوّلًا، يهاجم تقديرَ زوت لذاتها. لا أسهل من سحق النّساء.

«كما قلتُ»، قال دوناتي بنبرة توكيد وهو ينهض واقفًا ويَهشُّها نحو الباب بالعًا بطنَه: «الأمر وما فيه أنّك لستِ ذكيّةً بما يكفي».

قطعت إليزابيث الدّهليزَ في مشية متعالية، وكعبا حذائها يدقّان البلاطَ وفقَ إيقاعٍ متقطّعٍ ينذر بالخطر. حاولت أن تهدّئ نفسَها عن طريق سحب نفَسٍ عميق، إلّا أنّ الهواء هرع إلى الخارج من جديد بسرعةِ إعصار. توقّفت بغتةً، وخبطت قبضتَها بالحائط، ثمّ أخذت لحظةً لتراجع خياراتها.

تُعيد المرافعة.

تستقيل.

تُضرِم النّارَ في المبنى.

لم تكن تريد الاعتراف بهذا، لكنّ كلماته كانت أشبه بوقودٍ جديد لمحرقةِ شكِّها في ذاتها المتناميةِ دائمًا. هي لا تمتلك الدّرجة العلميّة ولا الخبرة الّتي يمتلكها الآخرون، ولا تفتقر إلى أوراق اعتمادهم فحسب، بل أيضًا إلى منشوراتهم البحثيّة وما يتمتّعون به من دعمِ أقرانٍ وركائز ماليّة وجوائز. ومع ذلك، هي تعلم -علمَ اليقين- أنّها على مشارف تحقيق شيء. بعض النّاس يولدون ليحقّقوا أشياء معيّنة، وهي من هؤلاء النّاس. ضغطت بيدها على جبينها كما لو كان هذا قد يتكفّل بمنع رأسها من الانفجار.

«آنسة زوت؟ المعذرة. آنسة زوت؟»

بدا الصّوت صادرًا من العدم.

«آنسة زوت!»

من خلف الزّاوية التّالية مباشرةً أطلّ رجلٌ خفيفُ الشّعر يحمل رزمةَ أوراق. إنّه د. بوريفايتس، زميلٌ لها في المختبر كثيرًا ما يطلب مساعدتَها، كما يفعل معظمُهم، حين لا يكون ثمّة من ينظر.

«كنت أتساءل إذا ما كان بوسعك أن تلقي نظرةً على هذا»، قال بصوتٍ خفيض، يشير إليها كي تتبعه جانبًا والقلقُ يُهيّج جبينَه: «نتائج اختباري الأخير». دفع إحدى الأوراق إلى يديها. «أزعم أنّه فتحٌ علميّ، ما رأيك؟»، يداه ترتجفان، «شيء جديد؟»

كان يكسو وجهَه بالتّعبير المعتاد - الخوف، كأنّه رأى شبحًا لتوّه. معظمهم يرى في حصول د. بوريفايتس على دكتوراه في الكيمياء لغزًا، ناهيك بتحصيل وظيفة في هاستينغز. وكثيرًا ما بدا هو ذاته محتارًا بالدّرجة نفسها.

«أتظنّين أنّ هذا قد يثير اهتمامَ صديقك الشّابّ؟»، سألها بوريفايتس: «لعلّ بمقدورك أن تعرضيه عليه. هل كنتِ متّجهة إلى هناك؟ إلى مختبره؟ لعلّني أرافقك». مدّ يده وأطبقها على ساعِدها كما لو كانت طوق نجاة، شيئًا يتشبّث به إلى حين وصول سفينة الإنقاذ الكبيرة على شكل كالفن إيفانز.

سحبت إليزابيث الأوراق من يده بحذر. على الرّغم من كثرة طلباته، كان بوريفايتس يروق لها؛ فهو مهذّب ومهنيّ، كما أنّ بينهما قاسمًا مشتركًا: كلاهما موجود في المكان الخطأ والتّوقيت الخطأ، وإن يكن لأسباب مختلفة تمامًا.

«الأمر يا د. بوريفايتس»، قالت محاولةً وضعَ ما عندها من مشاكل جانبًا ريثما تتفحّص عملَه: «أنّ هذا جزيءٌ ماكرويٌّ يتألّف من وحدات متكرّرة تربطها روابطُ أميديّة».

- صحيح، صحيح.

- بصياغة أخرى، إنّه عديدُ أميد.

«عديد...»، هوى وجهُه. حتّى هو يعرف أنّ عديدات الأميد موجودة منذ الأزل. «أظنّكِ قد تكونين مخطئة»، قال: «انظري مرّةً أخرى».

«هذه ليست نتيجةً سيّئة»، قالت برفق: «كلّ الأمر أنّها مُثبتة مسبقًا».

هزّ رأسه بإحباط: «إذًا لا يجدر أن أعرض هذا على دوناتي».

«ما فعلتَه عمليًّا هو أنّك أعدتَ اكتشاف النّايلون».

«حقًّا»، قال ينظر إلى نتائجه مُطرقًا: «تبًّا». غاص رأسُه، وتبع ذلك صمتٌ غير مريح، ثمّ ألقى نظرةً على ساعته كما لو أنّه قد يجد فيها جوابًا. «ما كلُّ هذا؟»، قال أخيرًا، يشير إلى أصابعها المضمّدة.

- أوه، لقد صرتُ مُجدِّفة. أو أحاول أن أكون.

- وهل تُبلين حسنًا؟

- لا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إذًا لماذا تفعلين ذلك؟

- لستُ متأكّدة.

هزّ رأسه: «ربّاه كم أفهم هذا».

«كيف تسير الأمور مع مشروعك؟»، سأل كالفن إليزابيث بعد بضعة أسابيع وهما جالسان لتناول الغداء. قضمَ قضمةً من شطيرة الدّيك الرّوميّ خاصّته، وراح يمضغ بحيويّةٍ ليُمَوِّهَ حقيقةَ أنّه يعرف الجوابَ أصلًا. الجميع يعرفون.

«على ما يرام»، أجابت.

«ما من مشاكل؟»

«كلّا»، رشفت من كأس الماء.

- تعلمين أنّكِ إن حدث واحتجتِ إلى مساعدتي...

-... لستُ بحاجة إلى مساعدتك.

تنهّد كالفن مُحبَطًا. هذا نوعٌ من السّذاجة، قال لنفسه، أن تؤمن أنّ كلّ ما يلزم للنّجاح في الحياة هو العزيمة. لا شكّ، العزيمةُ شديدةُ الأهمّيّة، لكنّ الأمر يتطلّب حظًّا أيضًا، وإن لم يكن الحظّ متوفّرًا، فالمساعدة. الجميع بحاجة إلى المساعدة. لكن لعلّها ترفض تصديق ذلك لأنّ المساعدة لم يسبق أن عُرضَت عليها. كم مرّة قالت جازمةً إنّها إن بذلت قصارى جهدها ستنال مرادَها؟ ما عاد يَعدّ. وهذا على الرّغم من كثرة الأدلّة الّتي تؤكّد العكس، ولا سيّما في هاستينغز.

فيما هو يُنهي غداءهما -بالكاد لمست طعامَها- وعدَ نفسَه ألّا يتدخّل نيابةً عنها. من الضّروريّ أن يحترم رغباتها. هي تريد أن تعالج الأمرَ بمفردها، لذلك لن يُقحم نفسَه.

«ما مشكلتكَ يا دوناتي؟»، زمجرَ بعد نحو عشر دقائق وهو يقتحم مكتبَ رئيسه: «هل يتعلّق الأمر بنشأة الحياة؟ ضغوط من جمهور المتديّنين؟ النّشوء اللّاحيويّ إثبات آخر على عدم وجود إله، وأنتَ تخشى ألّا يلقى هذا ترحيبًا في كانساس؟ ألهذا تُلغي مشروعَ زوت؟ وتجرؤ أن تسمّي نفسَك عالِمًا».

«كال»، قال دوناتي وذراعاه ممدودتان على سجيّتهما خلف رأسه: «رغم حبّي لدردشاتنا الصّغيرة، فأنا الآن مشغولٌ بعضَ الشّيء».

«لأنّه ما من تفسير مقبول آخر»، تابعَ كالفن اتّهاماتِه، مقحمًا يديه في الجيبين الأماميّين لبنطاله الخاكيّ الفضفاض: «سوى أنّك لا تفهم عملَها».

قلبَ دوناتي عينيه فيما أفلتت من بين شفتيه نفخةُ هواءٍ بائت. لماذا يكون الأشخاص الألمعيّون أغبياء هكذا؟ لو أنّ إيفانز يملك دماغًا من الأساس لاتّهمَه أنّه يحاول إغراء صاحبته الجميلة كي يركّب له قرنين.

«في الواقع يا كال»، قال دوناتي يسحق عقبَ سيجارة: «كنتُ أحاول أن أمنحَ مسيرتَها المهنيّة دفعةً صغيرة إلى الأمام، إذ أُتيحُ لها فرصة العمل معي مباشرةً على مشروع شديد الأهمّيّة، ما يساعدها على التّطوّر في ميادين أخرى».

هاك، قال دوناتي في قرارته، *التّطوّر في ميادين أخرى - أيمكنه أن يكون أكثر وضوحًا؟* إلّا أنّ كالفن بدأ يتحدّث عن نتائج اختبارها الأخير، كما لو أنّهما ما زالا يتكلّمان عن العمل. الرّجل غافلٌ تمامًا.

«تصلني عروضٌ كلَّ أسبوع»، هدّده كالفن: «هاستينغز ليس المكان الوحيد الّذي أستطيع إنجاز أبحاثي فيه!»

ها هو ذا من جديد. كم مرّة سبق لدوناتي أن سمع هذا الكلام؟ لا شكّ، إيفانز بطاقةٌ مرغوبةٌ في عالم البحث العلميّ. وأجل، معظم التّمويل يأتيهم بناءً على مجرّد وجوده. لكن هذا ليس إلّا لكون المموّلين يعتقدون خطأً أنّ اسمَ إيفانز يجذب عقولًا لامعةً أخرى، وهذا ما لم يحدث. على كلّ حال، هو لا يريد لإيفانز أن يغادر؛ يريد لإيفانز أن يفشل وحسب - أن تُفقِدَه خسارةُ الحبِّ صوابَه إلى درجةٍ تجعله يدمّر نفسَه بنفسه، فيُفسد سمعتَه ويرفس كلَّ الفُرَصِ البحثيّة منذ ذلك الحين فصاعدًا. وعندما يحدث هذا، حين*ها* يكون بوسعه أن يغادر.

«كما قلتُ لك»، أجاب دوناتي بنبرة مدروسة: «لم أكن أحاول إلّا أن أمنح الآنسة زوت فرصةً لتطوير ذاتها... أنا أحاول مساعدةَ مسيرتِها المهنيّة».

«بوسعها أن تتدبّر أمر مسيرتها بنفسها».

ضحك دوناتي. «حقًّا؟ ومع ذلك ها/أنت هنا».

لكن ما لم يَقُله دوناتي لكالفن هو أنّ ذبابةً ضخمةً حطَّت مؤخّرًا في «مرهمِه المخصّص للتّخلّص من إيفانز عن طريق زوت» وأفسدَته؛ متبرّعٌ تفيض جيوبُه بالمال.

لقد ظهر الرّجل، من حيث لا أحد يعلم، قبل يومين يحمل شيكًا على بياض وإصرارًا على تمويلِ -من بين كلّ المواضيع الأخرى- النّشوءِ اللّاحيويّ. قابله دوناتي بجدال مهذّب: ماذا عن استقلاب الشّحوم، أو الانقسام الخلويّ؟ إلّا أنّ الرّجل أصرّ: إمّا النّشوء اللّاحيويّ وإمّا لا شيء. لذا لم يكن أمام دوناتي خيار؛ أعاد تكليفَ زوت بمهمّتها المرّيخيّة السّخيفة.

الحقيقة أنّه لم يكن يحرز تقدّمًا يُذكَر معها على أيّة حال، إذ ظلّت صلبةً لا تلين أمام لازمةِ انتقاداته المتكرّرة «لستِ ذكيّة». مهما أعادها وفتَقَها على مسامعها، ما كانت تستجيب ولو لمرّة واحدة بالأسلوب الملائم. أين تقدير الذّات المتدنّي؟ أين الدّموع؟ حين لا تكون تعيد طرحَ حجّتها المملّة بخصوص النّشوء اللّاحيويّ بطريقة مهنيّة، كان يجدها تقول: «المسني مرّةً أخرى وستندم حتّى آخر يومٍ في عمرك». ما الّذي

يراه إيفانز في هذه المرأة بحقّ الجحيم؟ فليحتفظ بها لنفسه هنيئًا مريئًا. سيتعيّن عليه أن يجد طريقةً أخرى كي يردّ الجميل للرّجل العظيم.

«كالفن»، قالت إليزابيث وهي تهرع إلى داخل مختبره في وقتٍ لاحقٍ من ذلك الأصيل: «لديّ أخبار عظيمة. ثمّة شيء كنت أخفيه عنك، وأنا آسفة، لكنّني لم أفعل ذلك سوى لأنّني لم أردك أن تتدخّل. لقد ألغى دوناتي مشروعي قبل بضعة أسابيع، وأنا أكافح منذئذٍ لاستعادته. واليوم آتى ذلك الكفاحُ أُكْلَه. لقد غيّر رأيه - قال إنّه راجع عملي وقرّر أنّه أهمّ من ألّا يُستأنَف».

ابتسم كالفن ابتسامةً عريضةً آملًا أن تكون التّعبيرَ المناسب عن المفاجأة، إذ كان قد غادر مكتبَ دوناتي قبل أقلّ من ساعة. «لحظة؟ حقًّا؟»، قال صافعًا إيّاها على ظهرها: «حاوَلَ أن يلغي مشروعَ النّشوء اللّاحيويّ؟ لا بدّ أنّ هذا كان خطأً منذ البداية».

- أعتذر لأنّي لم أخبرك، لقد أردتُ أن أعالجَ الموضوع بمفردي، وأنا الآن مسرورة أنّي فعلت. أشعر أنّ هذا دليل حقيقيّ على الثّقة الّتي يحظى بها عملي... وأحظى بها أنا.

- بكلّ تأكيد.

أمعنت النّظر إليه أكثر، ثمّ تراجعت خطوة إلى الخلف. «أنا نلتُ هذا بنفسي فعلًا. لا علاقة *لك* بالأمر».

«هذه أوّل مرّة أسمع بالموضوع».

«أنت لم تتحدّث *قطّ* إلى دوناتي»، ألحّت: «لم تُقحم نفسك *قطّ*».

«أقسم لك»، كذب.

بعد مغادرتها، شابك كالفن يديه في نوبةِ غبطةٍ صامتة، وشغّل الهاي-فاي مُنزِلًا إبرتَه على أغنية «الجانب المشمس من الشّارع[1]». ها هو ينقذ أكثر إنسان يحبّه للمرّة الثّانية، وأفضل ما في الموضوع هو أنّها لا تعلم.

سحبَ كرسيًّا، وفتح دفترًا وبدأ يكتب. هو يدوّن يوميّاته مذ كان في السّابعة تقريبًا، يسجّل حقائق حياته ومخاوفها بين سطورٍ من المعادلات الكيميائيّة. حتّى في يومنا هذا، مختبرُه مليء بهذه الدّفاتر المقروءة بالكاد. وهذا أحد الأسباب الّتي تجعل الجميع يفترض أنّه ينجز الكثير من العمل؛ حجمُ الأوراق المكدّسة.

«تصعب قراءة خطّك هنا»، كانت إليزابيث قد نبّهَته في عدّة مناسبات. «ما المكتوب في هذه الفقرة؟»، أشارت إلى فكرةٍ متعلّقةٍ بالحمض النّوويّ الرّيبوزيّ يعبث بها منذ شهور.

«فرضيّة عن التّلاؤم الإنزيميّ»، أجابها.

«وهذا؟»، أشارت إلى أسفل الصّفحة؛ شيءٍ كتبه عنها.

«مزيدٌ عن الموضوع نفسه»، قال وألقى الدّفتر جانبًا.

ليس أنّه يكتب أيَّ شيء مريع عنها - فالأمر على العكس تمامًا، إنّما القصّة بالأحرى أنّه لا يستطيع المجازفةَ وتركها تكتشف هوَسَه بفكرةِ أنّها قد تموت.

---

(1) Sunny Side of the Street.

كان قد توصّل منذ وقتٍ طويل إلى قناعةٍ مفادها أنّه جالبٌ للنّحس، ولديه دليلٌ قويّ: ما من شخص أحبّه يومًا إلّا ومات، ودائمًا في حادثةٍ استثنائيّة. الطّريقة الوحيدة كي يضع حدًّا لهذا المنوال الفتّاك هي أن يضع حدًّا للحبّ. وهذا ما كان. بيد أنّه التقى إليزابيث، ودون أن يقصد -بكلّ غباء وأنانيّة- أحبَّ من جديد. والآن ها هي ذي، واقفة تنتظر دورَها في طابور الإعدام بنيرانِ نحسِه.

نظرًا إلى كونه عالمَ كيمياء، كان يدرك أنّ تركيزَه على موضوع النّحس ليس له أيّ أساس علميّ، فما هو إلّا تَطَيُّر. طيّب، وليكن ذلك. الحياة ليست فرضيّةً يستطيع المرء أن يختبرها ويُعيد اختبارها دون عواقب، فهناك شيء يتحطّم في النّهاية كلَّ مرّة. وبناءً على ذلك كان يظلّ مترقّبًا يحاذر الأشياء الّتي تشكّل تهديدًا لها، وهذا الصّباح وجد أنّ الأمر ينطبق على التّجديف.

لقد قلبا قاربهما من جديد - هذه المرّة بسببه، ولأوّل مرّةٍ على الإطلاق انتهى بهما المطاف في الماء على الجانب نفسه من القارب، فاكتشف أمرًا مرعبًا: هي لا تجيد السّباحة. بالحكم على ما بدا من بطبطتِها المذعورة، فهي لم تأخذ درسَ سباحةٍ في حياتها.

لهذا السّبب، حين ذهبت إليزابيث إلى الحمّام في مستودع القوارب، توجّه هو وستّة ونصف إلى قائد فريق الرّجال، د. ماسون. إنّه موسم الطّقس السّيّئ: إن كان هو وإليزابيث سيتابعان التّجديف -هي تريد أن تتابع فعلًا- فمن الأفضل أن يفعلا ذلك في قارب ثُمانيّ. هذا أكثر أمانًا، بالإضافة إلى أنّ القارب الثّمانيّ إذا انقلب -وهو أمر بعيد الاحتمال- سيكون فيه أشخاص أكثر كي ينقذوها. وعلى كلّ

حال، ماسون يحاول ضمّه إلى فريقه منذ أكثر من ثلاث سنين: الأمر يستحقّ المحاولة.

«ما رأيك؟»، سأل ماسون: «لكن سيكون عليك أن تأخذنا كلينا».

«*امرأة* في قارب رجالٍ ثُمانيّ؟»، قال د. ماسون معدّلًا قبّعتَه فوق الحلاقةِ المتدرّجة خاصّته. لقد كان في السّابق جنديًّا من مشاةِ البحريّة وكرِه ذلك، بيد أنّه احتفظ بقَصّةِ الشّعر.

«إنّها ماهرة»، قال كالفن: «وصلبة جدًّا».

أومأ ماسون برأسه. هو يعمل هذه الأيّامَ طبيبَ توليد، ويعلم كم يمكن أن تتحلّى النّساء بالصّلابة. مع ذلك، امرأة؟ كيف يمكن أن يستوي هذا؟

«اسمعي، خمّني ماذا»، قال كالفن لإليزابيث بعد دقيقة: «فريق الرّجال يريد منّا كلينا أن نجدّف في قاربهم الثّمانيّ اليوم».

«حقًّا؟». لطالما كان هدفها أن تنضمّ إلى قارب ثمانيّ، إذ بدا أنّ هذه القوارب نادرًا ما تنقلب. وهي لم تخبر كالفن قطّ أنّها لا تجيد السّباحة. لماذا تثير قلقَه؟

«قائد الفريق كلّمني للتّوّ. لقد رآك تجدّفين»، قال: «وهو يعرف الموهبةَ حين يراها».

في الأسفل، زفَرَ ستّة ونصف. أكاذيب، *أكاذيب، والمزيد من الأكاذيب*.

– متى نبدأ؟

- الآن.

«الآن؟». أحسَّت بنفضةِ ذُعر. فرغم أنّها تريد أن تجدّف في قارب ثماني، هي تعلم أنّ تلك القوارب تتطلّب مستوًى من المزامنةِ لم تُحقّقه بعد. حين ينجح قاربٌ ما، فهذا لأنّ مجدّفيه استطاعوا أن يضعوا فوارقَهم الصّغيرة وتفاوُتاتهم البدنيّة جانبًا ويجدّفوا كشخصٍ واحد. تناغمٌ مثاليّ؛ هذا هو الهدف. لقد سمعت صدفةً ذات مرّة كالفن يقول لأحدهم في مستودع القوارب إنّ مدرّبه في كامبريدج كان يصرّ حتّى على أن يرمشوا في الوقت نفسه، ولمفاجأتها أومى الرّجل برأسه قائلًا: «كان علينا أن نَبرد أظافر أقدامنا على الطّول نفسه، وهذا أحدث فرقًا هائلًا».

«ستأخذين المقعد اثنين»، قال لها.

«عظيم»، أجابت راجيةً ألّا يكون لاحظ الرّجفةَ العنيفة في يديها.

- الدّفّاف سيصيح الأوامر؛ سوف تكونين على ما يرام. فقط راقبي شفرةَ المجداف الّذي أمامك. ومهما فعلتِ، إيّاكِ أن تُطلّي إلى خارج القارب.

- مهلًا، كيف أستطيع أن أراقب الشّفرة الّتي أمامي إن لم أُطِلَّ إلى خارج القارب؟

«لا تُطلّي وكفى»، حذّرها: «فهذا يُفسد الاستقرار».

- لكن...

- واسترخي.

- أنا...

«إلى العمل!»، صاح الدّفّاف.

«لا تقلقي»، قال كالفن: «سوف تكونين على ما يرام».

قرأت إليزابيث ذات مرّة أنّ 98 بالمئة من الأشياء الّتي يقلق النّاس بشأنها لا تتحقّق أبدًا، لكنّها تساءلت ماذا عن الـ 2 بالمئة الّتي تتحقّق؟ ومن الّذي توصّل إلى هذه الأرقام؟ تبدو نسبة الاثنين بالمئة منخفضة بشكل يدعو إلى الرّيبة. كانت لتصدّق 10 بالمئة، بل وحتّى 20 بالمئة. أمّا في حياتها فالنّسبة على الأرجح أقرب إلى 50. هي حقًّا لا ترغب أن تقلق بشأن جولة التّجديف هذه، لكنّها قلقة. ثمّة احتمال خمسين بالمئة أن تُخفق.

فيما هم يحملون القارب إلى الرّصيف في الظّلام، ألقى الرّجل الّذي أمامها نظرةً من فوق كتفه كأنّه يحاول أن يفهم لماذا يبدو المجدّف الّذي يأخذ المقعد اثنين في العادة أصغرَ حجمًا.

«إليزابيث زوت»، قالت.

«الكلام ممنوع!»، هتف الدّفّاف.

«من؟»، سألها الرّجلُ مرتابًا.

«سآخذ المقعد اثنين اليوم».

«اهدؤوا هناك في الخلف!»، صاح الدّفّاف.

«المقعد اثنان؟»، همس الرّجل غيرَ مصدّق: «*أنتِ* ستجدّفين على المقعد اثنين؟»

«هل من *مشكلة*؟»، ردّت مستهجنة.

«كنتِ رائعة!»، صاح كالفن بعد ساعتين وهو يخبط على مِقوَد السّيّارة بحماسةٍ جعلت ستّة ونصف يقلق من أن يتسبّبوا في حادثةٍ قبل أن يصلوا إلى البيت: «هذا رأي الجميع!»

«أيّ جميع؟»، قالت إليزابيث: «لم يقل أحدٌ كلمةً واحدة لي».

«أوه، لا أحد يسمع شيئًا من بقيّة المجدّفين سوى حين يكونون غاضبين. الخلاصة هي أنّنا ضمن لائحة المجدّفين ليوم الأربعاء»، ابتسم مزهوًّا بنصره. لقد أنقذها مجدّدًا - في العمل أوّلًا والآن هذا.

لعلّ هذه هي الطّريقة الّتي يقطع بها المرء سلسلةَ النّحس؛ من خلال اتّخاذ تدابير وقائيّة سرّيّةٍ إنّها حكيمة.

التفتت إليزابيث وأطلّت من النّافذة. أيمكن أن يكون التّجديف رياضةً مساواتيّةً إلى هذه الدّرجة؟ أم تراه ليس إلّا الخوف المعهود الصّادر عن المشتبهين المعهودين - فالمجدّفون، حالهم حال العلماء، يخافون من عادة كالفن ذائعة الصّيت في حمل الضّغائن.

فيما انطلقت السّيّارة بمحاذاة السّاحل نحو المنزل، وأضاء الشّروقُ أجسادَ حوالي دستةٍ من راكبي أمواج يوجّهون ألواحَهم الطّويلة نحو الشّاطئ ويجولون بأبصارهم على أمل اللّحاق ببضع موجات قبل الذّهاب إلى العمل، خطر ببالها فجأةً أنّه لم يسبق لها أن رأت حملَ الضّغائنِ المزعوم هذا على أرض الواقع.

«كالفن»، قالت تلتفت نحوَه من جديد: «لماذا يقول الجميع إنّك تحمل الضّغائن؟»

«عفوًا؟»، قال وهو لا يستطيع التّوقّف عن الابتسام. تدابير وقائيّة سرّيّة حكيمة؛ الحلّ لمشاكل الحياة!

«أنت تفهم ما أقصده»، قالت: «ثمّة اعتقادٌ سائد في هاستينغز. النّاس يقولون إنّك لن تتوانى عن سحقهم إن هم اختلفوا معك».

«أوه، هذا»، قال متهلّلًا: «إشاعات. قيل وقال. غيرة. ثمّة أشخاص لا يروقون لي، هذا مؤكّد، لكن هل سأبذل جهدًا إضافيًّا كي أسحقهم؟ بالطّبع لا».

«طيّب»، قالت: «لكنّني ما زلت أشعر بالفضول. هل في حياتك أيُّ شخصٍ لن تسامحه أبدًا؟»

«لا أحد يخطر في بالي»، أجاب بمرح: «وأنتِ؟ هل من أحدٍ تخطّطين أن تكرهيه لبقيّة حياتك؟». التفت ينظر إليها؛ وجهها ما يزال متورّدًا من التّجديف، شعرها رطب من رذاذ المحيط، تعبيرُها جدّيّ. مدّت أصابعها، كأنّها تَعدّ.

الفصل 9

الضّغينــة

عندما زعم كالفن أنّه لا يحمل الضّغائن ولا يكره أحدًا، لم يقصدها إلّا مثلما قد يقول البعض إنّهم نسوا أن يأكلوا. أي أنّه كان يكذب. مهما حاول ادّعاء أنّه ترك الماضي وراءه، يظلّ الماضي موجودًا، يمضغ قلبَه. لقد أخطأ أشخاصٌ كثر في حقّه، لكن ثمّة رجل واحد فقط لا يستطيع أن يسامحه، رجل واحد فقط أقسم أن يكرهه إلى يوم مماته.

لقد لمح هذا الرّجلَ لأوّل مرّةٍ حين كان في العاشرة من عمره. توقّفت سيّارة ليموزين طويلة أمام بوّابة دار البنين وخرج الرّجل منها. كان طويلًا، أنيقًا، متهندمًا ببدلة تفصيل وأزرار أكمام فضّيّة منتقاة بعناية، لا شيء منها يتناسب مع المشهد العامّ في آيوا. تزاحم كالفن وبقيّة الصّبيان عند السّياج. خمّنوا أنّه نجم سينما، أو ربّما لاعب بيسبول محترف.

كانوا معتادين على هذا. مرّتين في العام تقريبًا، يأتي أشخاص مشهورون إلى الدّار، بصحبةِ مراسلين صحفيّين، لتُلتقَط لهم الصّور مع بعض الصّبيان. ومن حين إلى آخر، تثمر هذه الزّياراتُ بضعةَ

قفّازات بيسبول أو صور موقَّعة. بيد أنّ هذا الرّجل لم يكن معه سوى حقيبة جلديّة، فأشاحوا جميعًا بوجوههم.

لكن بعد زيارة الرّجل بنحو شهر، بدأت أغراضٌ مختلفة تصل: كتب علوم، ألعاب رياضيّات، أدوات كيمياء. وعلى عكس الصّور أو قفّازات البيسبول، كانت كمّيّة هذه الأغراض كافية.

«الرّبُّ يُدبِّر»، قال الكاهن موزّعًا كدسة من كتب البيولوجيا الجديدة: «وهذا يعني أن تغلقوا أفواهكم أيّها الوُدعاء وتجلسوا دون حراكٍ بحقّ الجحيم. أنتم في الخلف، بلا حراك، أنا أعني هذا!». خبط بمسطرةٍ على طاولة قربَه، فجعل الجميع يقفزون من أماكنهم.

«المعذرة يا أبتاه»، قال كالفن وهو يتصفّح نسخته: «لكن نسختي فيها مشكلة، بعض الصّفحات ناقصة».

«ليست *ناقصة* يا كالفن»، قال الكاهن: «بل أُزيلت».

- لماذا؟

- لأنّها خاطئة، عرفتَ لماذا؟ والآن افتحوا كتبكم على الصّفحة مئة وتسع عشرة يا أولاد، سوف نبدأ بـ...

«نظريّة التّطوّر غير موجودة»، ألحّ كالفن مقلّبًا الصّفحات.

- كفى يا كالفن.

- لكن...

هوَت المسطرةُ بقوّةٍ على براجِمِه.

«كالفن»، قال الأسقف متبرّمًا: «ما خطبك؟ هذه رابعُ مرّةٍ تُرسَل إليّ فيها هذا الأسبوع، وذلك إن لم نحسب الشّكاوى الّتي تلقّيتُها من أمين مكتبتنا بشأن أكاذيبك».

«أيّ أمين مكتبة؟»، سأله كالفن متفاجئًا. لا يمكن أن يكون الأسقف يقصد الكاهنَ السّكّير الّذي يمضي أغلب وقته مختبئًا في الكبينة الصّغيرة الّتي تضمّ مجموعةَ كتب الدّار المثيرةَ للشّفقة.

- يقول الأب أموس إنّك تدّعي أنّك قرأتَ كلَّ الكتب الّتي لدينا. الكذب خطيئة، فما بالك بالكذب المتبجّح؟ لا شيء أسوأ من ذلك.

- لكنّني بالفعل قرأتُ...

«سُكوت!»، صاح وظلُّه يغطيّ الولدَ متوعّدًا. «بعض النّاس يُولَدون تفّاحًا فاسدًا»، تابع كلامه: «وهذا نتيجة الأهل الّذين يكونون فاسدين هم أنفسهم. لكن في حالتك، لا أدري من أين جاء هذا».

«ماذا تقصد؟»

«أقصد»، قال منحنيًا بجذعه إلى الأمام: «أنّني أظنّك وُلِدتَ صالحًا ثمّ فسدت. تعفّنت، عن طريق سلسلة من الاختيارات السّيّئة. هل سمعتَ بالفكرة الّتي تقول إنّ الجمال ينبع من الدّاخل؟»

- أجل.

- حسنًا، داخلُك أنت متطابقٌ مع قباحتك الخارجيّة.

لمس كالفن براجمَه المتورّمة، محاولًا ألّا يبكي.

«لماذا لا تستطيع إظهار الامتنان على ما لديك؟»، قال الأسقف: «كتاب بيولوجيا بنصف الصّفحات أفضل من لا شيء، أليس كذلك؟ ربّاه، كنت أعلم أنّ هذا سيكون مشكلة». دفع نفسَه بعيدًا عن طاولته وراح يتهادى في مكتبه. «كتب علوم، أدوات كيمياء. يا للأشياء الّتي نضطرّ إلى قبولها فقط كيلا يظلّ صندوقنا خاليًا من المال»، التفت إلى كالفن غاضبًا: «حتّى *هذا* ذنبك، ما كنّا لنمرّ بهذا الموقف لولا أبوك...»

رفع كالفن رأسه مُباغَتًا.

«انسَ الموضوع»، تراجع الأسقف إلى طاولته وراح يعبث بالأوراق.

«لا يمكنك أن تتكلّم عن أبي»، قال كالفن والحرارة تتصاعد إلى وجهه: «أنت لم تعرفه أصلًا!»

«يمكنني أن أتكلّم عن أيّ شخص أريده يا إيفانز»، قال الأسقف عابسًا: «وعلى كلّ حال، لا أقصد أباك الّذي مات في حادثة القطار، بل أقصد... والدك *الحقيقيّ*؛ الأحمق الّذي أثقلَ كاهلَنا بكلّ كتب العلوم اللّعينة هذه. لقد جاء إلى هنا قبل شهر تقريبًا في ليموزين كبيرة، بحثًا عن ولد في العاشرة دهس قطارٌ أبوَيه بالتّبنّي واصطدمت سيّارةُ عمّتِه بشجرة، صبيٍّ صغيرٍ «قد يكون»، كما قال الرّجل، «طويلًا جدًّا؟». توجّهتُ من فوري إلى الخزانة وأخرجتُ ملفَّك، قلتُ لنفسي لعلّه جاء يطالب بك كحقيبة ضائعة - هذا يحدث طوال الوقت في حالات التّبنّي. لكن ما إن أريتُه صورتَك حتّى فقد الاهتمام».

اتّسعت عينا كالفن، محاولًا استيعاب الخبر. هل كان متبنًّى؟ لا يمكن هذا. والداه ما يزالان والديه، سواءً أكانا ميتَين أم لا. قاومَ دموعَه، يفكّر كم كان سعيدًا في الماضي؛ يده مدسوسةٌ في أمانِ يدِ أبيه الكبيرة، رأسُه مرتاحٌ على صدر أمّه الدّافئ. الأسقف على *خطأ*. إنّه *يكذب*. الأولاد يسمعون دائمًا قصصًا عمّا جعل المطاف ينتهي بهم إلى دار *جميع القدّيسين*: أمٌّ ماتت أثناء الولادة وأبٌ لم يستطع حملَ المسؤوليّة، صارت تربية الولد مشكلة، ثمّة الكثير من الأفواه الجائعة أساسًا. ما هذه إلّا قصّة أخرى.

«لعلمك»، قال الأسقف كأنّه يختار من قائمة: «أمّك الحقيقيّة ماتت أثناء الولادة، وأبوك الحقيقيّ لم يستطع حملَ المسؤوليّة».

«لا أصدّقك!»

«مفهوم»، قال الأسقف بجفاء وهو يسحب ورقتين من ملفّ كالفن: شهادة تَبَنٍّ وشهادة وفاة امرأة. «العالِم النّاشئ يطالب بدليل».

أطرق كالفن يحدّق في الوثيقتين من خلف غمامةِ دموع. لم يستطع أن يتبيّن ولو كلمة واحدة.

«حسنًا إذًا»، قال الأسقف صافقًا يديه: «أنا واثق أنّ هذا صادم يا كالفن، لكن انظر إلى الجانب المشرق. أنت لديك أبٌ وهو حريصٌ عليك – أو على تعليمك على الأقلّ. هذا أكثر بكثير ممّا يحصل عليه بقيّة الأولاد. حاول ألّا تتعامل مع هذا الأمر بأنانيّة هكذا. لقد حالفك الحظّ: كان لديك أبوان لطيفان بالتّبنّي، والآن لديك والدٌ ثريّ. اعتبرْ عطيّتَه»، تردّد، «ذكرى منه. اعتبرها تقديرًا لذكرى أمّك».

«لكن لو كان هو أبي الحقيقيّ»، قال كالفن وهو ما يزال لا يصدّقه: «لأخذني من هنا، لأرادني أن أكون معه».

أنزل الأسقف رأسَه ينظر إلى كالفن، فاغرًا عينيه من المفاجأة. «ماذا؟ لا. قلتُ لك: أمّك ماتت أثناء الولادة وأبوك لم يستطع حملَ المسؤوليّة. لا، لقد اتّفقنا كلانا -لا سيّما بعد أن قرأ ملفّك- أنّ الأفضل لك أن تبقى هنا. الفتيان الّذين مثلك يحتاجون إلى بيئة أخلاقيّة، والكثير من الانضباط. العديد من الأثرياء يرسلون أولادهم إلى المدارس الدّاخليّة، وجميع القدّيسين لا تختلف كثيرًا»، تنشّقَ مُستَروِحًا الرّوائحَ الفاسدة من المطبخ. «بيد أنّه أصرّ في الواقع على أن نوسّعَ مناهجَنا، ما أجدُه أمرًا وقحًا»، أضاف وهو يُزيل وبرَ قطّةٍ عن كمّه: «أن يُملي علينا، نحن المعلّمين المحترفين، كيف ينبغي أن نعلّم». نهض واقفًا، وأدار ظهرَه إلى كالفن يُطلّ من النّافذة على السّطح المخفوس للجانب الغربيّ من المبنى. «الخبر الجيّد أنّه ترك لنا حفنةً طيّبةً من النّقود – ليس من أجلك فقط، بل من أجل بقيّة الأولاد أيضًا. كرمٌ شديد. أو لكان كذلك لو أنّه لم يُفرِد كاملَ المبلغ للعلوم والرّياضة. لله درّ الأثرياء، يظنّون أنّهم يعرفون ما هو الأفضل دائمًا».

«هو... هو عالِم؟»

«هل *قلتُ* إنّه عالم؟» قال الأسقف: «اسمع. لقد جاء، طرحَ بعض الاستفسارات، وغادر. وترك شيئًا أيضًا. هذا أكثر بكثير ممّا يفعله معظمُ الآباء المتقاعسين».

«لكن متى سيرجع؟»، سأله كالفن مستجديًا، يريد أن يُفلت من قبضة الدّار أكثر من أيّ شيء آخر، حتّى لو كان ذلك برفقة رجلٍ لا يعرفه.

«سيتعيّن علينا أن ننتظر ونرى»، قال الأسقف واستدار ليطلّ من النّافذة ذات القضبان: «لم يقل شيئًا».

جرّ كالفن قدميه ببطءٍ عائدًا إلى الصّفّ، يفكّر في الرّجل، يفكّر في طرقٍ لجعله يرجع. يجب أن يرجع. لكن كلُّ الّذي وصلَ منه على الإطلاق كان المزيد من كتب العلوم.

ومع ذلك، كالفن كان طفلًا، وكما يفعل الأطفال، ظلّ متشبّثًا بالأمل لزمنٍ طويلٍ تلا نهايةَ فترةِ صلاحيّته. قرأ كلَّ الكتب الّتي أرسلها أبوه «الجديدُ على السّاحة»، التهمها التهامًا كما لو أنّها الحُبّ، مُقيمًا أودَ قلبِه المفطورِ بالنّظريّات والخوارزميّات، مصمّمًا على إماطة اللّثام عن الكيمياء الّتي يتشاركها هو وأبوه، الرّابطةِ العصيّة على التّفكّك الّتي تربطهما مدى الحياة. لكنّ ما أدركه من خلال دراسته الذّاتيّة هو أنّ تعقيد الكيمياء لا يتوقّف عند الحقّ المكتسب بالولادة، بل يتلوّى وينعطف بطرقٍ تكون متحجّرةَ القلب أحيانًا. وهكذا تعيّن عليه أن يعيش مع معرفته لا أنّ هذا الأب الآخر نَبَذَهُ -دون حتّى أن *يقابله*- فحسب، بل أنّ تلك الكيمياء ذاتها فرّخَت الضّغينةَ الّتي لا يملك أن يُخفيها ولا أن يَكبر عليها.

الفصل 10

الــرَّسَــن

لم يسبق لإليزابيث أن ربَّت حيوانًا أليفًا، وهي ليست متأكّدة أنّها تفعل ذلك الآن. ستّة ونصف ليس إنسانًا، لكنّه بدا يمتلك إنسانيّةً تفوق بكثيرٍ ما تجده في معظم النّاس.

لهذا السّبب لم تشترِ له رَسَنًا - لقد بدا لها ذلك خاطئًا، بل حتّى مهينًا. هو نادرًا ما يشرد بعيدًا عن جوارها، ولا يقطع الشّارعَ دون أن ينظر أبدًا، ولا يطارد القطط. في الحقيقة، المرّة الوحيدةُ الّتي نفرَ فيها على الإطلاق كانت في الرّابع من يوليو[1] حين انفجرت مفرقعةٌ ناريّةٌ أمامه تمامًا. وبعد ساعات من البحث الملهوف، عثرت عليه هي وكالفن أخيرًا مندسًّا خلف بضعة صناديق قمامة في زقاق، يرتعد من الخجل.

لكن حين أقرَّت المدينةُ أوّل قانونٍ يفرض الأرسان، وجدت نفسها تعيد النّظر في الفكرة، إنّما لأسباب أكثر تعقيدًا. فمع تنامي ارتباطها بالكلب، كذلك تنامَت فكرةُ ربطِ الكلب بها.

وعلى ذلك اشترت رسنًا وعلّقته على شمّاعةِ المعاطف في الممرّ، وانتظرت أن ينتبه كالفن له. لكنّ أسبوعًا انقضى دون أن يلاحظه.

(1) يوم الاستقلال في الولايات المتّحدة. (المترجم)

«لقد اشتريتُ رسنًا لستّة ونصف»، أعلنت أخيرًا.

«لماذا؟»، سألها كالفن.

«بسبب القانون»، أجابت.

«أيّ قانون؟»

شرحت له القانونَ الجديد فضحك. «أوه، هذا. حسنًا، هذا لا ينطبق علينا. إنّه للنّاس الّذين ليس لديهم كلبٌ مثل ستّة ونصف».

«لا، بل لجميع النّاس. إنّه قانون جديد، وأنا واثقة أنّهم سيأخذون الأمر على محمل الجدّ».

ابتسم. «لا تقلقي. أنا وستّة ونصف نمرّ بقسم الشّرطة كلّ يوم تقريبًا، ورجال الشّرطة يعرفوننا».

«لكنّ هذا سيتغيّر»، أصرّت: «السّبب على الأرجح هو موجة نفوق الحيوانات الأليفة الّتي شهدتها المنطقة مؤخّرًا؛ أعداد الكلاب والقطط الّتي تدهسها السّيّارات في ازدياد». لم تكن متأكّدةً من صحّة هذا في الواقع، لكنّه بدا واردًا دون شكّ. «على أيّة حال، البارحة صحبتُ ستّة ونصف في نزهة واستخدمتُ الرّسن. لقد أحبَّه».

«لا يمكنني أن أركض بوجود رسن»، قال كالفن رافعًا رأسه: «أكره أن أشعر أنّني مقيَّد، كما أنّه يبقى بجانبي طوال الوقت».

- قد يحدث شيء ما.

- ما الّذي قد يحدث؟

«قد ينفر ويركض إلى الشّارع. قد يُدهَس. أتتذكّر المفرقعة النّاريّة؟ أنا لست قلقة عليك»، قالت: «بل عليه هو».

ابتسم كالفن بينه وبين نفسه. هذا جانبٌ من إليزابيث لم يسبق له أن رآه: غريزة أمومة.

«بالمناسبة»، قال: «الأرصاد تتوقّع برقًا. اتّصل د. ماسون وقال إنّ التّجديف أوقِفَ لبقيّة الأسبوع».

«أوه، هذا مؤسف»، قالت محاولةً ألّا يبدو الارتياحُ عليها. لقد جدّفت في قارب الرّجال الثّمانيّ أربع مرّات حتّى الآن، وكانت تخرج من كلّ جولة مرهقةً أكثر ممّا يحلو لها أن تعترف. «هل قال أيّ شيء آخر؟». لم ترغب أن تبدو كأنّها تتصيّد المديح، لكن هذا هو ما تفعله. كان د. ماسون يبدو رجلًا محترمًا؛ يكلّمها دائمًا على أنّها ندٌّ مُساوٍ. سبق لكالفن أن ذكر أنّه طبيب توليد.

«ذكر أنّنا ضمن لائحة المجدّفين للأسبوع المقبل»، قال كالفن: «وأنّه يودّ لو نفكّر في المشاركة ضمن دوريٍّ في الرّبيع».

- تقصد سباق قوارب؟

- ستحبّينه، الأمر ممتع.

في الحقيقة، كان كالفن واثقًا إلى حدٍّ بعيد أنّها لن تحبّه. السّباقات مليئة بالتّوتّر. الخوف من الخسارة سيّئ بما يكفي، لكن هناك أيضًا معرفة أنّ التّجديف بحدّ ذاته سيكون مؤلمًا، وأنّ المجدّف يجازف -حالما يُنادى بكلمة «انتباه!»- بالتّعرّض لنوبة قلبيّة أو كسر في الأضلاع أو أذيّة في الرّئتين أو أيّ شيء يتطلّبه الأمر لمجرّد الفوز بتلك الميداليّة المشتراة من متجر العشرة سنتات في النّهاية. أمّا

الحلول في المرتبة الثّانية؟ حبًّا بالله، هي لا تسمّى المرتبة الأولى للخاسرين عن عبث.

«هذا يبدو مثيرًا للاهتمام»، كذبت.

«هو كذلك فعلًا»، ردَّ الكذبة بمثلها.

«لقد أُوقِفَ التّجديف، تتذكّرين؟»، قال كالفن بعد يومين، متفاجئًا إذ أحسّ بإليزابيث ترتدي ملابسها في الظّلام. مدّ يدَه إلى المنبّه: «إنّها الرّابعة صباحًا، عودي إلى السّرير».

«لا أستطيع النّوم»، قالت: «أظنّني سأذهب إلى العمل مبكّرًا».

«لا»، توسّل: «ابقي معي». شدّ الأغطية وأشار إليها أن ترجع.

«سوف أضع طبق البطاطا في الفرن على حرارة منخفضة»، قالت تدسّ قدميها في حذاء: «سيكون فطورًا جيّدًا لك».

«اسمعي، إن كنتِ ذاهبة فأنا ذاهب»، قال متثائبًا: «فقط أعطيني بضع دقائق».

«لا، لا»، قالت: «نَمْ أنت».

استيقظ بعد ساعة ليجد نفسه وحيدًا.

«إليزابيث؟»، نادى.

تلمّس طريقَه إلى المطبخ بقدميه، وهناك وجد زوجًا من قفّازات الفرن على المنضدة. *استمتع بالبطاطا*، كانت قد كتبت له، *أراكَ قريبًا، قبلاتٌ وأحضان، إ.*

«فلنذهب إلى العمل جَريًا هذا الصّباح»، قال مناديًا ستّة ونصف. لم يكن يشعر حقًّا برغبةٍ في الجري، لكن بهذه الطّريقة سيتسنّى لثلاثتهم أن يرجعوا إلى البيت معًا في سيّارة واحدة. ليس سبب ذلك أنّه يهتمّ بتوفير الوقود، بل أنّه لا يحتمل فكرة أن تقود إليزابيث السّيّارة بمفردها إلى البيت. هنالك أشجار، وقطارات.

هي ستكره أن تعرف كم يقلق ويهوّل الأمور، لذلك يبقي الأمر بينه وبين نفسه. لكن كيف عساه لا يهوّل الأمور الّتي تتعلّق بالشّخص الّذي يحبّه أكثر من أيّ شيء، الّذي يحبّه أكثر حتّى ممّا يبدو ممكنًا؟ إلى جانب أنّها هي أيضًا تهوّل الأمور المتعلّقة به: تحرص أن يتناول طعامه، لا تنفكّ تقترح عليه أن يجري داخل المنزل مع جاك، لا بل وتشتري رسنًا.

لمح بزاوية عينيه بعضَ الفواتير، وسجّل ملاحظةً ذهنيّةً ليحفظ آخر محصولٍ من رسائل النّصب في ملفّ. لقد وصلته رسالة أخرى بعد من تلك المرأة الّتي تدّعي أنّها أمّه - *أخبَروني أنّك مُتَّ*، تكتب كلّ مرّة. كما وصلته رسالة من أمّيٍّ يتّهمه أنّه سرق كلّ أفكاره، وأخرى من «شقيقٍ انقطعت صلتُه به منذ زمن طويل» يريد نقودًا. للغرابة، لم يكتب له أحدٌ يومًا متظاهرًا أنّه والده. ربّما لأنّ والده ما يزال هناك في مكان ما، يتظاهر أنّه لم يُرزق بابنٍ قطّ.

منذ مغادرته دارَ البنين، الشّخص الوحيد -في ما خلا الأسقف- الّذي اعترف له بالضّغينة الّتي يُكنّها لوالده هو، من بين كلّ النّاس، صديقُ مراسلة. لم يلتقِ بالرّجل في حياته، لكنّهما توصّلا إلى إقامة صداقةٍ وثيقة. ربّما لأنّهما، كما في سرّ الاعتراف، كانا كلاهما يجدان

الحديث إلى شخص لا يستطيعان رؤيته أسهل. لكن حين فُتِحت سيرة الآباء، وهذا كان بعد عام من مراسلات ثابتة بلا قيود، تغيّر كلُّ شيء. لقد زلّ قلمُ كالفن فذكر أنّه يتمنّى لو كان والده ميتًا، فاستجاب صديقُه -المصدوم وضوحًا- بطريقة لم يتوقّعها؛ ما عاد يردّ على رسائله.

افترض كالفن أنّه تجاوز الحدود - الرّجلُ كان متديّنًا على عكسه؛ لعلّ تمنّي موت الأب ليس شيئًا يعترف به المرء في الأوساط الكنَسيّة. لكنّ أيًّا كان السّبب، فقد انقطعت النّجاوى بينهما. وظلّ يشعر بالكآبة لشهور.

لهذا السّبب قرّر ألّا يذكر أمرَ والده غير الميت لإليزابيث. كان يخشى حتّى أعماقه أنّها إمّا قد تتصرّف كصديقه السّابق وتنقطع عنه، وإمّا تستفيق فجأةً وتدرك ما وصفه الأسقفُ ذات مرّة بعيبِه القاتل: استعصاءٌ فطريٌّ على تلقّي الحبّ. كالفن إيفانز، القبيح من الدّاخل والخارج. وهي *فعلًا* رفضت عرضَه للزّواج.

وعلى كلّ حال، إن أخبرها الآن، فقد تتساءل عمّا منعه من إخبارها في السّابق. وهذا خطر، لأنّها قد تسأل نفسها ما الأشياء *الأخرى* الّتي أغفل ذكرَها.

لا، ثمّة أشياء من الأفضل ألّا تُقال. إضافةً إلى أنّها تحتفظ بمشاكلها في العمل لنفسها، أليس كذلك؟ وجود بضعة أسرار في العلاقات الحميميّة أمرٌ طبيعيّ.

ارتدى بنطالَه الرّياضيّ القديم سريعًا، ثمّ نقّب في دُرج جواربهما المشترك، فارتفع مزاجُه حين التقطَ نفحةً من عطرها. هو لم يكن يومًا ممّن يستسيغون تطويرَ الذّات - لم يستطع حتّى أن يُنهي كتابَ ديل

كارنيغي الّذي يتكلّم عن كسب الأصدقاء والتّأثير في النّاس، لأنّه بعد عشر صفحات أدرك أنّه لا يأبه بما يظنّه أيّ شخص آخر. لكن هذا كان قبل إليزابيث، قبل أن يدرك أنّ إسعادَها يُسعده. وهذا، قال لنفسه وهو يلتقط حذاء التّنس خاصّته، لا بدّ أن يكون التّعريفَ الدّقيق للحبّ؛ أن *نريد* التّغيُّر فعلًا من أجل شخصٍ آخر.

لمّا انحنى ليربط حذاءه، امتلأ صدرُه بشيءٍ جديد. أهو الامتنان؟ لقد عثر -هو، كالفن إيفانز غير الجذّاب، اليتيم منذ نعومة أظافره، الّذي لم يسبق لأحد أن أحبّه- بالمليح أو بالقبيح، على هذه المرأة، على هذا الكلب، على هذا العمل البحثيّ، على هذا التّجديف، على هذا الجري، على جاك. هذا كلّه أكثر بكثير ممّا كان يتوقّع يومًا، أكثر بكثير ممّا يستحقّ.

نظر إلى ساعته، 5:18 ص. إليزابيث جالسة على كرسيّ مختبر، أجهزة الطّرد المركزيّ خاصّتها تدور بكامل عزمها. صفّرَ لستّة ونصف كي يلاقيه عند الباب الأماميّ. المسافة إلى العمل تتجاوز خمسة أميال بقليل، وإذا ركضا معًا يمكنهما أن يصلا خلال اثنتين وأربعين دقيقة. لكنّ ستّة ونصف تلكّأ حين فتح الباب؛ الظّلام مُطبق ورذاذ المطر يتناثر.

«هيّا يا فتى»، قال كالفن: «ما المشكلة؟»

ثمّ تذكّر. دار على عقبيه وأحضر الرّسن، وانحنى وشبكَه بطوق ستّة ونصف. مربوطًا بالكلب بإحكامٍ للمرّة الأولى على الإطلاق، استدار كالفن وقفل الباب خلفه.

كان ميتًا بعد سبع وثلاثين دقيقة.

الفصل 11

تقليصُ ميزانيّة

«هيّا يا فتى»، قال كالفن لستّة ونصف: «فلنَحُثَّ خُطانا». تحرّك ستّة ونصف إلى موضعه أمام كالفن بخمس خطوات، ثمّ راح يلقي نظرةً إلى الخلف بين الفينة والأخرى كأنّه يتوثّق أنّ كالفن ما يزال هناك. لدى انعطافهما يمينًا، مرّا بكشك صحف. «**ميزانيّة المدينة في الحضيض**»، صرخ أحدُ العناوين، «**خدمات الشّرطة والإطفاء على المحكّ**».

شدّ كالفن قليلًا على الرّسن، موجِّهًا ستّة ونصف كي ينعطف يسارًا إلى حارة أقدم تملؤها منازلُ كبيرةٌ ومروجٌ ممتدّة كالمحيطات. «ذاتَ يوم سنعيش هنا»، أكّد له كالفن وهما يهرولان معًا: «ربّما بعد أن أربح جائزة نوبل»، وكان ستّة ونصف يعرف أنّه سيربحها لأنّ إليزابيث قالت إنّه سيفعل.

عندما دخلا في انعطاف آخر، كاد كالفن ينزلق على رقعةِ طحالب قبل أن يستعيد توازنه. «كان هذا وشيكًا»، زفرَ بصوتٍ مسموع وهما يقتربان من مخفر الشّرطة. نظر ستّة ونصف أمامه إلى سيّارات الشّرطة المصطفّة مثل جنود ينتظرون الفحص.

بيد أنّ السّيّارات لم تكن قد خضعت للفحص، وهذا لأنّ قسم الشّرطة تكبّدَ تقليصَ ميزانيّةٍ آخر - الثّالث خلال أربع سنوات. التّقليصات الثّلاثة جاءت ضمن مبادرةِ «إنجاز الأكثر بالأقلّ!»، وهو شعارٌ صاغتهُ مخيّلةُ رجلٍ ما في الإدارة الوسطى لدائرة العلاقات العامّة التّابعة للمدينة. ومعناه الحقيقيّ هذه المرّة هو أنّ وظائف رجال الشّرطة مهدَّدة. لقد خُفِّضَت الرّواتب أصلًا، وانقرضت العلاوات، وبات التّسريحُ المؤقّت هو الخطوة التّالية.

وهكذا كان رجال الشّرطة يفعلون ما في وسعهم لإبعاد التّسريح المؤقّت عنهم؛ أخذوا مبادرةَ «إنجاز الأكثر بالأقلّ!» الأخيرة وأقحموها في المكان الّذي تنتمي إليه: باحة السّيّارات في الخارج بما فيها من سيّارات. فلتتحمّل سيّاراتُ الشّرطةِ وِزرَ تقليص الميزانيّة هذه المرّة. لا دوزان بعد الآن، ولا غيار زيت، ولا تبديل فرامل، ولا تجديد إطارات، ولا تغيير مصابيح، لا شيء.

لم يكن ستّة ونصف يحبّ باحة سيّارات المخفر، ولا سيّما الطّريقة النّزقة الّتي يُرجع رجالُ الشّرطة سيّاراتِهم بها. لم يكن حتّى يحبّ رجالَ الشّرطة الودودين الّذين يلوّحون له هو وكالفن أحيانًا عند مرورهما مهرولَين، حين يظهر التّباينُ حادًّا بين مشيهم المُجهَد وحيويّةِ كالفن. كانوا يبدون مكتئبين برأيِ ستّة ونصف، تُثقل الأجورُ المتدنّيةُ كواهلَهم، يُضجرهم الرّوتين، تُثير سأمَهم الطّوارئُ الثّانويّة الّتي لا تنتهي ولم تستدعِ يومًا ما تلقّوه من تدريبٍ على إنقاذ الحياة في أكاديميّة الشّرطة.

مع اقترابه هو وكالفن، تشمّمَ ستّة ونصف الهواء. كانت السّماء ما تزال مظلمة، الشّمس ستشرق بعد نحو عشر...

طــــق!

من الظّلمةِ جاء صوتُ فرقعةٍ شنيع. كان أشبه بالمفرقعات النّاريّة - حادًّا، صاخبًا، لئيمًا. نطّ ستّة ونصف هَلِعًا في مكانه - *ما كان هذا؟* انطلق، أو حاول أن ينطلق، لكنّ الرّسن الّذي يربطه بكالفن نَتَرَه. كالفن أجفلَ هو الآخر -*أكانت هذه أعيرةً ناريّة؟*- وانطلق في الاتّجاه المعاكس تمامًا. ***بووم، بووم، بووم!*** راحت الانفجارات تُتَعتِعُ مثل الرّشّاشات. على أثر ذلك، ما كان من كالفن إلّا أن رفع قدمَه فاختلّ توازنُه إلى الأمام، جاذبًا معه ستّة ونصف *بهذا الاتّجاه*، في حين أنّ ستّة ونصف -والهياجُ بادٍ في عينيه- رفع قائمتيه الأماميّتين وشدَّ بِدَورِه كأنّه يقول: *لا، بل بهذا الاتّجاه!* والرّسن المشدود مثل حبل البهلوان لم يترك مجالًا للتّسوية. حطّت قدمُ كالفن على بقعةِ زيتِ محرّكات، فانزلق إلى الأمام مثل متزلّجٍ ملخوم على الجليد، ولاقاه الرّصيفُ سريعًا كصديقٍ قديمٍ لا يطيق صبرًا حتّى يسلّم عليه.

طممم.

لّما أحدثَ مجرًى هزيلٌ من الأحمر هالةً داكنةً حول رأس كالفن، التفتَ ستّة ونصف يريد المساعدة، لكنّ شيئًا اندفع يشقّ العُبابَ نحوهما - شيءٌ كأنّه باخرةٌ تمخَر بقوّةٍ كانت كفيلةً أن يَطقّ الرّسن في إثرها نصفين، فيَنتُرَه جانبًا.

تمكّنَ أن يرفعَ رأسَه في اللّحظة المناسبة ليرى عجلات سيّارةِ دوريّةٍ ترجع على جسد كالفن.

«ربّاه، ما كان *هذا*؟»، قال الخفيرُ لشريكه. هم معتادون على الفرقعة المتكرّرة في عوادم سيّاراتهم، لكنّ هذا كان شيئًا آخر. قفزا من السيّارة، وأجفلا لرؤية رجلٍ طويل مبطوح على الأرض، عيناه الرّماديّتان مشرعتان عن آخرهما، والجرح في رأسه يُغرق الرّصيفَ بسيلِه السّريع. رمَشَ مرّتين نحو الشّرطيّ الواقف فوقه.

«يا للهول، هل دهسناه؟ يا للهول. سيّدي... هل تسمعني؟ سيّدي؟ جيمي، اطلب الإسعاف».

ظلّ كالفن راقدًا مكانه، جمجمته مكسورة، وذراعه انقصفت نصفين تحت وطأة سيّارة الشّرطة. حول معصمه يتدلّى ما تبقّى من الرّسن.

«ستّة ونصف؟»، همس.

«ماذا؟ ماذا قال يا جيمي؟ يا إلهي».

«ستّة ونصف؟»، همس كالفن مجدّدًا.

«كلّا يا سيّدي»، قال الشّرطيّ منحنيًا بجانبه: «إنّها السّادسة تقريبًا، لكن ليس تمامًا. في الواقع، حوالي الخامسة وخمسين دقيقة. خمسة خمسة صفر. الآن سوف نأخذك من هنا... سنوصلك إلى المستشفى، لا تقلق يا سيّدي، لا شيء يستدعي القلق».

وراءه، تدفّق رجالُ الشّرطة من المبنى. ومن بعيد، زعقت سيّارةُ إسعافٍ معبّرةً عن نيّتها على الوصول عاجلًا.

«أوه، يا أسفاه»، قال أحدهم مع اندفاع الهواء من رئتَي كالفن: «أليس هذا الرّجل الّذي يتّصل الجميعُ بشأنه - الرّجل الّذي يركض؟»

على بُعدِ عشرة أقدام، كان ستّة ونصف -كتفه مخلوعة من تجويفها، والقسم الآخر من الرّسن متدلٍّ من عنقه المصوع- واقفًا يراقب. أراد أكثر من أيّ شيء أن يذهب إلى كالفن، أن يدسّ وجهَه قُربَ منخرَيه، أن يلعق له جروحَه، أن يمنع الأمور من التّفاقم أكثر ممّا فعلت حتّى الآن. لكنّه كان يعلم. حتّى من على بعد عشرة أقدام، كان يعلم. ارتخى جَفنا كالفن حتّى أغمضا، وكفّ صدرُه عن الحركة.

ظلّ يراقب وهم يحملون كالفن إلى سيّارة الإسعاف؛ على جسده ملاءة، يدُه اليمنى تتدلّى عن حافة النّقّالة، الرّسن المقطوع ما زال مشدودًا حول معصمه. أشاح ستّة ونصف بوجهه، نفسُه تغثي من الحزن. مطأطئًا رأسَه، استدار وذهب كي يبلّغ إليزابيث الخبرَ السّيّئ.

الفصل 12

هديّةُ وداعٍ من كالفن

حين كانت إليزابيث في الثّامنة من عمرها، تحدّاها أخوها جون أن تقفز عن جرفٍ صخريّ وفعلت ذلك. كان ثمّة في الأسفل مَقلع أحجار أكوامارين مملوء بالماء، وجسدُها اخترق الماء مثل صاروخ. لامست أصابعُ قدميها القعرَ ودفعت نفسها إلى الأعلى، لتتفاجأ حين شقَّت سطحَ الماء أنّ أخاها كان قد صار هناك. لقد قفز بعدها مباشرةً. *ما الّذي كنتِ تفكّرين فيه بحقّ الجحيم يا إليزابيث؟* صاح بها بصوتٍ يملؤه الكرب وهو يسحبها إلى الطّرف: *كنتُ أمازحكِ فقط! كان يمكن أن تموتي!*

الآن، وهي تجلس متخشّبةً على كرسيّها في المختبر، كانت تسمع شرطيًّا يتحدّث عن شخص مات، وشخصًا آخر يصرّ أن تأخذ منديلَه، وثالثًا يقول شيئًا بخصوص طبيبٍ بيطريّ، لكن كلّ ما استطاعت أن تفكّر فيه هو تلك اللّحظة البعيدة حين لامست أصابع قدميها القعر، ودعاها الطّينُ النّاعم الحريريّ إلى البقاء. والآن إذ باتت تعرف ما تعرفه، لم تستطع أن تقول لنفسها سوى شيء واحد: *كان ينبغي أن أبقى.*

الذّنبُ ذنبُها. هذا ما حاولت أن تشرحه للشّرطيّ. الرّسن. هي الّتي اشترته. لكن مهما كرّرت كلامَها ذاك، لم يبدُ عليه أنّه يفهم، ولذلك السّبب خطر لها احتمالُ أن يكون الأمرُ برمّته صُنعَ مخيّلتها. كالفن ليس ميتًا. لقد ذهب للتّجديف. ذهب في رحلة. هو فوقها بخمسة طوابق، يكتب في دفتره.

أحدهم قال اذهبي إلى المنزل.

طيلة الأيّام القليلة التّالية، ترقد هي وستّة ونصف على سريرها المُكَركَب، النّوم مستحيل، الطّعام غير وارد، السّقفُ أفقُهما الوحيد، ينتظرانه أن يعود من الباب. الشّيء الوحيد الّذي يشوّش عليهما هو هاتفٌ يرنّ. كلّ مرّة يكون الصّوتَ اللّحوحَ نفسه -الحانوتيّ دونًا عن كلّ البشر- يؤكّد أنّ «القرارات يجب أن تُتَّخذ!». ثمّة حاجة إلى بدلة رسميّة من أجل تابوتِ أحدهم. «تابوت من؟»، تقول: «من الّذي يتكلّم؟». وبعد الكثير الكثير من المكالمات على هذه الشّاكلة، يدفعُها ستّة ونصف -الّذي يبدو قد أُرهِقَ من انشداهِها- برفقٍ نحو الخزانة ويفتح لها بابَها. وحينئذٍ ترى: قمصانه تتمايل مثل جثثٍ متروكة منذ وقتٍ على مشانقها. وحينئذٍ تعرف: كالفن رحل.

تمامًا كما حدث بعد انتحار أخيها وبعد اعتداء مايرز عليها، لم تستطع أن تبكي. جيشٌ من الدّموع يُعسكر خلفَ عينيها بالضّبط، لكنّه يرفض أن يشدَّ رِحالَه. وكأنّها سُلِبَت حقَّها في الهواء؛ رئتاها ترفضان أن تمتلئا مهما سحبَت النّفَسَ العميقَ تلوَ الآخر. عندما كانت طفلة، تتذكّر أنّها سمعت رجلًا بساقٍ واحدة يُخبر أمينةَ المكتبة أنّ

هناك شخصًا يغلي ماءً في مكانٍ ما بين رفوف الكتب. الأمر خطير، شرح لها: عليها أن تفعل شيئًا. حاولت أمينة المكتبة أن تطمئنه قائلةً أن لا أحد يغلي ماءً في أيّ مكان -المكتبة تتكوّن من قاعة واحدة، وهي تستطيع أن ترى الجميع- لكنّه ظلَّ يُلحّ وصاح بها، ولذلك جاء رجلان وأخرجاه، أحدهما كان يقول إنّ المسكين ما زال يعاني من صدمة القصف[1]، وإنّه لن يتعافى أبدًا على الأرجح.

المشكلة أنّها كانت الآن تسمع صوتَ غليان الماء هي أيضًا.

كي توقف رنينَ الهاتف، عليها أن تجد بدلة رسميّة. لم يكن كالفن يملك بدلات رسميّة، لذا جَمَعَت ما شعرت أنّه كان ليرغب بارتدائه: ملابس التّجديف خاصّته. ثمّ أخذت الحزمة الصّغيرة إلى مكتب دفن الموتى وسلّمتها لمتعهّدِ الجنازة. «هاك»، قالت له.

ولِمِراسِه الطّويل في فنّ التّعامل مع المفجوعين، استلمَ الرّجلُ الوقورُ الملابسَ بإيماءةٍ دَمِثة. لكنّه، بعد مغادرتها على الفور، ناولها لمساعِدِه وقال: «الجثّة في القاعة أربعة تحتاج إلى بدلة من المقاس الطّويل، ستّة وأربعين تقريبًا». أخذ المساعدُ الحزمةَ وألقاها داخلَ كبينةٍ مُبهَمةٍ حيث انضمّت إلى تلّةٍ من الملابس غير اللّائقة الأخرى الّتي أحضرها أفرادُ العائلات المكلومة على مرّ السّنين. ثمّ تابعَ نحو

(1) صدمة القصف: مصطلح صاغه عالم النّفس البريطانيّ تشارلز صموئيل مايرز في الحرب العالميّة الأولى لوصف نوع من اضطرابات ما بعد الصّدمة عانى منه كثير من الجنود خلال الحرب (قبل أن يُطلَق عليه اضطراب ما بعد الصّدمة). (المترجم)

خزانة ملابس كبيرة، أخذ منها بدلةً طويلةً بمقاسٍ 46، نفضَ البنطال ونفخَ بخفّةٍ على الغبار المتجمّع فوق الكتفَين، وتوجّه إلى القاعة 4.

وقبل أن تكون إليزابيث قطعت مسافةَ عشرِ كتلٍ بنائيّة، كان قد أتمَّ حبسَ جسدِ كالفن المتخشّبِ في البدلة، مُقحمًا اليدين اللّتين ضمّتاها ذاتَ مرّةٍ داخل كُمَّين داكنين، حاشرًا السّاقين اللّتين التفّتا حولها ذاتَ مرّةٍ داخلَ فردتَي بنطالٍ صوفيّ. ثمّ زرّرَ القميص، شدّ إبزيمَ الحزام، ضبطَ ربطةَ العنق، وعقدَ رباطَ الحذاء، وهو طوال الوقت ينفض الغبارَ -الّذي كان جزءًا لا يتجزّأ من الموت- من أحد أطراف البدلة إلى الّذي يليه. تراجعَ خطوةً ونظر إلى عمله بعين الرّضى، ثمّ سوّى طيّةَ صدرِ السّترة. مدّ يدَه إلى مشط؛ غيّرَ رأيَه. أغلق الباب وسار عبرَ الرّدهة ليجلب الكيس البنّيّ الّذي يحتوي على غدائه، دون أن يتوقّف إلّا قليلًا كي يعطي التّوجيهات لامرأة تجلس خلف حاسبةٍ كبيرة داخلَ مكتب صغير.

وقبل أن تبلغ إليزابيث الكتلة الثّانية عشرة، كانت البدلة المتّسخة قد أضيفت إلى فاتورتها.

كانت الجنازة حاشدة. بعض المجدّفين، مراسلٌ صحفيّ، نحو خمسين من موظّفي هاستينغز، حفنة من أشخاصٍ -رغم رؤوسهم المحنيّة وملابسهم الدّاكنة- لم يأتوا إلى جنازة كالفن بدافعٍ من الحزن، بل كي يشمتوا. مرحى، كانوا يهتفون بصمت: *لقد مات الملك*.

بينما تناثر العلماء حول التّابوت، انتبه العديد منهم إلى زوت تنتئي بنفسها، والكلب بجانبها. مرّةً أخرى، الكلب اللّعين ليس

مربوطًا – على الرّغم من القانون الجديد الّذي أقرَّته المدينة، إضافةً إلى اللّافتات الّتي تحيط بالمقبرة من كلّ الجهات وتمنع دخول الكلاب أساسًا. لا جديد. حتّى في الموت، زوت وإيفانز يتصرّفان كأنّ القواعد لا تنطبق عليهما.

من موضعها المُنزوي، ظلّلَت إليزابيث عينيها كي تمعن النّظر في الحشد. ثمّة زوجان حشريّان أنيقا الملبس يفصل بينهما قبرٌ مفتوح، وقفا يتفرّجان على الإجراءات كمن يتفرّج على حادثة اصطدام خمسين سيّارة. وضعت يدَها على أضمدةِ ستّة ونصف وهي تفكّر كيف تنضمّ إلى الجمع. الحقيقة أنّها تخاف الاقتراب من التّابوت لأنّها تعلم أنّها ستحاول فتحَه والدّخول فيه كي تدفن نفسها معه، وهذا يعني أن تتعامل مع كلّ الّذين سيحاولون إيقافها، وهي لا تريد أن يوقفها أحد.

كان ستّة ونصف يستشعر أمنيةَ الموت هذه، ولذلك ظلّ متيقظًّا طيلة الأسبوع يحرسها من الانتحار. المشكلة الوحيدة كانت أنّه هو الآخر يريد أن يموت. بل أسوأ، كان يظنّ أنّها في وضعه نفسه، تشعر -رغمَ رغبتها بالموت- أنّها مُلزَمة بإبقائه على قيد الحياة. أيُّ مأزقٍ هو الإخلاص.

لحظتئذٍ قال شخصٌ وراءهما: «حسنًا، على الأقلّ إيفانز يفارقنا في يوم صحو»، كأنّ الطّقس السّيّئ كان ليُفسِدَ الجنازة المهرجانيّة في ما خلا ذلك. رفع ستّة ونصف رأسه ليرى رجلًا نحيفًا قويَّ الفكّ يحمل كرّاسةً صغيرة.

«آسف على الإزعاج»، قال الرّجل لإليزابيث: «لكنّني رأيتكِ جالسةً وحدَك هنا فقلتُ لنفسي قد يكون بوسعك أن تساعديني. أنا أكتب مقالةً عن إيفانز، كنتُ أتساءل إذا ما كان بمقدوري طرح بضعة أسئلة عليكِ... إن كنتِ لا تمانعين طبعًا... أقصد، أنا أعرف أنّه كان عالمًا مشهورًا، لكن هذا كلّ ما أعرفه. هلّا أخبرتِني من أين تعرفينه؟ ولعلّك تروين لي إحدى نوادره؟ هل كنتِ تعرفينه منذ زمن طويل؟»

«لا»، قالت متجنّبةً تحديقتَه.

- لا... أنتِ...؟

- لا، لم أعرفه منذ زمن طويل. ليس طويلًا بما يكفي قطعًا.

«أوه، حسنًا»، قال يومئ برأسه: «مفهوم. لذلك تجلسين هنا... لستِ صديقةً مقرّبة ومع ذلك أردتِ أن تقومي بواجبك؛ فهمتُك. هل كان جارَك؟ لعلّك تستطيعين أن تشيري إلى والديه. إخوة؟ أقرباء؟ أودّ لو أعرف بعض المعلومات عن خلفيّته. لقد سمعتُ أشياء كثيرة عنه؛ يقول البعض إنّه كان وغدًا بحقّ. أيمكنكِ أن تعلّقي على هذا؟ أعرف أنّه لم يكن متزوّجًا، لكن هل كان يواعد إحداهنّ؟». وحين ظلّت تحدّق بعيدًا، أضاف مخفِضًا صوتَه: «بالمناسبة، أنا لستُ واثقًا إن كنتِ قد رأيتِ اللّافتات، لكن لا يُسمَح بدخول الكلاب إلى المقبرة. أعني، الأمر ممنوع تمامًا. يُقال إنّ الحارس متشدّدٌ بهذا الشّأن. إلّا إذا، لستُ أدري، كنتِ بحاجةٍ إلى كلب، كلبٍ للإرشاد، لأنّكِ... حسنًا، تفهمين قصدي...»

«هذا صحيح».

تراجع الصّحفيّ خطوةً إلى الوراء. «يا إلهي، حقًّا؟»، قال بنبرةِ اعتذار: «أنتِ... أوه، أنا آسف. الأمر فقط أنّكِ لا تبدين...»

«هذا صحيح»، كرّرت.

– والحالة دائمة؟

– أجل.

«مؤسف»، قال بفضول ظاهر: «مرض؟»

«رَسَن».

تراجع خطوةً أخرى.

«آه، هذا مؤسف»، كرّر ولوّح بيده قليلًا أمام وجهها ليرى إن كانت ستستجيب. وبالطّبع، لا شيء.

من بعيد، ظهر كاهن.

«يبدو أنّ الحفلة بدأت»، قال يحكي لها ما يراه: «النّاس يأخذون مقاعدهم، الكاهن يفتح الإنجيل، و»، مدّ رأسه إلى الخلف ليرى إذا ما كان المزيد من النّاس قادمين من باحة السّيّارات، «ومع ذلك لا أفراد عائلة. أين العائلة؟ ما من أحد على الإطلاق يجلس في الصّفّ الأوّل. إذًا لعلّه بالفعل كان وغدًا»، نظر إليها ليرصد ردّة فعلها، ففوجئ إذ رآها تنهض. «سيّدتي؟»، قال: «ليس عليكِ أن تُتعبي نفسَك بالذّهاب إلى هناك؛ النّاس يراعون من في مثل حالتك». تجاهلته، وراحت تتلمّس بحثًا عن حقيبة يدها. «حسنًا، إن كنتِ ستذهبين حقًّا، فالأفضل أن تسمحي لي بمساعدتك». مدّ يده نحو مرفقها،

لكن ما إن لمسها حتّى أخذ ستّة ونصف يغمغم مهدّدًا. «ربّاه»، قال: «كنتُ أحاول المساعدة لا غير».

«لم يكن وغدًا»، قالت إليزابيث تكزّ على أسنانها.

«أوه»، ردّ شاعرًا بالإحراج: «كلّا، بالطّبع لا. أنا آسف، كنتُ أكرّرُ ما سمعتُه لا أكثر. تعلمين... قيل وقال. أعتذر. لكنّني أظنّكِ قلتِ إنّك لم تعرفيه جيّدًا».

- ليس هذا ما قلتُه.

- أظنُّ أنّكِ...

«قلتُ إنّني لم أعرفه *منذ زمن طويل بما يكفي*»، قالت مرتعشة.

«هذا ما قلتُه»، أجاب يحاول تهدئتها، ومدّ يده إلى مرفقها من جديد: «لم تعرفيه منذ زمن طويل».

«لا تلمسني». نزعت مرفقها من يده، وشقّت طريقَها عبر المرج غير المستوي وستّة ونصف بجانبها، متحاشيةً تماثيل الملائكة الحجريّة والأزهار الذّابلة بخبرةٍ لا يجيدها سوى من كان بصره عشرين على عشرين، ثمّ اغتنمَت خلوَّ الصّفّ الأماميّ واختارت كرسيًّا قبالةَ تابوته الأسود الطّويل مباشرةً.

أعقبَت ذلك اللّازمةُ المعتادة: النّظرات الحزينة، المعول المتّسخ، الآيات المملّة، الصّلوات عديمة المعنى. لكن عندما أُهِيلَت أوّل دفعةٍ من التّراب على التّابوت، قاطعت إليزابيث الكاهنَ في آخر كلمات

التّأبين معلنةً: «عليّ أن أذهب». ثمّ استدارت، وسارت مبتعدةً بصحبة ستّة ونصف.

كان المشوار إلى البيت طويلًا: ستّة أميال، في كعبٍ عالٍ، في ملابس سوداء، وهما بمفردهما. وبدا غريبًا: الطّريق الّذي مرّ بهما في مناطق منها الفخم ومنها الرّديء من جهة، والتّباين بين امرأة عديمة اللّون وكلبٍ جريحٍ وبين تباشير الرّبيع الصّارخة من جهة أخرى. في كلّ مكان يقطعانه، حتّى أكثر الحارات كآبة، كانت الأزاهير تشقّ طريقها بين صدوع الأرصفة ومساكب الأزهار، تصيح وتتباهى وتستجلب الانتباه إلى نفسها، مازجةً روائحها على أمل أن تخلق عطورًا مركّبة. وهما في وسط المعمعة، الكائنان الحيّان الميتان الوحيدان.

تبعَتها سيّارة الجنازة طوالَ الميل الأوّل تقريبًا؛ السّائق يُناشدها أن تركب، قائلًا إنّها لن تصمد أكثر من خمس عشرة دقيقة بهذا الكعب العالي، مذكّرًا إيّاها أنّها دفعت مقابلَ التّوصيلة أصلًا، معتذرًا أنّه لن يستطيع السّماح للكلب بالرّكوب لكنّه واثق أنّ إحدى السّيّارات الأخرى ستوصله. بيد أنّها كانت صمّاء أمام مناشَداته مثلما كانت عمياء أمام حشريّة الصّحفيّ، وفي النّهاية استسلم هو والجميع، وفعلت إليزابيث وستّة ونصف الأمرَ الوحيد الّذي بدا منطقيًّا: تابعا المشي وحسب.

في اليوم التّالي، إذ لم تستطع أن تبقى في منزلها ولم يكن لديها مكان آخر تذهب إليه، عادا إلى العمل.

وكانت هذه مشكلةً بالنّسبة إلى زملائها. لقد استنفدوا كاملَ تنويعات ما يمكن أن يُقال. *أنا آسف. إن كان هنالك أيّ شيء تحتاجين إليه على الإطلاق. يا لها من مأساة. أنا واثقٌ أنّه لم يُعانِ. أنا هنا من أجلك. إنّه الآن بين يدَي الله*. لذلك تجنّبوها.

«خُذي كلَّ الوقت الّذي يلزمك»، كان دوناتي قد قال لها في الجنازة، واضعًا يدَه على كتفها وهو يلاحظ -مع شيء من المفاجأة- أنّ الأسود ليس لونَها: «أنا هنا من أجلك». لكن حين رآها تجلس على كرسيّها في المختبر ذاهلة، تجنّبها هو الآخر. وفي ما بعد، حين اتّضح أنّ الجميع سيكونون «هنا» من أجلها طالما لم تكن هي «هنا»، أخذت بنصيحة دوناتي وغادرت.

المكان الوحيد المتبقّي هو مختبر كالفن.

«هذا قد يقتلني»، همست إلى ستّة ونصف وهما واقفان أمام باب كالفن. دفن الكلبُ رأسَه في فخذها متوسّلًا إليها ألّا تتابع، غير أنّها فتحت الباب رغم ذلك، ودخلا معًا. داهمَتها رائحةُ موادِّ التّنظيف مثلَ قاطرةٍ مسرعة.

البشرُ غريبون، قال ستّة ونصف لنفسه: يتصارعون بلا كللٍ مع الأوساخ والأتربة في عالمهم فوق الأرضيّ، لكنّهم ما إن يموتوا حتّى يدفنوا أنفسهم فيها طوعًا. في الجنازة، لم يصدّق كمّيّة التّراب اللّازمة لتغطية تابوت كالفن، وحين رأى حجم المعول تساءل إذا ما كان ينبغي به تقديم المساعدة بقائمتيه الخلفيّتين لردم الحفرة. وها هي الأتربة والأوساخ نفسها تكون المشكلةَ من جديد، لكن في الاتّجاه الآخر؛ لقد فُرِكَ كلُّ أثرٍ خلّفَه كالفن حتّى اختفى تمامًا. راح يراقبها وهي تقف في منتصف الغرفة، ووجهُها خالٍ بفعل الصّدمة.

لقد اختفت دفاترُه. عُبِّئت في صناديق نُقلت إلى المستودع بإشراف إدارة هاستينغز الّتي تنتظر على أعصابها لترى إن كان أحد الأنسباء الأقربين سيقصدهم ويحاول المطالبة بها. من نافلة القول أنّ إليزابيث، الّتي تعرف عملَه البحثيّ وتفهمه أكثر من أيّ شخص آخر، والّتي تفوق قرابتُها منه مفهوم «النّسَب» بكثير، ليست مخوَّلة.

لقد بقي شيء واحد فقط؛ صندوق ألقوا فيه متعلّقاتِه الشّخصيّة: صورة فوتوغرافيّة لها، بعض تسجيلات فرانك سيناترا، بضع حبوب لتخفيف آلام الحلق، كرة تنس، مكافآت كلاب، وفي القعر تحت كلّ ذلك علبة طعامه - الّتي أدركت، بقلبٍ يشدُّ الحزنُ نياطَه، أنّها على الأرجح ما تزال تحتوي الشّطيرةَ الّتي أعدّتها له قبل تسعة أيّام.

لكن حين فتحتها، كادَ قلبها يتوقّف. ففي داخلها كانت علبةٌ زرقاء صغيرة. وداخل هذه، أكبر ماسة صغيرة سبق أن رأتها.

في تلك اللّحظة تمامًا، أطلّت الآنسة فراسك برأسها من الباب. «ها أنتِ ذي يا آنسة زوت»، قالت، ونظّارة عينِ القطّة المصنوعة من حجر الرّاين خاصّتُها تتدلّى مثل أنشوطة رخوةٍ من سلسالٍ حول عنقها. «أنا الآنسة فراسك؟ من شؤون الموظّفين؟»، سكتت للحظة، «لا أقصد أن أزعجك»، قالت ودفعت الباب قليلًا بعد: «لكن...»، ثمّ انتبهت أنّ إليزابيث تنقّب في الصّندوق. «أوه، آنسة زوت، لا يمكنك أن تفعلي هذا. هذه الأشياء كانت متعلّقاته الشّخصيّة، ورغم معرفتي وتقديري لـ... حسنًا... للعلاقةِ غير المعهودة الّتي كنتِ أنتِ والسّيّد إيفانز تحظيان بها، نحن مضطرّون -حسب القانون- إلى

الانتظار قليلًا بعد كي نرى إن كان أحدٌ آخر -شقيق، ابن أخ، قريب *بالدّم*- سيأتي للمطالبة بها. أنت تفهمين. هذا ليس أمرًا متعمّدًا ضدّكِ أو ضدّ... حسنًا، نزعاتِك الشّخصيّة؛ لستُ هنا بصددِ الإدلاء بحكمٍ أخلاقيّ. لكن في غياب وثيقةٍ من نوعٍ ما تقول إنّه كان ينوي بالفعل أن يترك لك أشياءه، أخشى أنّ علينا اتّباع القانونِ نَصًّا. لقد اتّخذنا إجراءاتٍ من أجل حماية الأعمال الّتي تركها، وصارت في الحفظ والصّون». توقّفت دون أن تتمّ كلامَها، ورمقت إليزابيث بنظرةٍ فاحصة: «هل أنتِ على ما يرام يا آنسة زوت؟ تبدين على وشك أن يُغمى عليكِ». وعندما تهاوَت إليزابيث إلى الامام قليلًا، فتحت الآنسة فراسك البابَ عن آخره ودخلت.

بعد ذلك اليوم في الكافتيريا -حين كان إيدي ينظر إلى زوت بطريقة لم ينظر بها إليها هي يومًا- بدأت فراسك تجد نفسها تبغض زوت.

«كنتُ في المصعد اليوم»، كان إيدي قد قال بنشوة: «ودخلت الآنسة زوت. صعدنا معًا أربعة طوابق كاملة».

«وهل حظيتُما بدردشةٍ لطيفة؟»، سألته فراسك مُطبقةً على أضراسها: «عرفتَ ما هو لونها المفضّل؟»

«لا»، أجابها: «لكنّني سأسألها المرّةَ المقبلة دون شكّ. ربّاه، إنّها شيء آخر».

ومنذئذٍ ظلّت فراسك تسمع كلامًا مفصّلًا عمّا يجعل زوت شيئًا آخر، مرّتين في الأسبوع على الأقلّ. كان حديث إيدي كلّه عن زوت،

زوت فعلت كذا وعملت كذا، يتكلّم عنها بلا توقّف - لكن للأمانة، هذا ما يفعله الجميع. زوت، زوت، زوت. لقد باتت تكره سيرةَ زوت من كلّ قلبها.

«أنا واثقة أن لا حاجة بي إلى إخبارك»، قالت فراسك واضعةً يدها ذات الغمّازة على ظهر زوت: «أنّ الوقت ما زال مبكّرًا جدًّا على وجودك في العمل... ولا سيّما هنا»، أضافت تومئ برأسها نحو الغرفة الّتي كانت تخصّ كالفن في ما مضى. «هذا لن يُحسن إليكِ، ما تزالين في حالة صدمة وتحتاجين إلى الرّاحة». أخذت يدُها تتحرّك إلى أعلى وأسفل في تربيتةٍ خرقاء. «أنا أعرف ما يقوله النّاس»، قالت تُلمِّح إلى دورها المحوريّ حين يتعلّق الأمر بالنّمائم في هاستينغز: «وأعرف أنّك أنتِ تعرفين ما يقوله النّاس»، تابعت، واثقةً إلى حدٍّ كبير أنّ إليزابيث لا تعرف، «لكن برأيي، سواءً أكان السّيّد إيفانز يحصل على الحليب مجّانًا أم لا، فهذا لا يعني أنّ موتَه الّذي جاء قبل أوانه سيكون أقلّ ألمًا لكِ بأيّ مقدار. في الحقيقة، برأيي، الحليبُ حليبك، وإن اخترتِ أن تُهدريه فهذا حقُّك».

هاك، قالت لنفسها برضى. *الآن* صارت زوت تعرف ما يقوله النّاس.

رفعت إليزابيث رأسها تنظر إلى فراسك، مشدوهة. خطر لها أنّ المرء يحتاج إلى صنفٍ محدّدٍ من المهارة كي يستطيع أن يقول الشّيء الأسوأ في اللّحظة الأسوأ، ولعلّ هذا من المتطلّبات الأساسيّة للعمل في شؤون الموظّفين - جهلٌ رنّانٌ مَرِحٌ يمنح صاحبَه القدرةَ على إهانة المفجوعين.

«كنتُ أبحث عنكِ لعدّة أسباب»، كانت فراسك تقول: «أوّلُها مسألةُ كلبِ السّيّد إيفانز. هذا»، أضافت تشير بإصبعها إلى ستّة ونصف، الّذي ردّ إليها تحديقتَها متجهّمًا، «لسوء الحظّ، ما عاد بوسعه أن يكون هنا. أنت تفهمين. معهد هاستينغز للبحوث كان يُبجِّل السّيّد إيفانز أشدَّ التّبجيل، ولذلك يفرط في تدليل نزعاتِه العجيبة. لكن الآن إذ غادرنا السّيّد إيفانز، أخشى أنّ على الكلب أن يغادر هو الآخر. فحسب فهمي، الكلب كان كلبَه في الأساس على أيّة حال»، نظرت إلى إليزابيث تنتظر أن تُقرَّ كلامَها.

«لا، هو كلبنا»، استطاعت أن تردّ: «كلبي».

«مفهوم»، قالت: «لكن من الآن فصاعدًا، سيتعيّن أن يبقى في المنزل».

في الزّاوية، رفع ستّة ونصف رأسَه.

«لا أستطيع أن أكون هنا دونَه»، قالت إليزابيث: «حقًّا لا أستطيع».

رمشت فراسك بعينيها كأنّ إضاءة الغرفة مبهرة، ثمّ أخرجَت من العدم سنّادة ورق ودوّنَت بضع ملاحظات. «بالطّبع»، قالت دون أن ترفع رأسها: «أنا أيضًا أحبّ الكلاب»، وهذا غير صحيح، «لكن كما قلتُ لك، كنّا نسمح للسّيّد إيفانز ببعض التّجاوزات، فقد كان شديد الأهمّيّة عندنا. لكن في مرحلةٍ ما»، أضافت وهي تضع يدها من جديد على كتف إليزابيث وتستأنف التّربيت، «سيكون عليكِ أن تدركي أنّ المحسوبيّة تنتهي هنا».

تغيّر التّعبيرُ على وجه إليزابيث: «المحسوبيّة؟»

رفعت فراسك عينيها عن السّنّادة ونظرت إليها، محاولةً أن ترتدي سيماءَ المهنيّة: «أظنّنا نعرف».

«أنا لم أسعَ خلفَ الامتيازات من علاقتي به قطّ».

«لم أقل هذا بتاتًا»، أجابت فراسك بدهشة زائفة، ثمّ أخفضت صوتها كأنّها تُفضي إليها بسرّ: «أيمكنني أن أقول لك شيئًا؟»، سحبَت نفَسًا قصيرًا، «سوف يكون هناك رجالٌ آخرون يا آنسة زوت. ربّما ليسوا بمثل شهرة السّيّد إيفانز أو نفوذه، لكنّهم رجال على كلّ حال. أنا درستُ علمَ النّفس، وأعرف عن هذه الأمور. لقد اخترتِ إيفانز؛ كان شهيرًا، كان أعزب، ولعلّه كان قادرًا على مساعدة مسيرتك المهنيّة، من له أن يلومك؟ إلّا أنّ الأمور لم تنجح. وها هو قد رحل الآن، وأنت حزينة - *بالطّبع أنت حزينة*. لكن انظري إلى الجانب المشرق: لقد صرتِ حرّةً من جديد. وهناك الكثير من الرّجال اللّطيفين، الرّجال *الوُسماء*. لا بدّ أنّ أحدهم سيضع خاتمًا في إصبعك».

سكتت قليلًا، تتذكّر إيفانز القبيح قبل أن تتصوّر زوت الجميلة وهي تعود إلى ميدان المواعدة، والرّجال يحتشدون حولها مثل الفقاعات المزبدة في حوض استحمام. «وحالما تعثرين على رجل»، قالت: «ربّما مُحامٍ»، حدّدَت، «سيكون بوسعك أن توقفي كلّ هراء العلوم هذا وتذهبي إلى المنزل لتُنجبي الكثير من الأطفال».

«ليس هذا ما أريده».

انتصبت فراسك في وقفتها. «أوه، يا لكِ من مُرتَدّةٍ صغيرة»، قالت. إنّها تكره زوت، تكرهها حقًّا.

«إذًا ثمّة أمر واحد بعد»، تابعت وهي تنقر بقلمها على السّنّادة: «وهو إجازة الحِداد. لقد منحك معهد هاستينغز ثلاثة أيّام إضافيّة، أي خمسة بالمجمل. وهذا أمر غير مسبوق لشخص لا تربطه قرابة عائليّة بالمتوفّى - كرمٌ شديدٌ للغاية يا آنسة زوت، ودليلٌ آخر على مدى أهمّيّة السّيّد إيفانز عندنا. لذا أريد أن أؤكّد لك أنّ بوسعك -وينبغي بك- أن تذهبي إلى البيت وتبقي هناك. برفقة الكلب. أنا أمنحك إذني».

لم تكن إليزابيث متأكّدةً إذا ما كان السّبب هو فظاظة كلمات فراسك أم الإحساس الأجنبيّ لملمس الخاتم الصّغير البارد الّذي دفنَتْه في قبضتها قُبَيل دخول فراسك، لكنّها -وقبل أن تتمكّن من منع نفسها- استدارت وتقيّأت في حوض المغسلة.

«طبيعيّ»، قالت فراسك وانطلقت تقطع الغرفةَ كي تجلب كدسةً من المناديل الورقيّة: «ما تزالين في حالة صدمة». لكن حين وضعت المنديل الثّاني على جبهة إليزابيث، ارتدَت نظّارة عين القطّة خاصّتها وأمعنت النّظر أكثر. «أوه»، تنهّدت كمن يصدر حكمًا، ثمّ أرجعت رأسها إلى الخلف: «أوه، فهمت».

«ماذا؟»، غمغمت إليزابيث.

«هيّا، بحقّك»، قالت فراسك بنبرةِ استنكار: «ما الّذي كنتِ تتوقّعينه؟»، ثمّ طرقعت بلسانها طرقعةً عاليةً بما يكفي لجعل زوت تفهم أنّها تعرف. لكن حين لم تُقرَّ زوت بمعرفتها أنّها تعرف، تساءلت فراسك إذا ما كان ثمّة احتمال ولو بعيد أنّ زوت بالفعل لا تعرف. هكذا هو الأمر مع بعض العلماء؛ يظلّون مؤمنين بالعلم إلى أن يَحدث لهم.

«أوه، كدتُ أنسى»، قالت فراسك، وسحبت صحيفةً من تحت إبطها: «أردتُ أن أتأكّد أن تَرَي هذا. إنّها صورة لطيفة، ألا تتّفقين معي؟». وهناك كانت، المقالة الّتي كتبها ذلك الصّحفيّ الّذي حضر الجنازة. «الألمعيّة الّتي دفَنَها»، هتفَ العنوانُ العريض، تليه مقالةٌ تلمّح إلى أنّ شخصيّة إيفانز الصّعبة ربّما منعته من بلوغ كامل إمكانيّاته العلميّة الكامنة. وفي سبيل إثبات تلك الفكرة، على يمين المقالة تمامًا كانت صورةٌ لإليزابيث وستّة ونصف تُظهرهما واقفَين أمام تابوته، يذيّلُها تعليق: «في الحقيقة، الحبّ *ليس* أعمى»، مصحوبًا بعبارات وجيزة تروي كيف أنّ صاحبته نفسها قالت إنّها بالكاد كانت تعرفه.

«كم من المريع أن يكتب هذا»، همست إليزابيث وهي تقبض على بطنها.

«لن تستفرغي مرّةً أخرى، أليس كذلك؟»، وبّختها فراسك وهي تمدّ إليها المزيد من المناديل الورقيّة: «أعرف أنّك عالمة كيمياء يا آنسة زوت، لكن *من المؤكّد* أنّك توقّعتِ هذا. من المؤكّد أنّكِ درستِ البيولوجيا».

رفعت إليزابيث رأسها، بوجه رماديٍّ وعينين خاويتَين، وللحظةٍ ضئيلةٍ وجدت فراسك نفسها تكاد تشعر بالأسف على هذه المرأة وكلبِها القبيح والقيء وكلّ المشاكل القادمة. فرغمَ ذكائها وجمالها وأسلوبها الخليع إلى أقصى الحدود في التّعامل مع الرّجال، لم تكن حال زوت أفضل من حال بقيّتهنّ بأيّ شكل.

«توقّعتُ *ماذا*؟»، قالت إليزابيث: «ما الّذي تلمّحين إليه؟»

«البيولوجيا!»، جأرَت فراسك وهي تنقر بقلمها على بطن إليزابيث: «زوت، من فضلك! نحن نساء! أنت تعلمين جيّدًا جدًّا أنّ إيفانز ترك لك *شيئًا*!»

وإذا بإليزابيث، وقد فغر الإدراكُ لها عينيها فجأةً، تتقيّأ من أوّلٍ وجديد.

الفصل 13

حمقى

كانت إدارةُ معهد هاستينغز للبحوث تواجه مشكلةً كبيرة. فبوفاة عالِمِهم النّجم، وتلميح مقالة صحفيّة إلى أنّ شخصيّته الرّديئة أعاقته عن تحقيق أيّ شيء ذي شأن، كان أولياءُ نعمةِ هاستينغز -الجيش والبحريّة وعدّة شركات صيدلانيّة وبضعة مستثمرين خاصّين وحفنة من المؤسّسات- قد بدؤوا يثيرون الجلبة بشأن «إعادة التّدقيق في مشاريع هاستينغز القائمة» و«إعادة النّظر في المِنَح المستقبليّة». هكذا هي الحال مع العمل البحثيّ؛ يكون دائمًا تحت رحمة من يدفعون تكاليفه.

ولهذا السّبب صمّمت إدارة هاستينغز على وضع حدٍّ لهذه المقالة السّخيفة. بلى، إيفانز كان يحرز تقدّمًا جيّدًا، أليس كذلك؟ مكتبه مكتظٌّ بالدّفاتر والمعادلات الصّغيرة الغريبة المكتوبة بخطٍّ يتعذّر فكُّ رموزه والّتي ذُيِّلَت بإشارات تعجّبٍ ورُسِمَت تحتها خطوطٌ سميكة كالّتي يرسمها المرء حين يكون على شفا إنجازِ شيءٍ ما. في الواقع، لقد كان من المقرّر له أن يقدّم ورقةً بحثيّةً عن التّقدّم الّذي يُحرزه في جنيف بعد شهر، لو أنّ سيّارةَ الشّرطة لم ترجع وتدهسه لأنّه أصرّ على الجري في الخارج تحت المطر عوضًا عن القيام بذلك في بيته منتعلًا خفًّ باليه كما يفعل الجميع.

يا للعلماء... *يُصرّون* على أن يكونوا مختلفين.

وهذا أيضًا كان جزءًا من المشكلة. معظم علماء هاستينغز ليسوا مختلفين - أو على الأقلّ ليسوا مختلفين بما يكفي. هم عاديّون، متوسّطو السّويّة، وعلى أفضل تقدير فوقَ السّويّة المتوسّطة بقليل. ليسوا أغبياء، لكن أيضًا ليسوا نوابغ. إنّهم أشخاص من النّوع الّذي يشكّل الغالبيّة في كلّ شركة - أشخاصٌ عاديّون يقومون بعمل عاديّ، وتتمّ من آنٍ إلى آخر ترقيتُهم إلى الإدارة بنتائج غير ملهِمة. أشخاصٌ لن يغيّروا العالم، لكنّهم أيضًا لن ينسفوه عن طريق الخطأ.

كلّا، الإدارة مضطرّة أن تعوّل على مُبدِعيها، وفي غيابِ إيفانز انحصرت هذه الدّائرةُ ضمن عددٍ ضئيلٍ من أصحاب المواهب الحقيقيّة. وهم لا يحتلّون جميعهم مناصبَ رفيعة مثل منصب كالفن؛ في الواقع، بعضهم على الأرجح لا يدرك أنّه يُعتبَر من المبدعين الحقيقيّين، لكنّ إدارة هاستينغز تعلم أنّ الأفكار الكبيرة والفتوحات تصدر كلّها منهم تقريبًا.

المشكلة الحقيقيّة الوحيدة بهؤلاء الأشخاص، إلى جانب بعض التّحدّيات المتعلّقة بالنّظافة الشّخصيّة من آنٍ إلى آخر، هي أنّهم بدَوا دائمًا يتقبّلون الإخفاقَ باعتباره نتيجةً إيجابيّة. «أنا لم أفشل»، يقتبسون إديسون مرارًا وتكرارًا: «بل وجدتُ عشرة آلاف طريقة لا تعمل». وقد يكون هذا قولًا مقبولًا في العلوم، لكنّه تصريح خاطئ بالمطلق حين يُدلى به أمام قاعة مليئة بمستثمرين يبحثون عن دواءٍ مزمنٍ فوريٍّ باهظِ الثّمن للسّرطان. معاذَ الله أن يسمح بأيّة أدويةٍ فعليّة، فجنيُ الأموالِ من أشخاصٍ ما عادوا يعانون المشكلةَ أمرٌ أصعب

بكثير. لهذا السّبب، كان معهد هاستينغز يفعل كلَّ ما بوسعه لإبعاد هؤلاء الأشخاص عن الصّحافة، إلّا إن كانت صحافة علميّة، فلا بأس حينها إذ لا أحد يقرأ هذه. لكن الآن؟ إيفانز الميت يتربّع على الصّفحة الحادية عشرة من صحيفة *لوس أنجلس تايمز*، ومن يقف هناك بجانب تابوته؟ زوت والكلب اللّعين.

هذه هي مشكلة الإدارة الثّالثة. زوت.

إنّها واحدة من مُبدعي المعهد - دون اعترافٍ بها طبعًا، بيد أنّها تتصرّف كما لو كانت تعرف. لا يمرّ أسبوعٌ دون أن تتلقّى الإدارةُ بعضَ الشّكاوى بشأنها: طريقة تعبيرها عن رأيها، إصرارها على ظهور اسمها على أعمالها، رفضها إعدادَ القهوة؛ ولا نهاية للقائمة. ومع ذلك، فإنّ التّقدّم الّذي تحرزه -أم ترى الّذي كان يحرزه كالفن؟- لا يمكن إنكاره.

لم يتمّ إقرار مشروعها، عن النّشوء اللّاحيويّ، سوى لأنّ مستثمرًا دَسِمًا هبطَ من غامض علمِه وأصرّ على تمويل النّشوء اللّاحيويّ دونًا عن كلّ المواضيع الأخرى. ما احتمالات *ذلك*؟ غير أنّ هذا بالضّبط هو نوع الأشياء الغريبة الّتي يفعلها كبارُ المليونيرات: تمويل المشاريع غير المُجدية المتطرّفة في طموحها. لقد قال الرّجل الثّريّ إنّه قرأ ورقةً كتبها شخصٌ يدعى إ. زوت -من أيّام يو سي إل إيه الخوالي- ففتنَتهُ الإمكانيّاتُ الواسعة الّتي تَعِدُ بها، وهو يحاول الوصول إلى زوت منذ ذلك الوقت.

«زوت؟ لكنّ السّيّد زوت يعمل هنا!»، قالوا له قبل أن يستطيعوا كبحَ جِماح أنفسهم.

بدت المفاجأةُ صادقةً على الرّجل الثّريّ. «أنا موجود في البلدة اليومَ فقط، إلّا أنّني أودُّ حقًّا لو أقابل السّيّد زوت»، قال.

وراحوا يتنحنحون ويهمهمون. *يقابل زوت*، قالوا لأنفسهم: ويكتشف أنّها هي وليست هو؟ سيطير الشّيك من أيديهم دون ريب.

«لسوء الحظّ، لن يكون هذا ممكنًا»، قالوا له: «فالسّيّد زوت في أوروبا، يشارك في مؤتمر».

«يا للأسف»، قال الرّجل الثّريّ: «ربّما في المرّة القادمة». ثمّ تابع ليقول إنّه لن يمرّ لتفقُّدِ تطوّرات المشروع سوى كلّ بضع سنوات، لأنّه يتفهّم أنّ العلوم بطيئة، ويدرك أنّها تتطلّب وقتًا ومساحةً وصبرًا.

وقت. مساحة. صبر. هل هذا الرّجل *حقيقيّ*؟ «كلامٌ حكيمٌ للغاية»، قالوا له وهم يغالبون رغبتهم الملحّة بالتّشقلُب في أنحاء المكتب: «شكرًا لثقتك». وقبل أن يستقرَّ داخل سيّارته اللّيموزين، كانوا قد قسّموا عطيّتَه السّخيّة لتمويل مجالات بحثٍ واعدةٍ أكثر. حتّى أنّهم منحوا إيفانز قدرًا منها.

ثمّ يأتيك إيفانز. بعد كرمهم البالغ وتخصيصهم كلّ هذا الاستثمار لبحثه الّذي يندرج في فئة «لا فكرة حقيقيّة لدينا عمّا يفعله هذا الرّجل في الواقع»، ها هو يداهم مكاتبَهم ليقول لهم إنّه، إن لم يجدوا طريقةً لتمويل صاحبته الحلوة، سيغادر ويأخذ كلَّ ألعابه وأفكاره وترشيحاته لجائزة نوبل معه. توسّلوا إليه أن يكون عقلانيًّا؛ أيريد فعلًا جعلَهم يموّلون النّشوء اللّاحيويّ؟ حبًّا بالله. لكنّه رفض أن يتزحزح، بل بلغَ حدّ الجزم أنّ أفكارها قد تكون أفضل حتّى من

أفكاره. آنذاك، اعتبروا كلّ ذلك مجرّد ترّهاتٍ تصدر عن رجلٍ فاز باليانصيب، من النّاحية الجنسيّة. لكن الآن؟

على عكس أفكار جميع مُقتبِسي إديسون «أنا لستُ فاشلًا حقًّا»، فقد بدت أفكارُها النّظريّة -وفقًا لأقوال إيفانز على الأقلّ- فائقة الصّواب والدّقّة. لقد اقترح داروين منذ زمنٍ بعيد أنّ الحياة انبثقت من بكتيريا أحاديّة الخليّة، واتّخذت بعد ذلك أشكالًا متنوّعة أفضت إلى كوكبٍ معقّد يعيش عليه البشر والنّباتات والحيوانات. أمّا عن زوت؟ فقد كانت أشبه بكلبِ بلودهاوند يُشمشمُ وراء آثار المكان الّذي جاءت منه *الخليّةُ* الأولى. بصياغة أخرى، كانت قد حملت على عاتقها مهمّةَ حلِّ واحدٍ من أعظم ألغاز الكيمياء على مرّ العصور، وإن ظلّت تحقّق نتائجها بهذا المعدّل، فلا شكّ أنّها سوف تفعل ذلك بالضّبط. وفقًا لأقوال *إيفانز* على الأقلّ. المشكلة الوحيدة هي أنّ الأمر سيستغرق على الأرجح تسعين عامًا؛ تسعين عامًا لا يمكن تحمُّل تكاليفها على الإطلاق. المستثمر الدّسِم سيكون قد مات قبل انتهاء تلك المدّة بكثير. والأَولى بالذّكر، أنّ هذا ينطبق عليهم هم أيضًا.

كما أنّ هنالك تفصيلًا ثانويًّا واحدًا آخر؛ لقد بلغ علمَ الإدارة للتّوّ أنّ زوت حبلى. أي حبلى *خارج إطار الزّوجيّة*.

أيمكن لموقفهم أن يزداد سوءًا بعد؟

من الواضح أنّ عليهم التّخلّي عنها؛ لا جدال في الأمر. لدى معهد هاستينغز للبحوث معاييرُه.

لكن إن حدث وغادرَت، أيُّ موقعٍ سيظلّ لهم على الجبهة الإبداعيّة؟ سينتهي بهم المطاف بين حفنة من النّاس الّذين يُحرزون تقدّمًا سلحفائيًّا، وهذا كلامٌ لا يُشبعُ خُبزًا في ميدان المِنَح الدّسمة.

لحسن الحظّ، يصادف أنّ زوت تعمل مع ثلاثةٍ آخرين. لقد أرسلت إدارةُ هاستينغز في طلبهم على الفور، فهي تحتاج إلى تطمينٍ أنّ أبحاثَ زوت ذات الأهمّيّة المزعومة يمكن أن تستمرّ -ولو على قدمٍ دونَ ساق- في غيابها، مهما كلّف الأمرُ لجعلِ المال -الّذي لم تحصل هذه الأبحاث عليه فعليًّا في الدّرجة الأولى- يبدو قد استُغِلَّ في محلّه. لكن حالما وصل حَمَلَةُ الدّكتوراه الثّلاثة إلى القاعة، تيقّنَت إدارةُ هاستينغز أنّها في ورطة. اثنان منهم سلّما على مضضٍ أنّ زوت هي المحرّك الأساسيّ، وأنّ وجودها جوهريّ لأيّ تقدّمٍ تالٍ. أمّا الثّالث، وهو رجلٌ يُدعى بوريفايتس، فقد سلكَ الطّريقَ الآخر، إذ ادّعى أنّه هو الّذي أنجز كلَّ شيء في الواقع. لكن حينما لم يستطع دعمَ أيٍّ من مزاعمه بشرحٍ علميٍّ ذي مغزى، أدركت الإدارة أنّها في حضرةِ أحمقَ علميٍّ، ومعهد هاستينغز حافلٌ بهؤلاء. لا عجب في هذا، فالحمقى يجدون طريقَهم إلى داخل كلّ شركة، إذ يميلون إلى أن يُبلوا حسنًا في مقابلات التّوظيف.

بالمختصر، عالم الكيمياء الجالس أمامهم الآن بالكاد يستطيع أن يلفظ عبارة «النّشوء اللّاحيويّ».

ثمّ هناك الآنسة فراسك من شؤون الموظّفين - أوّل من قرعَ جرس الإنذار بخصوص حالة زوت. لقد استخدمت مواهبَها المحدودة لنشر شائعة حَبَلِ زوت، حارصةً أن تبلغ ورطةُ زوت علمَ

كلّ من في هاستينغز بحلول الظّهيرة، ما بثَّ الرّعبَ في قلب الإدارة. انتشار الشائعة كالنّار في الهشيم يعني أنّها مسألة وقتٍ قبل أن تصل إلى مستثمري المعهد الكبار، والمستثمرون -كما يعلم الجميع- يكرهون الفضائح. وإلى جانب ذلك، ثمّة مشكلةُ المعجب الثّريّ الولهان بالسّيّد زوت، المليونير الكبير الّذي قدّم لهم عمليًّا شيكًا على بياض لصالح النّشوء اللّاحيويّ - الّذي زعم أنّه قرأ ورقةَ السّيّد زوت القديمة. كيف سيشعر عندما يعلم أنّ زوت ليست امرأة وحسب، بل امرأة حبلى غير متزوّجة على عيبها؟ ربّاه. بوسعهم أن يروا تلك اللّيموزين الكبيرة تعبر مدخل السّيّارات مرّةً أخرى، والسّائق يُبقي المحرّك دائرًا ريثما يدخل الرّجلُ بخطواته الواسعة مطالبًا باستعادة شيكه. «كنتُ أموّل قحبةً محترفة؟»، هكذا سيصيح على الأرجح. أيّة ورطة. يجب أن يفعلوا شيئًا بخصوص زوت على الفور.

«أخشى أنّك وضعتِنا في موقف رهيب، رهيب للغاية يا آنسة زوت»، قال د. دوناتي موبِّخًا بعد أسبوع وهو يدفع إخطارَ انتهاءِ خدمةٍ نحوَها فوق الطّاولة.

«أنت *تفصلني*؟»، قالت إليزابيث مذهولة.

– أودّ أن ننتهي من الأمر بأكبر قدرٍ مستطاع من التّحضُّر.

– لماذا أتعرّض للفصل؟ على أيّ أساس؟

– أظنّك تعرفين.

«نَوِّرني»، قالت تنحني إلى الأمام، يداها متشابكتان في عقدةٍ مُحكمة، وقلمها الرّصاص رقم اثنين خلف أذنها اليسرى يومض في

الضّوء. لم تكن متأكّدةً من أين أتاها اتّزانُها، لكنّها تعلم أنّ عليها الحفاظ عليه.

نظر بطرف عينه إلى الآنسة فراسك، الّتي كانت منشغلة بتدوين الملاحظات.

«لديكِ طفل»، قال دوناتي: «لا تحاولي الإنكار».

«أجل، أنا حامل. هذا صحيح».

«هذا صحيح؟»، قال بصوت مخنوق: «هذا صحيح؟»

– مجدّدًا، صحيح. أنا حامل. ما علاقة هذا بعملي؟

– من فضلك!

«ليس مرضًا مُعدِيًا»، قالت تفكُّ عقدةَ يديها: «أنا لستُ مصابةً بالكوليرا. لن يلتقط أحدٌ العدوى ويحبل بسببي».

«يا لجرأتك»، قال دوناتي: «تعرفين حقَّ المعرفة أنّ النّساء لا يَبقين على رأس عملهنّ أثناء الحمل. لكن أنتِ... أنت لستِ حاملًا وحسب، بل حامل دون زواج. هذا شائن».

«الحملُ حالةٌ طبيعيّة. ليس أمرًا شائنًا. هذه بدايةُ كلّ كائن بشريّ».

«كيف *تجرئين*؟»، قال بصوتٍ بدأ يرتفع: «امرأةٌ تعلّمني *أنا* ما هو الحمل. من تظنّين نفسك؟»

بدت عليها المفاجأة من السّؤال. «امرأة»، أجابت.

«آنسة زوت»، قالت الآنسة فراسك بنبرة تقريريّة: «إنّ قواعدَنا المسلكيّة لا تسمح بشيء من هذا النّوع، وأنت تعلمين

ذلك. عليكِ أن توقّعي هذه الورقة، ثمّ عليك بعدها أن تُخلي مكتبَك. لدينا معاييرُنا».

بيد أنّ إليزابيث لم يرفّ لها جفن. «أنا محتارة»، قالت: «أنتم تفصلونني على أساس كوني حاملًا دون زواج. ماذا عن الرّجل؟»

«أيّ رجل؟ أتقصدين إيفانز؟»، سألها دوناتي.

- أيّ رجل لا على التّعيين. حين تحبل امرأةٌ خارج إطار الزّوجيّة، هل يتمّ فصل الرّجل الّذي جعلها تحبل هو الآخر؟

- ماذا؟ عمّ تتكلّمين؟

- هل كنتَ لتفصل كالفن، على سبيل المثال؟

- بالطّبع لا!

- إن كان لا، إذًا، فمن النّاحية التّقنيّة، ليست لديك أسبابٌ توجب فصلي.

بدت الحيرة على دوناتي. *ماذا؟* «بالطّبع لديّ»، قال متلعثمًا: «بالطّبع لديّ! أنتِ امرأة! أنتِ الّتي حبلت!»

- هكذا تتمّ العمليّة عمومًا. لكنّك تدركُ أنّ الحمل يتطلّب نطافَ رجل.

- آنسة زوت، أحذّرك. *انتبهي إلى لهجتك*.

- أنت تقول إذا أقدم رجلٌ غير متزوّج على جعل امرأة غير متزوّجة تحبل، فلن يتحمّل أيّة عواقب. تستمرّ حياته على حالها، دون أيّ تغيير.

«ليس ذنبنا»، تدخّلت فراسك: «أنت كنتِ تحاولين إيقاع إيفانز في المصيدة كي يتزوّجك. الأمر واضح».

«ما أعرفه»، قالت تدفع خصلةً منفلتةً عن جبينها: «هو أنّنا أنا وكالفن لم نكن نرغب بإنجاب أطفال. أعرف أيضًا أنّنا اتّخذنا كلّ التّدابير الوقائيّة لضمان ذلك. هذا الحمل ناتج عن قصورٍ في وسائل منع الحمل، لا في الأخلاق. كما أنّ الأمر لا يخصّكم».

«أنتِ الّتي جعلتِه يخصّنا!»، صاح دوناتي فجأة: «وفي حال لم تعرفي، ثمّة طريقة مضمونة *لعدم* الحمل وهي تبدأ بحرف «ط»! لدينا قواعد يا آنسة زوت! قواعد!»

«ليس في ما يتعلّق بهذا»، أجابت إليزابيث بهدوء: «لقد قرأتُ كتيّبَ إرشادات الموظّفين من الجلدة إلى الجلدة».

- إنّها قاعدة غير مكتوبة!

- ولهذا ليسَت ملزِمةً قانونيًّا.

حدجَها دوناتي بعينيه. «كان إيفانز ليشعر بالخزي، بغايةِ الخزي منك».

«كلّا»، قالت إليزابيث ببساطة، وصوتُها خالٍ إنّما هادئ: «ما كان ليفعل».

حطّ الصّمتُ على الغرفة. إنّها الطّريقة الّتي تعترض بها دائمًا -دون إحراج، دون ميلودراما- كأنّ القولَ الفصل سيكون لها، كأنّها تعلم أنّها ستفوز في النّهاية. هذا *بالضّبط* هو نوع السّلوك الّذي يشتكي زملاؤها منه. وتلميحُها المستمرّ إلى أنّ علاقتها هي وكالفن

كانت ذات مستوى أرفع - كأنّها مصنوعة ببراعةٍ من مادّةٍ غير قابلة للانحلال تصمد في وجه كلّ شيء، حتّى في وجه موته. كم هذا مستفزّ.

راحت إليزابيث تنتظرهما كي يعودا إلى رشدهما، فاردةً يديها على الطّاولة. فُقدانُ الأحبّةِ يكشف عن حقيقةٍ شديدة البساطة: أنّ الوقت -كما يزعم النّاس معظم الأحيان دون أن يلتزموا بذلك- ثمينٌ بحقّ. لديها عمل تقوم به؛ هو كلّ ما تبقّى لها. ومع ذلك، ها هي ذي جالسة مع اثنين من حرّاس الفضيلة الّذين نصّبوا أنفسهم بأنفسهم، قاضيَين مُتعاليَين يعدَمان القدرةَ على المحاكمة؛ أحدهما يعاني فهمًا ضبابيًّا لعمليّة منع الحمل والأخرى تُسايره لأنّها -كحال الكثير من النّساء غيرها- تفترض أنّ انتقاصَ إحدى بنات جنسِها سيؤدّي بطريقةٍ ما إلى رفعها في تقدير رؤسائها الذّكور. بل ثمّة ما هو أسوأ، أنّ هذه المحادثات اللّامنطقيّة كلّها تجري داخل بناءٍ مكرَّسٍ للعلم.

«هل انتهينا هنا؟»، قالت ناهضة.

شحب وجهُ دوناتي. لقد بلغ السّيل الزّبى. على زوت أن ترحل الآن فورًا وتأخذ معها ابنَ الحرام الّذي في بطنها وأبحاثَها الحاسمة وعلاقتَها الرّومنسيّة الّتي تتحدّى الموت. أمّا بالنّسبة إلى مستثمِرها الثّريّ، فسيتعاملون معه لاحقًا.

«وقّعي»، أمرَها، فيما ألقَت فراسك إليها قلمًا: «نريدك أن تكوني خارجَ المبنى خلال مدّةٍ لا تتجاوز الظّهيرة. الرّاتب يتوقّف يوم الجمعة. لا يُسمح لك أن تحدّثي أحدًا بخصوص أسباب صرفك من الخدمة».

«الفوائد الصّحّيّة أيضًا تتوقّف يوم الجمعة»، زقزقَت فراسك، تنقر بظفرها على سنّادة الورق الّتي لا تفارقها: «الوقتُ يمرّ».

«أرجو أن يعلّمك هذا أن تتحمّلي مسؤوليّة سلوكك الشّائن من الآن فصاعدًا»، أردفَ دوناتي وهو يمدّ يده بانتظار الإخطار الموقَّع: «وتكفّي عن إلقاء اللّوم على الآخرين، مثل إيفانز»، تابع، «بعد أن أرغمَنا على تمويلك. بعد أن وقف أمام إدارة هاستينغز وهدّد بالمغادرة إن لم نفعل ذلك».

نظرت إليزابيث كمن تلقّى صفعةً على وجهه. «ماذا تقول؟»

«تعرفين تمامًا»، قال دوناتي وهو يفتح الباب.

«أمامك حتّى الظّهيرة»، كرّرَت فراسك وهي تدسّ سنّادة ورقها تحت إبطها.

«المَراجِعُ المهنيّة قد تمثّل مشكلة»، أضاف خارجًا إلى الدّهليز.

«محسوبيّات»، همست فراسك.

لوعة الفقد

أكثر ما يكرهه ستّة ونصف في ما يخصّ الذّهاب إلى المقبرة هو أنّ طريقها يمرّ بالموقع الّذي مات كالفن فيه. لقد سمع أحدَهم يقول ذات مرّة إنّ من المهمّ أن يتعرّض المرء لما يذكّره بإخفاقاته، لكنّه لا يعرف لماذا؛ فالإخفاقات عصيّةٌ على النّسيان بحكم طبيعتها.

مع اقترابه من المقبرة، ظلّت عينه يقظةً تترقّب حارسَها العدوّ. وإذ لم يرَ أحدًا، حشر نفسَه تحت البوّابة الخلفيّة ثمّ انطلق بين الصّفوف، خاطفًا خصلةً من النّرجس الرّيّان عن بلاطة أحد الأضرحة قبل أن يضعها هنا:

كالفن إيفانز

1955-1927

كيميائيٌّ ومجدّفٌ وصديقٌ وحبيبٌ لامع.

أيّامُكَ جِدُّ معدودة.

كان يُفترض بالكلام الّذي على الشّاهدة أن يكون: «أيّامُكَ جِدُّ معدودة، فاستغلّها في فتح نوافذ روحِك للشّمس»، اقتباسٌ من

ماركوس أوريليوس، غير أنّ الشّاهدة كانت صغيرة والنّقّاش كتب الجملة الأولى بخطٍّ أكبر من اللّازم فنفدت المساحة.

حدّق ستّة ونصف في الكلمات. هو يعرف أنّها كلمات لأنّ إليزابيث تحاول تعليمه الكلمات. لا الأوامر، بل الكلمات.

«ما الّذي يقوله العلمُ عن عدد الكلمات الّتي تستطيع الكلاب أن تتعلّمها؟»، سألت كالفن ذات مساء.

«نحو خمسين»، أجابها دون أن يرفع رأسه عن كتابه.

«خمسون؟»، قالت تفرك شفةً بالأخرى: «حسنًا، هذا خطأ».

«ربّما مئة»، قال وهو ما يزال مستغرقًا في كتابه.

«مئة؟»، أجابت بالاستنكار نفسه: «كيف يمكن هذا؟ هو أصلًا يعرف مئة».

رفع كالفن رأسه: «عفوًا؟»

«أنا أتساءل»، قالت: «هل يمكن تعليم الكلب لغةً بشريّة؟ أعني لغةً برمّتها. الإنجليزيّة مثلًا».

- لا.

- لماذا؟

«حسنًا»، قال كالفن برويّة، مدركًا أنّ هذا قد يكون من تلك الأشياء الّتي لا تقبلها وحسب - ثمّة الكثير من هذه الأشياء: «لأنّ

التّواصل بين الأنواع مقيّدٌ بحجم الدّماغ»، أغلق كتابَه، «كيف تعلمين أنّه يعرف مئة كلمة؟»

«يعرف مئةً وثلاث كلمات»، قالت وهي تراجع دفترَها: «أنا أقوم بعدّها».

– وأنتِ من علّمه هذه الكلمات.

– أستخدمُ تقنيّة التّعلُّمِ التّقبُّليّ... التّعرُّف على الأشياء. على غرار الأطفال، هو -بشكلٍ أوتوماتيكيّ- يُبدي تقبُّلًا أكبرَ لحفظ الأشياء الّتي تثير اهتمامَه.

– والأشياء الّتي تثير اهتمامه هي...

«الطّعام»، نهضت عن الطّاولة وبدأت تلمّ الكتب: «لكنّني واثقة أنّ لديه الكثير من الاهتمامات الأخرى».

نظر كالفن إليها في إنكار.

وهكذا بدأت حملتُهما لتعلّم الكلمات: هو وإليزابيث على الأرضيّة، يقلّبان صفحات كتب أطفال كبيرة.

«شمس»، تُلَقِّنُه مشيرةً إلى إحدى الصّور. «طفل»، تقرأ بعد ذلك، مشيرةً إلى بنتٍ صغيرة اسمُها غريتل تأكل درفةَ شُبّاكِ منزلٍ مصنوع من الحلوى. لا يُفاجئ ستّة ونصف أن يأكل طفلٌ درفةَ شبّاك. ففي الحديقة، الأطفال يأكلون كلَّ شيء، وهذا يتضمّن ما يستطيعون إيجاده في أنوفهم.

من الجانب الأيسر، دخل الحارسُ إلى المشهد يجرّ قدميه، وعلى كتفه تتكئ بارودة - شيءٌ من الغريب، برأي ستّة ونصف، أن يُحمَل في مكانٍ مَن فيه موتى أساسًا. أقعى مكانَه، وانتظر مغادرةَ الرّجل، ثمّ مدّد جسدَه بمحاذاة التّابوت المدفون في الأسفل. *مرحبًا، كالفن.*

هكذا يتواصل مع البشر على الجانب الآخر. ربّما كانت هذه الطّريقة تنفع، وربّما لا. هو يستخدم التّكنيك نفسه مع الكائن الّذي ينمو داخل إليزابيث. مرحبًا، *كائن*، يبثّه التّحيّةَ ضاغطًا أذنَه على بطن إليزابيث: *هذا أنا، ستّة ونصف. أنا الكلب.*

كان كلّما بدأ التّواصل يعرّف بنفسه من جديد. هو يعرف من تجربته في الدّروس أنّ التّكرار أمرٌ مهمّ: السّرّ يكمن في عدم الإفراط في التّكرار - كيلا يصير مضجرًا إلى حدّ أن تكون له نتيجة عكسيّة فيجعل التّلميذَ ينسى. هذا يسمّى الملل. ووفقًا لإليزابيث، الملل هو المشكلة الأكبر في التّعليم اليوم.

يا كائن، تواصلَ معه الأسبوع الماضي: *معك ستّة ونصف*. انتظر ردًّا. الكائن أحيانًا يمدّ قبضةً صغيرة - وهو يجد هذا مُشوّقًا، وأحيانًا أخرى يسمع غناءً. لكنّه البارحة أعلن له الخبر -*هناك شيء عليك أن تعلمه بخصوص والدك*- فبدأ الكائن يبكي.

دفن خطمَه عميقًا بين العشب. *كالفن*، راح يتواصل: *علينا أن نتحدّث عن إليزابيث.*

عند السّاعة الثّانية صباحًا، بعد موت كالفن بنحو ثلاثة أشهر، وجد ستّة ونصف إليزابيث في المطبخ، ترتدي ثوبَ نومها، وتنتعل حذاءً مطّاطيًّا، وكلّ الأنوار مُضاءة. كانت في يدها مطرقةٌ ثقيلة.

أمام مفاجأته، تراجعت إلى الخلف وهوَت بالمطرقة على جدار الخزائن مباشرةً. توقّفت قليلًا كأنّها تُقيّم حجمَ المجزرة، ثمّ هوَت من جديد، بقوّة أكبر هذه المرّة، كأنّها تحاول تسديد ضربة بيسبول ناجحة. وظلّت تُعمِل مطرقتَها طيلةَ ساعتين. ستّة ونصف يراقبها من تحت الطّاولة وهي تهدّ المطبخَ كحطّابٍ استفرد بغابة، لا يقاطع غارتَها العنيفةَ سوى مناورات جراحيّة على المفصلات والمسامير، والأرضيّةُ القديمة تمتلئ بأكوامٍ من الخردة والألواح فيما تتناثر نحاتةُ الجِصّ على المشهد مثل ثلجٍ يتساقط في غير أوانه. وبعد ذلك لمّت كلَّ شيء وحملته إلى الفناء الخلفيّ في الظّلام.

«هنا سنضع الرّفوف»، قالت له تشير إلى الجدران المُحفَّرة: «وهناك سنضع جهاز الطّرد المركزيّ». أخرجت شريطَ قياس وأومَت إليه كي يخرج من تحت الطّاولة، ثمّ وضعت طرفَ الشّريط في فمه وأشارت نحو الطّرف الآخر من المطبخ: «اسحبه إلى هناك يا ستّة ونصف. قليلًا بعد. قليلًا بعد. تمام. ابقَ مكانك».

دوّنَت بعض الأرقام في دفتر.

بحلول الثّامنة صباحًا، كانت قد سوَّدَت مخطّطًا أوّليًّا؛ وبحلول العاشرة، وضعت قائمة تسوّق؛ وبحلول الحادية عشرة، كانا في السّيّارة يتّجهان إلى مخزن الأخشاب.

كثيرًا ما يستخفّ النّاسُ بما تستطيع امرأةٌ حبلى أن تفعله، لكنّهم *دائمًا* يستخفّون بما تستطيع امرأةٌ حبلى في حالةِ حِدادٍ أن تفعله. رمقها الرّجلُ في مخزن الأخشاب بنظرات فضوليّة.

«زوجُكِ يُجري بعض التّعديلات على الدّيكور؟»، سألها منتبهًا إلى الانتفاخ الصّغير في بطنها: «تتجهّزان من أجل الطّفل؟»

- أنا أبني مختبرًا.

- تقصدين غرفةَ أطفال.

- لا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

رفع عينيه عن مخطّطِها الأوّليّ.

«هل من مشكلة؟»، سألته.

تمّ توصيل اللّوازم في وقتٍ لاحق من اليوم نفسه، فشرعَت إليزابيث في العمل متسلّحةً بمجموعةٍ من أعداد مجلّة *بوبيولر ميكانيكس* حصلت عليها من المكتبة العامّة.

«مسمار ثلاثة إنشات»، قالت. لم يكن ستّة ونصف يملك أدنى فكرة عمّا يكون مسمار الإنشات الثّلاثة هذا؛ ومع ذلك، تبعَ إيماءةَ رأسها نحو مجموعة من العلب الصّغيرة الموضوعة على مقربة، واختارَ منها شيئًا، ثمّ وضعه في راحتها المفتوحة. «بُرغيٌّ ثلاثة إنشات»، طلبت منه بعد دقيقة، فدسَّ خطمَه داخل علبةٍ أخرى. «هذا برغيُّ ربطِ أخشاب»، قالت: «حاوِلْ مرّةً أخرى».

كان هذا العمل يستمرّ طيلة النّهار وكثيرًا ما يمتدّ إلى اللّيل، لا تقاطعه سوى دروس الكلمات خاصّتهما ورنين جرس الباب.

بعد فصلها من العمل بنحو أسبوعين، مرّ د. بوريفايتس في زيارة لكي يُسلّمَ عليها في الظّاهر، لكنّ حقيقة الأمر أنّه كان يواجه صعوبةً في تفسير نتائج اختبارٍ ما. «لن يستغرق الأمر سوى لحظة»، وعدَها، لكنّه استغرق ساعتين. وفي اليوم التّالي حدث الشّيءُ نفسه، لكن هذه المرّة مع كيميائيٍّ آخر من المختبر. وفي المرّة الثّالثة، كيميائيٌّ آخر بعد.

حينئذٍ خطرت لها الفكرة. سوف تتقاضى أجرًا مقابل ذلك. نقدًا حصرًا. وإن حدث وتواقح أحدهم فاقترح أن لا ضرورة للدّفع لأنّهم ببساطة «يبقونها على تواصل مع العمل»، فستتقاضى ضعفين. تعليقٌ مُرتجَلٌ عن كالفن: ثلاثة أضعاف. أيّة إشارة إلى حملها - تورُّد بشرتِها، المعجزة: أربعة أضعاف. هكذا صارت تكسب عيشَها؛ من إنجاز أعمال الآخرين دون أيّة إشارةٍ إلى اسمها. الأمر لا يختلف أبدًا عن العمل في هاستينغز، لكن دون الالتزام الضّريبيّ.

«قبل دخولي ظننتُ أنّني سمعت خبطًا»، قال أحدهم.

- إنّني أبني مختبرًا.

- لا يمكن أن تكوني جادّة.

- أنا جادّة دائمًا.

«لكنّك ستصبحين أمًّا»، قال ممتعِضًا.

«أمٌّ وعالمة»، قالت تنفض نشارةَ الخشب عن كمّها: «أنت أب، ألستَ كذلك؟ أبٌ وعالِم».

«بلى، لكن أنا لديّ *دكتوراه*»، شدّد على الكلمة كأنّها دليلٌ يؤكّد تفوُّقَه، ثمّ أشار إلى مجموعة بروتوكولات اختبار تُربكه منذ أسابيع.

نظرت إليه ذاهلة. «لديك مشكلتان»، قالت تنقر على الورقة: «درجة الحرارة هذه أعلى من اللّازم، خفِّضْها خمس عشرة درجة».

«تمام. والأخرى؟»

أمالت رأسها جانبًا، تتأمّل تعبيرَ وجهه المشدوه: «الأخرى غير قابلةٍ للحلّ».

استغرق تحويل المطبخ إلى مختبر نحوَ أربعة أشهر، وحين تمّ، وقفت هي وستّة ونصف ينظران إلى عملهما بعين الرّضى.

الرّفوف تمتدّ على كامل طول المطبخ، وقد صُفَّت فوقها للتّو تشكيلةٌ واسعة من التّجهيزات المخبريّة: موادّ كيميائيّة، حواجل، دوارق، مِمَصّات، قوارير، مرطبانات مايونيز فارغة، مجموعة مبارد أظافر، كدسة من ورق عبّاد الشّمس، صندوق من القطّارات الدّوائيّة، مجموعة منوَّعة من القضبان الزّجاجيّة، خرطوم الماء من الفناء الخلفيّ، وبعض الأنابيب غير المستخدمة الّتي عثرت عليها داخل حاوية القمامة في الزّقاق خلف مختبرِ أمراض الدّم القريب. الأدراج الّتي كانت تحوي أدواتِ الطّعام تحتلُّها الآن القفّازاتُ المضادّة للأحماضِ والثَّقبِ ونظّاراتُ الوقاية. كما ركّبَت طاساتٍ معدنيّة تحت عيون الغاز جميعها لتساعدها عند تمسيخ الكحول، واشترت جهاز طرد مركزيّ مستعمل، وقصَّت مُنخُلَ نافذةٍ لتصنع مجموعة من

الرّقائق السّلكيّة بقياس 4×4، وأفرغت آخِر ما تبقّى لديها من عطرها المفضّل لتصنع قنديلًا كحوليًّا - تضمّن ذلك أن تشقّ علبة أحد أقلام أحمر شفاهها ثمّ تقحمها في سدادة ترمس كالفن القديم لتصنع حابسةَ الفتيل، وصنعت حاملَ أنابيبِ اختبار من أسلاك علّاقات الملابس، وحوّلت رفوفَ علب التّوابل إلى حافظةٍ لزجاجات السّوائل المختلفة.

وسطحُ المنضدة ذو المنظر الأليف المصنوعُ من خشب الفورمايكا أُزيل أيضًا، كما حدث للمجلى السّيراميكيّ القديم. وفي مكانهما، صنعت نموذجَ سطحِ منضدةٍ باستخدام الخشب المعاكس الّذي اشترته من مخزن الأخشاب، ثمّ فكّته وأخذته إلى شركة تصنيع معادن جهّزت لها نسخةً مطابقة من الفولاذ غير القابل للصّدأ، وقامت بليِّ المعدن وقطعه ليطابق القياسات بالضّبط.

والآن، فوق سطح المنضدة اللّمّاع هذا، يوجد مجهرٌ وموقِدا بَنسِن مستعملان، أحدهما من كامبريدج -إذ كانت الجامعةُ قد قدّمته هديّةً تذكاريّةً لكالفن قبل مغادرته- والآخر من مدرسة ثانويّة كانت تتخلّص من معدّات مختبر الكيمياء نظرًا إلى انعدام اهتمام الطّلاب بالمادّة. وفوق الحوض المزدوج تمامًا، عُلِّقَت لافتتان كُتبتا بخطّ اليد بعناية: «نفايات فقط» و«مصدر H_2O».

وأخيرًا وليس آخرًا، مُخلِيةُ الدّخان.

«هذه ستكون مسؤوليّتك»، قالت لستّة ونصف: «سأحتاج منك أن تشدّ السّلسلةَ حين تكون يداي مشغولتين، كما عليك أن تتعلّم كيف تضغط هذا الزّرّ الكبير».

كال، شرح ستّة ونصف للجسد الرّاقد في الأسفل خلال رحلة لاحقة إلى المقبرة: *إنّها لا تنام أبدًا. حين لا تكون تعمل على المختبر، أو تنجز أعمال أناسٍ آخرين، أو تقرأ لي، تجدها تتمرّن على الإرغ. وحين لا تكون تتمرّن على الإرغ، تجدها جالسة على كرسيّ مختبرٍ تحدّق في الفراغ. لا يمكن أن يكون هذا جيّدًا للكائن.*

تذكّر كيف كان كالفن كثيرًا ما يحدّق في الفراغ. «هذه طريقتي في التّركيز»، يشرح لستّة ونصف. لكن ثمّة آخرون تذمّروا من التّحديق أيضًا، قائلين إنّ بوسع المرء في أيّة ساعة من أيّ يوم أن يجد كالفن إيفانز جالسًا في مختبر كبير فخم، محاطًا بأفضل التّجهيزات على الإطلاق، الموسيقى تلعلع، وهو لا يفعل أيّ شيء بتاتًا. بل أسوأ، يتقاضى أجرًا مقابل ألّا يفعل أيّ شيء بتاتًا. وأسوأ من ذلك، يفوز بالكثير من الجوائز على هذا المنوال.

لكنّ تحديقها مختلف، حاول ستّة ونصف أن يفسّر: *أقرب إلى نظرة غضب. خُمود. لا أعرف ماذا أفعل*، اعترفَ للعظام في الأسفل، *وفوق كلّ ذلك، ما تزال تحاول أن تعلّمني الكلمات.*

وهذا مريع، لأنّه عاجزٌ عن منحِها أيّ أملٍ للمستقبل باستخدام هذه الكلمات. عدا عن أنّه، حتّى لو صار يعرف كلّ كلمات اللّغة الإنجليزيّة، سيظلّ لا يملك أدنى فكرة عمّا يمكن قوله. فماذا بوسع المرء أن يقول لشخص فقد كلَّ شيء؟

إنّها بحاجة إلى الأمل يا كالفن، فكّر وضغط بشدّة على العشب علَّ ذلك يُحدث فرقًا.

وكما لو أتاه الرّدّ، سمع طقّةَ عتلةِ أمان، فرفع رأسه ليرى حارس المقبرة شاهرًا بارودةً في وجهه.

«أيّها الكلب اللّعين»، قال حارس المقبرة مسدّدًا البارودة على ستّة ونصف: «تأتي إلى هنا وتفسد لي عشبي، تظنّ أنّ المكان ملكُ أبيك».

جمد ستّة ونصف مكانَه. أخذ قلبُه يطرق في جوفه، ورأى عاقبةَ ما سيحدث: إليزابيث في صدمة، الكائن مرتبك؛ المزيد من الدّم، المزيد من الدّمع، المزيد من وجع القلب. إخفاقٌ آخر من طرفه.

وثب إلى الأمام، فأطاح الرّجلَ أرضًا بقوّةٍ لحظةَ انطلاق الرّصاصة، لتمرّ قرب أذنه وتقتلع جزءًا من شاهدة كالفن. صاح الرّجلُ بعالي صوتِه ومدّ يدَه إلى بارودته، غير أنّ ستّة ونصف كشف عن أنيابه وتقدّم خطوةً إلى الأمام.

يا للبشر. يبدو أنّ بعضهم لا يدرك منزلته ضمن المملكة الحيوانيّة. قاسَ عنقَ الرّجلِ العجوزِ بعينيه؛ عضّة واحدة يستحكمه بها وينتهي الأمر. نظر الرّجل إليه مرعوبًا. لقد اصطدم بالأرض بقوّة شديدة، وثمّة بركة صغيرة من الدّم تتجمّع على يسار أذنه. تذكّر دمَ كالفن، كم تدفّق بغزارة، كيف تحوّل من نزيزٍ بسيط إلى بركة صغيرة ثمّ إلى بحيرة كبيرة في غضون لحظات. على مضض، ألصق جسمَه برأس الرّجل ليوقف النّزف، ثمّ راح ينبح حتّى جاء النّاس.

أوّل من حضر إلى مسرح الحادث كان الصّحفيّ نفسه، ذاك الّذي غطّى جنازةَ كالفن، والّذي *ما يزال* يغطّي الجنائز لأنّ محرّرَه لا يرى فيه القدرةَ على إنجاز أكثر من ذلك.

«أنت!»، قال الصّحفيّ إذ تعرّف من فوره على ستّة ونصف، كلب إرشاد المكفوفين المزعوم، ذاك الّذي كان يقود الأرملةَ -كلّا؛ بل الصّاحبة- الجميلة غير المكفوفة عبر بحر الصّلبان إلى هذا القبر لا غيره. وفيما كان الآخرون يتجمّعون ويهرعون لطلب الإسعاف، راح الصّحفيّ يلتقط الصّور، مُشَكِّلًا المقالة في رأسه وهو يسلّط عدسته على الكلب من هنا وهناك. ثمّ رفع الحيوانَ الملطّخ بالدّماء بين ذراعيه وحمله إلى سيّارته، ليقود به إلى العنوان المكتوب على رقعة طوقِه.

«اهدئي، اهدئي، ليس مصابًا»، طمأنَ الصّحفيُّ إليزابيث لمّا فتحت الباب وراحت تصرخ لمرأى ستّة ونصف مخضّبًا بالدّماء بين ذراعَي رجلٍ مألوفٍ على نحو ضبابيّ: «هذا ليس دمَه. لكنّ كلبك بطلٌ يا سيّدتي؛ على الأقلّ هكذا أنوي أن أروي الحكاية».

في اليوم التّالي، فتحت إليزابيث -وهي لمّا تتعافَ من الخضّة- الصّحيفةَ لتجد ستّة ونصف على الصّفحة الحادية عشرة، جالسًا بالضّبط في الرّقعة الّتي جلس فيها قبل سبعة أشهر: عند قبر كالفن.

«"كلبٌ محزونٌ على صاحبه يُنقذ حياةَ رجل"»، قرأت بصوتٍ عالٍ: «"إلغاء حظر دخول الكلاب إلى المقبرة"».

وفقًا للمقالة، النّاس يشتكون من الحارس وبندقيّته منذ وقتٍ طويل، ومن بينهم عدّة أشخاص أفادوا أنّه أطلق النّار على سناجب وطيور أثناء مراسم جنازات. سيتمّ استبدال الرّجل على الفور، كما وعدت المقالة، وكذلك شاهدة القبر.

حدّقت إلى اللّقطة القريبة لستّة ونصف وشاهدة كالفن المهشّمة، الّتي فقدت بسبب الرّصاصة نحو ثلث النّصّ المنقوش عليها.

«يا إلهي»، قالت إليزابيث وهي تقرأ البقايا المتصدّعة.

كالفن إ

1927-55

كيميائيٌّ ومجـ

أيّامُكَ جد

تغيّر التّعبيرُ على وجهها بعض الشّيء.

«أيّامُكَ *جد*»، قرأت. «*جد*». تورّد وجهُها، إذ تذكّرت تلك اللّيلة الحزينة حين شاركها كالفن ترنيمةَ طفولته: كلُّ يومٍ يومٌ... *جد..يد*.

نظرت إلى الصّورة مجدّدًا، ذاهلة.

نصائحُ غيرُ مرغوبٍ فيها

- حياتُكِ على وشك أن تتغيّر.

- عفوًا؟

«أقول إنّ حياتك على وشك أن تتغيّر»، قالت امرأةٌ تقف أمام إليزابيث في طابور المصرف وقد استدارت تشير إلى بطنها، وكان وجهها متجهّمًا.

«تتغيّر؟»، سألتها إليزابيث بسذاجة وهي تَنزل بعينيها على جذعها المستدير كأنّها تلاحظه للمرّة الأولى: «ما الّذي تقصدينه؟»

إنّه سابع شخصٍ هذا الأسبوع يشعر أنّه ملزَم بإعلامها أنّ حياتها على وشك أن تتغيّر، وهي سئمت من ذلك. لقد فقدَت عمَلها، وأبحاثها، والسّيطرةَ على مثانتها، ورؤيةَ أصابع قدميها بوضوح، والرّاحةَ في النّوم، والبشرةَ الطّبيعيّة، والظَّهرَ الخالي من الألم، دونَ ذِكرِ الحرّيّات الصّغيرة المتنوّعة الّتي يعتبرها كلُّ شخصٍ لا يحمل جنينًا في أحشائه أمورًا مُسلَّمًا بها - مثل القدرة على الجلوس بشكل مريح خلف مقود السّيّارة. والشّيء الوحيد الّذي كسبته؟ الوزن.

«كنتُ أنوي الذّهاب إلى الطّبيب من أجل هذا»، قالت واضعةً يدها على بطنها: «ماذا يمكن أن يكون برأيك؟ ليس ورمًا، كما أتمنّى».

للحظةٍ عابرة، اتّسعت عينا المرأة من الصّدمة، ثمّ تضيّقتا على الفور. «لا أحد يحبّ المتحذلقين يا آنسة»، قالت بفجاجة.

«أتظنّين أنّك متعَبة الآن؟»، علّقَت امرأةٌ خشنةُ الشَّعر بعد ساعة حين تثاءبت إليزابيث في طابور متجر بقالة، وهزّت رأسها كأنّها تقرأ علامات الضّعف في شخصيّتها: «فقط انتظري وسترين». ثمّ أطلقت العنان لنفسها في وصفٍ مسرحيٍّ لسنّ الثّانية البغيضة، وسنّ الثّالثة المرهقة، والرّابعة القذرة، والخامسة الرّهيبة، وهي بالكاد تلتقط أنفاسها قبل أن تنتقل من فورها إلى اليافعين الّذين يُسبّبون الذّعر، وبُثور سنّ البلوغ، والأسوأ، الأسوأ على الإطلاق، يا ربّاه، المراهقين المختلّين، مشيرةً كلَّ مرّة إلى أنّ الصّبيان أصعب من البنات، أو أنّ البنات أصعب من الصّبيان، وهكذا دواليك بلا كللٍ ولا مللٍ إلى أن عُبِّئَت مشترياتُها في أكياس فاضطرت أن تركب سيّارتها السّتيشن واغن ذات ألواح الخشب الصّناعيّ وتعود إلى المنزل حيث ينتظرها أولادها العاقّون.

«بطنُكِ مرتفع»، لاحظ الرّجلُ في محطّة الوقود: «إنّه صبيٌّ دون شكّ».

«بطنُكِ مرتفع»، علّقَت أمينة المكتبة: «إنّها بنتٌ دون شكّ».

«هذه هديّة من الله»، قال كاهنٌ انتبه إلى إليزابيث وهي واقفة وحدها أمام شاهدة قبر غريبة في المقبرة في وقت لاحق من الأسبوع نفسه: «المجد لله!»

«ليست من الله»، أجابت إليزابيث تشير إلى الشّاهدة الجديدة: «بل من كالفن».

انتظرت إلى أن سار مبتعدًا، ثمّ انحنت ومرّرت أصابعها على النّقش المعقَّد.

كالفن إيفانز
1955-1927

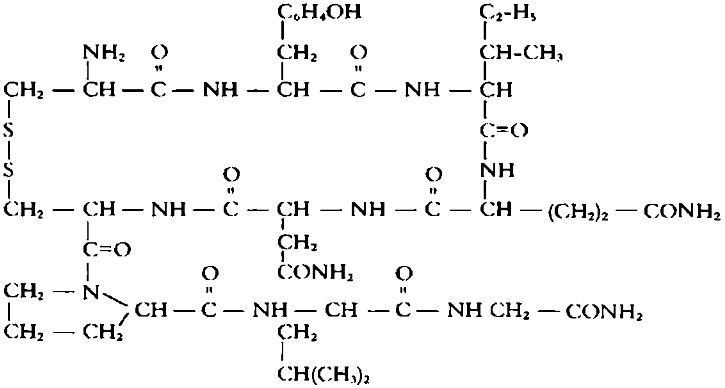

«للتّكفير عمّا حدث»، كانت إدارةُ المقبرة قد قالت لها: «لن نقدّم شاهدةً جديدة وحسب، بل سنحرص أيضًا على أن تتضمّن الاقتباس كاملًا هذه المرّة». غير أنّ إليزابيث قرّرت ألّا تعيد المحاولة مع ماركوس أوريليوس، واختارت عوضًا عن ذلك صيغةً كيميائيّةً تُفضي إلى السّعادة. لم يفهم الصّيغةَ أحدٌ غيرها، بيد أنّهم لم يأخذوا ويُعطوا في الموضوع بعد كلّ ما مرّت به.

«سوف أذهب أخيرًا إلى طبيبٍ بشأن هذا يا كالفن»، قالت تشير إلى بطنها المنتفخ: «د. ماسون، المجدّف، الّذي سمح لي أن أجدّف في قارب رجال ثمانيّ. أتتذكّر؟». حدّقت إلى النّقش كأنّها تنتظر ردًّا.

بعد خمسٍ وعشرين دقيقة، وهي تضغط زرًّا داخل مصعد ضيّقٍ رفيقُها الوحيد فيه رجلٌ بدينٌ يعتمر قبّعةَ قشّ، هيّأت نفسَها للمزيد من النّصائح غير المرغوب فيها. وبكلّ تأكيد، مدّ يدَه ووضعها على بطنها كأنّه في معرضٍ يُتيح التّجربة اللّمسيّة في متحف التّاريخ الطّبيعيّ. «أراهنُ أنّ تناول الطّعام من أجل شخصين أمرٌ ممتع»، قال واعظًا وهو يربّت على بطنها: «لكن تذكّري: أحد هذين الشّخصين مجرّد طفل صغير!»

«أبعِدْ يدَك»، قالت: «وإلّا ستندم حتّى آخر يومٍ في عمرك».

«دُم دُم تك!»، أخذ يغنّي ويضرب على بطنها كما لو كان طبلةَ بونغو.

«دُم دُم *طج*»، ردّت وهي تهوي بحقيبة يدها مباشرةً على مغبنه، وكان تأثير الخبطة مضاعفًا بسبب هاونٍ حجريٍّ ثقيلٍ اشترته ذلك اليوم من قسم المعدّات الكيميائيّة. شهق الرّجل، ثمّ انحنى على نفسه من الألم، وانفتح بابُ المصعد.

«نهارُك تعيس»، قالت. راحت تدكّ أرضَ الدّهليز بخطواتها، لتجد أمامها لقلقًا طولُه سبعة أقدام يرتدي نظّارةً ثنائيّةَ البؤرة ويعتمر قبّعةَ بيسبول، ويتدلّى من منقاره قِماطان: واحدٌ ورديٌّ والآخر أزرق.

«إليزابيث زوت»، قالت متجاوزةً اللّقلقَ نحو موظّفةِ الاستقبال: «لديّ موعد مع د. ماسون».

«لقد تأخّرتِ»، أجابت الموظّفة ببرود.

«تبقّت خمس دقائق على الموعد»، صحّحت إليزابيث وهي تتأكّد من ساعتها.

«ثمّة أعمال ورقيّة»، أخبرتها المرأة، وناولتها سنّادة ورق. مكان عمل الزّوج. رقم هاتف الزّوج. تأمين الزّوج. سنّ الزّوج. رقم حساب الزّوج المصرفيّ.

«من الّذي سينجب الطّفل هنا؟»، سألَت.

«الغرفة خمسة»، قالت الموظّفة: «عبر الدّهليز، الباب الثّاني على اليسار. انزعي ملابسك. ارتدي لباس الفحص. أتمّي ملء الأوراق».

«الغرفة خمسة»، كرّرت إليزابيث والسّنّادة في يدها. «سؤال واحد فقط: لماذا اللّقلق؟»

- المعذرة؟

- هذا اللّقلق خاصّتكم. لماذا، في عيادة توليد؟ يبدو الأمر كما لو كنتم تشاركون في حملة ترويج رياضيّة.

«القصد منه هو التّرويح عن النّفس»، قالت الموظّفة: «الغرفة خمسة».

«وبما أنّ كلّ مريضة من مرضاكم تُدرك مئةً بالمئة أن ما من لقلقٍ سيجنّبها آلام المخاض»، تابعت كلامها: «فلماذا تساهمون في تكريس الخرافة من الأساس؟»

«د. ماسون»، قالت الموظّفة لدى اقتراب رجل يرتدي مريولًا أبيض: «هذه مريضتك لموعد الرّابعة. لقد تأخّرَت. كنتُ أحاول إرسالها إلى الغرفة خمسة».

«لم أتأخّر»، صحّحت إليزابيث زوت: «بل جئت في الوقت المحدّد». التفتت إلى الطّبيب: «د. ماسون، أنت لا تتذكّرني على الأرجح...»

«زوجةُ كالفن إيفانز»، قال متراجعًا إلى الخلف من المفاجأة: «أو كلّا، أنا آسف»، استدرك مخفضًا صوتَه، «أرملته». ثمّ سكت قليلًا، كأنّه يحاول أن يقرّر ما يقوله بعد هذا. «أنا في غاية الأسف لخسارتك، سيّدة إيفانز»، قال مطبقًا يديه على يديها يهزّهما بضع مرّاتٍ كمن يقوم بمزج كوكتيل صغير: «زوجكِ كان نِعم الرّجل؛ نعم الرّجل ونعم المجدّف».

«اسمي إليزابيث زوت»، قالت إليزابيث: «أنا وكالفن لم نكن متزوّجين». سكتت تنتظر طرقعةَ موظّفةِ الاستقبال بلسانها وإعراضَ ماسون، لكنّ الطّبيب عوضًا عن ذلك ضغط كبسة قلمه ووضعه في جيب صدره، ثمّ أخذها من مرفقها وقادها عبر الدّهليز. «أنت وإيفانز جدّفتُما في قاربي الثّمانيّ بضع مرّات، أتتذكّرين؟ قبل نحو سبعة أشهر. ولقد كانت جولات جيّدة. لكنّكما لم تعودا بعدها، لماذا؟»

نظرت إليه متفاجئة.

«أوه، اغفري لي»، قال د. ماسون على الفور: «أنا آسف جدًّا. بالطّبع. إيفانز. إيفانز مات. أعتذر». هزّ رأسه بإحراجٍ واضح، ودفع باب الغرفة 5. «أرجوكِ، تفضّلي»، أشار نحو كرسيّ، «وهل ما زلتِ تجدّفين؟ لا، ما الّذي أقوله، بالطّبع لا، ليس في حالتك هذه»، أخذ يديها وقلَبَهما، «لكن هذا غير معهود، الثّخانات الجلديّة لم تَزُل».

- أنا أتمرّن على الإرغ.

- لطفكَ يا الله.

- هل هذا أمر سيّئ؟ كالفن بنى ماكينة إرغ.

- *لماذا؟*

- لقد فعل ذلك وحسب. لا بأس، أليس كذلك؟

«أوه، لا بأس»، قال: «بالتّأكيد. كلّ الأمر أنّني لم أسمع يومًا بشخصٍ يتمرّن على الإرغ طوعًا، ولا سيّما النّساء الحوامل. لكن الآن إذ أفكّر في الأمر، أجد هذا التّمرين تحضيرًا جيّدًا للولادة. أقصد، من حيث التّحمُّل. في الواقع، الألم والتّحمُّل معًا». لكنّه لم يلبث حتّى فطن إلى أنّ الألم والتّحمُّل صارا على الأغلب من ثوابت حياتها منذ موت إيفانز، فأشاح بوجهه ليتستّر على زلّته الأخيرة هذه. «هلّا ألقينا نظرةً سريعةً تحت الغطاء؟»، قال برفقٍ مشيرًا برأسه إلى الطّاولة، ثمّ أغلق الباب وانتظر خلف السّاتر ريثما ترتدي لباس الفحص.

كان الفحص سريعًا لكنّه شامل، تخلّلته أسئلة حول حرقة المعدة والنّفخة. هل تواجه صعوبةً في النّوم؟ هل يتحرّك الجنين في أوقات معيّنة؟ إن كان ذلك، كم تستمرّ الحركة؟ وأخيرًا، السّؤال الكبير: لماذا انتظرت كلّ هذا الوقت كي تأتي للفحص؟ فهي ماضيةٌ في ثلثها الأخير.

«العمل»، قالت له. لكن هذه كذبة، فالسّبب الحقيقيّ هو أنّها كانت تتمنّى سرًّا أن يحلّ هذا الحملُ أمرَه بنفسه، أن ينتهي كما يحدث في بعض الحالات. إنّها الخمسينيّات، والإجهاض ليس خيارًا مطروحًا. وللمصادفة، إنجاب طفلٍ خارج إطار الزّوجيّة هو الآخر ليس خيارًا مطروحًا.

«أنتِ عالمة أيضًا، أليس كذلك؟»، سألها من على الطّرف المقابل لجسدها.

- بلى.

- وهاستينغز تركوكِ على رأسِ عملك. لا بدّ أنّهم تقدّميّون أكثر ممّا كنت أظنّ.

«لم يتركوني»، قالت: «أنا أعمل بشكل مستقلّ».

«عالمة مستقلّة، لم يسبق لي أن سمعتُ بشيء كهذا. وكيف تسير الأمور؟»

تنهّدت: «ليس جيّدًا جدًّا».

وإذ التقطَ نبرةَ صوتِها، أنهى عملَه بسرعة، وراح ينقر على بطنها هنا وهناك كأنّه يفحص ثمرة شمّام.

«كلُّ شيء يبدو على أحسن حال»، قال وهو ينزع قفّازَيه، وحين لم تبتسم أو تردّ عليه بأيّة كلمة، أردف بصوت خفيض: «بالنّسبة إلى الطّفل على الأقلّ. أنا واثق أنّ الأمر شديد الصّعوبة عليك».

إنّها أوّل مرّةٍ يتطرّق فيها أحدٌ إلى وضعها، والصّدمة الّتي نتجت عن ذلك علقت في حلقها؛ أحسّت بخبيئةٍ من الدّموع تهدّد أن تطفر من خلف عينيها تمامًا.

«أنا آسف»، قال برفق، متمعّنًا في وجهها كما قد يراقب خبيرُ أرصادٍ جويّةٍ تطوُّرَ عاصفة: «أرجو أن تضعي في علمك أنّ بوسعك التّحدّث إليّ، من مجدّفٍ إلى مجدّف، كلّ شيء سيكون بسريّة تامّة».

أشاحت بوجهها. هي لا تعرفه حقًّا. بل أسوأ، هي ليست متأكّدةً -رغم تطميناته- أنّ مشاعرها مُباحة. لقد توصّلت إلى الاقتناع أنّها المرأة الوحيدة الّتي خطّطت ألّا تنجب أطفالًا على وجه الأرض. «إن كنتُ سأتوخّى مطلقَ الصّراحة»، قالت أخيرًا والذّنبُ يُثقل صوتَها: «لا أظنّ أنّ بوسعي فعل هذا. أنا لم أكن أخطّط أن أصبح أمًّا».

«ليست كلّ النّساء يُرِدنَ أن يكُنَّ أمّهات»، قال موافقًا، ففاجأها: «وبصيغة أدقّ، لا ينبغي بكلّ النّساء أن يكنّ كذلك»، كشّر كأنّه يفكّر في شخص على وجه التّحديد، «ومع هذا، يفاجئني عدد النّساء اللّاتي يُقدِمنَ على خوض غمار الأمومة مع أخذ الصّعوبة الّتي يمكن للحمل أن يبلغها في الحسبان - غثيان الصّباح، تشقُّقات الجلد، الوفاة. مجدّدًا، أنتِ على ما يرام»، أضاف سريعًا، إذ انتبه إلى الارتياع الّذي كسا وجهَها، «الأمر فقط أنّنا ننزع إلى معاملة الحمل على أنّه الحالة الأكثر شيوعًا في العالم -اعتياديّ مثل ضربة إصبع القدم- بينما الحقيقة هي أنّه أشبه بالتّعرّض للدّهس من قِبل شاحنة. لكن من الواضح أنّ الشّاحنة تسبب أضرارًا أقلّ». تنحنح ثمّ سجلّ ملاحظةً في ملفّها. «ما أقصد قوله هو أنّ التّمرين يساعد، رغم أنّني لستُ متأكّدًا كيف يمكن أن تتمرّني على الإرغ بالطّريقة الصّحيحة في هذه المرحلة. الشّدّ على عظم القصّ سيكون إشكاليًّا. ماذا عن *برنامج جاك لالان*؟ هل تشاهدينه يا ترى؟»

لدى ذكر اسم جاك لالان، هوى وجهُ إليزابيث.

«لستِ من معجبيه»، قال: «لا مشكلة. الإرغ فقط إذًا».

«أنا لم أتابع التّمرين عليه»، بادرَت بصوتٍ منخفض: «سوى لأنّه يُنهكني إلى درجةٍ أستطيع معها أن أنام أحيانًا، لكن أيضًا لأنّني كنتُ أظنّ أنّه قد، حسنًا...»

«أفهم هذا»، قال مقاطعًا إيّاها، ينظر في الاتّجاهين كأنّه يتأكّد أنّ ما من أحد يسمع: «انظري، أنا لست من أولئك النّاس الّذين يعتقدون أنّ على المرأة...»، توقّف بغتةً، «وليس أنّني أعتقد...»، توقّف من جديد، «امرأة عزباء... أرملة... إنّه... لا تشغلي بالك»، قال وهو يمدّ يده إلى ملفّها. «لكنّ الحقيقة أنّ الإرغ جعلك أقوى على الأرجح؛ جعل الطّفل أقوى في الوقت نفسه. المزيد من الدّم للدّماغ، دوران دمويّ أفضل. هل لاحظتِ أنّ له تأثيرًا مهدّئًا على الطّفل؟ هي الحركة المتكرّرة إلى الخلف والأمام غالبًا».

رفعت كتفيها.

- كم تقطعين في التّمرين؟

- عشرة آلاف متر.

- *كلّ يوم؟*

- وأحيانًا أكثر.

«يا أمَّ يسوع»، قال يصفر: «لطالما اعتقدتُ أنّ الحوامل يكتسبن مقدرة إضافيّة على التّحمّل، لكن عشرة آلاف متر؟ وأحيانًا *أكثر*؟ هذا... هذا... في الحقيقة، لا أعرف ما هذا»، نظر إليها متخوّفًا، «ألديك من تتّكلين عليه؟ أحد الأصدقاء أو الأقارب... والدتك... شخص من هذا القبيل؟ الأطفال حديثو الولادة عملٌ شاقّ».

تلكّأت. كان من المحرج أن تعترف أنّها لا تملك أحدًا. هي لم تأتِ لزيارة د. ماسون سوى لأنّ كالفن كان يصرّ دائمًا على أنّ بين المجدّفين رابطة مميّزة من نوع ما.

«هل من أحد؟»، كرّر.

«لديّ كلب».

«هذا يعجبني»، قال ماسون: «يمكن للكلاب أن تقدّم عونًا هائلًا. هي ذات نزعةٍ حمائيّة، كما أنّها متعاطفة، وذكيّة. من أيّة سلالة كلاب... هو، هي؟»

- هو...

- مهلًا، أظنّني أتذكّر كلبك. السّاعة ثلاثة، شيء من هذا القبيل؟ شديد القباحة؟

- إنّه...

«كلبٌ وإرغ»، قال مسجّلًا ملاحظةً في ملفّها: «حسنًا، ممتاز».

ضغط كبسة قلمه من جديد، ثمّ وضع ملفّها جانبًا. «والآن، حالما يصير بمقدورك... لنقل بعد عام... أريد أن أراك مجدّدًا في مستودع القوارب. إنّنا نبحث عن مجدّفٍ مناسب للمقعد اثنين، وثمّة ما يقول لي إنّك هو. لكن سيتعيّن عليكِ أن تتدبّري أمر الحصول على جليسة؛ لا أطفال في القارب، لدينا الكثير منهم أساسًا».

مدّت إليزابيث يدها إلى سترتها. «هذا لطفٌ كبيرٌ يا د. ماسون»، قالت مفترضةً أنّه يحاول أن يكون لبقًا لا أكثر: «لكن وفقًا لأقوالك، هناك شاحنة على وشك أن تدهسني».

«وهذه حادثة سوف تتعافين منها»، صحّح لها: «انظري، أنا لديّ ذاكرة لا تخطئ حين يتعلّق الأمر بجولات التّجديف، وأتذكّر جولاتنا تمامًا. كانت جيّدة. جيّدة جدًّا».

«بفضل كالفن».

بدت المفاجأة على د. ماسون. «كلّا يا آنسة زوت، ليس فقط بفضل إيفانز. جولة التّجديف الجيّدة تتطلّب الثّمانية كلّهم. الثّمانية *كلّهم*. على كلّ حال، لنعد إلى موضوعنا. لقد بدأ شعوري يتحسّن بعض الشّيء بخصوص وضعك. أعلم أنّك مررتِ بصدمة ليست هيّنة مع وفاة إيفانز، ثمّ هذا»، أضاف مشيرًا إلى بطنها: «لكنّ الأمور ستكون على ما يرام، بل ربّما حتّى أفضل. كلب، إرغ، المقعد اثنان. ممتاز».

ثمّ أخذ كلتا يديها بيديه وشدّ عليهما بمرح. ورغم أنّ كلماته لم تبدُ منطقيّةً تمامًا، فهي -بالمقارنة مع كلّ شيء آخر سمعَته حتّى هذه اللّحظة- أوّل كلمات تبدو منطقيّةً بدرجة ما.

الفصل 16

المخـاض

«المكتبة؟»، سألت إليزابيث ستّة ونصف بعد نحو خمسة أسابيع: «لديّ موعد مع د. ماسون في وقتٍ لاحق اليوم، وأودّ أن أرجع هذه الكتب أوّلًا. أظنّ أنّك قد تستمتع بـ *موبي ديك*. إنّها قصّةٌ تتحدّث عن استخفاف البشر الدّائم بأشكال الحياة الأخرى، وما يترتّب عن ذلك من مخاطر».

بالإضافة إلى تقنيّة التّعلُّم التّقبُّليّ، كانت إليزابيث تقرأ له جهرًا، بعد أن استبدلت بكتب الأطفال نصوصًا أثقل بكثير منذ زمن. «القراءة بصوتٍ عالٍ تعزّز تطوّرَ الدّماغ»، قالت له ذات مرّة، مقتبسةً من دراسة بحثيّة قرأتها: «كما أنّها تُسرِّع تراكمَ المفردات». وبدا أنّ ذلك يؤدّي مفعوله، فوفقًا لدفترها، لقد بات الآن يعرف 391 كلمة.

«أنت كلبٌ شديد الذّكاء»، قالت له الأمسَ تمامًا، وكان يتوق إلى موافقتها في الرّأي، لكنّ الحقيقة أنّه ما زال لا يعرف ما تعنيه كلمة «ذكاء». بدا أنّ للكلمة معانيَ متعدّدةً تعدُّدَ الأنواع الحيويّة، ومع ذلك يبدو أنّ البشر -باستثناء إليزابيث- لا يُقرّون بـ «الذّكاء» إلّا إذا كان يخضع لقواعدهم الخاصّة. «الدّلافين ذكيّة»، يقولون: «لكنّ البقر

ليس ذكيًا». الأمر يرجع جزئيًا كما يبدو إلى كون البقر لا يؤدّي الحِيَل البهلوانيّة. برأي ستّة ونصف، هذا يجعل البقر أذكى، لا أغبى. لكن مجدّدًا، ما أدراه هو؟

ثلاثمئة وإحدى وتسعون كلمة، وفقًا لإليزابيث. لكن في الحقيقة، 390 فقط.

بل أسوأ، لقد علم لتوّه أنّ الإنجليزيّة ليست اللّغة البشريّة الوحيدة. إليزابيث كشفت له أنّ هناك المئات، وربّما الآلاف من اللّغات الأخرى، وأنّه ما من إنسان يتحدّثها كلّها. في الحقيقة، معظم النّاس يتحدّثون واحدةً فقط -وربّما اثنتين- إلّا إن كانوا شيئًا يُسمّى «سويسريّ» ويتحدّثون ثمانيًا. لا عجب أنّ البشر لا يفهمون الحيوانات، فبالكاد يستطيع بعضُهم أن يفهم بعضًا.

بيد أنّها على الأقلّ تدرك أنّه لن يستطيع الرّسم. يبدو أنّ الرّسم هو الطّريقة الّتي يفضّلها الأطفال الصّغار في التّواصل، وهو يحترم جهودَهم حتّى إن كانت النّتائج قاصرةً عن تحقيق المراد منها. لا يمرّ يومٌ دون أن يشهد أصابعَ صغيرةً تضغط قطعَ الطّبشور الغليظةَ بجدّيّةٍ على أرض الرّصيف، فتملأ بيوتُها المستعصيةُ وشخوصُها البشريّةُ البدائيّةُ الإسمنتَ بقصّةٍ لا يفهمها أحدٌ إلّا الأصابع الّتي أوجدَتها.

«يا لها من صورة جميلة!»، سمع أمًّا تقول في وقتٍ سابقٍ من الأسبوع وهي تنظر إلى الأسفل نحو الخربشة البشعة العنيفة الّتي صنعتها يدُ طفلتها. الآباء البشريّون، كما لاحظ، لديهم ميلٌ إلى الكذب على أطفالهم.

«إنّه جرو»، قالت الطّفلة، والطّبشور يكسو يديها.

«وكم هو جروٌ جميل!»، ردّت الأمّ.

«*لا*»، قالت الطّفلة: «ليس جميلًا. الجروُ ميت. لقد *قُتِل*!»، الأمر الّذي وجده ستّة ونصف -بعد نظرةٍ ثانية أقرب- دقيقًا على نحو يبعث الكدر.

«هذا *ليس* جروًا ميتًا»، قالت الأمّ بنبرة صارمة: «بل جروٌ سعيدٌ *جدًا*، وهو *يأكل* زبديّةً من المثلّجات». ولحظتئذٍ نترَت الطّفلةُ المحبَطةُ قطعةَ الطّبشور على العشب ومضَت إلى المراجيح تخبط الأرضَ بقدميها.

التقط الطّبشورة. هديّةٌ للكائن.

قطعا كاملَ مسافة الكتل البنائيّة الخمس يسيران معًا. إليزابيث ترتدي فستانًا ذا ياقةٍ مشدودًا عند بطنها المنتفخ، وتمضي بخطواتٍ واسعة كأنّها منطلقة إلى الحرب. على ظهرها حقيبةٌ حمراء قانية محشوّة بالكتب، وعلى ظهره هو حقيبةُ سَرجٍ كالّتي يضعها عمّال التّوصيل على درّاجاتهم خُصِّصَت لجميع الكُتب الأخرى الّتي لم تستطع حقيبتُها أن تستوعبها.

«أنا أتضوّر جوعًا»، قالت بصوتٍ عالٍ وهما يسيران، ورائحةُ نوفمبر تُثقِل الهواء: «بوسعي أن آكل حصانًا. إنّني أراقب بَولي، وأحلّل بروتينات شعري، و...»

هذا صحيح. لقد كانت تتابع مستويات الغلوكوز في بولها، وتسجّل تسلسُلَ الأحماض الأمينيّة في كيراتين شعرِها، وتحلّل درجة حرارة جسمها في مختبرهما طيلة الشّهرين الأخيرين. لم يكن واضحًا لستّة ونصف معنى أيٍّ من ذلك، لكنّه يشعر بالارتياح لرؤية اهتمامِها بكائنهما يزداد - اهتمامها العلميّ على الأقلّ. أمّا الإجراء التّجهيزيّ العمليّ الوحيد الّذي اتّخذَتْه فكان شراء قطع سميكة من القماش الأبيض والعديد من الدّبابيس الّتي يشي منظرُها بالخطورة. كما أنّها اشترت ثلاث قطع ملابس صغيرة تبدو مثل الأكياس.

«يبدو أنّ الأمور تسير في سياقها الطّبيعيّ إلى حدّ جيّد»، قالت له وهما يعبران الشّارع بخطوات واسعة: «سأمرّ بمرحلةِ ما قبل المخاض، ثمّ المخاض. ما زال أمامنا أسبوعان يا ستّة ونصف، لكن أعتقد أنّ من الجيّد التّفكير في هذه الأشياء منذ الآن. أهمّ ما علينا أن نتذكّره»، تابعت، «هو أنّنا، حين يجيء الموعد، سوف نظلّ هادئين».

غير أنّ ستّة ونصف لم يكن هادئًا. لقد نزل ماءُ رحِمِها قبل عدّة ساعات، وهي لم تنتبه لأنّها لم تطرح سوى مقدارٍ بسيط بالكاد بلّلَها، لكنّه انتبهَ لأنّه كلب. الرّائحةُ لا يمكن إخطاؤها. أمّا بشأن آلام الجوع، فهي لم تكن آلامَ جوع؛ كانت انقباضات ما قبل المخاض. ومع اقترابهما من باب المكتبة الأماميّ، قرّر الكائن أن يجعل الأمور أوضحَ قليلًا.

«أوه»، راحت إليزابيث تتأوّه وانثنَت على نفسها: «يا إلاااهيبي».

بعد ثلاث عشرة ساعة، كان د. ماسون يرفع الوليدَ بين يديه أمام إليزابيث المنهَكة كي تراه.

«بِنية كبيرة»، قال وهو ينظر إلى الوَليد كأنّه يعاين صيدَه بعد أن لفّ بكرة صنارته للتّوّ: «بنية مجدّفين دون شكّ. لا تقتبسي كلامي، لكن أظنّ أنّها ستجدّف على الميسرة». أنزل عينيه ينظر إلى إليزابيث: «أحسنتِ عملًا يا آنسة زوت، بل وقُمتِ بالأمر كلّه دون تخدير. أخبرتُك أنّنا سنجد نفعًا من كلّ ذلك التّمرين على الإرغ. لديها رئتان عظيمتان»، حدّق إلى يدَي الطّفلة الصّغيرتين كأنّه يتخيّل ثخانات الجلد المستقبليّة، «سوف تظلّان كلتاكما معنا لبضعة أيّام. سأمرّ على غرفتك غدًا. حتّى ذلك الحين، استريحي».

لكن لقلقِها على ستّة ونصف، دفعَت إليزابيث فاتورةَ المستشفى وغادرت في الصّباح التّالي مباشرةً.

«كلّا بالطّبع»، قالت رئيسةُ التّمريض: «هذا انتهاك صارخ للبروتوكول، سيستاء د. ماسون أيّما استياء».

«أخبريه أنّني أحتاج إلى الإرغ»، أجابتها: «لن يمانع».

«الإرغ؟»، كرّرت الممرّضة الكلمةَ في شبه صياح بينما كانت إليزابيث تتّصل لطلب سيّارة أجرة: «ماذا يكون *الإرغ*؟»

بعد ثلاثين دقيقة، كانت إليزابيث تعبر مدخلَ السّيّارات، تضمّ الطّفلةَ بإحكامٍ مريحٍ إلى صدرها، وقلبها يخفق انشراحًا لمرأى ستّة

ونصف -وحقيبة السّرج ما تزال عليه- جالسًا كالحرّاس عند الباب الأماميّ.

يا إلهي، راح ستّة ونصف يلهث: *يا إلهي يا إلهي أنتِ حيّة أنتِ حيّة يا إلهي كنتُ قلقًا للغاية.*

انحنت نحوه وأرَته الحزمة الّتي تحملها.

الكائن كانَ -تشمّم بأنفه- *بنتًا!*

«إنّها بنت»، قالت له إليزابيث مبتسمة.

مرحبًا، كائن! هذا أنا! ستّة ونصف! كدتُ أُجنُّ من القلق!

«أنا آسفة جدًّا»، قالت وهي تفتح الباب بالمفتاح: «لا بدّ أنّك تتضوّر جوعًا. إنّها»، راجعت ساعتَها، «التّاسعة واثنتان وعشرون دقيقة، أنت لم تأكل منذ ما يتجاوز أربعًا وعشرين ساعة».

راح ستّة ونصف يهزّ ذنبَه بحماس. لقد درجَت بعض العائلات على منح أطفالها أسماءً تبدأ بالحرف نفسه (أغاثا، ألفريد) وكان بعضُها الآخر يفضّل القافية (مولي، بولي)، أمّا عائلتُه فتختار السّاعة. هو سُمّيَ ستّة ونصف احتفاءً باللّحظة الّتي صاروا فيها عائلة بالضّبط، والآن يعرف ماذا سيُسمَّى الكائن.

مرحبًا يا تسعة واثنان وعشرون!، تابع ترحيبه الحارّ: *أهلًا بك في الحياة في الخارج! كيف كانت الرّحلة؟ أرجوك، تفضّلي، تفضّلي! لديّ طبشور!*

ومع دخولهم الصّاخب من الباب ثلاثتهم، ملأت الهواءَ بهجةٌ غريبة. للمرّة الأولى منذ موت كالفن، شعرا أنّهما يسلكان منعطفًا جديدًا.

هكذا إلى بعد عشر دقائق، عندما بدأ الكائن يبكي فتداعت الأشياءُ كلُّها فوقَ بعضها.

الفصل 17

هارييت سلون

«ما *خطبك*؟»، توسّلت إليزابيث للمرّة المليون: «فقط قولي لي!»

لكنّ الرّضيعة، الّتي تبكي بلا توقّفٍ منذ أسابيع، رفضت أن تحدّد.

حتّى ستّة ونصف احتار في أمرها. *لكنّني أخبرتُكِ عن والدك*، راح يتواصل: *لقد تحدّثنا في هذا*. غير أنّ الكائن ظلّ يُوَلوِل.

أخذت إليزابيث تذرع البنغل الصّغير في الثّانية صباحًا، وهي تهزهز الحزمةَ إلى أعلى وأسفل، بذراعين متخشّبتين تبدو معهما مثل روبوت صدئ، إلى أن ارتطمت بكدسةِ كتبٍ فكادت تتعثّر. «اللّعنة»، صاحت وهي تدفن الرّضيعةَ في صدرها في حركةٍ حمائيّة. في خضمّ خَبَلِ أمومتِها الجديدة، كانت الأرضيّة قد تحوّلت إلى مكبٍّ مُرتجَلٍ لكلّ شيء: الجوارب الصّغيرة، دبابيس الحفاضات المفكوكة، قشور الموز القديمة، الجرائد غير المقروءة. «كيف لشخصٍ صغيرٍ هكذا أن يتسبّب في كلّ هذا؟»، صاحت. ردًّا عليها، وضعت الرّضيعةُ فمَها الصّغيرَ عند أذنها، وأخذَت نفَسًا عميقًا، ثمّ زعقَت جوابَها.

«أرجوكِ»، همست إليزابيث وهي تهوي على كرسيّ: «أرجوكِ، أرجوكِ، أرجوكِ *توقّفي*». آوَت ابنتَها في عِطفِ ذراعها، ودفعت

حلمةَ الرّضّاعة برفقٍ إلى شفتيها الشّبيهتين بشفاهِ الدُّمى، ورغم أنّها كانت قد رفضَتها خمس مرّات من قبل، تلقّفَتها هذه المرّة بنهمٍ كأنّها تعرف أنّ أمَّها الجاهلة ستصل إلى المطلوب في النّهاية. كتمَت إليزابيث أنفاسها كما لو أنّ من شأنِ أصغر سحبةِ هواءٍ أن تجعل هذا الشّيء الصّغير ينطلق مثل جرس الإنذار من جديد. الرُّضَّعُ قنابلُ موقوتة تُكتِك؛ حركةٌ واحدة في غير محلّها وعلى الدّنيا السّلام.

لقد حذّرَها د. ماسون أنّ الأطفال حديثي الولادة عملٌ شاقّ، لكنّ هذا ليس عملًا: إنّه سَنَدُ تمليك. الطّاغيةُ الصّغيرةُ ليست أقلّ استبدادًا من نيرون؛ ليست أقلّ جنونًا من الملك لودفيغ. والبكاء... كان يجعلها تشعر بانعدام الأهليّة. بل أسوأ، فقد طرحَ احتمالَ أنّها ربّما لا تروق لابنتها. منذ الآن.

أغمضت إليزابيث عينيها ورأت أمَّها؛ سيجارة ملتصقة بشفتها السّفليّة، والرّماد يحطّ في الطّاجن الّذي أخرجَته إليزابيث من الفرن لتوّها. أجل. ألّا تروق أمُّ المرء له منذ أوّل الطّريق أمرٌ واردٌ تمامًا.

وفوق ذلك، هنالك التّكرار – الإطعام، التّحميم، التّبديل، التّسكيت، المسح، التّجشئة، التّهدئة، الهزهزة؛ بمختصر العبارة، الأعمال الكاملة. العديد من الأشياء تتّصف بالتّكرار –الحركات على الإرغ، بندول الإيقاع، الألعاب النّاريّة– لكنّها جميعها أشياء تنتهي عادةً خلال ساعة، أمّا هذا فقد يستمرّ سنوات.

وحين تنام الطّفلة، *وهذا لا يحدث أبدًا*، يظلّ هنالك المزيد من العمل الّذي ينبغي القيام به: الغسيل، تحضير الرّضّاعة، التّعقيم، الوجبات – إضافةً إلى إعادة قراءة *كتاب البديهة في رعاية الرّضيع*

والطّفل لـ د. سْبوك مرارًا وتكرارًا. عددُ المهامّ الّتي يجب إتمامها كبيرٌ إلى درجة لا تستطيع معها حتّى أن تضع قائمة مهامّ، لأنّ وضعَ القائمة هو نفسه مهمّة إضافيّة، أضف إلى ذلك كلّ أشغالها الأخرى الّتي ما يزال عليها إنجازها.

هاستينغز... ألقت نظرةً قلقة عبرَ الغرفةِ على كدسةٍ تبلغ ارتفاعَ قدمٍ من الدّفاتر والأوراق البحثيّة الّتي لمّا تلمسْها؛ أعمال زملائها المكوّمة فوق بعضها. حين كانت في المخاض، قالت لـ د. ماسون إنّها لا تريد تخديرًا. «لأنّني عالمة»، كذبت عليه: «أريد أن أكون واعيةً بالكامل خلال الولادة». لكن السّبب الحقيقي هو أنّها لا تستطيع تحمُّلَ كلفة التّخدير.

من الأسفل جاءت تنهيدةُ رضًى صغيرة، فنظرت إليزابيث لتتفاجأ إذ وجدت ابنتَها نائمة. جمدت على وضعها، لا تريد أن تُضايقَ هَجعةَ الطّفلة. راحت تدرس الوجهَ المتورّد، الشّفتين المشفترتَين، الحاجبين الأشقرين النّحيلين.

قطعَت ساعةً على هذه الحال، ومعها انقطع كلُّ الدّم عن ذراعها. ظلّت تحدّق في عجب فيما تحرّك الطّفلةُ شفتيها، كأنّها تحاول أن تشرح.

انقضت ساعتان أُخريان.

تُومي، قالت لنفسها: تحرّكي. انحنت إلى الأمام، مُزيحةً نفسَها وابنتَها برفقٍ عن الكرسيّ، ثمّ مشَت دون خطوةٍ واحدةٍ في غير محلّها إلى غرفة النّوم. استلقت على السّرير، واضعةً الرّضيعةَ -الّتي ما تزال

نائمة- بجانبها بحذر. أغمضت عينيها. زَفَرَت. ثمّ نامت نومًا ثقيلًا، نومًا بلا أحلام، إلى أن استيقظت الطّفلة.

وهذا، وفقًا لساعتها، كان تقريبًا بعد خمس دقائق.

«هل الوقت مناسب؟»، سألها د. بوريفايتس عند السّابعة صباحًا حالما فتحَت الباب. أمال رأسَه وتجاوزَها إلى الدّاخل، ينتقي خطاه عبر ساحة الوغى إلى الأريكة.

«لا».

«طيّب، لكن هذا ليس عملًا بحقّ»، شرح لها: «ما هو إلّا سؤال سريع. على كلّ حال، أردتُ أن أمرّ عليكِ وأرى كيف تسير الأمور معك. لقد سمعتُ أنّك أنجبتِ الطّفل». ألقى نظرةً شملَت شعرها غير المغسول، وبلوزتها المُزرّرة بترتيبٍ خاطئ، وبطنها الّذي ما يزال متورّمًا. فكّ قفلَ حقيبته الجلديّة وأخرج منها هديّةً مغلّفة. «تهانينا»، قال.

- أنت... أنت أحضرت لي... هديّة؟

- مجرّد شيء بسيط.

- ألديك أطفالٌ يا د. بوريفايتس؟

انزلقت عيناه إلى اليسار، ولم يُجِب.

فتحَت العلبةَ لتجد مصّاصةَ أطفالٍ بلاستيكيّة ودمية أرنب صغيرة محشوّة. «شكرًا لك»، قالت وقد شعرت فجأةً أنّها مسرورة

بمروره عليها؛ إنّه أوّل شخص راشد تتحدّث إليه منذ أسابيع. «هذا من لطفكَ واهتمامِك».

«على الرّحب والسّعة»، ردّ بارتباكٍ أخرق: «آمل أن يستمتع... تستمتع... بها».

«تستمتع، هي».

هي، *كما في «بانشي*[1]»، شرح ستّة ونصف.

مدّ بوريفايتس يدَه داخل حقيبته ليُخرج رزمةً من الأوراق.

«أنا لم أنم يا د. بوريفايتس»، اعتذرت إليزابيث: «هذا حقًّا ليس وقتًا مناسبًا».

«آنسة زوت»، استجداها بعينين مُطرِقتَين: «لديّ اجتماع مع دوناتي خلال ساعتين»، سحب بضع أوراق نقديّة من محفظته، *«أرجوكِ»*.

منظر النّقود جعلها تتلكّأ؛ هي لم تحظَ بأيّ دخلٍ منذ شهر.

---

(1) المُراد هنا أنّ كلمة «هي» في الإنجليزيّة "she" لها قافية كلمة "banshee"، ما تعذّر نقله إلى العربيّة دون إخلال. وطريقة القوافي هذه طريقةٌ متَّبعة بكثرة في تعليم الأطفالِ الأحرفَ والكلمات. بانشي: جنّيّةٌ في الفلكلور الأيرلنديّ تُنذر بوفاة أحد أفراد الأسرة عادةً عن طريق الصّراخ أو النّواح. (المترجم)

«عشر دقائق»، قالت وهي تأخذ النّقود: «الطّفلة تكبو لا أكثر». بيد أنّه احتاج إلى ساعة كاملة. وبعد مغادرته، إذ فوجئت أنّ الطّفلة ما تزال نائمة، توجّهت إلى مختبرها عاقدةً عزمَها على العمل، لكنّها -دون قصدٍ منها- أرخَت جسدها على الأرضيّة كما لو كانت فِراشًا، ومدّت رأسها نحو أحد المَراجِع كما لو كان وسادة. وما هي إلّا لحظات حتّى كانت تغطّ في نومٍ عميق.

رأت كالفن في حلمها. كان يقرأ كتابًا عن الرّنين المغناطيسيّ النّوويّ. هي كانت تقرأ *مدام بوفاري* جهرًا لستّة ونصف. للتّوّ كانت تقول لستّة ونصف إنّ الأدب القصصيّ إشكاليّ؛ النّاس يصرّون دائمًا أنّهم يعرفون المعنى منه، حتّى إن كان الكاتب لم يعنِ ذلك على الإطلاق، وحتّى إن كان المعنى الّذي يظنّونه ليس له معنًى حقيقيّ. «بوفاري مثال رائع»، قالت: «هنا، حين تلعق إيما أصابعها؟ البعض يعتقد أنّ هذا يدلّ على الشّهوة الجسديّة، بينما يظنّ آخرون أنّ الدّجاج أعجبها حقًّا لا أكثر. أمّا بخصوص ما كان فلوبير يعنيه في الواقع؟ لا أحد يكترث».

لحظتئذٍ رفع كالفن عينيه عن كتابه وقال: «لا أتذكّر ورودَ سيرةِ أيّ دجاجٍ في *مدام بوفاري*». لكن قبل أن يتسنّى لإليزابيث أن تُجيب، سُمعت طقطقةٌ مُلِحّة، *طق طق طق طق طق طق*، مثل نقّارِ خشبٍ كادح، تلاها نداء «آنسة زوت؟»، تلاه المزيد من الـ*طق طق طق طق طق*، ثمّ «آنسة زوت؟» مرّةً أخرى، تلَت ذلك ولولةٌ ناعمةٌ غريبة تتخلّلُها حازوقة، جعلَت كالفن يقفز من مكانه ويركض خارجًا من الغرفة.

«آنسة زوت»، قال الصّوتُ من جديد، وكان أعلى هذه المرّة.

أفاقت إليزابيث لتجد امرأةً كبيرةَ البنية شيباءَ الشّعر ترتدي فستانًا من الحرير الصّناعيّ وجوربين بنّيّين سميكين تَلوح فوقها في مختبرها.

– هذه أنا يا آنسة زوت، السّيّدة سْلون. لقد اختلستُ نظرةً إلى الدّاخل فرأيتكِ مبطوحةً على الأرضيّة، دققتُ ودققتُ على الباب لكنّكِ لم تجيبي، لذا دفعتُ الباب ودخلت. أردتُ أن أتأكّد أنّك على ما يرام. *هل* أنت على ما يرام؟ ربّما يجدر بي أن أتّصل بطبيب.

– ســ... سلون.

انحنت المرأة تتفحّصُ وجهَ إليزابيث. «كلّا، أظنّك على ما يرام. طفلُك يبكي. هل أذهب وأنظر لحاله؟ سوف أذهب». غادرت، لتعود بعد لحظة. «أوه، انظروا إلى هذا»، قالت تُهدهد الحزمةَ الصّغيرة إلى الأمام والخلف: «ما اسم هذا الجنّيّ؟»

«ماد. مــ... مادلين»، أجابت إليزابيث وهي تُنهض نفسَها عن الأرض.

«مادلين»، كرّرت السّيّدة سلون: «بنت. هذا جميل. كنتُ أنوي أن أمرّ عليكِ. منذ أحضرتِ شيطانتَك الصّغيرة هذه إلى البيت وأنا أقول لنفسي: *اذهبي واطمئنّي عليها*. لكن يبدو أنّك تستقبلين تيّارًا لا ينضب من الزّوار. في الحقيقة، شاهدتُ واحدًا منهم يغادر قبل وقت غير طويل. لم أرغب أن أتطفّل».

رفعت المرأةُ مؤخّرةَ مادلين إلى أنفها وأخذت شمّةً عميقة، ثمّ وضعتها على الطّاولة، لتستلَّ حفاضًا نظيفًا عن المَنشر القريب وتبدّل للرّضيعة الّتي تتلوّى بين يديها مثل راعي بقرٍ يقيّد عِجلًا بحبله.

«أعلم أنّ الأمر شاقٌ عليك دون شكّ يا آنسة زوت، أعني في غياب السّيّد إيفانز. أنا آسفة جدًّا لخسارتك بالمناسبة. أعرف أنّ هذا متأخّر بعض الشّيء، لكن أن تصل متأخّرًا خيرٌ من ألّا تصل أبدًا. السّيّد إيفانز كان رجلًا طيّبًا».

«كنتِ تعرفين... كالفن؟»، سألتها إليزابيث واستيعابُها لّما يزل غائمًا: «من... من أين؟»

«آنسة زوت»، أجابتها بنبرة موجَّهة: «أنا جارتكما. على الطّرف المقابل من الشّارع؟ المنزل الأزرق الصّغير؟»

«أوه، أوه، أجل، بالطّبع»، قالت إليزابيث محمرّةَ الوجه، إذ أدركت أنّها لم تكلّم السّيّدة سلون قطّ من قبل؛ بضع تلويحات من مدخل السّيّارات، هذا كلّ شيء. «أنا آسفة يا سيّدة سلون، بالطّبع أعرفك. أرجوكِ سامحيني... أنا متعَبة. لا بدّ أنّني غطَطتُ في النّوم على الأرضيّة. لا أصدّق أنّني فعلت هذا؛ هذه أوّل مرّة».

«ولن تكون الأخيرة»، قالت السّيّدة سلون، وقد لاحظت فجأةً أنّ المطبخ ليس مطبخًا في الحقيقة على الإطلاق. نهضت تحمل مادلين في عطف ذراع واحدة مثل كرةِ قدم، وصحبت نفسَها في جولة. «أنتِ أمٌّ جديدة، وأنت وحدَك تمامًا، وأنت منهَكة، وبالكاد تستطيعين أن تفكّري و... ما *هذا* بحقّ الجحيم؟»، أشارت إلى شيءٍ فضّيٍّ كبير.

«جهاز طردٍ مركزيّ»، قالت إليزابيث: «وكلّا، أنا بخير، حقًّا»، حاولت أن تُجلّس جذعَها.

«لا أحد يكون بخير مع حديثي الولادة يا آنسة زوت. هذه العفريتةُ الصّغيرةُ ستشفط الحياةَ من عروقك. انظري إلى حالك،

لديك مظهرُ المحكومين بالإعدام. دعيني أعدّ لك بعض القهوة». همّت بالتّوجّه نحو الموقد، لكنّ مُخلِيةُ الدّخان اعترضت طريقها. «حبًّا بالله»، قالت: «ما الّذي حدث لهذا المطبخ بحقّ الجحيم؟»

«سأعدّها أنا»، قالت إليزابيث. وفيما راحت السّيّدة سلون تراقبها، مضت إلى المنضدة الفولاذيّة، وهناك أخذت إناءً مليئًا بالماء المقطّر ودلقته في حوجلة سدّتها بسدادة مزوّدة بأنبوب يتدلّى منها متلويًّا. بعد ذلك، ثبّتَت الحوجلة على أحد المنصبين المعدنيّين الموضوعين بين موقدَي بَنسِن وقدحَت أداةً معدنيّة غريبة فتطاير منها الشّرر كحجر صوّانٍ يحتكّ بفولاذ. انبثق اللّهب، وبدأ الماء يتسخّن. مدّت يدها إلى رفٍّ في الأعلى وأخذت كيسًا كُتِب عليه «$C_8H_{10}N_4O_2$»، أفرغت القليل منه في هاون وطحنته بمدقّة، ثمّ قلبَت المادّة النّاتجة الشّبيهة بالتّراب فوق ميزانٍ صغير غريب، لتفرغ محتويات الميزان بعد ذلك في قطعةٍ من قماش تصفيةِ الجبن بقياس 6×6 إنشات وتربطها على شكل صرّةٍ صغيرة. أقحمت القماشة في دورق كبير ثبّتته على المنصب المعدنيّ الثّاني، ثمّ وصلت الأنبوب الخارج من الحوجلة الأولى بقعر الدّورق الكبير. وسرعان ما فرغت الحوجلةُ ذات الحجم الأصغر بشكلٍ شبه كامل فأطفأت إليزابيث موقدَ بنسن، وراحت تحرّك محتويات الدّورق بقضيب زجاجيّ، ثمّ فعل السّائلُ البنّيّ شيئًا ولا أغرب: ارتفع مثل شبح بولترغايست[1] وعاد إلى الحوجلة الأصليّة.

(1) بولترغايست: نوعٌ من الأشباح يسبّب اضطرابات ماديّة مثل الضّجيج العالي وتحريك الأغراض أو تحطيمها، والكلمة ألمانيّة تعني «الشّبح الصّاخب». (المترجم)

«كريمة وسكّر؟»، سألت إليزابيث وهي تنزع السّدادة عن الحوجلة وتبدأ بالصّبّ.

«يا أمَّ يسوع»، قالت السّيّدة سلون عندما وضعت إليزابيث كوب قهوة أمامها: «ألم تسمعي في حياتك بقهوةِ فولجرز؟». لكنّها لم تُضِف كلمةً واحدة حالما أخذت أوّل رشفة. لم يسبق لها أن تذوّقَت مثل هذه القهوة يومًا، مذاق من الجنّة، بوسعها أن تشربها طوال اليوم.

«إذًا كيف وجدتِ الأمر حتّى الآن؟»، سألتها السّيّدةُ سلون: «الأمومة».

بلعت إليزابيث ريقَها بمشقّة.

«أراكِ تملكين الكتابَ المقدّس»، قالت السّيّدةُ سلون في إشارة إلى كتاب د. سبوك على الطّاولة.

«عنوانه هو الّذي جعلني أشتريه»، اعترفت إليزابيث: «*كتاب البديهة في رعاية الرّضيع والطّفل*. يبدو أنّ ثمّة الكثير من الهراء بشأن طرق تربية الأطفال... الكثير من التّعقيدات المبالغ فيها».

أمعنت السّيّدةُ سلون النّظرَ في وجه إليزابيث. غريبٌ أن يصدر هذا التّعليق من امرأة أضافت لتوّها عشرين خطوة زائدة على عمليّة إعداد كوب قهوة. «مضحك، أليس كذلك؟»، قالت السّيّدةُ سلون: «أن يكتب رجلٌ كتابًا عن أمور لا يملك فيها أيّةَ معرفة ناتجة عن خبرة مباشرة على الإطلاق – أقصد الولادة وما يليها، ومع ذلك: بوووم، يتصدّر قائمةَ المبيعات. أتعرفين ما أشكّ فيه؟ زوجته هي الّتي كتبَت

كلَّ شيء من الألف إلى الياء، ثمّ وضعت اسمَه على الكتاب. اسم الرّجل يعطي موثوقيّةً أكبر، ألا ترين هذا؟»

«كلّا»، قالت إليزابيث.

«أتّفِق».

أخذت كلٌّ منهما رشفةً أخرى من قهوتها.

«أهلًا وسهلًا يا ستّة ونصف»، قالت تمدّ له يدها الثّانية، فجاء إليها.

- تعرفين ستّة ونصف؟

- آنسة زوت، أنا أعيش هنا... على الطّرف المقابل من الشّارع! كثيرًا ما أراه يتنقّل في الأنحاء. بالمناسبة، ثمّة قانون يفرض الرّسن...

مع كلمة «رسن»، فتحت مادلين فمها الصّغير وأطلقت زعقةً تجمّد الدّمَ في العروق.

«يا يسوع بن مريم وإله السّماء والأرض!»، تطايرت الكلماتُ من فم السّيّدة سلون وهي تقفز في محلّها ومادلين ما تزال بين ذراعيها: «هذا شنيع بحقٍّ يا صغيرة!». نظرت في الوجه الأحمر الصّغير وراحت تهزهز الحزمةَ وتسير بها في أنحاء المختبر، رافعةً صوتها فوق الضّجيج. «قبل سنين، حين كنتُ أمًّا حديثةَ العهد، كان السّيّد سلون خارج البلدة بسبب عمله، واقتحم رجلٌ رهيبٌ المنزلَ وقال إنّه سيأخذ الرّضيعَ إن لم أعطِه كلَّ نقودنا. كنت لم أستحمّ أو أنَم منذ أربعة أيّام، ولم أمشّط شعري منذ أسبوع على الأقلّ، ولم أجلس منذ مدّة لا أعلم كم هي. لذا قلتُ له: «أتريده؟ تفضّل»»، نقلَت مادلين إلى الذّراع

الأخرى: «لم يسبق لي أن رأيتُ رجلًا راشدًا يركض بتلك السّرعة»، جالت بعينيها على أنحاء الغرفة متشكّكة، «ألديك طريقة فاخرة لإعداد الرّضّاعة أيضًا، أم بإمكاني أن أعدّها بشكل طبيعي؟»

«لديّ واحدة جاهزة»، أجابت إليزابيث وهي تأخذ رضّاعةً من قدرٍ صغير مليء بالماء الدّافئ.

«الأطفال حديثو الولادة مُريعون»، قالت السّيّدة سلون وهي تشدّ على عقد اللّؤلؤ المزيّف الّذي يحيط بعنقها حين أخذت إليزابيث مادلين منها: «كنت أظنّ أنّ لديك من يساعدك، وإلّا لما انتظرتُ حتّى الآن كي آتي. ثمّة الكثير من... حسنًا، الكثير من *الرّجال* الّذين يمرّون عليكِ في أغرب الأوقات»، تنحنحت.

«إنّه العمل»، قالت إليزابيث وهي تسترضي مادلين كي تأخذ الرّضّاعة.

«إن كان هذا ما تريدين أن تسمّيه»، قالت السّيّدة سلون.

«أنا عالمة»، ردّت إليزابيث.

- ظننتُ أنّ السّيّد إيفانز هو العالم.

- أنا أيضًا عالمة.

«آه، بالتّأكيد»، قالت صافقةً يديها: «حسنًا إذًا، سوف أغادر. لكنّكِ بتِّ تعرفين الآن؛ متى احتجتِ إلى يدين إضافيّتين تجدينني في الطّرف المقابل من الشّارع». كتبَت رقمَ هاتفها بخطٍّ غليظ بقلم الرّصاص مباشرةً على جدار المطبخ فوق الهاتف. «السّيّد سلون تقاعد العامَ الماضي وبات يظلّ في المنزل طوال الوقت، لذا لا يخطرنَّ

لكِ أنّك ستعطّلينني عن أيّ شيء، لأنّ هذا غير صحيح؛ في الواقع، ستسدين إليّ معروفًا باتّصالك. مفهوم؟». انحنت لتُخرجَ شيئًا من حقيبة التّسوّق خاصّتها. «سأترك هذا هنا»، قالت وهي تضع طاجنًا مغلّفًا بورق الألومنيوم: «لستُ أقول إنّه لذيذ، لكن عليكِ أن تأكلي».

«سيّدة سلون»، قالت إليزابيث وقد أدركَت أنّها لا تريد أن تبقى وحدَها: «يبدو أنّك تعرفين الكثير عن الأطفال الرّضَّع».

«أكثر ممّا يعرف معظم النّاس»، أجابت موافِقة: «إنّهم ساديّون صغار أنانيّون. السّؤال هو ما الّذي قد يجعل أحدًا يُنجب أكثر من واحد».

- كم واحدًا أنجبتِ؟

- أربعة. ما الّذي تحاولين قولَه يا آنسة زوت؟ هل ثمّة شيء محدّد يثير قلقك؟

«حسنًا»، قالت إليزابيث تحاول منع صوتِها من التّهدّج: «الأمر... الأمر فقط أنّني...»

«هيّا، قوليها»، حثّتها سلون: «بِقّي البحصة».

«أنا أمٌّ مريعة»، قالت على عجل: «ليس فقط لأنّك وجدتِني نائمةً خلال العمل، بل أشياء كثيرة... أو بالأحرى، كلّ شيء».

- حدّدي أكثر.

- حسنًا، على سبيل المثال، د. سبوك يقول إنّه من المفترض أن أنظمّ لها جدولًا زمنيًّا، لذا أعددتُ واحدًا، لكنّه ترفض أن تتبعه.

شخرَت هارييت سلون.

- كما أنّني لا أمرّ بأيّةٍ من تلك اللّحظات الّتي يُفترض أن تمرّ الأمّهات بها... تفهمينني، تلك اللّحظات...

- لا أفهمك...

- لحظات الغبطة...

«هراء المجلّات النّسائيّة»، قاطعتها سلون: «عليكِ أن تتجنّبي هذه الأشياء، فما هي إلّا خيال في خيال».

«لكنّ المشاعر الّتي تراودني... لا... لا أظنّ أنّها طبيعيّة. أنا لم أرغب يومًا بإنجاب أطفال»، قالت: «والآن أنجبتُ طفلةً ويُخجلني أن أقول إنّني كنتُ مستعدّةً للتّخلّي عنها مرّتين على الأقل حتّى الآن».

توقّفت السّيّدة سلون عند الباب الخلفيّ.

«أرجوكِ»، توسّلت إليزابيث: «لا تُسيئي الظّنّ بي...»

«مهلًا»، قالت سلون، كأنّها أخطأت السّمع: «أردتِ أن تتخلّي عنها... مرّتين؟»، ثمّ هزّت رأسها وراحت تضحك بطريقة جعلت إليزابيث تتقلّص.

- هذا ليس مضحكًا.

- مرّتين؟ حقًّا؟ حتّى لو قُلتِ عشرين مرّةً سيبقى ذلك ضمن مستوى الأغرار.

أشاحت إليزابيث بوجهها.

«حبًّا بالجحيم»، تأفّفَت السّيّدة سلون مُبديةً التّعاطف: «أنتِ الآن تقومين بأصعب وظيفة في العالم. ألم تُحدِّثكِ أمُّك عن هذا؟»

ولدى ذكر أمِّها، لاحظت سلون كتفَي المرأةِ الشّابّةِ تتقبّضان.

«طيّب»، قالت بنبرةٍ ألطف: «لا تشغلي بالك. فقط حاولي أن تخفّفي من قلقك. أنتِ تُبلين حسنًا يا آنسة زوت. الأمور ستصبح أفضل».

«ماذا لو لم يحدث ذلك؟»، قالت إليزابيث بيأس: «ماذا لو... ماذا لو أصبحت أسوأ؟»

رغم أنّها لم تكن من النّوع الّذي يحبّذ اللّمس، ألفت السّيّدةُ سلون نفسَها تترك موضعَها الآمنَ عند الباب لتضغط بلطفٍ على كتفَي المرأة الشّابّة. «ستصبح أفضل»، قالت: «ما اسمُكِ يا آنسة زوت؟»

«إليزابيث».

رفعت السّيّدة سلون يديها: «حسنًا يا إليزابيث، أنا هارييت».

ثمّ حلّ صمتٌ مُرتبِك، كأنّهما بتبادل اسميهما كشفتا عن أكثر ممّا كانتا تنويان.

«قبل أن أذهب يا إليزابيث، هل لي أن أقدّم إليكِ نصيحةً واحدة؟»، استهلّت هارييت: «في الواقع، لا، لن أفعل. فأنا أكرَه تلقّي النّصائح، ولا سيّما النّصائح الّتي لم أطلبها»، تحوّل لونُها إلى درجةٍ من الحُمرة، «أتكرهين من يقدّمون النّصائح؟ أنا أكرههم، فلديهم طريقتهم في جعل المرء يشعر بانعدام كفاءته. وعادةً ما تكون النّصيحة مقيتة».

«قولي»، حثّتها إليزابيث.

تردّدت هارييت، ثمّ زمّت شفتيها وحرّكتهما من جانب إلى آخر. «حسنًا، لا بأس. ربّما هي ليست نصيحة على أيّ حال، أقرب إلى فكرةٍ مفيدة».

نظرت إليزابيث تترقّب.

«خُذي لحظةً لنفسك»، قالت هارييت: «كلَّ يوم».

«لحظة».

«لحظة تكونين فيها أولى أولويّاتك. أنت وحسب. لا طفلتك، لا عملك، لا السّيّد إيفانز الميت، لا منزلك القذر، ولا أيّ شيء. أنت وحسب. إليزابيث زوت. أيًّا كان ما تحتاجين إليه، أيًّا كان ما تريدينه، أيًّا كان ما تسعين وراءه، أعيدي التّواصل معه في هذه اللّحظة»، شدّت بحدّة على عقد اللّؤلؤ المزيّف، «ثمّ جدّدي التزامكِ به».

ورغم أنّ هارييت لم تَذكر أنّها لم تأخذ يومًا بهذه النّصيحة عن نفسها، وأنّها قرأتها في واحدة من المجلّات النّسائيّة السّخيفة تلك لا أكثر، فهي تريد أن تصدّق أنّها ذات يومٍ سوف تجدّد التزامها بهدفها؛ أن تقع في الحبّ. حبٍّ حقيقيّ. بعدئذٍ فتحَت الباب الخلفيّ وأومَت إيماءةً صغيرة برأسها ثمّ أغلقت الباب خلفها. وكما لو كانت تلك إشارة انطلاق تنتظرُها، بدأت مادلين تبكي.

مجنونةٌ رسميًّا

لم تكن هارييت سلون جميلةً يومًا، لكنّها عرفت أشخاصًا جميلين، وهؤلاء بدَوا يجذبون المتاعبَ دائمًا؛ النّاس إمّا يحبّونهم لجمالهم وإمّا يكرهونهم للسّبب نفسه بالضّبط. وعندما بدأ كالفن يواعد إليزابيث زوت، افترضت هارييت أنّ جمالها هو السّبب. لكن حين تلصّصت عليهما للمرّة الأولى من مَرقبِها في غرفة معيشتها، وانفسحت ستائرُهما بكرمٍ لتُتيحَ لها إطلالةً بلا عوائق على غرفة معيشتهما، تعيّن عليها أن تعيدَ النّظر في ما افترضَته.

بدا لها أنّ كالفن وإليزابيث ينعَمان بعلاقة غريبة - تكاد تكون خارقةً للطّبيعة، مثل توءمين متماثلين افترقا عند الولادة ثمّ عثر واحدُهما بالآخر صدفةً في خندق جنود، ورغم الموت الّذي يحيط بهما من كلّ صوب، ذُهِلا حين اكتشفا لا أنّهما متشابهان في المظهر ويتشاركان حساسيّةً عاليةً من المحار فحسب، بل أيضًا أنّ كليهما لا يحبّ دين مارتن. «حقًّا؟»، كانت تتخيّل كالفن وإليزابيث يقولان لبعضهما طوال الوقت: «وأنا كذلك!»

لم يكن الأمر على هذه الحال معها هي والسّيّد سلون الّذي بات الآن متقاعدًا. هما لم يعرِفا الحماسة سوى في البداية، وسرعان ما بَليَت

بعد ذلك مثل طلاء أظافر رخيص. كانت تراه مميّزًا لأنّ لديه وشمًا ولأنّه بدا لا يلاحظ أنّ كاحليها غليظان وشعرَها خفيف. والآن إذ تتذكّر، تجد أنّه كان ينبغي أن ترى في ذلك إشارة - إلى أنّه لم يكن يلاحظها، فلربّما كانت لتدرك عندئذٍ أنّه لن يلاحظها أبدًا.

لا تستطيع أن تتذكّر كم كان قد انقضى على بداية زواجهما حين بدأت تدرك أنّها ليست واقعةً في حبّه، ولا هو واقع في حبّها، لكنّ ذلك حدث على الأرجح في مرحلةٍ ما بين انتباهها إلى لفظه المتكلّف وبين تراكمِ شعرِ جسمِه الكثيف الّذي يتساقط باستمرار مثل بذور الهندباء البرّيّة فارشًا أرضَ منزلهما.

أجل، العيش مع السّيّد سلون يُقزِّز النّفس، بيد أنّ هاربيت لم تكن تنفر من عيوبه البدنيّة تمامَ النّفور -هي نفسها لديها الكثير منها. غباؤه المستفحل هو ما تمقته بالأحرى- جِبِلّتُه البليدة العنيدة الخالية من أيّ شيءٍ يثير الاهتمام؛ جهلُه وتعصُّبُه وسوقيّته وبروده؛ وبالدّرجة الأولى، ثقتُه الّتي لا أساس لها على الإطلاق بنفسه. مثل معظم الأغبياء، لم يكن السّيّد سلون يملك من الذّكاء ما يكفي كي يعرف كم هو غبيّ.

حين انتقلت إليزابيث زوت للعيش مع كالفن إيفانز، انتبه السّيّد سلون من فوره. كان يتحدّث عنها بلا انقطاع، بتعليقات فاسقة متدنّية مثل ضبعٍ أجرب. «هلّا نظرتِ إلى هذا؟»، يقول محدّقًا من النّافذة في المرأة الشّابّة الّتي تدخل إلى سيّارتها وهو يفرك بطنَه العاري في حركة دائريّة، ناثرًا الشّعرات السّوداء الصّغيرة المجعّدة في كلّ زوايا الغرفة: «أجل».

كلّما حدث هذا، كانت هاربيت تغادر الغرفة. هي تعلم أنّه ينبغي بها أن تكون قد تعوّدت ذلك بحلول هذا الوقت، تعوّدت رغبتَه في النّساء الأخريات. كانا في شهر عسلهما حين استمنى على مجلّات بناتيّة وهو بجانبها في السّرير لأوّل مرّة، وسايرَت الأمرَ لأنّ... ما الّذي يُفترَض بها أن تفعله غير ذلك؟ إضافةً إلى أنّها قد قيل لها إنّ الأمر طبيعيّ، بل حتّى صحّيّ. لكن مع تزايُد خلاعةِ المجلّات، تفاقمت العادة، والآن ها هي ذي، في الخامسة والخمسين من عمرها، تُرتِّبُ كومةَ مجلّاتِه الدّبِقة وفي قلبِها غصّة.

هذا هو الشّيء المقزّز الآخر فيه. كحال الكثير من الرّجال غير المرغوبين، كان السّيّد سلون يعتقد حقًّا أنّ النّساء الأخريات يجدنه جذّابًا. لا تملك هاربيت أدنى فكرة عن مصدر هذا الصّنف المحدّد من الثّقة بالنّفس؛ ففي حين أنّ الأغبياء قد لا يعرفون أنّهم أغبياء لأنّهم أغبياء، لا بدّ أن يعرف الأشخاصُ غير الجذّابين أنّهم غير جذّابين بسبب وجود المرايا.

ليس أنّ في انعدام الجاذبيّة أيّة مشكلة. هي غير جذّابة وتعرف ذلك. وكانت تعرف أيضًا أنّ كالفن إيفانز غير جذّاب، وأنّ الكلب القذر الّذي أحضرته إليزابيث إلى المنزل ذات يوم غير جذّاب، وأنّ ثمّة احتمالًا لا بأس به أن يكون طفل إليزابيث المستقبليّ غيرَ جذّاب هو الآخر. لكن لا أحد منهم يتّصف -أو سيتّصف يومًا- بالقبح. إلّا أنّ السّيّد سلون قبيح، وهذا لأنّه عديم الجاذبيّة من الدّاخل. في الواقع، الشّيء الوحيد الّذي يتّصف بجمال المظهر في الحارة بأكملها هو إليزابيث نفسها، وهاربيت كانت تتجنّبها لهذا السّبب بعينه. فكما قالت، الأشخاص الجميلون ليسوا سوى متاعب في متاعب.

لكن لم يلبث أن مات السّيّد إيفانز وبدأ أولئك الرّجال السّخيفون بحقائبهم الجلديّة المعتدّة بنفسها يمرّون على منزل إليزابيث بلا انقطاع، فأدركت أنّها ربّما اكتسبَت شيئًا من عادةِ السّيّد سلون في إطلاق الأحكام. لهذا السّبب ذهبت يومئذٍ لتطمئنّ على إليزابيث. إذ رغم أنّه قد كُتب عليها أن تكون السّيّدةَ سلون إلى الأبد - كونَها كاثوليكيّة، فهي لا تريد أبدًا أن تتحوّل إلى *سيّد* سلون. إضافةً إلى أنّها تعرف كيف يكون حديثو الولادة.

اتّصلي بي، راحت تتوسّل وهي تسترق النّظر عبرَ ستائرها إلى المنزل المقابل: *اتّصلي بي، اتّصلي بي، اتّصلي بي.*

على الطّرف الآخر من الشّارع، كانت إليزابيث قد رفعت سمّاعة الهاتف لتتّصل بهاربيت سلون عشر مرّات خلال الأيّام الأربعة الأخيرة على الأقلّ، لكنّها تفشل كلّ مرّة في إتمام الاتّصال. لطالما ظنّت نفسها إنسانًا ذا كفاءة، لكنّها أدركت عكسَ ذلك فجأةً، بناءً فقط على الوقت القصير الّذي قضته في حضرة هاربيت.

وقفت عند النّافذة ونظرت عبرَ الشّارع، نوعٌ من اليأس يُحكم قبضتَه عليها. لقد أنجبت طفلةً وستظلّ منهمكةً في تربيتها إلى أن تبلغ سنّ الرّشد. ربّاه... *سنّ الرّشد*. من طرف الغرفة المقابل، أعلنَت مادلين أنّ موعد إطعامها قد حان.

«لكنَّكِ تناولتِ الطّعام لتوِّك»، ذكّرتها إليزابيث.

«طيّب، أنا لا أتذكّر»، صرخت مادلين تردّ عليها، لتستهلّ رسميًّا اللّعبةَ الأقلَّ متعةً في العالم: «احزروا ماذا أريد الآن».

إليزابيث لديها مشكلة أخرى: كلّما نظرت في عينَي ابنتها تجد كالفن هو الّذي يردّ النّظرة بمثلها. الأمر يثير الجزع. الحقيقة أنّها ما تزال غاضبة على كالفن - على كذبه عليها في ما يخصّ تمويل بحثها، على نطافه الّتي تحدّت وسائل منع الحمل، على جريِه في الخارج بينما يجري الجميعُ في بيوتهم منتعلين أخفاف باليه. تعلم أنّ غضبها عليه ليس عادلًا، لكن هكذا هي لوعة الفقد: تعسّفيّة. على كلّ حال، لا أحد غيرها يعلم كم هي غاضبة؛ لقد أبقت الأمر بينها وبين نفسها. حسنًا، باستثناء ما حدث خلال المخاض، إذ *ربّما* صاحت آنذاك وقالت أشياء تندم عليها، و*ربّما* انغرزت أظافرُها في ساعد شخصٍ غير معروف مع استبداد الانقباضات الكبرى بها. هي تتذكّر شخصًا غيرها يزعق ويشتم، وهذا بدا غريبًا ومُنافيًا للمهنيّة.

لذلك، بعد وقتٍ قصير من انتهاء كلّ شيء، حين دخلت ممرّضةٌ تحمل كدسة أوراق وسألتها عن شيءٍ ما -كيف تشعر؟- قرّرت أن تخبرها.

«ماد[1]».

«ماد؟»، سألتها الممرّضة.

«أجل، *ماد*»، أجابت إليزابيث، لأنّها كانت كذلك بالفعل.

---

(1) كلمة "Mad" الإنجليزيّة تعني غاضب أو مجنون، والسّياق هنا اقتضى إبقاءها على لفظها. (المترجم)

«هل أنت متأكّدة؟»، سألتها الممرّضة.

«بالطّبع أنا متأكّدة!»

فما كان من الممرضّة -الّتي تشعر بالسّأم من رعاية نساءٍ لا يكنّ في أفضل حالاتهنّ أبدًا (وهذه بالتّحديد حفرَت اسمَها على ذراعها خلال المخاض)- إلّا أن كتبَت «ماد» على شهادة الميلاد وخرجت في مشية متعالية.

وهذا ما كان: الاسم الرّسميّ للطّفلة صار «ماد». ماد زوت.

لم تكتشف إليزابيث القصّة إلّا بعد ذلك ببضعة أيّام في المنزل، حين عثرت بشهادة الميلاد ضمن فوضى أوراق المستشفى الّتي لم تزل مكوّمةً على طاولة المطبخ. «ما هذا؟»، قالت آنذاك، وهي تنظر ذاهلةً إلى الشّهادة ذات الخطوط المنمَّقة: «زوت المجنونة؟ حبًّا بالله! هل سلختُ كلّ هذا القدر من جلدها؟»

عقدت العزم من فورها على تغيير اسم الطّفلة، لكن كانت ثمّة مشكلة. هي كانت تعتقد في الأساس أنّ الاسم المناسب سيُعلن عن نفسه في اللّحظة الّتي ترى فيها وجهَ ابنتها، بيد أنّ ذلك لم يحدث.

والآن، واقفةً في مختبرها، تنظر مُطرِقةً إلى الكومة الصّغيرة الرّاقدة داخل سلّة كبيرة مبطَّنة بالدُّثُر، راحت تدرس معالمَ طفلتِها. «سوزان؟»، قالت بحذر: «سوزان زوت؟». لكنّه لم يبدُ صائبًا. «ليسا؟ ليسا زوت؟ زيلدا زوت؟»، لا شيء. «هيلين زوت؟»، جرّبت. «فيونا زوت. ماري زوت؟»، لا شيء أيضًا. وضعت يديها على وركيها، كأنّها تُحضّر نفسها. «*ماد* زوت»، جازفَت أخيرًا.

رفَّ جفنا الطّفلة واتّسعت عيناها.

من مَعقِلِه تحت الطّاولة، زفرَ ستّة ونصف. لقد أمضى في ملعب الأطفال من الوقت ما يكفيه ليفهم أنّه لا يمكن للمرء أن يسمّي طفلًا أيَّ اسمٍ لا على التّعيين، لا سيّما حين يكون اسم الطّفل قد جاء نتيجةَ سوء تفاهم أو -في حالة إليزابيث- انتقام. برأيه، الأسماء أهمّ من جنس أصحابها، أهمّ من التّقاليد، وأهمّ من وقعِها اللّطيف على الأذن. الاسمُ يعرّفُ الشّخصَ -أو في حالته، الكلب- الّذي يحمله. إنّه رايةٌ شخصيّةٌ يلوّح المرء بها بقيّةَ حياتِه؛ يجب أن يكون صائبًا. مثل اسمِه هو، الّذي تعيّن عليه أن ينتظر أكثر من سنة كي يحظى به. ستّة ونصف. وهل ثمّة اسم أفضل منه؟

«ماد زوت»، سمع إليزابيث تهمس: «لطفك يا الله».

نهض ستّة ونصف ودبَّ على قوائمه إلى غرفة النّوم. على غير علمٍ من إليزابيث، كان يخزّن البسكويت تحت السّرير منذ شهور، وهي ممارسةٌ بدأها عقبَ موت كالفن. ليس لأنّه يخاف أن تنسى إليزابيث إطعامَه، بل بالأحرى لأنّه كان هو الآخر قد توصّلَ إلى اكتشافه الكيميائيّ المهمّ. وجد أنّ الأكل يساعده عندما تواجهه مشكلةٌ جادّة.

ماد، راح يتأمّل وهو يمضغ قطعة بسكويت: *مادج*، *ميري*، *مونيكا*. سحبَ قطعةً أخرى، وراح يقرطها بصخب. إنّه مولعٌ جدًّا ببسكويتِه - نصرٌ آخرُ تُخرجه مطابخُ إليزابيث زوت. هذا جعله يفكّر: *لماذا لا نسمّي الطّفلةَ على اسمِ شيءٍ من المطبخ؟ قِدر. قِدر زوت. أو من المختبر؟ دورق. دورق زوت. أو ربّما شيء يكون معناه الكيمياء - شيء مثل، حسنًا، كيمـ...؟ آه، كيم. مثل كيم نوفاك، ممثّلته المفضّلة من فيلم «الرّجل ذو الذّراع الذّهبيّة». كيم زوت.*

كلّا، اسم «كيم» قصير للغاية.

ثمّ خطر له: *ماذا عن «مادلين»؟* لقد قرأت إليزابيث له «بحثًا عن الزّمن المفقود» – وهو لا ينصح بها للأمانة، لكنّه فهمَ ذلك الجزء بالتّحديد؛ الجزء الّذي يتحدّث عن المادلين. بسكويت المادلين. *مادلين زوت؟ لمَ لا؟*

«ما رأيكَ باسم «مادلين»؟» سألته إليزابيث بعد أن عثرت على كتاب بروست مفتوحًا على نحوٍ يتعذّر تفسيرُه فوق الكوميدينا.

نظر إليها بوجهٍ خالٍ من التّعبير.

المشكلة الوحيدة كانت أنّ تغيير اسمِ ماد إلى مادلين يتطلّب رحلةً إلى مجلس المدينة، وحين تصير هناك، نموذجَ طلبٍ يستلزم شهادةَ زواجٍ والعديدَ من التّفاصيل الأخرى الّتي لم تكن إليزابيث متحمّسةً كثيرًا لمشاركتها. «أتعرف ماذا؟»، قالت إليزابيث وهي تلاقي ستّة ونصف على الدّرج خارجَ المبنى: «سنبقي الأمر سرًّا بيننا. هي ماد رسميًّا، لكنّنا سنناديها مادلين ولا مَن شافَ ولا مَن درى».

مجنونة رسميًّا، قال ستّة ونصف لنفسه: *بالطّبع، خطّة لا غبار عليها.*

الأمر الآخر بشأن ماد: هي تصير اسمًا على مسمًّى وتغضب بحقّ حين يمرّ أحدٌ من جماعة هاستينغز على المنزل. «مغصٌ قولونيّ»، هكذا كان د. سبوك ليشخّص الحالة، لكنّ إليزابيث رأت أنّ السّببَ

قد يرجع إلى موهبة تمتلكها الطّفلة في الحكم على الشّخصيّة، وهذا أثار قلقَها؛ ماذا إذًا سيكون رأيُها بشخصيّة أمّها؟ امرأة لا تكلّم عائلتَها، رفضت الزّواج من رجل تحبّه حتّى أعماقها، فُصلت من وظيفتها، تقضي أيّامها في تعليم كلبِها الكلمات؟ هل ستبدو أنانيّةً أم مختلّةً أم كلتيهما؟

هي ليست متأكّدة، لكن لديها شعورٌ أنّ المرأة في الطّرف المقابل من الشّارع ستعرف. إليزابيث ليست من أتباع الكنائس، غير أنّ في هارييت سلون شيئًا له هالةُ القداسة. إنّها عمليًّا أشبه بكاهن، شخصٍ يستطيع المرءُ أن يعترفَ له بأشياء -مخاوف، آمال، أخطاء- دون أن يتوقّعَ بالمقابل وصفةَ سُذَّجٍ مكوّنةً من الصّلوات والمسابح، ولا لفَّ ودوران أطبّاءٍ نفسيّين جاهزًا: «وكيف يجعلك هذا تشعر؟»، بل حكمة حقيقيّة؛ شرح لكيفيّة التّعامل مع القضيّة المطروحة، طريقة للنّجاة.

رفعَت سمّاعة الهاتف، لا تدري أنّ منظارَ هارييت في هذه اللّحظة يُقِرُّ حركاتِ القرص من نافذتها الأماميّة.

«ألو؟»، ردَّت هارييت بنبرةٍ عَرَضيّة وهي تُقحم منظارَها في موضعه بين طراريح الأريكة: «لقد طلبتُم منزلَ آل سلون».

- هارييت، معكِ إليزابيث زوت.

- أنا قادمة.

الفصل 19

ديسمبر 1956

أكبر المنافع من أن يكون المرء ابنًا لعالِمٍ؟ انخفاض معايير الأمان.

حالما بدأت ماد تمشي، صارت إليزابيث تشجّعها على لمسِ وتذوّقِ ورميٍ ورجٍّ وحرقٍ وتمزيقٍ ودلقٍ وهزٍّ ومزجٍ وطرطشةٍ وشمٍّ ولعقِ كلِّ شيءٍ تصادفه تقريبًا.

«ماد!»، تصيح هارييت كلَّ صباح فورَ دخولها من الباب: «ضعي هذا من يدكِ!»

«يدك!»، تُوافقها ماد، قاذفةً كوبَ قهوةٍ نصفَ ممتلئ إلى الطّرف الآخر من الغرفة.

«لا!»، تصيح هارييت.

«لا!»، توافق ماد.

وبينما تذهب هارييت لإحضار المسحة، تمشي مادلين متمايلةً إلى داخل غرفة المعيشة، تلتقط هذا وترمي ذاك، يداها الصّغيرتان القذرتان تمتدّان أوتوماتيكيًّا نحو كلّ ما هو حادّ وساخن وسامّ، الأشياء الّتي يُبقيها معظم الأهالي بعيدًا عن متناول أطفالهم عمدًا – بالمختصر، الأشياء الأفضل. ومع ذلك، تظلّ على قيد الحياة.

الفضل في هذا يرجع إلى ستّة ونصف. هو موجود دائمًا، يتشمّم الخطر، يسدّ مقابس المصابيح، يتمترس تحت رفِّ الكتب بحيث يكون حين تعتليه -وهذا ما تفعله كلّ يوم تقريبًا- بمثابة وسادةٍ تمتصّ سقوطَها. لقد أخفق مرّةً في حماية شخصٍ يحبّه، وهو لن يخفق من جديد.

«إليزابيث»، توبّخها هارييت: «لا يمكنكِ أن تتركي ماد تفعل ما يحلو لها».

«معكِ كامل الحقّ يا هارييت»، تجيبها إليزابيث دون أن ترفع عينيها عن أنابيب الاختبار الثّلاثة: «ستلاحظين أنّني غيّرت مكان السّكاكين».

«إليزابيث»، تستجديها هارييت: «عليكِ أن تراقبيها، لقد وجدتُها تحبو إلى داخل الغسّالة البارحة».

«لا تقلقي»، تقول إليزابيث وهي ما تزال تحدّق في أنابيب الاختبار: «يستحيلُ أن أبدأ وجبةَ غسيل دون أن أتفقّد أوّلًا».

لكن على الرّغم من حالة التّنبُّهِ المتواصلة الّتي تعيشها، لا تستطيع هارييت التّشكيك في أنّ ماد بدَت تنمو بطريقة لم يَخبرها أيٌّ من أبنائها يومًا. بل ثمّة حتّى ما هو أكثر غرابة: علاقة الأمّ والابنة تتّصف بانسجامٍ لا يسع هارييت أن تتغافل عنه. الطّفلة تتعلّم من الأمّ، لكنّ الأمَّ أيضًا تتعلّم من الطّفلة. الأمر أشبه برابطة توقيرٍ متبادل - يمكن للمرء أن يرى ذلك في نظرةِ ماد إلى إليزابيث حين تقرأ لها، في زقزقتِها حين تهمس لها في أذنها، في إشراقة وجه إليزابيث حين تمزج الطّفلةُ صودا الخَبز بالخلّ، في الطّريقةِ الّتي تتشاركان بها

كلّ ما تفكّران فيه أو تفعلانه طوال الوقت -الكيمياء، المناغاة، الزُّوال- مستخدمتَين أحيانًا نوعًا من اللّغة السّرّيّة يُشعر هارييت أنّها مستبعَدة بعض الشّيء. لا يمكن للمرء -بل لا ينبغي به- أن يكون صديقَ طفلِه، هكذا حذّرت إليزابيث، إذ كانت قد قرأت هذا في إحدى مجلّاتها.

تراقب إليزابيث وهي ترفع ماد إلى حِجرها ثمّ تقرّبها من أنابيب الاختبار المُبقبِقة، فتمتلئ عينا الطّفلة بالعجب. ماذا سمَّت إليزابيث منهجها في التّعليم؟ التّعلُّم التّجريبيّ؟

«الأطفال مثل الإسفنج»، شرحَت إليزابيث لهارييت الأسبوعَ الماضي عندما وبّختها على قراءتها جهرًا لمادلين من *أصل الأنواع*: «وأنا لن أسمح لماد أن تجفّ مبكّرًا».

«جفّ»، راحت ماد تصيح: «جفّ، جفّ، جفّ!»

«لكن من المؤكَّد أنّها لا تستطيع فهمَ كلمةٍ ممّا كتبَه داروين»، جادلَتها هارييت: «ألا يمكنكِ، على الأقلّ، أن تقرئي لها النّسخة الموجزة؟». هارييت لا تقرأ سوى النّسخ الموجزة حصرًا؛ *ريدرز دايجست* هي المادّة المقروءة المفضّلة لديها لهذا السّبب تمامًا - يختصرون الكتب الكبيرة المملّة إلى أحجامٍ قابلة للمضغ مثل أسبرين سانت جوزيف. لقد سمعت ذات مرّة في الحديقة امرأةً تقول إنّها تتمنّى لو تتولّى مجلّةُ *ريدرز دايجست* إيجازَ الإنجيل، فوجدت هارييت نفسها تقول في قرارتها: *أجل... والزّيجات*.

«أنا لا أؤمن بالتّلاخيص»، قالت إليزابيث: «على كلّ حال، أظنّ أنّ ماد وستّة ونصف يستمتعان بهذا».

هذا هو الأمر الآخر - إليزابيث تقرأ لستّة ونصف أيضًا. هارييت تُكنُّ مودّةً كبيرةً لستّة ونصف؛ بل في الحقيقة، تشعر أحيانًا أنّها هي والكلب يتشاركان القلقَ نفسَه حيالَ مقاربةِ «ما سيحدث سيحدث» الّتي تتّبعها إليزابيث في التّربية.

«أتمنّى لو تستطيع أن تكلّمها»، قالت هارييت له أكثر من مرّة: «كانت لتصغي إليك».

أجابها ستّة ونصف بنظرة وتنهيدة. إليزابيث تصغي إليه بالفعل - التّواصل وضوحًا لا يقتصر على المحادثة. ومع ذلك، كان يستشعر أنّ معظم النّاس لا يصغون إلى كلابهم. هذا يُسمّى التّجاهل. أو مهلًا، كلّا، بل الجهل. لقد تعلّم هذه الكلمة لتوّه. بالمناسبة، وهذا ليس بقصد التّبجُّح، لقد وصل عدد كلماته إلى 497.

الشّخص الوحيد -في ما خلا إليزابيث- الّذي يبدو لا يستخفّ بما يمكن للكلاب أن تفهمه، أو ما معنى أن تكون الأمّ عاملة، هو د. ماسون. وها هو يصدق وعيدَه ويمرّ على منزلها بعد نحو عامٍ من الولادة، في الظّاهر كي يرى كيف تسير الأمور، لكنّ السّبب الأوضح هو أنّه يريد تذكيرها بموضوع قاربِه.

«مرحبًا يا آنسة زوت»، قال حين فتحَت الباب في السّابعة والرّبع صباحًا، مشدوهةً لرؤيته هناك، في عتادِ التّجديف، وشعرُه ذو الحلاقة المتدرّجة ما يزال نَديًّا من جولة تجديفٍ شاقّةٍ في ضباب

الصّباح: «كيف الأمور؟ لا أريد أن أخطف الأضواء، لكنّني خضتُ أسوأ جولة تجديف خلقها الله هذا الصّباح». دخل من الباب وتجاوزها، يكافح عكسَ تيّارِ كراكيبِ الطّفولة بأريحيّةٍ حتّى وصل إلى المختبر، وهناك وجد ماد تنسج خطّةَ هروبِها من مقعدِها العالي.

«آه، ها هي ذي!»، قال وقد أشرق وجهُه: «صارت صبيّةً وما تزال على قيد الحياة، ممتاز». انتبه إلى كومة من الحفاضات المغسولة حديثًا، فأخذ واحدًا وبدأ يطوي. «لا أستطيع أن أبقى طويلًا، لكنّني وجدتُ نفسي في الجوار فقلتُ أمرُّ وأطمئنّ»، انحنى ليلقي نظرةً أفضل على ماد: «يا إلهي، إنّها فتاة كبيرة. أظنّ أنّ بوسعنا أن نشكر إيفانز على هذا. كيف حال التّربية؟». لكن قبل أن يتسنّى لإليزابيث أن تجيب، كان قد التقط كتاب أطفال د. سبوك: «سبوك مصدرٌ محترم للمعلومات. إنّه مجدّف، لو تعلمين. لقد فاز بميداليّة ذهبيّة في الأولمبياد عام 1924».

«د. ماسون»، قالت إليزابيث، متفاجئةً من مدى سرورها برؤيته وهي تتنشّق رائحة المحيط العالقة بثيابه: «إنّه لمن بالِغ لطفِك أن تمرّ علينا، لكن...»

- لا تقلقي، لا يمكنني البقاء طويلًا؛ أنا تحت الطّلب. لقد وعدتُ زوجتي أنّني سأبقى مع الولدين هذا الصّباح. أردتُ أن أرى كيف تسير الأمور لا أكثر. تبدين متعَبة يا آنسة زوت، ماذا عن الاستعانة بأحدهم؟ ألديك من يساعدك؟

- جارتي تمرّ علينا.

- ممتاز، قربُ المسافة أمرٌ شديد الأهمّيّة. وماذا عنكِ؟ هل تهتمّين بنفسك جيّدًا؟

- ماذا تعني؟

- أما زلتِ تتمرّنين؟

- حسنًا، أنا...

- على الإرغ؟

- قليـ...

«جيّد. أين هو؟ الإرغ»، اتّجه إلى الغرفة المجاورة، «يا إله السّماء»، سمعَته يقول: «لقد كان إيفانز ساديًّا».

«د. ماسون؟»، نادت تُرجعه إلى المختبر: «تسرّني رؤيتك، لكن لديّ لقاءٌ هنا خلال نصف ساعة وأمامي الكثير ممّا عليّ أن...»

«آسف»، قال وهو يدخل مجدّدًا: «أنا لا أفعل هذا عادةً - أن أقوم بزيارات غير متوقّعة للمرضى بعد التّوليد. بصراحة، إنّني لا أرى أيًّا من مرضاي مجدّدًا إلّا إذا قرّروا زيادةَ تعداد جيوشِهم».

«أتشرّف بهذا»، قالت: «لكن كما قلت لك، أنا...»

«مشغولة»، أكمل لها جملتَها، ثمّ توجّه إلى المجلى وبدأ يجلي الصّحون. «إذًا»، قال: «لديكِ الطّفلة، الإرغ، عملك المستقلّ، بحوثك»، راح يعدّد التزاماتها رافعًا يديهِ المكسوّتين برغوة الصّابون وهو يمرّر عينيه على أنحاء الغرفة، «هذا مختبر محترم بالمناسبة».

- شكرًا لك.

- هل إيفانز هو...

- لا.

- إذًا...

- أنا الّتي بنيتُه. خلال حملي.

هزّ رأسَه متعجّبًا.

«كان لديّ من يساعدني»، قالت تومئ نحو ستّة ونصف، الّذي كان واقفًا عند مقعد ماد مثل حارسٍ ينتظر سقوطَ الطّعام.

«آه، أجل، ها هو ذا. الكلاب تقدّم عونًا هائلًا. أنا وزوجتي وجدنا في كلبنا نوعًا من الدّورة التّجريبيّة قبل إنجاب طفل»، قال وهو يعاين قِدرًا متّسخة: «إسفنجة بريلو؟»

«على يسارك».

«بالحديث عن الدّورات التّجريبيّة»، تابع مضيفًا المزيد من الصّابون: «الوقتُ حان».

- الوقت؟

- وقتُ التّجديف، ها قد مرّ عام.

ضحكت: «هذا مضحك».

استدار لينظر إليها، والماء يتقاطر من يديه على الأرضيّة. «ما المضحك؟»

والآن حان دورُ إليزابيث كي تبدو الحيرة عليها.

- لدينا شاغر، المقعد اثنان. سيُناسبنا أن تعودي إلينا في أقرب ما يمكن. الأسبوع القادم على أبعد تقدير.

- ماذا؟ لا. أنا...

- متعَبة؟ مشغولة؟ ستتذرّعين على الأرجح بعدم امتلاكك وقتًا فارغًا.

- لأنّني لا أملكه فعلًا.

«من ذا الّذي لديه وقت فارغ؟ حياةُ الرّاشدين مُبالَغٌ في تقديرها، ألا توافقينني؟»، قال: «ما إن تحلّي مشكلةً حتّى تظهر عشرٌ بدلًا منها».

«منها!»، صاحت مادلين.

«الشّيء المحترم الوحيد الّذي تعلّمتُه في البحريّة هو قيمة أن أرتّبَ سريري كلَّ صباح. لكن رشّة ماء منعشة على الميمنة قبل بزوغ الفجر؟ هذه تضبط الأمور».

أخذت إليزابيث رشفةً من القهوة فيما كان ماسون مستمرًّا في بعبعتِه. هي تُدرك جيّدًا أنّها بحاجة إلى ما يضبط أمورها. لقد وصلت إلى درجة جديدة في لوعة الفقد: من ندب الرّجل الّذي وقعت في حبّه، إلى ندب الأب الّذي تعلم أنّه كان ليصيره. تحاول جاهدةً ألّا تتخيّل إلى أيّ ارتفاع كان كالفن سيرمي ماد في الهواء، وبأيّة سلاسة كان سيُلقي بها على كتفيه. كلاهما لم يكن يريد أطفالًا، وإليزابيث ما تزال تؤمن إيمانًا متوقّدًا بوجوب ألّا تُرغَم امرأةٌ على إنجاب طفل. ومع ذلك ها هي ذي، أمٌّ عزباء، العالِمة الرّائدة في ما لا بدّ أنّها أكثر التّجارب بُعدًا عن العلوم على مرّ العصور: تنشئة كائن بشريّ آخر.

إنّها في كلّ يومٍ تجد الوالديّةَ أشبه بالخضوع لامتحانٍ لم تدرس له؛ الأسئلة تثير الذّعر والخيارات أقلّ من الكفاية بكثير. من حينٍ إلى آخر، تستيقظ مبلّلةً بالعرق وقد تخيّلَت طرقًا على الباب وشخصًا ذا سلطةٍ من نوعٍ ما يحمل سلّةً فارغةً بحجم طفل رضيع ويقول: «لقد راجعنا للتّوّ التّقريرَ الأخير عن أدائك الوالديّ، وما من طريقة لطيفةٍ لصياغة الأمر. أنت مفصولة».

«لقد حاولت أن أحثّ زوجتي على التّجديف لسنوات»، كان د. ماسون يقول: «أظنّ أنّها ستحبّه، لكنّها تظلّ ترفض ولا بدّ أن أفترض أنّ السّبب يعود جزئيًّا إلى عدم وجود أيّة نساء أخريات يرتَدْنَ مستودع القوارب. أنا لستُ مجنونًا يا آنسة زوت. النّساء يُجدّفن. أنت تجدّفين. وثمّة فرق تجديف نسائيّة».

- أين؟

- أوسلو.

- النّرويج؟

«هذه الصّبيّة»، قال يشير إلى ماد: «سوف تجدّف على الميسرة دون شكّ. أترين كيف تنقل وزنَها إلى اليمين على نحوٍ فطريّ؟»

نظرا كلاهما إلى مادلين، الّتي كانت تحدّق في أصابعها كأنّها فوجئت إذ اكتشفت أنّها ليست كلّها بالطّول نفسه. ليلةَ أمس، حين كانت إليزابيث تقرأ جهرًا من *جزيرة الكنز*، شعرت أنّ ماد تحدّق إليها من موضعها، وشفتاها منفرجتان بفعل الرّهبة. فنظرت بدورها إلى

ابنتها، والرّهبة تملؤها بطريقة مختلفة. لقد مرّ زمن طويل على آخر مرّة أظهر لها فيها أحدٌ هذا النّوعَ من الثّقة الخالصة. شعرت بالحبّ تجاه طفلتها المضلَّلةِ يغمرها مثل انهيارٍ ثلجيّ.

«ستُفاجئك كميّةُ ما يمكنك أن تعرفيه يقينًا عن الطّفل في هذه المرحلة»، كان ماسون يقول: «إنّهم لا ينفكّون يكشفون عن أنفسهم المستقبليّةِ بأصغر الطّرق. ابنتُك هذه مثلًا، إنّها ماهرة في استقراء الجوّ السّائد على الحاضرين».

أومت إليزابيث برأسها. لقد استرقَت النّظر على ماد الأسبوع الماضي خلال وقتِ قيلولتها، فوجدتها جالسةً في مهدها تشرح شيئًا ما بجدّيّة لستّة ونصف. تريّثت إليزابيث، تشاهد متعجّبةً فيما كانت الطّفلة -الّتي تتمايل إلى الأمام والخلف مثل قارورة بولينغ تهدّد أن تنقلب- تلوّح بيديها أثناء زقزقتها بتيّارٍ ثابت من السّواكن والحروف الصّوتيّة الموصولة ببعضها كيفما اتّفق، مثل غسيلٍ منشور على حبل، في إلقاءٍ خطابيّ ينضح شغفًا من النّوع الّذي يوضّح تمامًا أنّها خبيرة في هذا المجال. وكان ستّة ونصف واقفًا بجانب المهد، مستغرقًا، يدسّ خطمَه بين الألواح الخشبيّة، وأذناه تتعقّبان كلَّ مقطعٍ لفظيّ. توقّفت ماد وسطَ نوَسانها للحظةٍ كأنّها أضاعت سلسلةَ أفكارها، ثمّ انحنت إلى الأمام نحو الكلب واستأنفت الكلام. «غاغاغازوزونانوأووأوو»، قالت كما لو تقصد توضيح نقطة معيّنة: «بابادودوبابدو».

إنّ العيش مع طفل، كما أدركت إليزابيث، يشبه قليلًا العيشَ مع زائرٍ من كوكب بعيد. ثمّة مقدار معيّن من الأخذ والعطاء إذ يتعلّم الزّائر خِصالَنا ونتعلّم خصالَه، بيد أنّ خصاله تتلاشى تدريجيًّا وخصالنا

هي الّتي ترسخ. وهذا ما تجده يستدعي الأسف. فعلى عكس الرّاشدين، زائرتُها لم تكن تملّ قطّ حتّى من أصغر الاكتشافات؛ دائمًا ترى السّحرَ في العاديّ. الشّهرَ الماضي، أطلقت ماد زعقةً من غرفة المعيشة، فأفسدَت إليزابيث عملًا استغرق منها ساعةً حين هرعت إليها. «ما الأمر يا ماد؟»، قالت تداهمُ المكانَ مثل طائرة مروحيّة في منطقة حربيّة: «ما خطبك؟»

نظرت ماد إليها، بعينين مُشرَعتين، وهي تمسك ملعقة. *انظري إلى هذا!* بدَت تقول: *وجدتُه هنا! على الأرض!*

«وهو ليس مجرّد تمرين»، كان د. ماسون يقول: «التّجديف أسلوب حياة. ألستُ على حقّ؟»، كان يتكلّم إلى الطّفلة.

«حقّ!»، صاحت ماد تخبّط على صينيّتها.

«بالمناسبة، صار لدينا مدرّب جديد»، قال ملتفتًا إلى إليزابيث: «موهوب جدًّا. لقد حدّثتُه عنك».

«حقًّا؟ وهل أخبرتَه أنّني امرأة؟»

«لا!»، صاحت ماد.

«الفكرةُ يا آنسة زوت»، قال د. ماسون متجنّبًا سؤالَها، وهو يأخذ منشفةً ويبلّلها ثمّ يتّجه إلى مقعد الطّفلة لينظّف بها يدَي ماد الدّبقتَين: «أنّنا نواجه مشكلةً متجدّدة مع المقعد اثنين. بيني وبينك، إنّه مجدّف مريع، ولم يُصبح معنا في القارب إلّا بسبب بعض العلاقات

القديمة من أيّام الكلّيّة. لكن كلّ هذا انتهى في عطلة الأسبوع الماضي حين كسرَ ساقَه في حادث تزلُّج»، حاول إخفاءَ بهجته، «ثلاثة كسور!»

مدّت مادلين ذراعيها فحملها الطّبيب من المقعد.

«يؤسفني سماعُ ذلك»، قالت إليزابيث: «وأنا أقدّر منحي الثّقة. مع ذلك، ليست لديّ الخبرة المطلوبة. أنا لم أركب قاربك إلّا بضع مرّات، وكان ذلك بسبب كالفن».

«آل-فِن»، قالت ماد.

«بل لديك الخبرة المطلوبة طبعًا»، قال د. ماسون متفاجئًا: «حقًّا؟ متدرّبة على يد كالفن إيفانز بشحمه ولحمه؟ في قاربٍ زوجيّ؟ أنا أفضّل هذا النّوع من الخبرة في أيّ وقت على طرطورٍ عملاقٍ كان عضوًا ضمن فريقٍ جامعيّ».

«وأضِف إلى ذلك أنّني مشغولة»، شرحت له من جديد.

«في الرّابعة والنّصف صباحًا؟ ستكونين في المنزل قبل أن تدرك هذه الصّبيّة أنّكِ غادرت أصلًا. *المقعد اثنان*»، أكّد على العبارة كما لو كانت هذه صفقة استثنائيّة لن تظلّ متاحة: «تتذكّرين؟ لقد تناقشنا في هذا».

هزّت إليزابيث رأسَها. كالفن كان يتصرّف بهذه الطّريقة نفسها – يعامل التّجديف على أنّه أولى الأولويّات بديهيًّا. هي تتذكّر صباحًا على وجه التّحديد، حين كان بعض المجدّفين الآخرين في قارب مختلف يعبّرون عن مفاجأتهم أنّ مجدّف المقعد خمسة لديهم لم يأتِ. اتّصل الدّفّاف به في منزله، ليكتشف أنّ المقعد خمسة مصابٌ بحمّى شديدة. «حسنًا، لكنّك ما زلت ستأتي، صحيح؟»، سأله بثقة.

«آنسة زوت»، قال د. ماسون: «لا أقصد أن أضغط عليك، لكنّ الحقيقة أنّنا بحاجة إليك. أعرف أنّني لم أجدّف معكِ سوى بضع مرّات، إلّا أنّني أعلم كيف شعرتُ خلالها. إضافةً إلى أنّ العودة إلى القارب ستجعلك أنتِ تشعرين بتحسّنٍ كبير، ونحن جميعًا»، تابع وهو يفكّر في جولة التّجديف الّتي خاضها هذا الصّباح: «سنشعر بتحسّن كبير. اسألي جارتَك، وانظري إن لم تكن مستعدّةً للبقاء مع الطّفلة».

«في الرّابعة والنّصف صباحًا؟»

«هذا هو الأمر الّذي لا يأخذ حقّه من الاحتفاء في ما يخصّ التّجديف»، قال د. ماسون وهو يهمّ بالمغادرة: «أنّه يحدث في وقتٍ لا يكون فيه أحدٌ مشغولًا بحقّ».

«موافقة»، قالت هارييت.

«لا بدّ أنّك تمزحين»، قالت إليزابيث.

«سيكون الأمر ممتعًا»، أجابت هارييت كما لو أنّ متعة الاستيقاظ في منتصف اللّيل أمر لا يختلف فيه اثنان. لكنّ السّبب الحقيقيّ هو السّيّد سلون. لقد بات يشرب أكثر ويشتم أكثر، والطّريقة الوحيدة الّتي تعرفها للتّعامل مع ذلك هي الابتعاد عنه. «على كلّ حال، هي فقط ثلاث مرّات في الأسبوع».

«الأمر تجريبيّ لا أكثر، فقد لا أجتاز الامتحان».

«ستكونين على ما يرام»، قالت هارييت: «سوف تجتازينه بنجاح باهر».

لكن بينما كانت إليزابيث تسلك طريقَها إلى مستودع القوارب بعد يومين، والجماعات الصّغيرة من المجدّفين النِّعاس الملتمّين على بعضهم يلقون النّظرات عليها متفاجئين، بدأت تشعر أنّ ثقة هاربيت وحاجات د. ماسون مُبالَغٌ فيهما كليهما.

«صباح الخير»، راحت تلقي التّحيّة على المجدّفين عشوائيًّا: «مرحبًا».

«ما الّذي تفعله هذه هنا؟»، سمعت أحدًا يهمس.

«يا يسوع»، قال آخر.

«آنسة زوت»، نادى د. ماسون من الطّرف القصيّ للمستودع: «هنا».

شقّت طريقها بين متاهة الأجساد نحو مجموعة مُشَعَّثة من الرّجال الّذين يبدون كأنّهم تلقّوا لتوّهم خبرًا سيّئًا جدًّا.

«إليزابيث زوت»، قالت بثبات، مادّةً يدَها، فلم يأخذها أحد.

«زوت ستجدّف على المقعد اثنين اليوم»، قال ماسون: «فقد كسر بيل ساقَه».

صَمْت.

«حضرة المدرّب»، قال د. ماسون ملتفتًا إلى رجلٍ ذي مظهرٍ يليق بقاتل: «هذه هي المجدّفة الّتي حدّثتُكَ عنها».

صمت.

«بعضكم قد يتذكّر، لقد جدّفَت معنا من قبل».

صمت.

«هل من أسئلة؟»

صمت.

«هيّا بنا إذًا»، أشار برأسه إلى الدّفّاف.

«أظنّ أنّ الأمور سارت على ما يرام، ألا ترين ذلك؟»، قال د. ماسون لاحقًا وهما يسيران إلى سيّارتيهما. التفتت لتنظر إليه. حين كانت في المخاض يستبدّ بها ألمٌ مروِّع، مقتنعةً أنّ الطّفلة تقبض على أعضائها الدّاخليّة كحقائب سفرٍ كأنّها تريد أن تضمن أن يكون لديها الكثير ممّا ترتديه في الخارج، أخذت تصرخ بعنف شديدٍ اهتزّ له إطارُ السّرير. وما إن مرّت الانقباضات حتّى فتحت عينيها لترى د. ماسون منحنيًا عليها. *أترين؟*، قال آنذاك: *لم يكن الأمر بهذا السّوء، صحيح؟*

راحت تعبث بمفاتيح سيّارتها. «أظنّ أنّ الدّفّاف والمدرّب يخالفانك في الرّأي».

«أوه، ذلك الأمر»، قال يلوّح بيده في حركة لامبالية: «طبيعيّ. كنت أظنّكِ تعرفين. المجدّف الجديد يُلام على كلّ شيء. أنتِ كنتِ تجدّفين مع إيفانز في الأغلب، لذلك لا تفهمين حقًّا التّفاصيلَ الصّغيرة في ثقافة التّجديف. انتظري بضع جولات وسترين».

تمنّت أن يكون صادقًا، لأنّ الحقيقة أنّها أحبّت خروجها إلى الماء من جديد. كانت تشعر بالإرهاق، لكن بطريقة جيّدة.

«ما أجده مثيرًا للاهتمام في التّجديف»، كان د. ماسون يقول: «هو أنّه يتمّ بالعكس دائمًا، كما لو أنّ هذه الرّياضة تحاول أن تعلّمنا عدم استباق الأمور». فتح بابَ سيّارته. «في الواقع، حين تفكّرين في الأمر، يبدو لك التّجديفُ شبيهًا بتربية الأطفال حدَّ التّطابق تقريبًا. كلاهما يتطلّب الصّبر والتّحمّل والقوّة والالتزام، وكلاهما لا يتيح لنا أن نرى إلى أين نحن ذاهبون، بل فقط أين كنّا. أجد هذا مُطَمْئِنًا جدًّا، ألا تتّفقين؟ باستثناء فقدان الاتّزان طبعًا، سيُسعدني لو أنّ ذلك لا يتكرّر كثيرًا».

«تقصد في التّجديف؟»

«ولدى الأطفال»، وضّحَ وهو يدخل إلى سيّارته: «البارحة ضرب أحدُ ولدَيَّ الآخرَ بِمِعوَل».

قصّة حياة

مع أنّها لم تناهز الرّابعة من عمرها بعد، كانت ماد أكبر بنيةً من معظم أبناء الخامسة وتجيد القراءة أفضل من كثيرٍ من تلاميذ الصّفّ السّادس. لكن رغم هذا التّفوّق البدنيّ والفكريّ، مثل أمّها الانعزاليّة وأبيها حمّال الضّغائن، كان أصدقاؤها قليلين.

«أخشى أن يكون الأمر طفرةً جينيّة»، فضفضت إليزابيث لهارييت: «قد تكون موجودة فينا كلينا أنا وكالفن».

«جينة كرهِ النّاس؟»، قالت هارييت: «هل هذا شيء حقيقيّ؟»

«*الخجل*»، صحّحت إليزابيث: «الانطوائيّة. خمّني ماذا: لقد سجّلتُها في روضة الأطفال. العام الدّراسيّ الجديد سيبدأ يوم الاثنين، وفجأةً بدا لي الأمر منطقيًّا للغاية. ماد بحاجة إلى أن تكون بين أطفال، أنتِ قلتِ هذا بنفسك».

كان هذا صحيحًا. لقد عبّرت هارييت عن رأيها هذا على الأقلّ مئة مرّةٍ خلال الأعوام القليلة الأخيرة. مادلين طفلة مبكّرة النّضج لديها قدرات لفظيّة وإدراكيّة استثنائيّة، لكنّ هارييت لم تكن مقتنعة بمكتسباتها في المجالات العاديّة - كيف تربط الحذاء، كيف تلعب

بالدّمى. ذلك اليوم اقترحَت أن يصنعا فطيرةً من الوحل، فعبست ماد، ثمّ كتبَت 3.1415[1] على التّراب باستخدام عصا. «انتهيت»، قالت.

لكن عدا عن ذلك، إن ذهبت ماد إلى المدرسة، ماذا يُفترض بهارييت أن تفعل بيومها؟ لقد اعتادت أن تكون ضروريّة.

«إنّها صغيرة على ذلك»، أصرّت هارييت: «يجب أن تكون في الخامسة على الأقلّ، والأفضل في السّادسة».

«ذكروا هذا»، قالت إليزابيث: «ومع ذلك، لقد قُبِلَت».

ما أغفلت إليزابيث قولَه هو أنّ ذلك لم يكن بسبب ذكاء مادلين، بل لأنّ إليزابيث كانت قد حدّدت التّركيب الكيميائيّ لحبر الأقلام الجافّة وعثرت على طريقة لتعديل شهادة ميلاد مادلين. من النّاحية التّقنيّة، مادلين أصغر بكثير من أن تدخل إلى الرّوضة، لكنّ إليزابيث لا ترى علاقةً للنّواحي التّقنيّة بمسيرة ابنتِها التّعليميّة.

«مدرسة وودي الابتدائيّة»، قالت تناول هارييت ورقة: «السّيّدة مودفورد، قاعة ستّة. أنا أدرك أنّها قد تكون متقدّمة قليلًا على بعض الأطفال الآخرين، لكنّني لا أعتقد أنّها الوحيدة الّتي تقرأ زين غراي[2]، ألا توافقينني؟»

---

(1) لكلمة «فطيرة» والثّابت الرّياضيّ π «باي» اللّفظ نفسه في الإنجليزيّة. (المترجم)

(2) زين غراي (1872 - 1939): مؤلّف أمريكيّ اشتهر بروايات المغامرات الشّعبيّة من أدب الغرب الأمريكيّ. (المترجم)

رفع ستّة ونصف رأسَه متخوّفًا. هو الآخر لم يكن متحمّسًا جدًّا لسماع هذه الأخبار. ماد في المدرسة؟ وماذا عن مهمّته؟ كيف سيستطيع أن يحمي الكائنَ إن كان داخل غرفة صفّ؟

لّمت إليزابيث كوبَي القهوة وأخذتهما إلى المجلى. فكرة التّسجيل في المدرسة المفاجئة هذه لم تكن مفاجئةً تمامًا، فهي ذهبت إلى المصرف قبل عدّة أسابيع لتسحب رهنًا عكسيًّا على البنغل. إنّهم مفلسون، ولو أنّ كالفن لم يضع اسمَها على صكّ الملكيّة -الأمر الّذي لم تكتشفه إلّا بعد وفاته- لكانوا الآن يعيشون على الرّعاية الاجتماعيّة.

كانت لمدير المصرف نظرة متجهّمة في تقييمه لوضعها. «الأمور لن تزداد إلّا سوءًا»، حذّرها: «حالما تصبح طفلتُك كبيرةً بما يكفي، سجّليها في المدرسة. ثمّ ابحثي عن عملٍ يعود عليك بمردود حقيقيّ، أو تزوّجي رجلًا ثريًّا».

عادت إلى سيّارتها وراحت تراجع خياراتها.

سرقة مصرف.

سرقة متجر مجوهرات.

أو ماذا عن هذه الفكرة المقزّزة: العودة إلى المكان الّذي سرقَها.

بعد خمس وعشرين دقيقة كانت تدخل إلى بهوِ هاستينغز؛ يداها ترتجفان، جلدُها دبِق، منظومةُ الإنذار في جسمها تقرع كلَّ الأجراس. تنفَّسَت محاولةً أن تستمدّ القوّةَ من الهواء. «د. دوناتي، من فضلك»، قالت لموظّفة الاستقبال.

«هل سأحبّ المدرسة؟»، سألتها ماد وقد ظهرت من العدم.

«بلا شكّ»، قالت إليزابيث بنبرة غير مقنعة: «ما هذا الّذي معك؟»، أشارت إلى قطعة كبيرة من الورق المقوّى الأسود تقبض مادلين عليها بيدها اليمنى.

«رسمتي»، أجابت وهي تضع الورقةَ على الطّاولة أمام أمّها ثمّ تتكّئ عليها. إنّها رسمة أخرى بالطّبشور، فمادلين تفضّله على ألوان الشّمع. لكن لأنّ الطّبشور يتبقّع بسهولة، كثيرًا ما تكون رسومُها مغبَّشة، كأنّ الأشياء الّتي ترسمها تحاول الخروج من الورق. نظرت إليزابيث إلى الرّسمة لترى بضعة شخوصٍ بشريّة، وكلبًا، وماكينةَ جزٍّ عشب، وشمسًا، وقمرًا، وما قد يكون سيّارة، وأزهارًا، وصندوقًا طويلًا. بدت النّيرانُ تلتهم الجنوب، بينما يسيطر المطر على المشهد في الشّمال. وكان ثمّة شيء واحد بعد: كتلة بيضاء كبيرة تشبه دوّامةً في منتصف الصّفحة تمامًا.

«حسنًا»، قالت إليزابيث: «هذا مميّزٌ حقًّا. من الواضح أنّكِ بذلتِ جهدًا كبيرًا في هذه الرّسمة».

نفخَت ماد خدَّيها كأنّ أمّها لا تملك أدنى فكرة عن ذلك الجهد.

راحت إليزابيث تمعن النّظر في الرّسمة من جديد. كانت تقرأ لمادلين مؤخّرًا كتابًا يتحدّث عن استخدام المصريّين أسطحَ التّوابيتِ الحجريّة ليحكوا حكايةَ حياةٍ انقضت - طلعاتها ونزلاتها ودخلاتها وخرجاتها، كلُّ ذلك منقوشٌ بترميزٍ دقيق. لكنّها، بينما كانت تقرأ، وجدت نفسها تتساءل: هل كان يحدث للرّسّام أن يتشتّت؟ فيرسم أفعى عوضًا عن معزاة؟ وإن كان ذلك، هل يتعيّن عليه أن يترك الأمر

على وضعه؟ ممكن. لكن في المقابل، أليس هذا هو التّعريف الدّقيق للحياة؟ تأقلمٌ مستمرٌّ ناتجٌ عن سلسلة من الأخطاء الّتي لا تنتهي؟ بلى، وهي أَولى أن تعرف.

ظهر د. دوناتي في البهو بعد عشر دقائق. وللغرابة، كاد يبدو مرتاحًا لرؤيتها. «آنسة زوت!»، قال وعانقها، وهي كتمَت أنفاسها في تلك الأثناء، مشمئزّة: «كنتُ أفكّر فيكِ للتّوّ!»

في الحقيقة، لم يكن يفكّر في شيء إلّا زوت.

«حدّثيني عن هؤلاء الأشخاص»، قالت لماد تشير إلى شخوص الرّسمة.

«هؤلاء أنتِ وأنا وهارييت»، أجابت ماد: «وستّة ونصف. وهذه أنت تجدّفين»، قالت تشير إلى الشّيء الشّبيه بالصّندوق، «وهذه ماكينة العشب خاصّتنا. وهنا توجد نار. وهؤلاء بعض الأشخاص الآخرين. هذه سيّارتنا. والشّمس تشرق، ثمّ يطلع القمر، ثمّ الأزهار. فهمتِ؟»

«أظنّ ذلك»، قالت إليزابيث: «إنّها قصّة عن فصول السّنة».

«لا»، أجابت ماد: «إنّها قصّة حياتي».

أومأت إليزابيث برأسها تتظاهر أنّها فهمت. ماكينة جزّ عشب؟

«وما هذا الجزء؟»، سألتها إليزابيث تشير إلى الدّوّامة الّتي تتسيَّدُ الرّسمة.

«هذه حفرة الموت»، قالت ماد.

اتّسعت عينا إليزابيث من القلق. «وهذا؟»، أشارت إلى مجموعة من الخطوط المائلة، «مطر؟»

«دموع»، قالت ماد.

نزلت إليزابيث على ركبتيها، فصارت عيناها في سويّةِ عينَي ماد: «هل أنتِ حزينة يا عزيزتي؟»

وضعت ماد يديها الصّغيرتين الملطّختين بالطّبشور على جانبَي وجهِ أمّها: «لا، لكنّكِ أنت حزينة».

بعد أن خرجت ماد كي تلعب، قالت هارييت شيئًا بخصوص «من أفواه الأطفال»، لكنّ إليزابيث تظاهرت أنّها لم تسمع. كانت تعي من الأساس أنّ ابنتها قادرة على قراءتها مثل كتاب. سبق ولاحظت هذا؛ كيف تستطيع ماد استشعار هذه الأشياء الّتي يريد الجميع إخفاءها بالضّبط. «هارييت لم تحبّ يومًا»، قالت دون تمهيد على العشاء الأسبوعَ الماضي. «ستّة ونصف ما يزال يشعر أنّه المسؤول»، قالت متنهّدةً على الفطور. «د. ماسون سئم من المهابل»، ذكرَت عرَضًا قبل النّوم.

«أنا لستُ حزينةً يا هارييت»، كذبت: «في الواقع، لديّ أخبار رائعة. هاستينغز عرضوا عليّ وظيفة».

«وظيفة؟»، قالت هارييت: «لكن لديك وظيفة – وظيفة تتيح لكِ أن تعملي وتربّي ماد وتنزّهي ستّة ونصف وتُجري بحوثَكِ وتجدّفي. كم من النّساء تستطيع أن تقول ذلك؟»

ولا واحدة، قالت إليزابيث في قرارتها، وهذا يتضمّنها هي نفسها أيضًا. جدولُها الّذي لا يتوقّف يقتلها، انعدامُ دخلِها يهدّد عائلتَها، وتقديرُها لذاتِها انحدرَ إلى مستوًى جديدٍ كلّيًّا من التّدنّي.

«هذا لا يعجبني»، قالت هارييت، غيرَ سعيدةٍ بموضوع المدرسة، الّذي سيسلبها غايتَها: «بعد الطّريقة الّتي عاملوكِ بها أنتِ والسّيّد إيفانز؟ سيّئٌ بما يكفي أنّك تتذلّلين لكلّ أولئك الحمقى الّذين يمرّون عليكِ هنا».

«العلوم لا تختلف عن غيرها من المجالات»، قالت إليزابيث: «البعض أفضل فيها من البعض الآخر».

«هذه هي الفكرة الّتي أشير إليها»، قالت هارييت: «من بين كلّ فروع المعرفة، ألا ينبغي بالعلوم تحديدًا أن تكون قادرةً على تخليص نفسها من نكراتها؟ أليست هذه صفقة داروين؟ أن يفارقنا الضّعفاءُ في النّهاية برائحةٍ طيّبة؟». لكن كان بوسعها الجزم أنّ إليزابيث لا تصغي.

«كيف حال الطّفلة؟»، سألها دوناتي وهو يأخذها من ذراعها ويقودها نحو مكتبه. ثمّ ألقى نظرةً إلى الأسفل، ففوجئ إذ رأى أصابعها مضمّدةً كما كانت حين غادرت.

ردّت زوت عليه بشيء ما، لكنّه كان مشغولًا بحسابات حركته التّالية أكثر من أن ينتبه لما تقوله. طوال السّنوات المجيدة القليلة الأخيرة، كان مرتاحًا من ثنائيّة زوت-إيفانز، ولهذا السّبب كانت

الأمور أفضل. ليس من حيث الفتوحات العلميّة الفعليّة، لكنّ الأمور كانت تسير على نحوٍ هانئ. حتّى ذلك الأحمق، بوريفايتس، بدا قد تَحَصّلَ على دماغٍ أكبر. يكاد يبدو أنّ الأمر تطلّب موتَ إيفانز ومغادرة زوت كي يُتاح لبقيّة كيميائيّيه أن يزدهروا.

لكن مع ذلك، ثمّة شوكة واحدة كبيرة تنخز جنبَه. المستثمر الدّسم. لقد عاد، وأراد أن يعرف ما الّذي كان السّيّد زوت يفعله بنقوده طوال هذا الوقت بحقّ الجحيم، وأين الأوراق البحثيّة؟ الاكتشافات؟ النّتائج؟

أطلّ يحدّق من النّافذة فيما راحت زوت تثرثر وتثرثر عن تفاعلٍ غير متوقّعٍ لشاردةٍ موجبة. ربّاه، كم العلوم بليدة. سعلَ محاولًا تمويهَ عدم انتباهه. يكاد موعد الكوكتيل يحلّ؛ بوسعه أن يغادر قريبًا. تذكّر أيّامَ الكلّيّة الّتي انصرمت منذ زمنٍ طويل؛ آنذاك أثنى أحدُهم على شراب المارتيني الّذي يُعدّه ومذاقِه المزّ بدرجة إضافيّة. وفجأةً خطرَت له الفكرة – لماذا لا يعمل ساقيًا؟ إنّه يحبّ الشّرب، وهو ماهر في ذلك. المشاريب الّتي يعدّها تُسعِد الآخرين، أي تُسكرهم. أضف إلى ذلك أنّ فنون مزجِ المشاريب فيها نفحةٌ من العلوم. أين المساوئ في ذلك؟ الرّاتب؟

بالحديث عن الرّواتب، ميزانيّتُه لا تتيح مجالًا لتوظيف زوت – صفر. لكن عليه أن يفعل ذلك: هو يحتاج إليها لأنّ المستثمر يحتاج إليها – أو بالأحرى، المستثمر يحتاج *إليه*، السّيّد زوت، هو ونشوئه اللّاحيويّ اللّعين. ويبدو أنّه يزداد إلحاحًا بهذا الخصوص للأمانة. إنّه يتملّص من مكالمات الرّجل منذ شهور. وقد وصل أخيرًا إلى مرحلة

اليأس، فسأل فريقَه إذا ما كان أحدٌ قد أنجز أيَّ عملٍ يحطّ ولو على بعد عشرة أقدام من الموضوع. ومن الّذي رفع يدَه يا ترى؟ بوريفايتس.

المشكلة الوحيدة كانت أنّ بوريفايتس لم يستطع شرحَ بحثِه، وحينئذٍ نالَ الشّكُّ من دوناتي فكشف بوريفايتس له أنّه صادفَ زوت وتناقشا في النّشوء اللّاحيويّ و... يا لغرابة هذا! كانت نتائجهما متماثلة.

«أريد أن أسجّل رأيي وأقول إنّ قبولَ وظيفةٍ لدى هاستينغز خطأ كبير»، قالت هارييت وهي تنشّف كوبَي القهوة.

«الثّانية ثابتة»، أصرّت إليزابيث.

أخطأت العدَّ بفارقٍ واحد، قال ستّة ونصف في قرارته.

إ. ز.

احتفل قسمُ الكيمياء بعودة إليزابيث بواسطة مريول مخبريٍّ جديد.

«إنّه هديّة منّا كلّنا»، قال دوناتي: «لنظهر لكِ كم افتقدناك». متفاجئةً من البادرة، قبلت الهديّةَ بلهفة، فارتدت المريولَ الأبيض وسط تصفيقٍ متبعثر تلَتهُ بضع قهقهات صاخبة. أطرقت تنظر إلى التّطريز فوقَ الجيب؛ حيث كُتِبَ في السّابق «إ. زوت»، بات مكتوبًا الآن «إ. ز.»[1] فقط.

«أعجبكِ؟»، قال د. دوناتي يغمز بعينه. «بالمناسبة»، ثنى إصبعَه يشير إليها أن تتبعه إلى مكتبه: «أخبرتني العصفورة أنّك ما زالتِ تتابعين موضوع النّشوء اللّاحيويّ».

تراجعت إليزابيث إلى الخلف. هي لم تخبر أحدًا عن بحثها. الشّخص الوحيد على الإطلاق الّذي يمكن أن يعلم هو بوريفايتس، وليس هذا إلّا لأنّ ماد استيقظت من قيلولتها في زيارته الأخيرة، ولمّا رجعت وجدت بوريفايتس جالسًا إلى مكتبها يقلّب في ملفّاتها. «ما الّذي *تفعله*؟»، سألته حينئذٍ مصدومة.

---

(1) اللّفظ الأمريكيّ لهذين الحرفين مماثل للفظ "easy"، أي «سهلة المنال». (المترجم)

«لا شيء يا آنسة زوت»، أجابَها وقد بدا واضحًا أنّ نبرتها جرحَته.

«لديّ شيءٌ سيصدر أنا نفسي»، قال دوناتي مستقرًّا خلف طاولة مكتبه: «سيكون في *ساينس جورنال* قريبًا».

«ما الموضوع؟»

«ليس شيئًا يكسّر الدّنيا»، أجاب رافعًا كتفيه: «أشياء تتعلّق بالحمض النّوويّ الرّيبوزيّ. تعرفين كيف تجري الأمور: علينا أن ننشر شيئًا من آنٍ إلى آخر أو ندفع الثّمن المهنيّ. لكنّني مهتمٌّ بموضوعكِ أنت. متى يمكنني أن أقرأ ورقتك؟»

«ما تزال لديّ بضعة أشياء أركّز عليها»، أجابت: «لو أمكن أن يُسمَح لي بالتّركيز على هذا الموضوع وحده دون تعطيل للأسابيع السّتّة القادمة، لا بدّ أن يجهز شيءٌ أقدّمه إليك».

«التّركيز على *عملكِ* وحده؟»، قال متفاجئًا: «هذا يبدو أقرب إلى شيءٍ قد يقوله كالفن إيفانز، أليس كذلك؟»

لدى ذكر اسم كالفن، جمد وجهُ إليزابيث.

«أنا واثقٌ أنّك تتذكّرين أنّ هذه ليست الطّريقة الّتي يعمل بها هذا القسم»، كان دوناتي يقول: «نحن نساعد بعضنا هنا. إنّنا فريق. على قارب واحد»، أضاف ساخرًا. كان قد سمعها تقول لأحد الكيميائيّين الآخرين إنّها ما تزال تجدّف. طيّب، ربّما لو لم تكن تجدّف، لكانت قد تقدّمت أكثر في موضوعها. رغم أنّه تصفّح الملفّات الّتي

جلبَتها بالفعل وصُدِمَ إذ أدرك أنّها متقدّمة أكثر بكثير ممّا بدا بوريفايتس يدركه. هذا الرّجل أحمق.

«هاك»، قال دوناتي وهو يناولها كدسةً ضخمةً من الأوراق: «ابدئي بطباعة هذه على الآلة الكاتبة. وأيضًا، لدينا نقص في القهوة. وتكلّمي إلى كلٍّ من الرّفاق، انظري ما يحتاجون إليه من مساعدة».

«مساعدة؟»، قالت إليزابيث: «لكنّني كيميائيّة، ولستُ فنّيّة مختبر».

«كلّا، أنتِ فنّيّة مختبر»، قال دوناتي بحزم: «لقد غبتِ عن المجال لمدّة. لستِ تظنّين طبعًا أنّ بوسعكِ الدّخولَ علينا واستعادةَ وظيفتِك القديمة بكلّ بساطة - ليس بعد سنوات قضيتِها في الجلوس وتدويرِ إبهاميك. لكن إليكِ الصّفقة: اعملي بجدٍّ وسوف نرى».

«لكن ليس هذا ما تناقشنا فيه».

«*أعصابكِ* يا لذيذة»، قال يلوي شدقَيه: «ليس الأمر...»

«*ماذا* ناديتَني؟»

لكن قبل أن تتسنّى له الإجابة، دخلَت سكرتيرته تذكّره باجتماع.

«انظري»، قال ملتفتًا من جديد إلى إليزابيث: «كنتِ تتمتّعين بمنزلةٍ أثيرةٍ حين كان إيفانز هنا، والعديد من الأشخاص لم يغفروا لكِ هذا. لكن هذه المرّة، سنحرص أن يعرف الجميعُ أنّكِ كسبتِ مكانكِ باستحقاق. أنتِ فتاةٌ لامعة يا ليزا. هذا ممكن».

«لكنّني كنتُ أعوّل على راتبِ الكيميائيّين يا د. دوناتي. لا يمكنني أن أتدبّر أموري ماليًّا بوظيفةِ فنّيّة مختبر، فلديّ طفلةٌ أعيلها».

«بهذا الشّأن»، قال ملوّحًا بيده: «لديّ أخبار جيّدة؛ لقد طلبتُ من هاستينغز تمويلَ متابعتك للتّعليم».

«حقًّا؟»، قالت مذهولة: «هاستينغز سيدفعون لي تكاليف الدّكتوراه؟»

نهض دوناتي واقفًا، ومطّط ذراعيه فوق رأسه كأنّه أنهى تمرينًا لتوّه. «لا»، قال: «ما قصدتُه هو أنّني أظنّك قد تستفيدين من تعلّم الكتابة الاختزاليّة - الإملاء. عثرتُ لكِ على دورةٍ بالمراسلة»، أضاف وناولها كُتَيّبًا، «الجميل في الأمر، أنّك تستطيعين القيام بذلك في المنزل خلال وقت فراغك».

عادت إليزابيث إلى مكتبها، وقلبها يتخبّط داخل صدرها. صفقَت الملفّات على المكتب، ثمّ توجّهت مباشرةً إلى حمّام السّيّدات، وهناك اختارت الكبينةَ الأبعد عن الباب وأقفلت على نفسها. هارييت كانت على حقّ. *ما الّذي فعلَته؟* ... لكن قبل أن يتسنّى لها حتّى أن تبدأ في تأمّل السّؤال، سُمع صوتُ خبطٍ من الكبينة المجاورة.

«مرحبًا؟»، قالت إليزابيث.

توقّف الخبط.

«مرحبًا؟»، جرّبَت إليزابيث من جديد: «هل كلّ شيء على ما يرام؟»

«خلّيكِ في حالك»، ردَّ صوتٌ.

تردّدت إليزابيث، ثمّ جرّبَت مجدّدًا: «هل تحتاجين...»

«هل أنتِ طرشاء؟ دعيني وشأني بحقّ الجحيم!»

سكتَت. كان الصّوتُ مألوفًا. «آنسة فراسك؟»، سألت وهي تتخيّل سكرتيرة شؤون الموظّفين الّتي أذاقَتها الأمرَّين لدى وفاة كالفن قبل سنوات: «هل هذه أنتِ يا آنسة فراسك؟»

«من الّذي يسأل بحقّ الجحيم؟»، أتاها الصّوت المتحفّز للقتال.

«إليزابيث زوت. قسم الكيمياء».

«يا ليسوع المسيح. زوت. من بين كلّ النّاس». مرّت لحظةٌ طويلة من الصّمت.

كانت الآنسة فراسك، وهي الآن في الثّالثة والثّلاثين من عمرها، قد سلكت طائعةً -طوالَ السّنوات الأربع الماضية- كلَّ دربٍ يمكن أن يَعِدَ بالتّرقية؛ من الإفراط في تملّق هاستينغز، إلى التّجسّس على أقسام محدّدة، إلى تحرير عمودِ نمائم داخليٍّ يُسمّى «سمعتَها منّي أوّلًا»... ومع ذلك لم تحظَ بترقية. بل في الواقع، هي الآن تعمل تحت إمرةِ موظّفٍ عُيِّنَ مؤخّرًا - خرّيج جديد في الحادية والعشرين لا يمتلك مهارات تُذكَر باستثناء صُنع سلاسل من قصاصات الورق. أمّا بالنّسبة إلى إيدي، الجيولوجيّ الّذي نامَت معه لتُثبتَ أنّها مؤهّلةٌ للزّواج، فقد تركَها قبل عامين من أجل عذراء. وأحدثُ صفعةٍ تلقَّتها اليومَ على وجهها: رئيسُها الصّبيُّ الجديد أعطاها خطّةً من سبع خطوات للتّحسّن. البند الأوّل: اخسري عشرين باوندًا من وزنك.

«إذًا فقد رجعتِ حقًّا»، قالت فراسك من كبينتها: «مثل البنس المعطوب الّذي يتحدّث عنه المَثَل[1]».

- أستميحكِ عذرًا.

- أحضرتِ الكلبَ أيضًا؟

- لم أفعل.

- صرنا نتّبع القواعد إذًا، أليس كذلك يا زوت؟

- كلبي يكون مشغولًا بعد الظّهيرة.

«كلبكِ يكون مشغولًا بعد الظّهيرة»، قلبَت فراسك عينيها.

«لديه من يُحضره من المدرسة».

غيّرت فراسك وضعيّتَها على المقعد. هذا صحيح - صار لدى زوت ولد الآن.

- آه، صبيٌّ أم بنت؟

- بنت.

برمَت فراسك بكرةَ المناديل. «يؤسفني سماع *هذا*».

في كبينتها، نظرت إليزابيث بإمعان إلى بلاط الأرضيّة. هي تعرف تمامًا ما تعنيه فراسك. في أوّل يومٍ لماد في المدرسة، تفرّجت برعبٍ على المدرّسة -امرأة منتفخة العينين ذات شعرٍ مجعّدٍ كريه

(1) «البنس المعطوب يرجع دائمًا» - مثَلٌ في الإنجليزيّة. (المترجم)

الرّائحة- وهي تهمّ بغرز زهرةٍ ورديّةِ اللّون في بلوزة ماد، كُتبَ عليها: الأبجديّة ممتعة!

«أيمكنني الحصول على زهرة زرقاء بدلًا من هذه؟»، سألَت مادلين حينها.

«لا»، أجابتها المدرّسة: «الأزرق للصّبيان والورديّ للبنات».

«هذا غير صحيح»، قالت مادلين.

نقلَت المدرّسة -واسمُها السّيّدة مودفورد- نظرتَها من مادلين إلى إليزابيث، محدّقةً في الأمّ ذات الجمال الزّائد كأنّها تشير بالبنان إلى مصدر السّلوك السّيّئ. ثمّ ألقَت نظرة على بنصر إليزابيث الخالي: بطلَ العجب.

«إذًا، ما الّذي أعادَكِ إلى هاستينغز؟»، سألتها فراسك: «جولة تسوّقٍ للبحث عن عبقريٍّ جديد؟»

«النّشوء اللّاحيويّ».

«أوه، صحيح»، قالت فراسك ساخرة: «الأسطوانة القديمة نفسها. كنتُ قد سمعتُ أنّ المستثمر عاد، ثمّ آبرا كدابرا! ها أنتِ ذي. لن أقول سوى شيء واحد: أنتِ سهلةُ التّوقُّع. غير أنّكِ على الأقلّ تطاردين رجلًا أكثرَ ثراءً هذه المرّة. لكن، والكلامُ بيننا، أليست سنّه كبيرة عليكِ بعضَ الشّيء؟»

- لستُ أفهمُك.

- لا تتظاهري بالحشمة.

أطبقَت إليزابيث فكّيها: «ما كنتُ لأستطيع ولو أردت».

فكّرت فراسك في الأمر. صحيح. زوت ليست من النّوع الّذي يتظاهر بالحشمة. هي بليدة، ساهية، مثل ذلك اليوم حين احتاجت إلى من يخبرها أنّ كالفن قد ترك لها هديّة وداع - هديّة صارت (كيف يمكن هذا؟) تذهب إلى المدرسة والكلبُ يُرجعها إلى البيت. ما أسرع الزّمن!

«الرّجل»، قالت فراسك: «الّذي أعطى هاستينغز منحةً ضخمة لتمويل النّشوء اللّاحيويّ بناءً على عملك؟ أو بالأحرى، عمل السّيّد إ. زوت».

- ما الّذي تتحدّثين عنه؟

- تعرفين حقَّ المعرفة يا زوت. أيًّا يكن، لقد عاد الرّجل الثّريّ، وسبحان الله، *أنتِ أيضًا*. أظنّكِ ربّما تكونين المرأة الوحيدة في هاستينغز -من بين ثلاثة آلاف موظّف، لعلمِك- الّتي ليست سكرتيرة. لا أستطيع أن أتخيّل كيف أمكن حدوث *هذا*. ومع ذلك، حاولتِ أن تنتحلي شخصيّة رجل. أهنالك أيُّ مستوًى لستِ مستعدّةً للانحطاط إليه؟ بالمناسبة، هل تعرفين لماذا يقول المعهد إنّنا نحن السّيّدات لسنا استثمارًا جيّدًا؟ لأنّنا نظلّ نترك كلّ شيءٍ وننجب الأطفال. كما فعلتِ *أنت*.

«أنا *فُصِلت*»، قالت إليزابيث وقد امتلأ صوتُها حنقًا: «والفضل في ذلك يعود -في جزءٍ منه- إلى نساء مثلك»، أضافت بانفعال: «نساء يسترضين...»

- أنا لا أسترضي...

- يُسايرنَ...

- أنا لا أساير...

- نساءٌ يبدو أنّهنّ يرينَ قيمتهنّ الذّاتيّة مرهونة بما يظنّه الرّجال...

- كيف تجرئين...

«لا!»، صاحت إليزابيث، تخبّط على اللّوح الفولاذيّ الرّقيق الفاصل بينهما: «بل كيف تجرئين *أنتِ* يا آنسة فراسك! كيف تجرئين *أنت*!». نهضت واقفة وفتحت باب كبينتها، ثمّ اتّجهت إلى المغسلة بخطوات واسعة، وأدارت مسكةَ الحنفيّةِ بقوّةٍ جعلتها تنقلع بيدها، فاندفع الماءُ وغرّقَ مريولها. «اللّعنة!»، صاحت: «اللّعنة!».

«يا يسوع»، قالت فراسك الّتي انبثقت بجانبها من العدم: «دعيني أنا». دفعَت إليزابيث إلى اليسار، ثمّ انحنت وأغلقت سِكرَ الماء تحت المغسلة. ولدى انتصابها واقفة، كانت المرأتان تتقابلان وجهًا لوجه.

«أنا لم أتظاهر يومًا أنّني رجلٌ يا فراسك!»، صاحت إليزابيث وهي تطبطب على مريولها بمنديل ورقيّ.

- وأنا لا أسترضي!

- أنا عالمة كيمياء. لستُ *امرأةً* تعمل في علم الكيمياء. *عالمة كيمياء*، مثلي مثل أيّ رجل. بل وعالمة ماهرة!

«طيّب، وأنا خبيرة شؤون موظّفين! وكدتُ أكون عالمة نفس!»، صاحت فراسك.

- *كدتِ* تكونين عالمة نفس؟

- اخرسي.

«كلّا، حقًّا»، قالت زوت: *«كدتِ؟»*

«لم أحظَ بفرصة كي أتمّ دراستي، حسنًا؟ ماذا عنكِ أنت؟ لماذا لم تحصلي على دكتوراه يا زوت؟»، ردّت فراسك على الفور.

تصلّبَت ملامحُ إليزابيث، ودون أن تقصد، كشفَت حقيقةً تخصّها لم يسبق أن أخبرت بها أحدًا باستثناء ضابط شرطة. «لأنّني تعرّضتُ لاعتداءٍ جنسيٍّ من قِبل مشرف رسالتي، ثمّ طُرِدتُ من برنامج الدّكتوراه»، صاحت: *«وأنتِ؟»*

نظرت فراسك إليها مصعوقة. «مثلك»، أجابت بنبرةٍ رخوة.

الفصل 22

الهديّة

«كيف كان اليومِ الأوّل بعد العودة؟»، سألت هارييت إليزابيث فورَ وصولها إلى المنزل.

«لا بأس»، كذبت. «ماد»، قالت وهي تنحني لتأخذ ابنتَها بين ذراعيها: «كيف كانت المدرسة؟ هل كانت ممتعة؟ هل تعلّمتِ شيئًا جديدًا؟»

«لا».

«بالتّأكيد تعلّمتِ»، قالت: «احكي لي».

وضعت مادلين كتابَها من يدها. «حسنًا. بعضُ الأولاد يعجزون عن ضبط أنفسهم».

«رحماكَ يا الله»، قالت هارييت.

«لقد كانوا متوتّرين وحسب على الأرجح»، قالت إليزابيث تمسّدُ شعرَ مادلين: «البدءُ بالأشياء الجديدة يمكن أن يكون صعبًا».

«وكذلك»، قالت مادلين: «السّيّدة مودفورد تريد أن تراكِ»، مدّت لها ورقةَ ملاحظة.

«جيّد»، قالت إليزابيث: «هذا ما يفعله المدرّسون الاستباقيّون».

«ما معنى «استباقيّون»؟»، سألتها مادلين.

«ورطة»، تمتمت هارييت.

شقّت إليزابيث طريقَها إلى شؤون الموظّفين بعد بضعة أسابيع.

«أيمكنكِ إعطائي معلومات عن ذلك المستثمر؟»، سألت الآنسةَ فراسك: «أيّ شيء لديك».

«لمَ لا؟»، قالت فراسك وهي تسحب حافظةَ ملفّاتٍ نحيلةً من قسم المحاسبة خُتمت عليها كلمة "سرّيّ". «لقد ازددتُ باوندين الأسبوعَ الماضي».

«هل ثمّة المزيد؟»، سألتها إليزابيث تقلّب أوراقَ الملفّ: «ما من شيء هنا».

«تعلمين كيف هم الأثرياء يا زوت. متحفّظون. لكن لمَ لا نتناول الغداء معًا الأسبوع القادم؟ هذا سيتيح لي المزيد من الوقت للتّنقيب في الملفّات».

لكن حين أتى الأسبوع القادم، الشّيء الوحيد الّذي جلبَته فراسك كان شطيرة.

«لم أستطع إيجاد شيء»، اعترفت فراسك: «وهذا غريبٌ بالنّظر إلى الطّنّة والرّنّة حول زيارته الأخيرة. ما يعني على الأرجح أنّه قرّر أخذ نقودِه إلى مكان آخر؛ هذا يحدث طوال الوقت. بالمناسبة،

كيف تسير وظيفة فنيّة المختبر؟ هل وصلتِ إلى التّفكير في الانتحار أم ليس بعد؟».

«**كيفَ علمتِ عن هذا؟**»، **قالت إليزابيث وقد بدأ عرقٌ في** صدغها ينبض.

«أنا أعمل في شؤون الموظّفين، تتذكّرين؟ نحن نعرف كلّ شيء، ونرى كلّ شيء. أو في حالتي، كنتُ أعرف كلّ شيء، وكنتُ أرى كلّ شيء».

«ماذا تقصدين؟»

«أنا الّتي فُصلت هذه المرّة»، أجابت فراسك بنبرة تقريريّة: «سأغادر الجمعة المقبلة».

- ماذا؟ *لماذا؟*

- أتتذكّرين خطّة الخطوات السّبع للتّحسّن؟ أن أخسر عشرين باوندًا؟ لقد ازددتُ سبعة.

«لا يمكن أن يتمّ فصلك بسبب ازدياد وزنك»، قالت إليزابيث: «هذا غير قانونيّ».

انحنت فراسك إلى الأمام وضغطت على ذراع إليزابيث: «ربّاه، أتعلمين؟ أنا لا أملّ أبدًا من سذاجتك».

«أنا جادّة»، قالت إليزابيث: «عليكِ أن تقاومي يا آنسة فراسك، لا يمكنكِ تركهم يفعلون هذا».

«حسنًا»، قالت فراسك متّخذةً نبرةً جدّيّة: «بصفتي مسؤولة مهنيّة في شؤون الموظّفين، أنا دائمًا أؤيّد حديثًا من القلب إلى القلب مع الرّئيس، يشير فيه المرء إلى إنجازاته، ويركّز على الآثار المستقبليّة الّتي ستعود عليه».

«هذا هو».

«أنا أمزح»، قالت فراسك: «هذا لا ينجح أبدًا. على كلّ حال، لا تقلقي، فلديّ منذ الآن مجموعة من عروض التّوظيف المؤقّتة على الآلة الكاتبة تنتظرني. لكن قبل أن أغادر، عندي هديّة صغيرة من أجلك. شيءٌ للتّكفير عن كلّ الأسى الّذي سبّبتُه بعد وفاة السّيّد إيفانز. لماذا لا تلاقيني يوم الجمعة عند المصعد الجنوبيّ، في السّاعة الرّابعة؟ أعدكِ ألّا يخيب أملك».

«عبرَ هذا الدّهليز»، قالت فراسك حين حلّ أصيلُ الجمعة: «انتبهي إلى خطواتك، فقد هربت مجموعة فئران من مختبر البيولوجيا». استقلّت المصعدَ هي وإليزابيث إلى القبو، ثمّ سارتا في ممرٍّ طويل حتّى وصلتا إلى بابٍ كُتب عليه "ممنوع الدّخول". «ها قد وصلنا»، قالت فراسك بمرح.

«ما هذا المكان؟»، سألتها إليزابيث وهي تحدّق إلى صفٍّ من الأبواب الفولاذيّة الصّغيرة المرقّمة من واحد إلى تسعة وتسعين.

«مستودع»، قالت فراسك وهي تُخرج مجموعةَ مفاتيح: «معكِ سيّارة، صحيح؟ وصندوقها كبير وخالٍ؟». أخذت تقلّب في المفاتيح

إلى أن وجدت المفتاح رقم واحد وأربعين، فأدخلته في القفل، ثمّ دعَت إليزابيث كي تنظر إلى الدّاخل.

أعمال كالفن. في صناديق مختومة.

«يمكننا أن نستخدم هذه العربة»، قالت فراسك وهي تجرّها: «هي ثمانية صناديق في المجمل. لكن علينا أن نُسرع؛ يجب أن أسلّم هذه المفاتيح قبل الخامسة».

«هل هذا قانونيّ؟»

مدّت الآنسة فراسك يديها إلى الصّندوق الأوّل: «هل يهمّنا؟»

استديوهات كي سي تي في

بعد شهر واحد

يعمل والتر باين في مجال التّلفزة منذ بداية طريقه تقريبًا. كانت فكرةُ التّلفاز تعجبه؛ كيف أنّه يتعهّد للنّاس بمَهْرَبٍ من الحياة اليوميّة. ولهذا اختاره، فمن ذا الّذي لا يريد أن يهرب؟ هو عن نفسه يريد.

لكن مع مرور السّنين، بدأ يشعر كأنّه السّجين الّذي أوكِلت إليه مهمّةُ حفر نفق الهروب المستمرّة. وفي نهاية اليوم، حين يتدافع بقيّة السّجناء فوقَه نحو الحرّيّة، يتخلّف هو عنهم والملعقة في يده.

مع ذلك، ظلّ يتابع لنفس السّبب الّذي يجعل الكثير من النّاس يتابعون: لأنّه أب - الوالد الوحيد لابنته أماندا، الّتي تبلغ السّادسة من عمرها، تلميذة الرّوضة في مدرسة وودي الابتدائيّة، ونور حياته. هو مستعدٌّ لفعل أيّ شيء من أجل هذه الطّفلة. هذا يتضمّن ما يتحمّله من تسلّط رئيسه اليوميّ عليه، وكان الأخير قد هدّده مؤخّرًا أنّه سيفقد عملَه قريبًا إن لم يتصرّف ويفعل شيئًا بشأن تلك الفقرة الخالية في جدول برامج ما بعد الظّهيرة.

أخرج والتر منديلًا ونفَّ من أنفه، ثمّ حدّق في قماش المنديل كأنّه يريد رؤية المادّة الّتي صُنع داخلُه منها.

بلغم. هذا ليس مفاجئًا.

لقد جاءت امرأةٌ لرؤيته قبل بضعة أيّام - إليزابيث زوت، والدةُ... لا يتذكّر اسمَ الطّفلة. وفقًا لأقوال زوت، فإنّ أماندا تتسبّب في المتاعب. لا عجب؛ السّيّدة مودفورد، مدرّستها، تزعم أنّ أماندا تتسبّب في المتاعب طيلة الوقت. وهذا ما يرفض أن يصدّقه. أجل، أماندا مُبلبَلةٌ بعض الشّيء مثله، ووزنُها زائدٌ بعض الشّيء مثله، ومحبّةٌ لإرضاء النّاس بعض الشّيء مثله، لكن أيعلم أحدٌ بماذا تتّصف أماندا غير ذلك؟ تتّصف بأنّها طفلة *لطيفة*. والأطفال اللّطيفون، حالهم حال الرّاشدين اللّطيفين، نادرون.

وهل يعلم أحدٌ ما هو النّادر غير ذلك؟ النّساء اللّاتي مثل إليزابيث زوت. إنّه لا يستطيع التّوقّفَ عن التّفكير فيها.

«أخيرًا»، قالت هارييت وهي تمسح يديها المبلّلتين بفستانها لدى دخول إليزابيث من الباب الخلفيّ: «كنتُ قد بدأتُ أقلق».

«آسفة»، أجابت تحاول إبعاد الغيظ عن صوتها: «لقد طرأ شيءٌ في العمل». ألقت حقيبتَها وانهارت على كرسيّ.

لقد مضى شهران على عودتها إلى هاستينغز، والضّغط النّاتج عن تعيينها في وظيفة أدنى من إمكانيّاتها يقتلها. هي تعلم أنّ أصحاب الوظائف ذات التّوتّر العالي كثيرًا ما يتوقون إلى مناصب أبسط - شيءٍ لا يتطلّب عملًا من القلب أو طاقةً ذهنيّة؛ شيءٍ لا يقتاتُ على أرواحهم المترهّلة في الثّالثة صباحًا. لكنّها تعلّمَت أنّ التّوظيف المتدنّي

أسوأ. لا يتوقّف الأمر عند كونِ راتبِها يعكس منزلتها الوضيعة، بل إنّ دماغها يؤلمها من الرّكود. ورغم إدراكِ زملائها أنّها قادرة على طردِ أحجارهم تباعًا في لعبة الضّامة الفكريّة، كان يُنتظَر منها أن تحتفي وتهلّل لأيّ إنجازٍ ثانويّ يجترحونه.

بيد أنّ إنجازَ اليوم لم يكن ثانويًّا، بل كان رئيسيًّا. لقد صدر العدد الجديد من *ساينس جورنال* وهو يضمّ ورقةَ دوناتي.

«ليس شيئًا يكسّر الدّنيا»، هكذا وصف دوناتي مقالتَه قبل بضعة أشهر. غير أنّ العمل *كان* يكسّر الدّنيا، وهي أولى أن تعرف. لأنّه عملها هي.

قرأت المقالة مرّتين كي تتأكّد. المرّة الأولى ببطء، لكنّها في الثّانية قفزت بين السّطور إلى أن طفر ضغطُ دمِها في عروقها مثل خرطوم حرائق مُنفلِت. كانت هذه المقالةُ سرقةً مباشرةً من ملفّاتها، وخمّنوا اسم مَن الّذي وردَ بصفةِ مساهمٍ في الأفكار.

رفعت رأسها لترى بوريفايتس يتفرّج عليها. انخطف لونُه، ثمّ طأطأ رأسَه.

«حاولي أن تتفهّمي!»، صاح بوريفايتس عندما صفقَت المجلّةَ على مكتبه: «أنا بحاجة إلى هذا العمل!»

«جميعنا بحاجة إلى عملنا»، قالت إليزابيث تغلي غيظًا: «المشكلة هي أنّك لم تقم يومًا بعملك».

شخصَ بوريفايتس إليها، وعيناه اللّيموريّتان[1] تستجديان الرّحمة، لكن كلّ ما رآه كان موجةً حَرونًا في بداية تعاظُمها، طاقتُها غير معروفة، وقوّتها الحقيقيّة لم تُختبَر. «أنا آسف»، راح يناشدها: «آسف حقًّا. لم تكن لديّ فكرة أنّ دوناتي سيبلغ هذا الحدّ. لقد أخذ نسخًا عن جميع ملفّاتك في اليوم الأوّل لعودتك، لكنّني افترضتُ أنّه فعل ذلك بهدف الاستئناس بعملنا».

«عملنا؟»، استطاعت ضبطَ نفسها كي لا تمدّ يديها وتقصم عنقه إلى قطعتين: «سأتعامل معك لاحقًا»، وعدَته. ثمّ استدارت وبدأت المسير عبر الدّهليز نحو مكتب دوناتي، بالكاد تُخِلّ بخطوِها لتدفع عالِمَ بيولوجيا دقيقةٍ متسكّعًا عن طريقها.

«أنت كاذبٌ وغشّاش يا دوناتي»، قالت مقتحمةً مكتبَ رئيسها: «وأعدكَ بهذا: لن تفلت بفعلتك».

رفع دوناتي عينيه عن طاولته. «زوت!»، صاح: «تسرّني رؤيتك دائمًا!»

اعتدل في جلسته، يتأمّل حنقَها بنوعٍ من البهجة. هذا شيءٌ كان ليتكفّل باستقالة إيفانز دون شكّ. ليتَه حيٌّ ليرى هذا – لكن لا، لقد تعيّن عليه أن يفسد هذه اللّحظة بموته قبلها.

راح يستمع بنصف أذنٍ إلى زوت وهي تزبد وترغي عن لصوصيّته. لقد اتّصل المستثمر في وقت سابق ليهنّئ دوناتي على

---

(1) نسبةً إلى اللّيمور، وهو حيوان من رتبة الرّئيسيّات يستوطن جزيرة مدغشقر. (المترجم)

عمله، وأثار بعض الجلبة الواعدة بخصوص إرسال المزيد من النّقود إليهم. كما سأل عن زوت أيضًا - إن كان قد لعب أيَّ دورٍ في البحث. دوناتي أجاب بالنّفي: لا، ليس حقًّا... لسوء الحظّ، لقد أظهر السّيّدُ زوت أنّه شخص مخيّب للآمال؛ في الحقيقة، تمّ تخفيض مرتبته. تنهّد المستثمرُ كأنّه يعبّر عن خيبته، ثمّ سأل عن خطوات دوناتي القادمة، في ما يخصّ النّشوء اللّاحيويّ. راح دوناتي يراوغ متشدّقًا ببعض الكلمات الكبيرة الّتي تلقّطَها من أجزاء أخرى ضمن بحث زوت، سيتعيّن أن يسأل زوت عنها كلّها لاحقًا، *بعد* أن تهدّئ روعَها وتتذكّر أنّها تعمل لديه بحقّ اللّعنة. ربّاه، ما أصعب أن يكون المرء مديرًا. على كلّ حال، بدا أنّ كلّ ما يقوله ينال الرّضى عند الرّجل الثّريّ.

غير أنّ زوت لم تجد بدًّا من المضيّ في تخريب الدّنيا من خلال فعل الشّيء الّذي لا يستطيع أيٌّ منهما تحمُّلَ كلفةِ أن تفعله. «هاكَ»، قالت مُلقيةً مفتاحَ مختبرها داخل قهوته: «رُدَّ وظيفتَك اللّعينة على جوعِك». ثمّ رمَت بطاقتَها التّعريفيّةَ في القمامة، وألقت مريولَها فوق مكتبه، لتخرج في ثورةِ غضبٍ وتأخذ معها كلَّ تلك الكلمات الكبيرة.

«لقد تلقّيتِ أربع مكالمات هاتفيّة»، كانت هارييت تقول: «الأولى بشأن الانضمام إلى عائلات نيلسن[1]، والثّلاث الأخرى من شخص يُدعى والتر باين. باين يريدكِ أن تُعيدي الاتّصال به، ويقول

(1) عائلات نيلسن: مشروع أمريكيّ يختار عيّنات من العائلات الّتي تمثّل شرائح سكّانيّة مختلفة ويراقب البرامج الّتي يتابعونها على التّلفاز والإذاعة بهدف إصدار تقييمات لها. (المترجم)

إنّ الأمر مُلحّ. يزعم أنّكما خضتما محادثةً ممتعةً عن الطّعام - أو لا، لا، أنا آسفة، عن *الغداء*»، صحّحت لنفسها وهي تراجع الملاحظات من جديد، «لقد بدا مُبلبلًا»، أضافت ترفع رأسها، «لهفةٌ مهنيّة. مثل الأشخاص المؤدّبين حين يكونون متوتّرين».

«والتر باين»، قالت إليزابيث تكزّ على أسنانها: «هو والدُ أماندا باين. لقد ذهبتُ إلى مكتبه قبل بضعة أيّام لأكلّمه بشأن موضوع الغداء».

- وكيف سار الحديث؟

- كان أقرب إلى المواجهة.

- عنيفة، كما آمل.

«ماما؟»، نادى صوتٌ من عند الباب.

«مرحبًا يا أرنوبتي»، قالت إليزابيث تحاول أن تبدو هادئةً وهي تطوّق طفلتَها الطّويلة النّحيلة بذراعها: «كيف كانت المدرسة؟»

«لقد صنعتُ عقدةً وتديّة»، قالت مادلين وهي تمدّ يدها ممسكةً حبلًا: «من أجل العرض والتّحدّث[1]».

- وهل سُرَّ بها الجميع؟

- لا.

---

(1) العرض والتّحدّث: نشاط صفّيّ تشاركيّ في رياض الأطفال وبدايات المرحلة الابتدائيّة يهدف إلى تعزيز مهارات الخطابة أمام الجمهور، وهو شائع في عدّة بلدان. (المترجم)

«لا بأس»، قالت إليزابيث تضمّها إليها: «النّاس لا يحبّون ما نحبّه دائمًا».

«لا أحد يحبّ الأشياء الّتي أصنعها في العرض والتّحدّث أبدًا».

«الأوغاد الصّغار»، تمتمت هارييت.

- لقد أحبّوا نصلَ السّهمِ الّذي أحضرتِه ذاك.

- لا.

- طيّب، لماذا لا تجرّبين الجدولَ الدّوريَّ الأسبوعَ المقبل؟ هذا ينال رضى الجماهير دائمًا.

«أو بوسعكِ أن تجرّبي سكّين باوي خاصّتي»، اقترحت هارييت: «دعيهم يعرفوا مع من يتعاملون».

«متى العشاء؟»، قالت مادلين: «أنا جائعة».

«لقد وضعتُ أحدَ طواجنك في الفرن»، قالت هارييت لإليزابيث وهي تتّجه إلى الباب: «عليّ أن أذهب لإطعام الوحش. أعيدي الاتّصال باين».

«*اتّصلتِ* بأماندا باين؟»، شهقت مادلين.

«بل بوالدها»، قالت إليزابيث: «أخبرتُك. لقد زرتُه قبل ثلاثة أيّام وحللَنا مسألة الغداء كلّها. أظنّه فهم موقفنا، وأنا متأكّدة أنّ أماندا لن تسرق غداءك من جديد أبدًا. السّرقة *خطأ*»، أضافت بانفعالٍ وهي تفكّر في دوناتي ومقالتها، «*خطأ!*». قفزت مادلين وهارييت من مكانهما في آنٍ واحد.

«هي... هي تحضر غداءً، ماما»، قالت مادلين بحذر: «لكنّه ليس طبيعيًّا».

«هذه ليست مشكلتنا».

نظرت مادلين إلى أمّها كأنّها لا تفهم المغزى.

«يجب أن تتناولي غداءك يا أرنوبتي»، قالت إليزابيث بنبرة أكثر هدوءًا: «كي تكبري وتطول قامتك».

«لكنّ قامتي طويلة *بالفعل*»، تذمّرت مادلين: «طويلة أكثر من اللّازم».

«لا يمكن لأحد أن يكون طويلًا أكثر من اللّازم»، قالت هارييت.

«روبرت وادلو *مات* لأنّه كان طويلًا أكثر من اللّازم»، قالت مادلين وهي تنقر على غلاف *موسوعة غينيس للأرقام القياسيّة*.

«لكنّ هذا كان ناتجًا عن اضطراب في الغدّة النّخاميّة يا ماد»، قالت إليزابيث.

«كان طوله تسعة أقدام!»، شدّدت مادلين على الرّقم.

«مسكين»، قالت هارييت: «من أين يشتري أحدٌ كهذا ملابسَه؟»

«طولُ القامة *يقتل*»، قالت مادلين.

«أجل، لكن كلّ شيء يقتل في النّهاية»، قالت هارييت: «لهذا ينتهي المطاف بالجميع إلى الموت يا عزيزتي». لكن ما إن لاحظت فمَ إليزابيث ينفتح وقامةَ مادلين ترتخي حتّى ندمت على كلماتها. فتحت الباب الخلفيّ. «سأراكِ صباحَ الغد قبل خروجك للتّجديف»، قالت

لإليزابيث: «وسأراك أنتِ يا ماد»، قالت للفتاة الصّغيرة، «حين تنهضين من النّوم».

هذا هو الجدول الّذي وضعته هي وإليزابيث مذ عادت الأخيرة إلى عملها. كانت هارييت تأخذ ماد إلى المدرسة، وستّة ونصف يعيدها إلى البيت، وهارييت تبقى معها إلى أن ترجع إليزابيث. «أوه، كدتُ أنسى»، أخرجَت قصاصةَ ورقٍ من جيبها، «هنالك رسالة أخرى»، رمقت إليزابيث بنظرة ذات مغزى، «تعرفين ممّن».

السّيّدة مودفورد.

إليزابيث تعرف أصلًا أنّ مودفورد ليست راضيةً عن مادلين. هي لا تستسيغ أنّ ماد تجيد القراءة، أو تستطيع ركل الكرة، أو تُحسن صنع سلاسل معقّدة من العقد البحريّة - وهذه مهارة تتمرّن عليها بشكل متكرّر، وحتّى في الظّلام، في المطر، دون مساعدة، تحسُّبًا.

«تحسُّبًا لماذا يا ماد؟»، سألتها إليزابيث ذات مرّة، حين وجدت الطّفلةَ رابضةً في الخارج ليلًا وقد غطّت نفسها بقماش مشمّع، والمطر ينهمر من كلّ حدب وصوب، وفي يديها حبل.

آنذاك رفعت ماد رأسها تنظر إلى أمّها متفاجئة. أليس واضحًا أنّ «التّحسّب» ليس خيارًا بل هو الخيار *الوحيد* بالأحرى؟ الحياة تتطلّب الجاهزيّة؛ واسألوا أباها الميت.

غير أنّها، بصراحة، لو كان بوسعها أن تسأل أباها الميت عن أيّ شيء، فسؤالها سيكون كيف شعر حين رأى أمّها للمرّة الأولى. هل كان حبًّا من أوّل نظرة؟

زملاء كالفن السّابقون أيضًا ما زالت لديهم أسئلة له - مثل: كيف استطاع أن يفوز بكلّ ذلك العدد من الجوائز مع أنّه بدا لا يفعل أيَّ شيء على الإطلاق؟ وماذا عن الجنس مع إليزابيث زوت؟ تبدو كأنّها فاترة، هل هي كذلك؟ حتّى مدرّسة مادلين، السّيّدة مودفورد، لديها أسئلة للرّاحل كالفن إيفانز. لكن من الواضح أنّ طرح أيّة أسئلة على والد مادلين أمرٌ غير وارد، ليس فقط لأنّه ميت، بل لأنّ الآباء في عام 1959 ليست لهم أيّة علاقة بمسألة تعليم أولادهم.

والد أماندا باين هو الاستثناء، لكن هذا فقط لأنّه لم يعد للسّيّدة باين وجود. لقد تركَته (ولها الحقّ في ذلك، كما تعتقد مودفورد)، وتلا ذلك طلاقٌ علنيّ صاخب ادّعت فيه أنّ والتر باين الأكبر سنًّا منها بكثير ليس مؤهّلًا ليكون أبًا، ناهيك بزوج. كان الأمر برمّته يدور حول دلالةٍ جنسيّةٍ محرجة؛ السّيّدة مودفورد لا تحبّ أن تفكّر في التّفاصيل. لكن بسبب ذلك، انتهى الأمر باستحواذ السّيّدة والتر باين على كلّ شيء يملكه والتر باين، بما في ذلك أماندا، ثمّ اتّضح أنّها لم تكن تريدها في الواقع. ومن له أن يلومها؟ أماندا ليست أسهلَ الأطفال مراسًا. وهكذا، عادت أماندا إلى والتر، وصار والتر يجيء إلى المدرسة، حيث تُرغَم السّيّدة مودفورد على الاستماع إلى أعذاره الهزيلة في ما يخصّ محتويات علبةِ طعام أماندا غير المعتادة بالمرّة.

ومع ذلك، رغم أنّ اللّقاءات مع والتر باين كانت تثير السّخط، فهي باهتة بالمقارنة مع الجلسات الّتي جمعتها بزوت. أليس من سوء حظّها أن يكون أكثر والدين تكرههما هما أكثر من تراهما؟ لكن كما يعرف الجميع، هكذا هي الحال دائمًا. مشاكل الطّفل السّلوكيّة تبدأ في

البيت. ومع هذا، إن كان عليها أن تختار بين أماندا باين سارقة الغداء وبين مادلين زوت طارحة الأسئلة غير اللّائقة، فهي ستفضّل أماندا في أيّ وقت.

«مادلين تطرح أسئلةً غير لائقة؟»، سألت إليزابيث متخوّفةً خلال اجتماعهما الأخير.

«أجل، هذا صحيح»، أجابت السّيّدة مودفورد بحدّة، وهي تقتلع نسالةً عن كمّها مثل عنكبوت تهاجم فريستها: «على سبيل المثال، البارحة خلال النّشاط الجماعيّ، كنّا نتحدّث عن السّلحفاة الّتي يربّيها رالف، فقاطعت مادلين الكلامَ لتسأل كيف تستطيع أن تصبح مقاتلةً في سبيل الحرّيّة في ناشفيل».

سكتت إليزابيث قليلًا كأنّها تحاول فهم المشكلة الكامنة في ذلك. «ما كان ينبغي بها أن تقاطع»، قالت أخيرًا: «سأكلّمها».

أطبقَت السّيّدة مودفورد أسنانها. «أخطأتِ فهمي يا سيّدة زوت. الأطفال يقاطعون؛ هذا أمر أستطيع التّعامل معه. ما لا أستطيع التّعامل معه هو طفل يريد تحويل موضوع النّقاش إلى الحقوق المدنيّة. نحن في روضة أطفال، لا في برنامج *ذا هانتلي برينكلي ريبورت*[1]. وعلاوةً على ذلك»، أضافت: «لقد اشتكت ابنتُك إلى أمينة مكتبتنا

(1) ذا هانتلي برينكلي ريبورت: برنامج إخباريّ مسائيّ كان يذاع تلفزيونيًّا في الولايات المتّحدة بين عامي 1956-1970. (المترجم)

مؤخّرًا أنّها لا تجد أيًّا من أعمال نورمان ميلر على رفوف كتبنا. الظّاهر أنّها كانت تحاول تقديمَ طلبٍ للحصول على «العراة والموتى»». رفعت المدرّسةُ حاجبَها، إذ استقرّت عيناها على الـ «إ. ز.» الّتي طرّزتها ماكينةُ الخياطة فوق جيب الصّدر بخطٍّ يوحي بالخلاعة.

«إنّها قارئة مبكّرة»، قالت إليزابيث: «لعلّني نسيتُ أن أذكر هذا».

عقدَت المدرّسةُ يديها، ثمّ انحنت إلى الأمام في حركة متوعّدة: *«نورمان. ميلر»*.

والآن في المطبخ، فتحت إليزابيث الورقةَ المطويّة الّتي أعطتها هارييت إيّاها، فوجدت عليها كلمتين تصرخان بخطٍّ يدِ مودفورد.

فلاديمير. نابوكوف.

وضعت حصّةً من السّباغيتي البولونيز المخبوزة في طبق مادلين. «بعيدًا عن العرض والتّحدّث، هل كان يومكِ جيّدًا؟». لقد كفّت عن سؤال ماد ما إذا كانت تعلّمت شيئًا في المدرسة، فلا جدوى من ذلك.

– أنا لا أحبّ المدرسة.

– لماذا؟

رفعت مادلين عينيها عن طبقها مرتابة: «لا أحد يحبّ المدرسة».

من موقعه تحت الطّاولة، زفرَ ستّة ونصف. حسنًا، هكذا هو الأمر: الكائن لا يحبّ المدرسة، وبما أنّه هو والكائن يتّفقان في كلّ شيء، فقد صار لا يحبّ المدرسة هو الآخر.

«هل كنتِ تحبّين المدرسة يا ماما؟»، سألتها ماد.

«حسنًا»، قالت إليزابيث: «كنّا نتنقّل كثيرًا، لذا أحيانًا لم تكن لديّ مدارس أذهب إليها. لكنّني كنت أذهب إلى المكتبة. ومع ذلك، لطالما اعتقدتُ أنّ الذّهاب إلى مدرسة حقيقيّة قد يكون ممتعًا جدًّا».

«مثل ذهابك إلى يو سي إل إيه؟»

فجأةً، تراءى لها د. مايرز في صورة حادّة أمامها. «لا».

أمالت مادلين رأسها إلى الجانب: «هل أنتِ بخير، ماما؟»

دون أن تعي ذلك، كانت إليزابيث قد غطّت وجهها بيديها. «أنا متعَبة وحسب يا أرنوبتي»، قالت فانسلّت الكلمات من بين أصابعها.

وضعت مادلين شوكتها من يدها وراحت تتفحّص وضعيّةَ أمّها المنقبِضة. «هل حدث شيء يا ماما؟»، سألتها: «في العمل؟»

من خلف أصابعها، راحت إليزابيث تتفكّر في سؤال ابنتها الصّغيرة.

«هل نحن فقراء؟»، سألتها مادلين، كأنّ هذا السّؤال يلي سابقَه بطبيعة الحال.

أزاحت إليزابيث يديها: «ما الّذي يجعلك تقولين هذا يا عزيزتي؟»

«تومي ديكسون يقول إنّنا فقراء».

«من هو تومي ديكسون؟»، سألتها بحدّة.

- صبيٌّ في المدرسة.

- وماذا قال تومي ديكسون هذا أيضـ...

- هل كان بابا فقيرًا؟

أجفلَت إليزابيث.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الجواب على سؤال ماد موجود في أحد الصّناديق الّتي سرقتها هي وفراسك من هاستينغز. في قعر الصّندوق رقم ثلاثة تمامًا، توجد حافظة ملفّات كُتب عليها «تجديف». حين لمحتها للمرّة الأولى، افترضت إليزابيث بطبيعة الحال أنّها ستكون مليئة بقصاصات الجرائد الّتي تسجّل الانتصارات المجيدة لقاربه في كامبريدج. لكن لا؛ كانت متخمةً بعروض التّوظيف الّتي تلقّاها كالفن بعد كامبريدج.

لقد تصفّحت العروض بغيرة - كراسيّ أستاذيّة في جامعات كبرى، مناصب إداريّة في شركات صيدلانيّة، أسهم كبيرة في منشآت ذات ملكيّة خاصّة. راحت تبحث بدقّةٍ في الكدسة إلى أن وجدت عرضَ هاستينغز. وهناك كان: الوعد بمختبر خاصّ - مع أنّ كلّ الجهات الأخرى كانت تكفل له ذلك أيضًا. الشّيء الوحيد الّذي يميّز عرض هاستينغز عن البقيّة؟ راتب منخفض إلى حدّ مهين. ألقت نظرةً على التّوقيع في الأسفل. دوناتي.

فيما هي تقحم الرّسائل في الحافظة من جديد، راحت تتساءل لماذا عساه يكون عنوَنها بـ«تجديف» - لا شيء فيها يمتّ إلى التّجديف

بصلة. حتّى انتبهت إلى ملاحظتين كُتبتا على عجل بخطّ قلم رصاص في رأس كلّ عرض: المسافة إلى أقرب نادي تجديف ومعدّل الهطول في المنطقة. عادت إلى رسالة عرض هاستينغز - أجل، الحسابات مدوّنة هناك أيضًا. لكن يوجد شيء واحد بعد: دائرة كبيرة سميكة رُسمت حول عنوان الجهة المرسلة.

كومنز، كاليفورنيا.

«إن كان بابا مشهورًا، إذًا لا بدّ أنّه كان ثريًّا، صحيح؟»، قالت ماد وهي تلفّ السّباغيتي حول شوكتها.

- لا يا عزيزتي، ليس جميع المشاهير أثرياء.

- لمَ لا؟ ألأنّهم أخفقوا؟

عادت أفكارُها إلى العروض. لقد قبل كالفن العرض الأدنى. من يفعل هذا؟

«تومي ديكسون يقول إنّ الثّراء سهل. تطلين الحجارة بالأصفر، ثمّ تقولين إنّها ذهب».

«أمثال تومي ديكسون هم من نسميّهم نصّابين»، قالت إليزابيث: «أي أشخاصًا يرسمون مخطّطات للحصول على ما يريدونه بوسائل غير قانونيّة». مثل دوناتي، قالت في قرارتها، وفكُّها مطبِقٌ في مكانه.

عادت أفكارُها إلى حافظةٍ أخرى عثرت عليها في صناديق كالفن، وهذه كانت مليئة برسائل من أشخاص مثل تومي ديكسون تمامًا - مخابيل، مستثمرو «مشاريع ثراء سريع»، لكن إلى جانبهم تشكيلةٌ

واسعة من الأقرباء المزيّفين، كلٌّ منهم أراد الحصول على مساعدة من كالفن بشدّة: أخت غير شقيقة، عمٌّ انقطعت صلته به منذ زمن طويل، أمٌّ حزينة، ابن عمّ طُرد من مَسكنه مرّتين.

لقد تصفّحت الرّسائل العائليّة المزيّفة سريعًا، متفاجئةً من مدى تشابهها. كلٌّ منها تدّعي رابطةً بيولوجيّة، كلٌّ منها تقدّم ذكرى من سنٍّ لن يكون قادرًا على تذكّرها، وكلٌّ منها تنطوي على طلبٍ للمال. الاستثناء الوحيد كان «الأمّ الحزينة». إذ في حين أنّها هي الأخرى ادّعت رابطةً بيولوجيّة، فعوضًا عن طلب المال كان تصرّ على أنّها تريد إعطاءه. *كي يساعدك في بحوثك*، زعمت. «الأمّ الحزينة» كتبت إلى كالفن خمس مرّات على الأقلّ، تستجديه أن يردّ. كان تصرّفًا متحجّرَ القلب إلى حدٍّ ما، فكّرت إليزابيث، نظرًا إلى مثابرة «الأمّ الحزينة» الدّؤوبة. حتّى «العمّ مقطوع الصّلة» استسلم بعد محاولتين. *أخبروني أنّك مُتَّ*، كتبَت «الأمّ الحزينة» مرارًا وتكرارًا. حقًّا؟ إذًا لماذا تراها، مثلها مثل البقيّة كلّهم، لم تكتب إلى كالفن إلّا *بعد* أن صار مشهورًا؟ افترضت إليزابيث أنّ خطّتها كانت أن توقعه في أحابيلها، ثمّ تسرق عملَه البحثيّ. ولماذا خطر هذا ببالها؟ لأنّه حدث لها توًّا.

«لستُ أفهم»، قالت ماد وهي تدفع قطعةَ فطرٍ إلى طرف طبقها: «إن كان المرء ذكيًّا وعمل بجدّ، ألا يعني هذا أن يجني مالًا أكثر؟»

«ليس دائمًا. ومع ذلك، أنا واثقة أنّ أباك كان يستطيع أن يجني المزيد من المال»، قالت إليزابيث: «كلّ الأمر أنّه اختار خيارًا مختلفًا. المال ليس كلّ شيء».

نظرت ماد إليها متشكّكة.

ما لم تقله إليزابيث لماد هو أنّها تعرف تمامًا لماذا قبل كالفن عرضَ دوناتي السّخيفَ بلهفة، بيد أنّ هذا السّبب كان قصيرَ النّظر -كان غبيًّا- إلى درجةٍ جعلتها تتردّد في الإفصاح عنه. كانت تريد لماد أن تنظر إلى أبيها على أنّه رجل عقلانيٌّ يتّخذ قرارات ذكيّة، وهذا يثبت العكسَ تمامًا.

لقد اكتشفت الأمر في حافظة عُنونِت بـ «ويكلي»، تضمّ سلسلةً من الرّسائل بين كالفن وعالِمِ لاهوت صاعد. الرّجلان كانا صديقين بالمراسلة؛ وكان واضحًا أنّهما لم يلتقيا وجهًا لوجهٍ قطّ. لكنّ رسائلهما المتبادلة المطبوعة على الآلة الكاتبة آسرة وغزيرة، ولحسن حظّها، كانت الحافظة تحتوي على نسخٍ كربونيّة عن ردود كالفن. هذا أمرٌ تعرفه عن كالفن؛ كان يأخذ نسخًا عن كلّ شيء.

بدا أنّ ويكلي، الّذي كان يرتاد مدرسة اللّاهوت بجامعة هارفارد في الوقت الّذي كان كالفن خلاله في كامبريدج، كان يواجه صراعًا مع إيمانه يرتكز على العلوم عمومًا، وعلى بحوث كالفن خصوصًا. ووفقًا لرسائله، فقد حضر ندوةً تحدّث فيها كالفن بشكل مقتضب، وبناءً على ذلك قرّر أن يكتب إليه.

«عزيزي السّيّد إيفانز، أردتُ أن أتواصل معك بعد ظهورك الوجيز في ندوة العلوم في بوسطن الأسبوع الماضي. كنت آملُ أن أتحدّث معك بخصوص مقالتك الأخيرة، ”التّولُّد التّلقائيّ للجزيئات العضويّة المعقّدة“»، كان ويكلي قد كتب في رسالته الأولى: «أردتُ أن أسأل على وجه التّحديد: ألا تظنّ أنّ الإيمان بالله وبالعلوم في آنٍ واحدٍ ممكن؟»

«بالتّأكيد»، كتب كالفن يردّ عليه: «هذا يسمّى انعدام النّزاهة الفكريّة».

ورغم أنّ سلاطة لسانِ كالفن تميل إلى أن تزعج الكثير من النّاس، لم يبدُ أنّها استفزَّت ويكلي الشّابّ، إذ كتب يردّ من فوره.

«لكن لا بدّ أنّك توافق على أنّ ميدان الكيمياء لم يكن ليوجد ما لم وإلى أن يُحدَثَ من قِبل كيميائيّ - كيميائيٍّ *جهبذ*»، جادلَه ويكلي في رسالته التّالية: «تمامًا مثلما لا يمكن للوحةٍ أن توجد إلى أن تُرسَم من قبل فنّان».

«أنا أتعامل بالحقائق المرتكزة على الأدلّة، لا بالحدسيّات»، ردّ كالفن بالسّرعة نفسها: «لذا كلّا، نظريّة الكيميائيّ الجهبذ خاصّتك محض هراء. بالمناسبة، لاحظتُ أنّك في هارفارد. هل أنت مجدّف؟ أنا أجدّف لصالح كامبريدج. منحة تجديف مموّلة بالكامل».

«لستُ مجدّفًا»، كتب ويكلي يردّ عليه: «رغم أنّني أحبّ الماء. أنا راكب أمواج. لقد نشأتُ في كومنز، كاليفورنيا. هل سبق لك أن زرت كاليفورنيا؟ إن كان جوابك لا، فعليك أن تفعل. كومنز جميلة. أفضل طقس في العالم. هم يمارسون التّجديف هناك أيضًا».

اعتدلت إليزابيث في جلستها على ركبتيها. هي تتذكّر الدّائرة الّتي رسمها كالفن بحماسة واضحة حول عنوان هاستينغز في رسالة العرض. *كومنز، كاليفورنيا*. إذًا فهو لم يقبل عرضَ دوناتي المهينَ كي يدفع مسيرتَه المهنيّة قدمًا، بل كي يجدّف؟ بسبب تقرير طقسٍ من

سطر واحدٍ أرسلَه راكب أمواج متديّن؟ *أفضل طقس في العالم*. حقًّا؟ انتقلت إلى الرّسالة التّالية.

«هل كنتَ دائمًا تريد أن تصبح كاهنًا؟»، سأل كالفن.

«أنا سليلُ نسبٍ طويلٍ من الكهنة»، أجابه ويكلي: «الأمر في دمي».

«الدّم لا يعمل بهذه الطّريقة»، صحّح كالفن: «بالمناسبة، كان في نيّتي أن أسأل: لماذا برأيكَ يؤمن كلُّ هذا العدد من النّاس بنصوص كُتبت قبل آلاف السّنين؟ ولماذا يبدو أنّ إيمان النّاس بهذه النّصوص يزداد كلّما كان مصدرُها أكثرَ قِدَمًا وخرقًا للطّبيعة وتعذُّرًا على الإثبات وبُعدًا في الاحتمال؟»

«البشر بحاجة إلى التّطمين»، كتب ويكلي يردّ: «هم يحتاجون إلى معرفة أنّ هنالك آخرين نجوا من المشاقّ والمصاعب. وعلى عكس بقيّة الأنواع، الّتي تُظهر مهارةً أكبر في التّعلّم من أخطائها، يتطلّب البشرُ وجودًا مستمرًّا للتّهديد والتّذكير كي يكونوا لطفاء. أتسمع كيف يُقال: «النّاس لا يتعلّمون أبدًا»؟ هذا لأنّهم بالفعل لا يتعلّمون أبدًا. لكنّ النّصوص الدّينيّة تحاول إبقاءهم على المسار الصّحيح».

«لكن أليس في العلم عزاءٌ أكبر؟»، ردَّ كالفن: «في الأمور الّتي نستطيع إثباتَها، وبالتّالي العملَ على اغتنامها؟ القصّة أنّني لا أفهم كيف يظنّ أحدٌ أنّ شيئًا كُتبَ قبل دهورٍ من قِبل أشخاصٍ مخمورين يمكن أن يكون قابلًا للتّصديق بأيّة درجة. وأنا لستُ بصدد إصدار

حكمٍ أخلاقيٍّ هنا: كان لا بدّ لأولئك النّاس أن يشربوا، فالمياه كانت رديئة. ومع ذلك، أسأل نفسي كيف تبدو قصصُهم ذات الخيال الجامح -غابات تحترق، خبزٌ يتساقط من السّماء- منطقيّةً، لا سيّما لدى مقارنتها بالعلوم المرتكزة على الأدلّة. ما من إنسانٍ على وجه الأرض سيؤثر تقنيّاتِ راسبوتين في فصد الدّم على أساليب سلون كيترينغ[1] العلاجيّة عالية الفاعليّة. ورغم ذلك فكثيرون جدًّا يصرّون على أن نصدّقَ هذه القصص ثمّ نملكَ الجراءةَ لِنُصرّ على آخرين كي يصدّقوها بدورهم».

«وجهةُ نظرِكَ مُنصفة يا إيفانز»، كتبَ ويكلي يردّ: «لكنّ النّاس بحاجة إلى الإيمان بشيء أكبر منهم».

«لماذا؟»، ألحَّ كالفن: «ما المشكلة في الإيمان بأنفسنا؟ على أيّة حال، إن كان لا بدّ من استخدام القصص، لمَ لا نعتمد قصّةً خرافيّةً أو حكاية جنّيّات؟ أليست هذه أدواتٍ فعّالةً بالقدر نفسه لتعليم الفضيلة؟ بل ربّما أفضل؟ لأنّه ليس على أحدٍ أن يدّعي تصديق صحّة هذه الخرافات والحكايات؟»

رغم أنّه لم يعترف بذلك، فقد وجد ويكلي نفسه يوافق. لا يتوجّب على أحد أن يصلّي لبياض الثّلج أو يخشى غضبَ جُعَيدان كي يفهم الرّسالة. هذه القصص قصيرة، تعلق في الذّاكرة، وتغطّي كلَّ مواضيع الحبّ والغرور والطّيش والغفران. كما أنّها تنادي بقواعد لها

---

(1) مركز سلون كيترينغ: مؤسّسة لعلاج السّرطان وبحوثه في حيّ مانهاتن بمدينة نيويورك، تمّ تأسيسه عام 1884. (المترجم)

حجم اللّقمة: لا تكن وغدًا، لا تؤذِ الأشخاص الآخرين أو الحيوانات، اقتسم ما تملكه مع الأقلّ حظًّا. بصياغة أخرى، كُنْ لطيفًا. قرّر أن يغيّر الموضوع.

«حسنًا يا إيفانز»، كتبَ يشير إلى رسالة سابقة: «أتقبّلُ وجهةَ نظرك شديدةَ *الحرفيّة* بشأن أنّ الكهنوت لا يمكن -من النّاحية التّقنيّة- أن يكون في دمي، لكنّنا آل ويكلي نصبح كهنةً تمامًا مثلما يصبح أبناءُ الإسكافيّين صُنّاعَ أحذية. سأعترف: لطالما كانت البيولوجيا تجذبني، لكنّ هذا أمرٌ يستحيل أن يمرّ مرورَ الكرام في عائلتي. لعلّ المسألة أنّني أحاول إرضاء أبي. أليس هذا ما نفعله جميعنا في النّهاية؟ ماذا عنك؟ هل كان والدُك عالِمًا؟ أتحاول أن ترضيه؟ إن كان ذلك، أقول لك إنّك نجحت».

«**أنا أكره أبي**»، كتبَ كالفن بحروفٍ كبيرةٍ في ما اتّضح أنّه الرّسالة الأخيرة بينهما: «**أتمنّى لو أنّه ميت**».

أنا أكره أبي؛ أتمنّى لو أنه ميت. قرأت إليزابيث الكلمات من جديد، مذهولة. لكن والد كالفن ميت بالفعل - دهسَه قطارٌ قبل عقدين من الزّمن على الأقلّ. لمَ عساه يكتب شيئًا كهذا؟ ولماذا توقّفت الرّسائل بين كالفن وويكلي؟ تاريخ الرّسالة الأخيرة يعود إلى ما قبل عشر سنوات تقريبًا.

«ماما»، قالت ماد: «ماما! أتُصغين؟ هل نحن فقراء؟»

«عزيزتي»، قالت إليزابيث، تحاول دحرَ انهيارٍ عصبيّ يهدّدها - *أهي أقدمَت حقًّا على الاستقالة من وظيفتها؟* «لقد مررتُ بيومٍ طويل. أرجوكِ، تناولي عشاءكِ وحسب».

«لكن يا ماما...»

قاطعَهما رنينُ الهاتف، فقفزت ماد عن كرسيِّها.

- لا تردّي يا ماد.

- قد يكون الأمر مهمًّا.

- *نحن نتناول العشاء.*

«ألو؟»، قالت ماد: «ماد زوت تتكلّم».

«عزيزتي»، قالت إليزابيث وهي تأخذ سمّاعةَ الهاتف: «لا نقدّم معلوماتِنا الخاصّةَ على الهاتف، تتذكّرين؟ ألو؟»، قالت في السّمّاعة، «مع من أتكلّم؟»

«السّيّدة زوت؟»، قال صوت: «السّيّدة إليزابيث زوت؟ معكِ والتر باين يا سيّدة زوت. التقينا في وقتٍ سابق من هذا الأسبوع».

تنهّدت إليزابيث. «أوه، أجل. السّيّد باين».

- كنتُ أحاول الوصولَ إليكِ طيلةَ النّهار. لعلَّ مدبّرةَ منزلِكِ أغفلَت أن تسلّمك رسائلي.

- ليسَت مدبّرةَ منزل، وهي لم تغفل أن تسلّمني رسائلك.

«أوه»، قال وقد بدا عليه الإحراج: «فهمت. أنا آسف. آملُ أنّني لا أزعجك. ألديكِ لحظة؟ هل الوقت مناسب؟»

«كلّا».

«لن أُطيل عليكِ إذًا»، قال إذ لم يُرد أن يفقدها: «ومجدّدًا يا سيّدة زوت، لقد صحَّحتُ مسألةَ الغداء. الأمور تمام؛ أماندا لن تأكل سوى غدائها من الآن فصاعدًا، أعتذرُ مرّةً أخرى. لكنّني أتّصل الآن لسبب آخر... سبب يتعلّق بالعمل».

تابع يذكّرها أنّه منتِجٌ لمجموعة من برامج ما بعد الظّهيرة التّلفزيونيّة المحلّيّة. «محطّة كي سي تي في»، قال بفخر، رغم أنّه لم يكن فخورًا: «وكنتُ أفكّر أن أجري بعض التّعديل على لائحة برامجي، فأضيف برنامج طبخ. يمكنكِ قول إنّها محاولة لإضفاء شيء من النّكهة»، استمرّ في كلامه مجرّبًا حظَّه مع الفكاهة، وهذا شيء لا يفعله عادةً، لكنّه أقدم عليه الآن لأنّ إليزابيث زوت تصيبه بالتّوتّر. وبينما راح ينتظر ضحكةَ اللّباقة الّتي كان يُفترض بها أن تأتي من الطّرف الآخر للخطّ لكنّها لم تفعل، ازداد تبلبُلًا فوق ما هو فيه. «بحكمِ خبرتي في الإنتاج التّلفزيونيّ *الّتي طُهِيَت على نارٍ هادئة*، أظنّ أنّ الموعد حان لتقديم برنامجٍ كهذا *على موائد المشاهدين*».

مجدّدًا، لا شيء.

«كنتُ أجري بعض البحث»، تابع يهذر: «وبناءً على بعض التّوجُّهات المثيرة جدًّا للاهتمام، وبالتّضافر مع إلمامي الشّخصيّ بعوامل نجاح بثّ ما بعد الظّهيرة، أعتقد أنّ أمام الطّبخ فرصة ليصبح ذا سطوة في تلفاز ما بعد الظّهيرة».

ظلّت إليزابيث على حالها لا تقدّم أيّة ردّة فعل، وحتّى لو قدّمَت، ما كان ذلك ليهمّ لأنّ لا شيء ممّا قاله والتر صحيح.

الحقيقة أنّ والتر باين لا يجري الأبحاث، ولا هو لديه فكرة عن أيّة توجُّهات. إن تكلّمنا بشكل واقعيّ، فإلمامه الشّخصيّ بعوامل نجاح تلفاز ما بعد الظّهيرة ضئيلٌ للغاية، بدليل أنّ قناته عادةً ما تحوم حول نهاية لائحة التّرتيب، من حيث تقييم المشاهدين. الوضع الحقيقيّ هو كالتّالي: لدى والتر فقرة خالية في جدول البرامج عليه أن يملأها، والمُعلنون يلاحقونه ليلَ نهارَ كي يملأ هذه الفقرة دون إبطاء. كان برنامجُ مهرّج أطفال يملأ هذه الفقرة في السّابق، بيد أنّه لم يكن جيّدًا جدًّا وهذا أوّلًا، وثانيًا فقد قُتل المهرّج الّذي يقدّمه في شجارٍ حانة، ما جعل البرنامج ميتًا تمامًا بأدقّ معنًى للكلمة.

طوال الأسابيع الثّلاثة الأخيرة، كان يسعى بيديه ورجليه ليعثر على شيء آخر يحلّ محلّه. يمضي ثماني ساعات يوميًّا في التّفرّج على أشرطةٍ ترويجيّةٍ قدّمها عددٌ لا يُحصى من الطّامحين إلى النّجوميّة - سَحَرة، مرشدون، كوميديّون، مدرّسو موسيقى، خبراء علوم، مدرّبو إتيكيت، مُحرّكو دُمى. يخوّض والتر في تلك الأشرطة، غيرَ مصدّقٍ الهراء الّذي يُنتجه الآخرون، ولا امتلاكهم الوقاحة الكافية لتحويله إلى شريط مصوَّر ثمّ وضعه في البريد وإرساله إليه. ألا يستحون؟ ومع ذلك، عليه أن يجد شيئًا بسرعة: مسيرته المهنيّة متوقّفة على هذا، ورئيسه لم يقتصد في توضيح الأمر.

وفوق كلّ ويلات العمل، لقد استُدعي أربع مرّات هذا الشّهر ليقابل السّيّدة مودفورد، مدرّسة أماندا في الرّوضة، الّتي هدّدَت مؤخّرًا جدًّا برفع تقريرٍ فيه ببساطة لأنّه -وسطَ غمامةٍ من الإنهاك والإحباط- وضع دونَ قصدٍ منه بطحةَ الجنِّ خاصّته لأماندا في المكان المخصّص لترمس حليبها. كما أنّه أرسل دبّاسةً بدلًا من الشّطيرة،

وأوراق نصٍّ تلفزيونيّ بدلًا من المنديل، وقطع شوكولاتة بالشّامبانيا ذاتَ مرّةٍ حين نفد الخبز لديهما.

«سيّد باين؟»، قالت إليزابيث مقاطعةً أفكارَه: «لقد مررتُ بيومٍ طويل. أهناك شيء تريده؟»

«أريد أن أُعِدَّ برنامج طبخ لتلفاز ما بعد الظّهيرة»، قال متعجّلًا: «وأريدكِ أن تقدّميه. من الواضح لي أنّك تجيدين الطّبخ يا سيّدة زوت، لكنّني أظنّ أيضًا أنّك تمتلكين جاذبيّةً معيّنة». لم يقل إنّ ذلك بسبب مظهرها. هنالك الكثير من الأشخاص الجميلين الّذين يمهّد مظهرُهم لهم طريقَهم، لكنّ شيئًا يقول له إنّ إليزابيث زوت ليست من هؤلاء. «سيكون برنامجًا ممتعًا – من امرأة إلى امرأة. كأنّكِ تُغنّين بلغة جماعتك»، وحينما لم تردّ على الفور، أضاف: «ربّات البيوت؟»

على الطّرف الآخر من الخطّ، ضيّقت إليزابيث عينيها: *«أستميحك عذرًا؟»*

النّبرة. كان على والتر أن يفهمها ويغلق السّمّاعة لحظتئذٍ. لكنّه لم يفعل لأنّه يائس، واليائسون يميلون إلى إغفال أكثر الإشارات وضوحًا. إليزابيث زوت تنتمي إلى الكاميرا – هو موقنٌ من ذلك، إضافةً إلى أنّها بالضّبط من نوع النّساء الّذي يطيّر عقل رئيسه.

«أنتِ متوتّرة بشأن الجمهور»، قال: «لكن لا سبب يدعو إلى هذا. نحن نستخدم بطاقات التّلقين؛ ليس عليك إلّا أن تقرئي وتكوني على سجيّتك». انتظر ردًّا، ثمّ تابع حين لم يأتِه ذلك. «أنت

تمتلكين حضورًا يا سيّدة زوت»، ألحّ: «إنّكِ من نوع الأشخاص الّذين يريد النّاس أن يروهم على التّلفاز بالضّبط. تشبهين...»، حاول جاهدًا أن يفكّر في شخص يشبهها، لكنّ أحدًا لم يخطر له.

«أنا عالمة»، أجابت بانفعال.

- تمامًا!

- تقول إنّ العامّة يريدون سماع المزيد من العلماء.

«أجل»، أجاب: «ومن عساه لا يريد ذلك؟». رغم أنّه هو نفسه لا يريد، وهو واثق إلى حدٍّ بعيد أن لا أحد غيره يريد أيضًا. «غير أنّ البرنامج سيكون برنامج طبخ، أنتِ تفهمين هذا».

- الطّبخ علمٌ بالفعل يا سيّد باين، هما ليسا ميدانَين متعارضَين.

- يا للعجب. كنتُ على وشك أن أقول هذا.

من طاولة مطبخها، تراءت لإليزابيث فواتيرُها المتراكمة. «كم يكون مردودُ شيءٍ كهذا؟»، سألته.

حدّدَ رقمًا سحبَ شهقةً صغيرةً من الطّرف الآخر للخطّ. أتراها شعرت بالإهانة أم بالذّهول؟

«القصّة هي»، قال مدافعًا: «أنّنا سنكون مقدمين على مجازفة. فأنتِ لم تظهري على التّلفاز من قبل، صحيح؟». ثمّ راح يلخّص لها أساسيّات عقد الموسم التّجريبيّ، مشيرًا إلى أنّ المدّة الأوّليّة هي ستّة أشهر. وبعد ذلك، إن لم تكن الأمور ناجحة، فهذا كلّ شيء. النّهاية.

- متى يمكن أن يبدأ؟

- على الفور. نريد لبرنامج الطّبخ أن يُبَثّ على الهواء في أسرع ما يمكن - خلال هذا الشّهر.

- تقصد برنامج طبخ *علميّ*.

«قُلتِها بلسانك: هما ليسا ميدانَين متعارضَين». لكنّ مقدارًا صغيرًا من الشّكّ بخصوص ملاءمتِها لمهمّة تقديم البرامج بدأ يعتريه. لا بدّ أنّها تفهم أنّ برامج الطّبخ ليست علمًا في الواقع، أليس كذلك؟ «سنسمّيه *العشاء عند السّادسة*»، أضاف مشدّدًا على كلمة "العشاء".

على الطّرف الآخر من الخطّ، راحت إليزابيث تحدّق في الفراغ. كانت تكره الفكرةَ تمامًا - إعداد الطّعام على التّلفاز لربّات البيوت، لكن ما الخيارات الّتي تملكها؟ التفتت تنظر إلى ستّة ونصف وماد. كانا مستلقيَين على الأرض معًا؛ مادلين تحدّثه عن تومي ديكسون، وستّة ونصف يكشّر عن أنيابه.

«سيّدة زوت؟»، قال والتر متحفّظًا من الصّمت على الطّرف الآخر للخطّ: «ألو؟ *سيّدة زوت؟ أما زلتِ معي؟*»

مُنخفَض ما بعد الظّهيرة

«غير قابلة للارتداء على الإطلاق»، قالت إليزابيث لوالتر باين وهي تخرج من غرفة ملابس كي سي تي في: «كلّ الفساتين ضيّقة للغاية. ظننتُ أنَّ خيّاطكم قام بعملٍ دقيقٍ حين أخذ مقاساتي الأسبوع الماضي، لكن ربّما كنت مخطئة. إنّه كبير في السّنّ، ولعلّه يحتاج إلى نظّارة قراءة».

«في الواقع»، قال والتر وقد أقحم يديه في جيبيه ساعيًا إلى الظّهور كمن يتصرّف على سجيّته: «يُفترض بالفساتين أن تكون هكذا، فالكاميرا تضيف عشرة باوندات، لذلك نستخدم الملابس الضّيّقة كي نوازن. ابلعي نفسك وتحمّلي، ثمّ لن تصدّقي السّرعة الّتي ستعتادين الأمرَ بها».

– لم أستطع أن أتنفّس.

– لن يستمرّ الأمر سوى ثلاثين دقيقة، تتنفّسين بعدها كما يحلو لك.

– مع كلّ شهيق، تبدأُ أجسامُنا عمليّةَ تنقيةِ الدّم؛ ومع كلّ زفير، تُطلق رئاتُنا الفائضَ من الكربون والهيدروجين. حين نضغط على أيّ

قسم من الرّئتين، نحن نعرّض هذه العمليّة للخطر. تتشكّل الخثرات، ويتعطّل الدّوران.

«لكن إليكِ بيتُ القصيد»، قال والتر يجرّب تكتيكًا آخر: «أنا متأكّد أنّكِ لا تريدين أن تَبدي بدينة».

- أستميحك عذرًا؟

- على الكاميرا... وأرجوكِ لا تُخطئي فهمَ هذا... أنتِ دبدوبة.

فغرَت فمَها. «والتر»، قالت بنبرة حاسمة: «دعني أوضّح لك أمرًا. أنا لن أرتدي هذه الملابس».

شدّ على فكّيه. هل سينجح هذا المشروع؟ وفيما راح يبحث متخبّطًا عن طريقة جديدة لإقناعها، استُهلّت البروفة الّتي تُجريها أوركسترا المحطّة على أحدث مقطوعاتها الخفيفة في مكانٍ ما من الرّدهة. إنّها مقطوعة شارةِ «العشاء عند السّادسة» - لحنٌ قصيرٌ مرِحٌ كلّفهم هو نفسه بإنجازه. تهجينٌ بين نسخةٍ حديثة من التّشا تشا تشا وحريقٍ ثلاثيّ الإنذار[1]، عملٌ بارعٌ يحرّك الأقدام على إيقاعه، وصفَه رئيسُه -البارحةَ تمامًا- متحمّسًا بالعمل الّذي قد يُنجزه لورنس ويلك إن تعاطى الأمفيتامينات.

«ما هذا بحقّ السّماء؟»، قالت تكزّ على أسنانها.

---

(1) يشير عدد الإنذارات في الولايات المتّحدة إلى مستوى استجابة السّلطات المحلّيّة للحرائق، وتُعتمد هذه الطّريقة لتصنيفها حسب درجة خطورتها. (المترجم)

لقد كان فيل ليبنزمال، رئيسُه ومدير محطّة كي سي تي في ومُنتجها التّنفيذيّ، شديدَ الوضوح حين أقرّ الفكرةَ العامّةَ لبرنامج الطّبخ.

«تعرف ما عليك أن تفعله»، قال بعد أن قابل إليزابيث زوت: «تسريحة شعر كبيرة الحجم، فساتين ضيّقة، ديكور منزليّ. الزّوجة المثيرة والأمّ الرّؤوم الّتي يريد كلّ رجل أن يراها في نهاية النّهار. أنجزْ هذا».

نظر والتر إلى فيل من فوق امتدادِ طاولة مكتبه الكبيرة إلى حدٍّ سخيف. إنّه لا يحبّ فيل؛ هو شابٌّ وناجحٌ وأفضل منه في كلّ شيء بشكل واضح، لكنّه أيضًا جلف. ووالتر لا يحبّ الأجلاف، فهم يُشعرونه أنّه متحشّم وخجول، كأنّه آخر مَن تبقّى من قبيلة المهذّبين الّتي انقرضت بعد أن اشتُهرت بلباقتها والتزامها بآداب المائدة. مرّرَ يدَه على شيبته ذات الثّلاثة والخمسين عامًا.

«إليكَ هذه الفكرة غير المألوفة الّتي قد تثير اهتمامك يا فيل. هل أخبرتك أنّ السّيّدة زوت تجيد الطّبخ؟ أعني، تجيد الطّبخ فعلًا. إنّها في الحقيقة عالمة كيمياء، تعمل في مختبر على أنابيب اختبار وأشياء من هذا القبيل. بل ولك أن تتخيّل أنّها تحمل شهادة ماجستير في الكيمياء! كنتُ أفكّر أن نستثمر منجزاتها؛ نقدّم إلى ربّات البيوت شخصًا يستطعن أن يرين أنفسهنّ فيه». مكتبة سُر مَن قرأ

«ماذا؟»، قال فيل متفاجئًا: «لا يا والتر، زوت ليسَت شخصًا ترى المُشاهدات أنفسهنّ فيه، وهذا جيّد. النّاس لا يريدون أن يروا أنفسهم على التّلفاز، بل يريدون أن يروا الأشخاص الّذين لن يصبحوا مثلهم يومًا. الأشخاص الجميلين، الأشخاص المثيرين. تعرف كيف تسير هذه الأمور»، نظر إلى والتر متكدّرًا.

«بالطّبع، بالطّبع»، قال والتر: «كلّ المسألة أنّني قلتُ لعلّنا نحرّك الأمور قليلًا، ونضفي على هذا البرنامج طابعًا أكثر مهنيّة».

- مهنيّة؟ نحن نتحدّث عن تلفاز ما بعد الظّهيرة. كنتَ تملأ هذه الفقرة ببرنامج مهرّج.

- أجل، وهذا هو الجزء غير المتوقّع في الأمر. عوضًا عن المهرّجين، سنعرض شيئًا له معنى: السّيّدة زوت سوف تعلّم ربّات المنازل كيفيّةَ إعداد عشاء مغذٍّ.

«شيء له معنى؟»، قال فيل بانفعال: «هل أنت من الأميش يا رجل؟ أمّا بالنّسبة إلى العشاء المغذّي: لا. أنت تقتل البرنامج قبل حتّى أن يبدأ. اسمع يا والتر، الأمر سهل. فساتين ضيّقة، حركات إيحائيّة... ربّما طريقتها حين ترتدي قفّاز الفرن مثلًا، هكذا»، راح يمثّل له الحركةَ كأنّه يقوم بارتداء زوجٍ من قفّازات السّاتان، «ثمّ هناك الكوكتيل الّذي ستُعدّه في نهاية كلّ حلقة».

- كوكتيل؟

- أليست فكرة رائعة؟ لقد خطرت لي للتّوّ.

- أنا حقًّا لا أظنّ أنّ السّيّدة زوت سوف...

- بالمناسبة، ما كان ذلك الّذي قالَته الأسبوع الماضي... بشأن عدم إمكانيّة تصليب الهيليوم عند درجة الصّفر المطلق؟ أكان يُفترض أن تكون نكتة؟

«أجل»، قال له: «أنا متأكّد أنّــ...»

«طيّب، لم تكن مضحكة».

فيل على حقّ، لم تكن النّكتة مضحكة. وأسوأ، إليزابيث لم تقصد لما قالته أن يكون مضحكًا، بل قصدت أن يكون أحد الأمور الّتي قد تتكلّم عنها في برنامجها. وهذه مشكلة، فمهما كرّر شرحَ فكرة البرنامج لها، لم يبدُ أنّها تفهمها. «من ستتحدّثين إليهنّ لسنَ سوى ربّات بيوت عاديّات»، قال والتر لها: «لا شيء فوق السّويّة المتوسّطة»، ونظرت إليزابيث إليه حينذاك بطريقة أرعبته.

«ربّات البيوت العاديّات لسن متوسّطات السّويّة بأيّ شكل»، صحّحت له.

«والتر»، كانت إليزابيث تقول بعد أن انتهت المقطوعة أخيرًا: «هل تصغي؟ أظنّ أنّ بوسعي حلّ مشكلة الملابس الّتي تواجهنا بكلمتين اثنتين. مريول مخبريّ».

- لا.

- سيضفي على البرنامج طابعًا أكثر مهنيّة.

«لا»، قال مجدّدًا وهو يفكّر في توقّعات ليبنزمال شديدة الوضوح: «صدّقيني، لا».

«لمَ لا نقارب الأمر مقاربةً علميّة؟ أرتديه خلال الأسبوع الأوّل، ثمّ نراجع النّتائج».

«هذا ليس مختبرًا»، شرح لها للمرّة المليار: «هذا مطبخ».

- بالحديث عن المطبخ، كيف تسير أمور الدّيكور؟

- لم يجهز تمامًا، ما زلنا نعمل على الإضاءة.

لكنّ هذا لم يكن صحيحًا: موقع التّصوير جاهز منذ أيّام، من السّتائر ذات العُرى الّتي تغطّي النّافذة المزيّفة إلى الأغراض المتنوّعة الّتي تملأ أسطحَ المنضدة؛ إنّه مطبخ ربّات البيوت المتقنات في أوضح صورِه. سوف تكرهه.

«هل استطعتم تأمين الأدوات التّخصّصيّة الّتي أحتاج إليها؟»، سألته: «موقد بنسن؟ راسم الذّبذبات؟»

«بهذا الشّأن»، قال: «الأمر أنّ هذه الأشياء لن تكون متوفّرة لدى معظم الطّبّاخات في منازلهنّ، غير أنّني استطعت أن ألملم لكِ كلّ شيء آخر في قائمتك تقريبًا: أواني المطبخ، الخفّاقة...»

- موقد الغاز؟

- أجل.

- محطّة غسل العيون، بالطّبع.

«أ... أجل»، أجاب وهو يفكّر في المجلى.

- أظنّ أنّ بوسعنا دائمًا أن نضيف موقد بنسن في ما بعد، فهو مفيد جدًّا.

- لا شكّ.

- ماذا عن أسطح العمل؟

- تبيّنَ أنّ ليس بوسعنا تحمّل كلفة الفولاذ غير القابل للصّدأ الّذي طلبتِه.

«هذا غريب»، قالت: «فالأسطح اللّاتفاعليّة لا تكون مرتفعة الثّمن عادةً».

أومأ والتر برأسه كأنّه هو الآخر متفاجئ، بيد أنّه ليس كذلك. لقد اختار أسطح الفورمايكا بنفسه: صفائح مرحة المظهر مبرقشة بنِثارٍ ذهبيٍّ برّاق.

«انظري»، قال لها: «أعرف أنّ هدفنا يتمحور حول إعداد طعام له معنى - طعام مغذٍّ لذيذ المذاق. لكنّنا نريد أن نحذر كيلا ننفّر النّاس. علينا أن نجعل الطّبخ يبدو جذّابًا، كما تعلمين، مرِحًا».

- مرح؟

- لأنّ النّاس لن يشاهدونا إن لم نفعل ذلك.

«لكنّ الطّبخ ليس مرحًا»، شرحت له: «إنّه عمل جادّ».

«صحيح»، قال: «لكن بوسعه أن يكون مرحًا بعض الشّيء، أليس كذلك؟»

عبست إليزابيث: «ليس حقًّا».

«صحيح»، قال: «لكن ربّما القليل من المرح فقط، مقدار ضئيل من المرح»، أضاف رافعًا سبّابته يضغطها نحو إبهامه ليريها مدى ضآلة المقدار. «الأمر، يا إليزابيث، وأنتِ تعلمين هذا أساسًا على الأرجح، هو أنّ التّلفاز يخضع لثلاث قواعد صارمة وراسخة».

«تعني قواعد اللّباقة»، قالت: «المعايير».

«لباقة؟ معايير؟»، فكّر في ليبنزمال، «لا. كنت أقصد قواعد حقيقيّة»، راح يعدّ على أصابعه: «القاعدة الأولى: التّرفيه. القاعدة الثّانية: التّرفيه. القاعدة الثّالثة: التّرفيه».

«لكنّني لستُ مقدّمة برامج ترفيهيّة، أنا عالمة كيمياء».

«صحيح»، قال: «لكن على التّلفاز، نحتاج منك أن تكوني عالمة كيمياء *ترفيهيّة*. وهل تعلمين لماذا؟ يمكنني تلخيص الأمر في عبارة وجيزة: ما بعد الظّهيرة».

- ما بعد الظّهيرة.

- *ما بعد الظّهيرة*. مجرّد قول هذا يجعلني أشعر بالنّعاس. ألا يُشعرك بالنّعاس؟

- لا.

- حسنًا، ربّما كان هذا لأنّك عالمة، أي أنّك تملكين فكرةً عن النَّظم اليَوماويّ.

- الجميع يملكون فكرةً عن النَّظم اليَوماويّ يا والتر، ابنتي الّتي في الرّابعة من عمرها تملك فكرة عن النّظم...

«تقصدين الّتي في الخامسة من عمرها»، قاطعها: «لا بدّ لمادلين أن تكون في الخامسة على الأقلّ كي تدخل الرّوضة».

لوّحَت إليزابيث بيدِها كأنّها تدعوه إلى المضيّ في الموضوع. «كنت تتحدّث عن النَّظم اليَوماويّ».

«صحيح»، قال: «كما تعرفين تمام المعرفة، البشر مبرمجون بيولوجيًّا بحيث ينامون مرّتين في اليوم – قيلولة بعد الظّهيرة، ثمّ ثماني ساعات من النّوم ليلًا».

أومت برأسها.

«غير أنّ معظمنا يُسقطون القيلولة لأنّ أعمالنا تتطلّب ذلك. وعندما أقول معظمنا، فأنا أتحدّث عن الأمريكان فقط. المكسيك لا تواجه هذه المشكلة، ولا فرنسا أو إيطاليا أو أيّة من هذه الدّول الأخرى الّتي يشرب أبناؤها حتّى أكثر منّا على الغداء. ومع ذلك، تظلّ الحقيقة أنّ إنتاجيّة البشر تنخفض بشكل طبيعيّ في فترة ما بعد الظّهيرة. في التّلفاز، نُطلق على هذا اسمَ «مُنخفَض ما بعد الظّهيرة». يكون الوقت قد تأخّر على إنجاز أيّ شيء ذي مغزى، وما زال مبكّرًا على العودة إلى المنزل. لا يختلف الأمر سواءً أكنّا نتحدّث عن ربّة منزل، طالبةٍ في الصّفّ الرّابع، عاملِ بناء، رجلِ أعمال – لا أحد مُستثنى. بين السّاعة الواحدة وإحدى وثلاثين دقيقة والسّاعة الرّابعة وأربع وأربعين دقيقة مساءً، لا يعود لحياة الإنتاج الّتي نعرفها وجود. إنّها فترة مقتولة عمليًّا».

رفعت إليزابيث حاجبها.

«ورغم قولي إنّ ذلك يطال الجميع»، تابع: «فهو وقتٌ خطِرٌ بشكل خاصّ على ربّة المنزل. إذ، بعكس طالبة الصّفّ الرّابع الّتي تستطيع إرجاءَ وظائفها المدرسيّة، أو رجل الأعمال الّذي يمكنه التّظاهر أنّه يصغي، على ربّة المنزل أن ترغم نفسها على المتابعة. يجب أن تجهّز الأولاد للقيلولة، فإن لم تفعل ستكون الأمسيةُ جحيمًا. يجب

أن تمسح الأرض، فإن لم تفعل قد ينزلق أحدٌ بسبب الحليب المدلوق. يجب أن تنطّ إلى المتجر، فإن لم تفعل لن يكون ثمّة شيء يأكلونه. بالمناسبة»، سكت قليلًا، «هل حدث ولاحظتِ أنّ المرأة دائمًا تقول إنّ عليها أن *تنطّ* إلى المتجر؟ لا أن تسير، لا أن تذهب، لا أن تمرّ عليه. أن *تنطّ*. هذا ما أقصده. عمل ربّة المنزل يتمّ ضمن مستوًى جنونيٍّ من فرط الإنتاجيّة. ورغم أنّها تكون غارقةً حتّى أذنيها أصلًا، *يظلّ* عليها أن تُعدّ العشاء. هي ليست مَعينًا لا ينضب يا إليزابيث، سوف تتعرّض لنوبة قلبيّة أو سكتة، أو على أقلّ تقدير ستكون في مزاج كريه. وكلّ هذا لأنّها لا تستطيع أن تؤجّل واجباتها مثل ابنتها الّتي في الصّفّ الرّابع أو تكتفي بالتّظاهر بفعل شيءٍ ما مثل زوجها. إنّها مرغَمة على متابعة إنتاجها في فترة زمنيّة يُحتمَل أن تكون قاتلة - مُنخفَض ما بعد الظّهيرة».

«هذه حالة كلاسيكيّة للحرمانِ عصبيِّ المنشأ»، قالت إليزابيث تومئ برأسها: «لا يحصل الدّماغ على الرّاحة الّتي يحتاج إليها، ما يُفضي إلى انخفاضٍ في الوظيفة التّنفيذيّة مصحوبٍ بارتفاع في مستويات الكورتيكوستيرون. مذهل. لكن ما علاقة هذا بالتّلفاز؟»

«علاقة كبيرة»، أجاب: «لأنّ علاج هذا الحرمان الـ... امم... العصبيّ كما تسمّينه، هو برامج ما بعد الظّهيرة. فعلى عكس البرامج الصّباحيّة أو المسائيّة، برامج ما بعد الظّهيرة مصمّمة بحيث تتيح للدّماغ أن يستريح. ادرسي اللّائحة وسترين أنّ الأمر صحيح: منذ الواحدة والنّصف مساءً حتّى الخامسة مساءً، يكون التّلفاز حافلًا ببرامج الأطفال ومسلسلات السّوب أوبرا وبرامج المسابقات. لا شيء ممّا يتطلّب نشاطًا دماغيًّا حقيقيًّا. وهذا كلّه متعمَّد: لأنّ

المسؤولين التّنفيذيّين في التّلفاز يدركون أنّ النّاس يكونون نصفَ أموات في هذه السّاعات».

تراءى لإليزابيث زملاؤها السّابقون في هاستينغز؛ لقد كانوا نصفَ أموات بالفعل.

«بطريقة أو بأخرى»، تابع والتر: «ما نقدّمه هو خدمة عامّة. نحن نعطي النّاسَ، ولا سيّما ربّة المنزل المُجهَدة، الاستراحة الّتي تحتاج إليها. برامج الأطفال تلعب دورًا رئيسيًّا هنا: إنّها مصمّمة كي تجالس الأطفالَ بشكلٍ إلكترونيٍّ فتحظى الأمّ بفرصة لاسترداد طاقتها قبل مهمّتها التّالية».

«وبـ «المهمّة»، أنت تقصد...»

«إعداد العشاء»، قال: «وهنا يأتي دورك. سوف يُبَثُّ برنامجك عند الرّابعة والنّصف - أي لحظةَ خروجِ جمهوركِ من مُنخفَض ما بعد الظّهيرة بالضّبط. فقرةُ البثّ هذه تمثّل تحدّيًا، فالدّراسات تُظهر أنّ معظم ربّات البيوت يشعرنَ بالمقدار الأكبر من الضّغط في هذا الوقت من اليوم، إذ يكون لديهنّ الكثير ممّا يجب إنجازه خلال مدّة زمنيّة قصيرة للغاية: إعداد العشاء، تحضير المائدة، لملمة الأطفال - والقائمة تطول. لكنّهنّ يكُنَّ مشوّشات ومحبَطات مع ذلك، وهذا ما يجعل هذه الفقرة تحديدًا تترافق مع مسؤوليّة عظيمة، لأنّ الشّخص الّذي سيحدّثهنّ الآن يجب عليه أن *يمدّهنّ بالطّاقة*. لهذا السّبب، حين أقول لكِ إنّ مهمّتك هي تقديم التّرفيه، فأنا أعني ذلك صادقًا. عليكِ أن تعيدي الحياةَ إلى هؤلاء النّاس يا إليزابيث، عليكِ أن توقظيهم من جديد».

- لكن...

- أتتذكّرين ذلك اليوم حين اقتحمتِ مكتبي غاضبة؟ لقد حدث ذلك بعد الظّهيرة. ورغم أنّني كنتُ في مُنخفَض ما بعد الظّهيرة، فقد أيقظتِني، وبوسعي أن أوكّد لكِ أنّ هذا شبه مستحيل إحصائيًّا لأنّ كلّ ما *أفعله* هو برامج ما بعد الظّهيرة. لكن ذلك هو ما جعلني أعرف: إن كنتِ تمتلكين القدرة على جعلي أعتدل في جلستي وأصغي، فما من شكٍّ أنّك تستطيعين فعل الأمر نفسه للآخرين. أنا أؤمن بك يا إليزابيث زوت، وأؤمن برسالة الطّعام الّذي له معنى خاصّتك - لكنّ ذلك لا يقتصر على إعداد العشاء. افهمي هذا: يجب أن تجعلي الأمر يبدو مرِحًا بعض *الشّيء* على الأقلّ. لو كنتُ أريدكِ أن تُنيمي المشاهدين، لوضعتُكِ أنتِ وقفّاز فرنكِ في فقرة الثّانية والنّصف.

فكّرت إليزابيث للحظة. «أظنّ أنّني لم أفكّر في الأمر بهذه الطّريقة حقًّا».

«إنّه علم التّلفاز»، قال والتر: «بالكاد يوجد من يعرف بشأنه».

وقفت صامتة، تَزِنُ كلماتِه. «لكنّني لا أقدّم التّرفيه»، قالت بعد لحظة قصيرة: «أنا عالمة».

- يمكن للعلماء أن يقدّموا التّرفيه.

- أعطِني مثالًا واحدًا.

«أينشتاين»، ردّ والتر من فوره: «من ذا الّذي لا يحبّ أينشتاين؟»

تفكّرت إليزابيث في مثاله. «حسنًا، نظريّة النّسبيّة خاصّته مشوّقة بالفعل».

- أرأيتِ؟ بالضّبط!

- لكن صحيحٌ *أيضًا* أنّ زوجته، الّتي كانت هي *الأ*خرى عالمة فيزياء، لم يُنسَب إليها الفضل قطّ في...

- ها أنتِ ذي، تقبضين على جمهورنا من جديد. الزّوجات! وكيف ستوقظين هؤلاء الزّوجات الأينشتاينيّات؟ باستخدام منبّهاتٍ تلفزيونيّة صمدت أمام صروفِ الدّهر: النّكات، الملابس، السّطوة - وبالطّبع، الطّعام. على سبيل المثال، حين تقيمين حفلةَ عشاء، أراهن أنّ الجميع يرغبون في الحضور.

- أنا لم أُقِم حفلةَ عشاء قطّ.

«متأكّد أنّكِ فعلت»، قال: «أراهنُ أنّك والسّيّد زوت تقيمان هذه الحفلات طوال الـ...»

«ما من سيّد زوت يا والتر»، قاطعته إليزابيث: «أنا لستُ متزوّجة. الحقيقة أنّني لم أتزوّج قطّ».

«أوه»، شهق والتر، وقد بوغِت بشكل واضح للعيان: «حسنًا. هذا مثير للاهتمام من غير ريب. لكن هل تمانعين؟ آملُ ألّا تُسيئي فهم هذا، لكن أتمانعين ألّا تذكُري الأمر لأيّ أحد؟ لا سيّما ليبنزمال، رئيسي؟ أو حقًّا... أيّ أحد؟»

«كنتُ أحبّ والدَ مادلين»، أخذت تشرح وقد تغضّن جبينُها بعضَ الشّيء: «كلّ الأمر أنّني لم أستطع أن أتزوّج منه».

«كانت علاقة في الخفاء»، قال والتر متعاطفًا يُخفض صوتَه: «كان يخون زوجته. أهذا هو الأمر؟»

«لا»، أجابت تهزّ رأسها: «لقد أحبّ واحدُنا الآخر حبًّا تامًّا. في الحقيقة، عشنا معًا لمدّة...»

«سيكون هذا أمرًا آخر من المهمّ جدًّا ألّا تذكريه على الإطلاق»، قاطعها والتر: «على الإطلاق».

«... عامين. كنّا توءمَي روح».

«كم هذا جميل»، قال متنحنحًا: «أنا واثق أنّ ما تقولينه نابع من القلب. لكن مع ذلك، هذا ليس أمرًا من النّوع الّذي نحتاج أن نخبر أيّ أحد به. على الإطلاق. رغم ثقتي أنّه كان في خطّتكِ الزّواجُ منه في وقت ما».

«لا»، قالت بهدوء: «لكنّ بيت القصيد أنّه مات». ومع هذه الكلمات، ظلّلَت وجهَها غمامةٌ من اليأس.

صُدِم والتر من التّغيّر المفاجئ في سلوكيّةِ شخصيّتِها. إنّها تتمتّع بِسِمةٍ محدّدة - سطوةٍ يوقن أنّ الكاميرا ستحبّها، لكنّها أيضًا هشّة. المسكينة. ودون أن يفكّر مرّتين، أحاطها بذراعيه. «أنا آسف من قلبي»، قال وهو يضمّها.

«وأنا كذلك»، أجابت بصوتٍ مدفونٍ في كتفه: «وأنا كذلك».

أجفل؛ يا لها من وحدة. راح يربّت لها على ظهرها كما يفعل لأماندا، محاولًا بأفضل ما استطاع أن يوصِل إليها أنّه ليس آسفًا على خسارتها وحسب، بل يفهم هذه الخسارة. هل سبق له يومًا أن كان واقعًا في الحبّ على هذه الشّاكلة؟ كلّا. لكن الآن باتت لديه فكرة جيّدة جدًّا كيف يبدو ذلك.

«أعتذر»، قالت وهي تنفضّ عنه، متفاجئةً كم كانت بحاجة إلى هذا العناق.

«لا بأس»، أجابها برفق: «لقد مررتِ بالكثير».

«بغضّ النّظر»، قالت معتدلةً في وقفتها: «ينبغي أن أكون أوعى من أن أتحدّث في الأمر، فقد سبق وفُصلت مرّةً من العمل لهذا السّبب».

للمرّة الثّالثة هذا الصّباح، أجفلَ والتر. عندما قالت «هذا السّبب»، لم يكن متأكّدًا ممّا تقصده. أتراها فُصلت لأنّها قتلت حبيبها؟ أم لكونها أمًّا دون زواج؟ كلا التّفسيرَين معقولٌ ظاهريًّا، لكنّه يفضّل الثّاني إلى حدٍّ بعيد.

«أنا الّتي قتلتُه»، اعترفَت بصوتٍ خفيض، حاذفةً الاحتمال الّذي فضّله: «لقد أصررتُ أن يستخدم رسنًا، فمات. وتغيّر حال ستّة ونصف إلى الأبد».

«هذا مريع»، ردّ والتر بصوتٍ أخفض حتّى من صوتها، إذ رغم أنّه لم يفهم ما قالته بشأن الرّسن والسّادسة والنّصف، فقد فهم ما تعنيه. لقد اتّخذَت خيارًا، وأفضى إلى نهاية سيّئة. هو فعل الأمر نفسه تمامًا. ونتج عن خياريهما السّيّئين كليهما طفلان صغيران باتا الآن يحملان وِزرَ خيارات والديهما الرّديئة. «أنا آسف غايةَ الأسف».

«وأنا أيضًا آسفة لك»، قالت محاولةً أن تستعيد اتّزانَها: «بشأن طلاقك».

«أوه، لا تتأسّفي»، أجاب يلوّح بيده، شاعرًا بالإحراج من أن تُقارَن هزيمتُه في الحبّ بهزيمتها بأيّة طريقة: «لم يكن وضعي مثل

وضعك، فقصّتي لا تمتّ للحبّ بِصلة. حتّى أنّ أماندا ليست ابنتي من النّاحية التّقنيّة في ما يتعلّق بالحمض النّوويّ»، زلّ لسانُه دون أن يقصد. في الحقيقة، لم يكن قد اكتشف هذا إلّا قبل ثلاثة أسابيع.

لطالما لمّحَت زوجتُه السّابقة إلى أنّه ليس والدَ أماندا البيولوجيّ، غير أنّه كان يظنّها تقول هذا كي تجرحه لا أكثر. بالتّأكيد، هو وأماندا ليسا متشابهين، لكنّ الكثير من الأطفال لا يبدون مثل أهلهم. كان في كلّ مرّة يضمّ أماندا بين ذراعيه يعلم أنّها ابنته؛ يستطيع أن يستشعر الرّابطة البيولوجيّة الدّائمة العميقة. بيد أنّ إصرار زوجتِه السّابقةِ القاسيَ كان يأكله، وعندما صار اختبارُ الأبوّةِ متاحًا أخيرًا، قدّم عيّنةَ دم. وبعد خمسة أيّام، عرفَ الحقيقة. هو وأماندا غريبان تمامًا.

راح يحدّق في نتيجة الاختبار، متوقّعًا أن يشعر بالخداع أو الجزع أو أيٍّ من المشاعر الأخرى الّتي ظنّ أنّه يُفترض أن يشعر بها، لكنّه -عوضًا عن ذلك- شعر بلامبالاةٍ تامّة. النّتيجة لا تهمّ على الإطلاق؛ أماندا ابنته وهو أبوها، إنّه يحبّها من كلّ قلبه. البيولوجيا أمرٌ مبالَغٌ في تقديره.

«لم أكن أخطّط يومًا أن أصبح أبًا»، أخبر إليزابيث: «لكن هأنذا، أبٌ مُكرَّس. الحياة لغزٌ غامض، أليس كذلك؟ النّاس الّذين يحاولون التّخطيط لها ينتهون إلى خيبة حتميّة».

أومت برأسها. هي ممّن يخطّطون، وقد انتهت إلى خيبة.

«على كلّ حال»، تابع: «أؤمن أنّ بوسعنا صنعَ شيءٍ بواسطة «العشاء عند السّادسة». لكن ثمّة أمور تتعلّق بالتّلفاز سيكون عليك ببساطة، حسنًا، أن تتحمّليها. في ما يخصّ الملابس، سأطلب من

الخيّاط أن يُرخيَ الدّرزات. لكن على سبيل المعاوضة، أودّ منك أن تتدرّبي على الابتسام».

عبسَت.

«جاك لالان يبتسم وهو يقوم بتمارين الضّغط»، قال والتر: «وبهذه الطّريقة يجعل الأمور الشّاقّة تبدو مرحة. ادرسي أسلوبَ جاك، فهو معلّم».

لدى ذكر اسم جاك، انقبضت إليزابيث. هي لم تشاهد جاك لالان منذ أن مات كالفن، وذلك يعود بجزءٍ منه إلى كونها تلومه -بلى، تعرف أنّ هذا ليس منصفًا- على موت كالفن. ذكرى كالفن وهو يدخل إلى المطبخ بعد برنامج جاك تملؤها بدفءٍ مباغت.

«ها أنت ذي»، قال والتر.

رفعت إليزابيث عينيها نحوه.

«كنتِ تبتسمين تقريبًا».

«أوه»، قالت: «حسنًا، لم يكن متعمَّدًا».

«لا بأس. متعمّد، غير متعمّد. أيّ شيء سيفي بالغرض. معظم ابتساماتي مرغَمة، بما فيها تلك الّتي أبتسمها في مدرسة وودي الابتدائيّة، أي المكان الّذي سأذهب إليه بعد أن ننتهي. لقد استدعتني السّيّدة مودفورد».

«وأنا أيضًا»، قالت إليزابيث متفاجئة: «لديّ لقاء معها غدًا. هل استدعاؤك يتعلّق بقائمة قراءات أماندا؟»

«قراءات؟»، قال متفاجئًا: «إنّهما تلميذتا روضة يا إليزابيث؛ لا تجيدان القراءة. على كلّ حال، المسألة لا تتعلّق بأماندا، بل بي أنا. إنّها مرتابة منّي لأنّني أبٌ يربّي ابنةً بمفرده».

«لماذا؟»

بدا متفاجئًا: «لماذا برأيك؟»

«أوه»، قالت إذ باغتها الفهم: «تعتقد أنّك منحرف جنسيًّا».

«ما كنت لأصوغ الأمر بهذه، بهذه... السّماجة»، أجاب والتر: «لكن أجل. الأمر أشبه بارتداء شارةٍ كُتب عليها: "مرحبًا! أنا بيدوفيليّ... كما أنّني أجالس الأطفال!"»

«أظنّ أنّنا كلينا من المشتبه بهم إذًا»، قالت إليزابيث: «أنا وكالفن كنّا نمارس الجنس بشكل يوميّ تقريبًا - وهذا طبيعيّ تمامًا بالنّظر إلى سنّنا الشّابّة ومستوى نشاطنا، لكن لأنّنا لم نكن متزوّجين...»

«آه»، قال والتر وقد امتقع لونُه: «حسنًا...»

- كأنّ للزّواج أيّة علاقة بالجنسانيّة...

- آه...

«مرّت أوقات»، أخذت تشرح بنبرة تقريريّة: «كنت أستيقظ فيها في قلب اللّيل ممتلئة بالرّغبة -أنا واثقة أنّ هذا حدث لك- فأجد كالفن في وسط مرحلةِ حركة العين السّريعة من نومه، لذا لا أزعجه. لكنّني ذكرتُ الأمر لاحقًا، فكاد يفقد صوابه من الغضب. «لا يا إليزابيث»، قال لي: «أيقظيني دائمًا. بحركة عين سريعة أو دونها. لا

ترددي». لم أفهم الدّافع الجنسيّ الذّكريّ على نحو أفضل إلّا بعد أن قرأت المزيد عن التّستوستيرون...»

«بالحديث عن هذا[1]»، قاطعها والتر وقد اصطبغ وجهُه بالقرمزيّ: «أردتُ أن أذكرّكِ برَكنِ سيّارتك في الباحة الشّماليّة».

«الباحة الشّماليّة»، قالت ويداها على خصرها: «هذه الّتي تكون على اليسار عند دخولي؟»

«بالضّبط».

«على كلّ حال»، تابعت: «يؤسفني أن تكون مودفورد قد لّمحت إلى كونِك أيّ شيء سوى أبٍ مُحبّ. أشكُّ جدًّا أن تكون قد قرأَت تقارير كينسي».

- تقارير...

- لأنّها، لو كانت قرأتها، لفهمت أنّنا أنت وأنا على النّقيض من المنحرفين جنسيًّا. أنت وأنا...

«والدان *طبيعيّان؟*»، بادرها على عجل.

- مثالان يُحتذى بهما في المحبّة.

- وصيّان جديران.

«من طبيعة واحدة»، ختمت.

(1) تقابل كلمةَ «دافع» وفعلَ قيادة السّيّارة الكلمةُ نفسها في الإنجليزيّة "Drive". (المترجم)

هذه العبارة الأخيرة هي ما وطّدَ صداقتَهما الغريبة الّتي لا تتحفّظ على شيء؛ صداقة من نوعٍ لا ينبثق إلّا حين يلتقي شخصٌ مظلومٌ بشخصٍ ظُلِم بطريقة مماثلة، فيكتشف أنّ هذا -رغم أنّه قد يكون القاسم المشترك الوحيد بينهما- يكفي وزيادة.

«انظري»، قال والتر، وهو يَعجب من أنّه لم يحظَ يومًا بنقاشٍ صريحٍ هكذا حول الجنس أو البيولوجيا مع أيّ شخص، بمن في ذلك هو نفسه: «بشأن الملابس. إن كان الخيّاط لا يستطيع جعل تلك الفساتين أكثر إتاحةً للتّنفّس، اختاري شيئًا من خزانتك في الوقت الحاليّ».

«لن تنظر في فكرة المريول».

«الأمر بالأحرى هو أنّني أريدك أن تكوني *أنتِ*»، قال: «لا عالمة».

ردَّت بضع خصيلاتٍ فالتة إلى خلف أذنيها. «لكنّني عالمة»، جادلته: «إنّها هويّتي».

«ربّما يكون الأمر كذلك يا إليزابيث زوت»، قال وهو لا يدرك كم سيتبيّن أنّ هذا صحيح: «لكن ما هذه إلّا بداية».

امرأةُ السّويّةِ المتوسّطة

الآن إذ يفكّر في الأمر، يجد أنّه كان ينبغي به على الأرجح أن يدعها ترى ديكورَ موقع التّصوير.

مع بدء عزف الموسيقى - تلك المقطوعة الخفيفة السّاحرة الّتي دفع والتر أكثر من اللّازم بكثير مقابلَها والّتي كرهَتها هي وانتهى الأمر، اعتلت إليزابيث المنصّة بخطوات واسعة. سحب نفَسًا قصيرًا حادًّا. كانت ترتدي فستانًا أسمرَ فاتحًا تصطفّ أزرارٌ صغيرة على كامل طوله وصولًا إلى حاشيته، ومئزرًا متعدّد الجيوب ناصعَ البياض شُدَّ بإحكام حول خصرها، وساعة يد تايمكس تَتكُّ بصوتٍ عالٍ إلى درجةٍ يُقسم معها أنّه يستطيع سماعها فوق صوت طبول الفرقة. على رأسها نظّارةُ وقاية، وخلف أذنها اليسرى قلم رصاص رقم اثنين. تحمل دفترًا بيد، وثلاثة أنابيب اختبار بالأخرى. بدت تهجينًا بين خادمة فندقٍ وخبيرةٍ في وحدةِ متفجّرات.

راقبها وهي تنتظر انتهاء المقطوعة؛ عيناها تجوبان أنحاء الموقع من زاوية إلى أخرى، شفتاها مضمومتان، وكتفاها متقبّضتان بطريقةٍ تَشي بعدمِ الرّضى. ومع عزف النّغمة الأخيرة، استدارت نحو بطاقة

التّلقين، مسحتها بعينيها، ثمّ أشاحت عنها. وضعت دفترها وأنابيب اختبارها على المنضدة، ثمّ سارت إلى المجلى وظهرُها إلى الكاميرا، وانحنت على النّافذة المزيّفة لتُمعن النّظر إلى الإطلالة المزيّفة.

«هذا مقزّز»، قالت في الميكروفون مباشرةً.

التفت المصوّر ينظر إلى والتر، فاغرًا عينيه.

«ذكّرها أنّنا في بثٍّ حيّ»، همس والتر إليه من خلف أسنانه.

بثٌّ حيّ!!!، خربش مساعدُ المصوّرِ متعجّلًا على لوح كبير، ورفعه كي تراه.

قرأت إليزابيث التّذكير، ثمّ رفعت إصبعها كأنّها تشير إلى أنّ الأمر لن يستغرق سوى ثانية أخرى، وتابعت الجولة الّتي تصحب نفسها فيها، متوقّفةً لتتأمّل اللّوحات المنتقاة بعناية الّتي عُلِّقَت على جدار المطبخ -تطريز «بارِكْ هذا البيت»، يسوع محبَط يركع في صلاة، رسمةُ هواةٍ لسفنٍ تبحر في بحر- قبل أن تنتقل إلى أسطح المنضدة المكتظّة، فيتقوّس حاجباها من الجزع حالَ رؤيتِها سلّةَ خياطةٍ تكسوها الدّبابيس المشبكيّة، ومرطبانَ ماسون مليئًا بأزرارٍ مهمَلة، وكُبّةَ خيطان بنّيّة، ومِضيَفةً مصدوعةً مليئةً بسكاكر النّعنع، وصندوقَ خبزٍ خُربِشَت عليه عبارة «خبزنا كفاف يومنا» بخطٍّ دينيّ.

البارحة تمامًا، أعطى والتر مصمّمَ الدّيكور تقييمَ عشرة من عشرة على ذوقه. «هذه الأغراض المتنوّعة هي أكثر ما أحببتُه»، قال له: «إنّها مناسبة تمامًا». لكن اليوم، بجانبها هي، بدت الأغراض أشبه بالخردة. راقبَها وهي تمشي الهوينى إلى الطّرف الآخر من المنضدة،

فيشحب وجهها شحوبًا باديًا للعيان لدى مرأى المملحتين اللّتين لهما شكل دجاجة وديك، وترمق بعدائيّةٍ غطاءَ آلةِ تحميص الخبزِ الورديَّ المَحُوك، ثمّ تَنقُز من كرةٍ صغيرة غريبة مصنوعة بالكامل من الشرائط المطّاطيّة. على يسار الكرة، مرطبان بسكويت بشكل امرأةٍ ألمانيّةٍ بدينة تُعدّ البريتزل. توقّفت على حين غرّة، تنظر فوق رأسها إلى السّاعة الكبيرة المعلّقة بأسلاك، وعقربيها المثبّتين بشكل دائم على السّادسة. طُبع على ميناء السّاعة «العشاء عند السّادسة» بأحرف لمّاعة.

«والتر»، قالت إليزابيث مظلّلةً عينيها تنظر إلى خلف الأضواء السّاطعة: «والتر، كلمة، من فضلك».

«إعلانات، إعلانات!»، هسهسَ والتر للمصوّر إذ بدأت تسلك طريقها خارجَ الموقع إلى مكان جلوسه: «هيّا، الآن! *الآن!*»

«إليزابيث»، قال دافعًا نفسَه عن كرسيّه نحوها: «لا يمكنك أن تفعلي هذا! عودي إلى هناك! نحن في بثٍّ حيّ!»

«أحقًّا؟ حسنًا، لا نستطيع. موقع التّصوير لا يشتغل».

«كلّ شيء يشتغل، الموقد، المجلى، تمّ اختبارها كلّها، والآن عودي إلى هناك»، قال يهشّها بيديه.

«قصدتُ أنّه لا يشتغل معي».

«انظري»، قال: «أنتِ متوتّرة، ولهذا السّبب نسجّل دون جمهورٍ حيٍّ اليوم – كي نمنحك فرصة لتثبّتي قدمَك. لكنّكِ ما زلتِ *على الهواء* -أي في بثٍّ *مباشر*- ولديكِ عملٌ تقومين به. هذه حلقتنا التّجريبيّة؛ يمكننا إدخال تعديلاتٍ لاحقًا».

«إذًا، تقول إنّ التّغييرات ممكنة بالفعل»، قالت واضعةً يديها على خصرها من جديد وهي تعيد مسح الموقع بعينيها: «سنحتاج أن نجري الكثير من التّغييرات».

«طيّب، مهلًا، كلّا»، أجاب بقلق: «كي أكون واضحًا، التّغييرات في ديكور الموقع ليست ممكنة. ما ترينه يجسّد أسابيعَ من البحث الجادّ الّذي أجراه مصمّم ديكورنا. هذا المطبخ هو بالضّبط ما تريده امرأةُ اليوم».

«حسنًا، أنا امرأة، وأنا لا أريد هذا».

«لم أقصدك أنت»، قال والتر: «قصدتُ امرأةَ السّويّةِ المتوسّطة».

- متوسّطة.

- تعرفين ما أعنيه. ربّة المنزل العاديّة.

أصدرت صوتًا أشبه بحوتٍ يُطلق نافورتَه.

«طيّب»، قال والتر بصوت أخفض، ويده تلوّح سُدًى بجانبه: «طيّب، طيّب، انظري، أنا أتفهّم، لكن تذكّري، هذا ليس برنامجنا نحن فقط يا إليزابيث، إنّه برنامج المحطّة أيضًا، وبما أنّهم يدفعون لنا، فالتّصرّف الّذي يُعتبر مقبولًا في العادة هو أن نفعل ما يطلبونه. تعرفين كيف تسير هذه الأمور؛ سبق لك أن عملت في وظيفة».

«لكن في النّهاية»، جادلته: «جميعنا نعمل من أجل الجمهور».

«صحيح»، ردّ عليها: «نوعًا ما. كلّا، مهلًا... ليس حقًّا. مهمّتنا هي أن نعطي النّاس ما يريدونه حتّى إن كانوا لا يعرفون أنّهم

يريدونه. لقد شرحتُ هذا: هكذا هو الأسلوب النّموذجيّ لبرامج ما بعد الظّهيرة. نصف أموات، يستيقظون الآن، *تعلمين*!»

«إعلان آخر؟»، همس المصوّر.

«لا داعي»، قالت بسرعة: «أعتذر من الجميع. أنا جاهزة الآن».

«نحن على الصّفحة نفسها، صحيح؟»، نادى والتر وهي تسلك طريقها عائدةً إلى المنصّة.

«أجل»، أجابت إليزابيث: «تريدني أن أتحدّث إلى امرأةِ *السّويّةِ المتوسّطة*. ربّة المنزل *العاديّة*».

لم تعجبه الطّريقة الّتي قالت ذلك بها.

«خمسة...»، قال المصوّر.

«*إليزابيث*»، حذّرها.

«أربعة...»

«*كلّ ما ستقولينه مكتوب*».

«ثلاثة...»

«*اقرئي بطاقات التّلقين وحسب*».

«اثنان...»

«*أرجوكِ*»، توسّل: «*النّصّ رائع!*»

«واحد... آكشن!»

«مرحبًا»، قالت إليزابيث موجّهةً الكلام إلى الكاميرا مباشرةً: «اسمي إليزابيث زوت، وهذا برنامج *العشاء عند السّادسة*».

«جيّد حتّى الآن»، همس والتر محدّثًا نفسه. *ابتسمي*، أشار إليها بالإيماء يشدّ فمه من الزّاويتين.

«وأهلًا بكنَّ في مطبخي»، أضافت متجهّمةً فيما كان يسوع خائبٌ يحدّق من فوق كتفها اليسرى: «اليوم سوف نحظى بالكثير من...»

توقّفت حين وصلت إلى كلمة «المرح».

تبع ذلك صمتٌ متشنّج. التفت المصوّر ينظر إلى والتر. «نذهب في فاصل إعلانيّ مجدّدًا؟»، أومأ إليه.

«لا»، قال والتر مُشافهةً: «**لا! اللّعنة... عليها أن تفعل هذا! اللّعنة يا إليزابيث**»، تابع دون صوت ملوّحًا بيديه.

بيد أنّ إليزابيث بدَت في غشية، ولا شيء -لا والتر الّذي يلوّح بيديه، ولا المصوّر الّذي يتهيّأ لفاصل إعلانيّ، ولا أخصّائيّة المكياج الّتي تمسح وجهها بالإسفنجة المخصّصة لوجه إليزابيث- استطاع أن يكسر التّعويذة. ما *خطبها*؟

«موسيقى»، قال والتر بشفتيه أخيرًا لفنّيّ الصّوت: *«موسيقى»*.

لكن قبل أن يتسنّى للموسيقى أن تبدأ، لفتت تكتكةُ ساعةِ يد إليزابيث انتباهَها فعادت إليها الحياة. «أنا آسفة»، قالت: «والآن، أين كنّا؟». ألقت نظرةً على بطاقات التّلقين، سكتت لحظةً بعد، ثمّ

أشارت فجأةً إلى السّاعة الكبيرة فوق رأسها: «قبل أن أبدأ، أودّ أن أنصحكنّ أن تتجاهلنَ السّاعة من فضلكنّ، فهي لا تعمل».

على كرسيّ المنتج، أفلت والتر زفيرًا قصيرًا حادًّا.

«أنا آخذ الطّبخ على محمل الجدّ»، تابعت إليزابيث، متجاهلةً بطاقات التّلقين تمامًا: «وأعلم أنّكنّ مثلي أنتنّ أيضًا»، ثمّ دفعت سلّة الخياطة عن المنضدة إلى داخل درج مفتوح. «وأعلم كذلك»، قالت تنظر مباشرةً إلى داخل المنازل القليلة الّتي شغّلت برنامجها صدفةً اليوم: «أنّ وقتكنّ ثمين. حسنًا، وكذلك وقتي. لذا فلنعقد اتّفاقًا، أنتنّ وأنا...»

«ماما»، نادى صبيٌّ صغيرٌ بنبرةِ ضجرٍ من غرفة التّلفاز في بلدة فان نويس الكاليفورنيّة: «لا شيء على التّلفاز».

«أطفئهُ إذًا»، صاحت والدةُ الصّبيّ الصّغير من المطبخ: «أنا مشغولة! العب في الخارج...»

«ماماا... ماماا»، نادى الصّبيّ الصّغير من جديد.

«أوه، بحقّ *السّماء* يا بِنيتي»، قالت امرأةٌ متضايقةٌ وهي تدخل الغرفة، يداها المبلّلتان تمسكان حبّة بطاطا نصف مقشّرة، والرّضيع يبكي في مقعده العالي في المطبخ: «هل يجب أن أفعل لك كلّ شيء؟». لكن حالما مدّت يدَها كي تطفئ إليزابيث، راحت إليزابيث تتحدّث إليها.

«لقد علمتُ من تجربتي أنّ الكثير جدًّا من النّاس لا يقدّرون العمل والتّضحية الّتي ينطوي عليها كونُكِ زوجةً، أمًّا، امرأة. حسنًا،

أنا لست من هؤلاء النّاس. في نهاية دقائقنا الثّلاثين الّتي سنمضيها معًا، سنكون قد فعلنا شيئًا يستحقّ أن يُفعل. سنكون قد أوجدنا شيئًا لن يمرّ دون أن يلاحظه أحد. سنكون قد أعددنا العشاء. وسيكون أمرًا له معنى».

«ما هذا؟»، قالت والدة بيتي.

«لا أدري»، قال بيتي.

«والآن، هيّا بنا نبدأ»، قالت إليزابيث.

لاحقًا، في غرفة ملابسها، مرّت عليها روزا -مصفّفة الشّعر وأخصّائيّة المكياج- كي تودّعها. «إحقاقًا للحقّ، لقد أعجبني تثبيتُ شعرك بقلم الرّصاص».

- إحقاقًا للحقّ؟

- ليبنزمال يصيح على والتر منذ عشرين دقيقة.

- بسبب قلم رصاص؟

- لأنّكِ لم تلتزمي بالنّصّ.

- طيّب، أجل. لكن فقط لأنّ بطاقات التّلقين لم تكن قابلة للقراءة.

«أوه»، قالت روزا والانفراج بادٍ عليها: «هذا هو الأمر؟ لم يكن الخطّ كبيرًا بما يكفي؟»

«لا، لا»، أجابت إليزابيث: «قصدتُ أنّ البطاقات كانت مضلِّلة».

«إليزابيث»، قال والتر إذ ظهر عند باب غرفة ملابسها محمرَّ الوجه.

«على كلّ حال»، همست: «وداعًا إلى الأبد». ضغطت على ذراع إليزابيث برفق.

«أهلًا، والتر»، قالت إليزابيث: «كنتُ أضع لتوّي قائمةً ببضعة أشياء سنحتاج أن نغيّرها على الفور».

«لا أهلًا ولا سهلًا»، ردّ من فوره: «ما خطبكِ بحقّ الجحيم؟»

«كلّا، ليس بي أيّ خطب. في الواقع أظنّ أنّ الأمور سارت على ما يرام إلى حدٍّ ما. أعترف أنّني تلعثمت في البداية، لكن فقط لأنّني كنت مصدومة. لن يتكرّر هذا، ليس بعد أن نصلح الدّيكور».

قطع الغرفةَ يدكُّ الأرض بقدميه وألقى نفسه على كرسيّ. «إليزابيث»، قال: «هذا *عمل*. عليك واجبان اثنان: أن تبتسمي وتقرئي بطاقات التّلقين. هذا كلّ شيء. لا يتسنّى لك أن تدلي برأيك حول موقع التّصوير أو البطاقات».

- أظنّ أنّ هذا يحقّ لي.

- لا!

- على كلّ حال، لم أستطع أن أقرأ البطاقات.

«هراء»، قال: «لقد تمرّنّا على أحجام خطٍّ مختلفة، أتتذكّرين؟ لذا *أعلم* أنّك تستطيعين قراءة البطاقات اللّعينة. ربّاه يا إليزابيث، ليبنزمال مستعدّ لإلغاء الأمر برمّته. هل تدركين أنّكِ وضعتِ كلتا وظيفتينا على المحكّ؟»

«أنا آسفة. سأذهب وأكلّمه الآن فورًا».

«أوه كلّا»، قال والتر سريعًا: «ليس أنتِ».

«لماذا؟»، قالت: «أريد أن أوضّح بضعة أمور، ولا سيّما في ما يخصّ الدّيكور. أمّا بالنّسبة إلى بطاقات التّلقين - مجدّدًا، أنا آسفة يا والتر. لم أقصد أنّني *لم أستطع* أن أقرأها، بل قصدت أنّ ضميري ما كان يسمح لي أن أقرأها. لأنّها كانت بغيضة. من الّذي كتب النّصّ؟»

زمّ شفتيه: «أنا الّذي كتبته».

«أوه»، قالت مباغَتة: «لكن هذه الكلمات. لم تبدُ تشبهني على الإطلاق».

«أجل»، قال يكزّ على أسنانه: «كان هذا *مقصودًا*».

بدت المفاجأة عليها: «ظننتُ أنّك طلبتَ منّي أن أكون *على سجيّتي*».

«ليس إلى *هذه* الدّرجة»، أجابها: «ليس نسخةَ «هذا سيكون معقّدًا، معقّدًا للغاية» منكِ. ليس نسخةَ «الكثير جدًّا من النّاس لا يقدّرون العمل والتّضحية الّتي ينطوي عليها كونُكِ زوجةً، أمًّا، امرأة» منكِ. لا أحد يريد أن يسمع هذه الأشياء يا إليزابيث. يجب أن تكوني إيجابيّة، سعيدة، مستبشرة!»

- لكن هذا ليس أنا.

- لكن بوسعه أن يكون أنتِ.

راجعت إليزابيث حياتها حتّى هذا اليوم: «مستحيل».

«أيمكننا ألّا نتجادل في هذا الشّأن؟»، قال والتر، وقلبه يدقّ باضطرابٍ في صدره: «أنا خبير برامج ما بعد الظّهيرة بيننا، وسبق وشرحتُ لك كيف تسير هذه الأمور».

«وأنا المرأة بيننا»، ردّت بانفعال: «وأتحدّث إلى جمهور نسائيّ بالكامل».

ظهرت سكرتيرة عند الباب. «سيّد باين»، قالت: «إنّنا نتلقّى اتّصالات بخصوص البرنامج. لست متأكّدة ممّا عليّ فعله».

«يا أمَّ يسوع المسيح»، قال: «ها قد بدأت الشّكاوى».

«الأمر يتعلّق بقائمة التّسوّق. شيءٌ من الحيرة بشأن مكوّنات طبق الغد. تحديدًا، CH_3COOH».

«حمض الأسيتيك»، أجابت إليزابيث: «الخلّ - إنّه يحتوي على حمض الأسيتيك بنسبة أربعة بالمئة. أعتذر؛ كان ينبغي على الأرجح أن أكتب القائمة بمصطلحات العوامّ».

«برّبك؟»، قال والتر.

«شكرًا جزيلًا»، قالت السّكرتيرة وانصرفت.

«من أين أتت فكرةُ قائمة التّسوّق أصلًا؟»، سألها: «نحن لم نتناقش في قائمة تسوّقٍ قطّ، ناهيكِ بقائمة مكتوبة بالصّيغ الكيميائيّة».

«أعلم»، قالت: «لقد خطرت لي وأنا أهمّ بدخول موقع التّصوير. أظنّها فكرة جيّدة، ألا توافقني؟»

دفن والتر رأسَه بين يديه. إنّها فكرة جيّدة بالفعل، كلّ الأمر أنّه ليس مستعدًّا للاعتراف. «لا يمكنك أن تفعلي هذا»، قال بصوتٍ مكتوم: «لا يمكنك أن تفعلي أيَّ شيءٍ يحلو لك، حبًّا بالجحيم».

«أنا لستُ أفعل أيَّ شيءٍ يحلو لي»، ردّت إليزابيث منفعلة: «لو أنّني أفعل أيَّ شيءٍ يحلو لي، لكنتُ في مختبر بحوث. انظر»، قالت، «إن لم أخطئ التّقدير، أنت تمرّ بارتفاع في مستويات الكورتيكوستيرون – ما تسمّيه أنت «مُنخفَض ما بعد الظّهيرة». ينبغي على الأرجح أن تأكل شيئًا».

«إيّاكِ»، قال بعنف: «أن تنظّري *عليّ* في منخفض ما بعد الظّهيرة».

طوال الدّقائق القليلة التّالية، ظلّ الاثنان جالسين في غرفة الملابس، واحدٌ ينظر إلى الأرض، والآخر إلى الجدار. ما من شفة تنبس بكلمة.

«سيّد باين؟»، أطلّت سكرتيرة أخرى برأسها: «السّيّد ليبنزمال عليه اللّحاق برحلته الجويّة، لكنّه أراد منّي أن أذكّركَ أنّ أمامك بقيّة الأسبوع كي تصلح "الأمر". أنا آسفة، لا أعرف ما هو "الأمر". يقول إنّه يحسن بك أن تجعل "الأمر"»، راجعَت أوراقها من جديد، «مثيرًا»، حينئذٍ انقلب لونها إلى الورديّ، «وأيضًا، يوجد هذا»، ناولته ملاحظةً خربشها ليبنزمال على عجل. *وماذا بشأن الكوكتيل النَّتِن؟*

«شكرًا»، قال والتر.

«آسفة»، قالت له.

«سيّد باين»، قالت السّكرتيرة الأولى إذ ظهرت لحظةَ همَّت الأخرى بالانصراف: «الوقت متأخّر، عليّ أن أعود إلى المنزل. لكنّ الهواتف...»

«رافقتكِ السّلامة يا بولا»، أجابها: «سأتولّى الأمر».

«أيمكنني المساعدة؟»، سألته إليزابيث.

«لقد ساعدتِ بما يكفي وزيادة اليوم»، قال والتر: «لذا، حين أقول «لا، شكرًا»، فأنا أعني بالفعل *«لا، شكرًا»*».

ثمّ خرج إلى مكتب السّكرتيرة، وإليزابيث في إثره، ورفع سمّاعة أحد الهواتف. «كي سي تي في»، قال متبرّمًا: «أجل. المعذرة. إنّه الخلّ».

«الخلّ»، قالت إليزابيث إذ ردّت على خطٍّ آخر.

«الخلّ».

«الخلّ».

«الخلّ».

«الخلّ».

هو لم يكن يتلقّى ولو مكالمة واحدة أيّامَ برنامج المهرّج.

الفصل 26

الجنازة

«مرحبًا، اسمي إليزابيث زوت، وهذا برنامج *العشاء عند السّادسة*».

على كرسيّ المنتج، أطبق والتر أجفانه بشدّة. «أرجوك»، همس: «أرجوك، أرجوك، أرجوك». إنّه اليوم الخامس عشر منذ بدء البثّ، وهو مُنهَك. مرارًا وتكرارًا شرح لها أنّه مثلما لم يتسنَّ له أن يختار طاولة المكتب الّتي يجلس خلفها، لا يتسنّى لها هي أن تختار المطبخ الّذي تطبخ فيه. الأمر ليس شخصيًّا على الإطلاق؛ يتمّ اختيار مواقع التّصوير -حالها حال طاولات المكاتب- بناءً على البحث والميزانيّة. لكنّها، كلّما أدلى بهذه الحجّة، كانت تومئ برأسها كأنّها فهمت ثمّ تقول: «أجل، *لكن*»، وبعدها يبدأان من أوّل وجديد. والأمر نفسه مع النّصّ. أخبرها أنّ وظيفتها هي أن *تتفاعل* مع الجمهور، لا أن تُضجِره. لكن مع كلّ أحاديثها الجانبيّة الكيميائيّة المملّة، كانت مضجرةً *للغاية*. لهذا قرّرَ أنّ الوقت قد حان أخيرًا لإدخال الجمهور الحيّ، لأنّه يعلم أنّ وجود أشخاص حقيقيّين يجلسون على بعد عشرين قدمًا لا غير سيعلّمها على الفور تَهلُكةَ أن تكون بليدة.

«أهلًا بكنّ في أولى حلقاتنا الّتي يحضرها جمهورٌ حيّ»، قالت إليزابيث.

جيّد حتّى الآن.

«بعدَ ظهيرةِ كلِّ يوم، من الاثنين إلى الجمعة، سنُعدّ العشاء معًا».

ما كتَبَه بالضّبط.

«بدءًا بطبق اللّيلة: طاجن السّبانخ».

لقد رُوِّضت الفرس. ها هي تتّبع الأوامر.

«لكن أوّلًا، علينا أن ننظّف مكانَ عملنا». فغرَ عينيه إذ التقطَت كبّةَ الخيطان البنّيّة وألقَتها إلى الجمهور.

لا، لا، راح يتوسّل بصمت. أدار المصوّر رأسه يلقي نظرةً إليه مع انفجار الجمهور في ضحكة متوتّرة.

«هل ثمّة من يحتاج إلى بعض الشّرائط المطّاطيّة؟»، سألت وهي ترفع كرةَ الشّرائط بيدها. ارتفعت عدّة أيادٍ، فألقَت هذه إلى الجمهور أيضًا.

مبهوتًا، شدّ قبضتَيه على ذراعَي كرسيّه القماشيّ القابل للطّيّ.

«أحبّ أن تكون لديّ مساحة للعمل»، قالت: «هذا يدعّم فكرةَ أنّ العمل الّذي سنقوم به أنتنّ وأنا مهمّ. واليوم لديَّ الكثير ممّا أفعله، وسأجد عونًا في الحصول على مساحة أكبر بعد. هل ثمّة مَن قد يستفيد من مرطبان بسكويت؟»

أمام فزعِ والتر، ارتفعت كلّ الأيادي تقريبًا، وقبل أن يستوعب، راح النّاس يجوبون أنحاء موقع التّصوير فيما تشجّعهم إليزابيث على أخذ أيّ شيء يريدونه. وخلال أقلّ من دقيقة، لم يبقَ غرضٌ واحدٌ إلّا

واختفى - حتّى لوحات الجدار. الشّيء الوحيد الّذي ظلّ مكانه هو النّافذة المزيّفة والسّاعة الكبيرة.

«حسنًا»، قالت بنبرة جدّيّة مع عودة الحضور إلى مقاعدهم: «والآن، هيّا بنا نبدأ».

تنحنح والتر. إحدى القواعد الأولى في التّلفاز، في ما خلا تقديم التّرفيه، هي التّظاهر أنّ كلّ ما يحدث جزءٌ من الخطّة أيًّا كان. هذا ما يُدرَّبُ مقدّمو البرامج على فعله، وهذا ما قرّر والتر -الّذي لم يكن مقدّمَ برامج يومًا- في هذه اللّحظة أن يجرّبه. اعتدل في جلسته على الكرسيّ القماشيّ ثمّ انحنى إلى الأمام كأنّه هو الّذي نسّق لهذا الخرق السّافر لسلوكيّات التّلفاز بنفسه. لكنّ هذا بالطّبع غير صحيح، والجميع يعلم أنّه غير صحيح، وكلٌّ عبّر عن ملاحظتِه عجزَ والتر بطريقته الخاصّة: المصوّر هزّ رأسه، فنّيّ الصّوت تنهّد، مصمّم الدّيكور رفع له إصبعه الأوسط من ميمنةِ المنصّة. وفي هذه الأثناء، كانت إليزابيث على المنصّة تقطّع جُرزةً ضخمةً من السّبانخ بأكبر سكّين رآها في حياته.

ليبنزمال سوف يقتله.

أغمض عينيه للحظات، يستمع إلى البلبلة الصّادرة عن جمهور الاستديو: حركة المقاعد، السّعال المتفرّق. ومن مسافة بعيدة، سمع إليزابيث تتحدّث عن الدّور الّذي يلعبه البوتاسيوم والمغنيزيوم في الجسم. لقد كانت بطاقة التّلقين الّتي كتبَها لهذا المقطع تحديدًا واحدةً

من المفضّلة لديه: *أليس لون السّبانخ جميل؟ أخضر. إنّه يذكّرني بالرّبيع.* وها هي قد تخطّتها بالكامل.

«... يعتقد الكثيرون أنّ السّبانخ تجعلنا أقوياء لأنّها تحوي من الحديد مقدارًا يكاد يماثل ما في اللّحم. لكنّ الحقيقة أنّ السّبانخ غنيّةٌ بحمض الأكساليك، الّذي يثبّط امتصاص الحديد. لذا حين يلمّح باباي إلى أنّ السّبانخ هي الّتي تقوّيه، لا تصدّقوه».

يا للرّوعة. والآن ها هي تنعت باباي بالكذّاب.

«مع ذلك، تقدّم السّبانخُ قيمةً غذائيّةً وفيرة، وسنتحدّث عن ذلك وأكثر»، قالت تلوّح بسكّينها في وجه الكاميرا: «مباشرةً بعد هذا الفاصل».

يا لعنات يسوع المسيح. لم يُكلّف نفسه حتّى عناء النّهوض.

«والتر»، قالت إذ صارت بجانبه بعد لحظة قصيرة: «ما رأيك؟ لقد أخذتُ بنصيحتك؛ تفاعلتُ مع الجمهور».

التفت ينظر إليها وقد تخشّب وجهُه.

«حدثَ ما كنتَ تتكلّم عنه بالضّبط: *قدّمنا التّرفيه*. حين علمتُ أنّني بحاجة إلى المزيد من المساحة على المنضدة، خطرت ببالي مبارياتُ البيسبول – حين يلقي الباعةُ الفستقَ إلى الحضور؟ وقد نجح الأمر».

«أجل»، قال بفتور: «ثمّ لم تلبثي أن دعوتِ الجميع إلى أخذ راحتِهم والدّخول إلى وسط الملعب، ليأخذوا المضارب والقفّازات وأيَّ شيءٍ يصادفونه غير ذلك».

بدت متفاجئة: «تبدو غاضبًا».

«ثلاثون ثانية يا سيّدة زوت»، قال المصوّر.

«لا، لا»، أجاب بهدوء: «أنا لستُ غاضبًا. أنا *حانق*».

- لكنّك قلت أن أقدّم ترفيهًا.

- لا. ما فعلتِه هو أنّكِ أخذتِ أشياء ليست ملكك ووزّعتِها على النّاس.

- لكنّني كنت *أحتاج* إلى المساحة.

«جهّزي نفسَكِ للموتِ يوم الاثنين»، قال: «أنا أوّلًا، ثمّ أنتِ».

استدارت مبتعدة.

«لقد عدت»، سمعَها تقول بصوتٍ مغتاظ، فيما الجمهور يُصفّق مانحًا إقرارَه. لحسن حظّه، لم يسمع سوى النّزر اليسير بعد ذلك، لكن هذا فقط لأنّ معدته راحت تؤلمه وقلبه صار يفرقع في أنحاء صدره بطريقة تمنّى أنّها تدلّ على شيء شديد الخطورة. أغمض عينيه كي يستعجل موتَه - سكتة أو نوبة قلبيّة، سيرضى بهذه أو تلك.

رفع رأسه فرأى إليزابيث تلوّح بذراعها في أنحاء المطبخ الخاوي. «الطّبخ كيمياء»، كانت تقول: «والكيمياء هي الحياة. قدرة المرء على تغيير كلّ شيء -بما في ذلك نفسه- تبدأ هنا».

لطفك يا الله.

انحنت سكرتيرته وهمست شيئًا بشأن أنّ ليبنزمال يريد رؤيته في الصّباح الباكر قبل أيّ شيء. أغمض عينيه من جديد. *استرخِ*، قال لنفسه: *تنفّس*.

من خلف أجفانه، رأى شيئًا لم يكن يروق له أن يراه. رأى نفسَه في جنازة -جنازته هو- والكثير من النّاس في أزياء زاهية الألوان يحومون في المكان. تناهى إلى سمعه صوتٌ -سكرتيرته؟- يروي قصّة موته. كانت قصّةً مملّةً ولم تعجبه، لكنّها تلائم سيرتَه مع برامج ما بعد الظّهيرة. أصغى بأناة، آملًا أن يسمع أخبارًا عن حياته ممزوجةً بالإطراء، بيد أنّ النّاس كانوا في الغالب يقولون أشياء من قبيل: «إذًا، ماذا ستفعل نهايةَ هذا الأسبوع؟»

من مسافة بعيدة، سمع إليزابيث زوت تتكلّم عن أهمّيّة العمل. كانت تَعِظُ من جديد، وتملأ رؤوسَ المُعزّين بأفكار عن احترام الذّات. «جازِفوا»، تقول: «لا تخافوا من التّجريب».

لا تكونوا مثل والتر، تقصد.

ألم يكن يُفترض أن يرتدي النّاسُ الأسوَدَ في الجنائز؟

«الإقدامُ في المطبخ يُفضي إلى إقدامٍ في الحياة»، زعمت زوت.

من الّذي طلب منها أن تُلقي هذا التّأبينَ أصلًا؟ فيل؟ يا للوقاحة. وكم يحقّ لها أن تتكلّم، نظرًا إلى أنّ المجازفة الوحيدة الّتي أقدم عليها هو، والتر باين، في حياته كلّها -توظيفه لها- تتكشّف الآن عن أنّها سببُ موتِه السّابقِ لأوانه. فلتُقبّل مجازفاتُكِ وعدمُ خوفكِ من التّجريب *قفاي* يا زوت. من الميت هنا؟

ظلّ يسمع صوتَها في الخلفيّة مترافقًا مع ضرباتِ سكّين مُلحّة، ثمّ -بعد عشر دقائق أخرى أو نحوها- جاءت توصياتُها الختاميّة.

«أيّها الأطفال، جهّزوا الطّاولة. والدتكم تحتاج إلى لحظةٍ لنفسها».

أي، بصياغة أخرى: فلنكتفِ بهذا القدر عن والتر الميت - هيّا نَعُد إليّ أنا.

صفّق المُعزّونَ بحماسة. جاء وقتُ الذّهاب إلى الحانة.

ما مِن شيءٍ يُذكر بعد هذا. لسوء الحظّ، كان موتُه المتخيَّل شبيهًا جدًّا بحياته. خطر له أنّ «الموت من الملل» قد لا تكون مجرّد عبارة.

«سيّد باين؟»

«والتر؟»

أحسَّ بيدٍ تلمس كتفَه. «هل ينبغي أن أتّصل بطبيب؟»، سأل الصّوتُ الأوّل.

«ربّما»، قال الصّوت الآخر.

فتح عينيه ليجد زوت وروزا واقفتين قربَه.

«نعتقد أنّك ربّما غبتَ عن الوعي»، قالت زوت.

«كنتَ مرتخيًا على نفسك»، أردفت روزا.

«نبضُك متسرّع»، قالت إليزابيث وأصابعها على معصمه.

«هل أتّصل بطبيب؟»، سألت روزا من جديد.

«والتر، هل أكلت؟ متى أكلتَ آخر مرّة؟»

«أنا بخير»، قال والتر بصوت أجشّ: «اذهبي من هنا». لكنّه لم يكن يشعر أنّه على ما يرام تمامًا.

«لم يأكل على الغداء»، قالت روزا: «لم يأخذ شيئًا من العربة. ونعرف أنّه لم يتناول عشاءً».

«والتر»، قالت إليزابيث متوليّةً زمام الأمر: «خذ هذا معك إلى المنزل»، وضعَت طبقَ فرنٍ كبيرًا بين يديه، «إنّه طاجن السّبانخ الّذي أعددتُه لتوّي. ضعه في الفرن على حرارة ثلاثمئة وخمس وسبعين درجة لأربعين دقيقة. أيمكنك أن تفعل هذا؟»

«لا»، أجاب يعتدل في جلسته: «لا يمكنني. وعلى أيّة حال، أماندا تكره السّبانخ. لذا مجدّدًا، لا». ثمّ، إذ أدركَ أنّه بدا مثل طفلٍ شَكِس، التفت إلى أخصّائيّة الشّعر والمكياج (ماذا كان اسمها؟) وقال: «أنا آسفٌ جدًّا أنّي أقلقتُكِ»، متخبّطًا بين مزيج من الأسماء المحتملة، «لكنّني على خير ما يرام. والآن، فلتحظَي بليلة هانئة».

وكي يثبت كم هو بخير، نهض عن كرسيّه وسار في غير ثباتٍ إلى مكتبه، لينتظر حتّى يتوثّق من مغادرتهما المبنى كلتيهما قبل أن يغادر هو. لكن عندما وصل إلى باحة السّيّارات، وجد الطّبقَ على سطحِ سيّارته، مع ملاحظة تقول: *في الفرن على درجة 375 لأربعين دقيقة.*

حين وصل إلى البيت، وفقط لأنّه كان متعَبًا، أقحمَ الشّيءَ اللّعين في الفرن، وجلس بعد وقت غير طويل ليتناول العشاء مع ابنته الصّغيرة.

وبعد ثلاث لقمات، أعلنت أماندا أنّ هذا أفضل شيء أكلَته على الإطلاق.

الفصل 27

كلّ شيءٍ عنّي

مايو 1960

«يا أولاد، يا بنات»، قالت السّيّدة مودفورد الرّبيعَ التّالي: «سوف نبدأ مشروعًا جديدًا، وهو يُدعى ''كلّ شيءٍ عنّي''».

سحبت ماد شهيقًا حادًّا.

«من فضلكم، اطلبوا من أمّهاتكم أن يملأن هذه. إنّها تسمّى شجرة عائلة. ما تكتبه الأمّ على هذه الشّجرة سيساعدكم كي تتعلّموا عن شخصٍ شديد الأهمّيّة. من يعرف من عساه يكون هذا الشّخص؟ تلميح: الجواب موجودٌ في *عنوان* مشروعنا الجديد، ''كلّ شيءٍ عنّي''».

كان الأطفال يجلسون في نصف دائرة غير متقنة عند قدمَي السّيّدة مودفورد، أيديهم تسند ذقونَهم.

«من يريد أن يخمّن أوّلًا؟»، حثّتهم مودفورد: «نعم، تومي»، قالت.

- هل أستطيع أن أذهب إلى الحمّام؟

- هل *من الممكن*، تومي، وكلّا. الدّوام يكاد ينتهي، من الممكن أن تذهب بعد قليل.

«الرّئيس»، قالت لينا.

«*أيمكن أن* يكون الرّئيس؟»، صحّحت السّيّدةُ مودفورد: «وكلّا، خطأ يا لينا».

«أيمكن أن تكون لاسي؟»، قالت أماندا.

«كلّا يا أماندا. هذه شجرة عائلة، وليست بيتَ كلاب. نحن نتحدّث عن *أشخاص*».

«الأشخاص حيوانات»، قالت مادلين.

«كلّا، ليسوا كذلك يا مادلين»، تأفّفَت السّيّدة مودفورد: «الأشخاص بشر».

«ماذا عن الدّبّ يوغي؟»، سأل طفلٌ آخر.

«*أيمكن أن يكون* الدّبّ يوغي؟»، قالت السّيّدة مودفورد بشيءٍ من الغضب: «وبالطّبع كلّا. شجرة العائلة لا تُملأ بالدّببة، وبالتّأكيد لا علاقة لها ببرامج التّلفاز. نحن أشخاص!»

«لكنّ الأشخاص حيوانات»، أصرّت مادلين.

«مادلين»، قالت السّيّدة مودفورد بحدّة: «هذا يكفي!»

«نحن حيوانات؟»، قال تومي لمادلين فاغرًا عينيه.

«**كلّا! لسنا كذلك!**»، صاحت السّيّدة مودفورد.

غير أنّ تومي كان قد سارع إلى دسّ أصابعه تحت إبطيه وراح ينطنط في أنحاء الصّفّ ويُوَعوِعُ مثل الشّمبانزي. «إي إي!»،

صاح ببقيّة التّلاميذ، فانضمّ نصفُهم دون إبطاء: «إي إي أو أو! إي إي أو أو!»

«**توقّف يا تومي**»، صاحت السّيّدة مودفورد: «**توقّفوا جميعًا! إن كنتم لا تريدون أن تذهبوا إلى مكتب المدير، توقّفوا عن هذا الآن فورًا!**». وما كان من خشونة صوتِها المتضافرة مع التّهديد بسلطةٍ أعلى إلّا أن أرجعَت الأطفالَ إلى مواقعهم على الأرض. «**والآن**»، قالت باقتضاب: «كما كنتُ أقول، سوف تتعلّمون بعض الأشياء الجديدة عن شخصٍ شديد الأهمّيّة. **شخص**»، شدّدَت تحدج مادلين، «والآن، من عساه يكون **هذا الشّخص**؟»

لم يأتِ أحدٌ بحركة.

«*من؟*»، قالت بنبرةٍ آمرة.

هُزَّت بضعة رؤوس.

«أوه، إنّه أنتم أيّها الأطفال»، صاحت غاضبة.

«ماذا؟ لماذا؟»، سألت جودي بشيءٍ من الذّعر: «ما الّذي فعلناه؟»

«لا تكوني سميكةَ المخّ يا جودي»، قالت السّيّدة مودفورد: «بحقّ السّماء!»

«أمّي تقول إنّها لن تعطي المدرسةَ سنتًا واحدًا بعد»، قال صبيٌّ أقشفُ الهيئةِ يُدعى روجر.

«من قال أيَّ شيء بشأن المال يا روجر!»، زعقت السّيّدة مودفورد.

«هل أستطيع أن أرى الشّجرة؟»، سألت مادلين.

«هل *من الممكن*»، دوّى صوتُ السّيّدة مودفورد.

«هل من الممكن؟»، سألت مادلين.

«**كلّا، ليس من الممكن**»، صرخت السّيّدة مودفورد، وطوَت الورقة مرّتين، كأنّ مجرّد طيِّها سيجعلها منيعةً على مادلين. «هذه الشّجرة ليست من *أجلك* يا مادلين، بل من أجل *والدتك*. والآن يا أطفال»، قالت محاولةً أن تعثر على طريقها نحو زمام السّيطرة من جديد: «نظّموا أنفسكم في طابورٍ أحاديّ. سوف أثبّت الأوراقَ بدبابيس على قمصانكم، ثمّ يحين وقت العودة إلى المنزل».

«أمّي تريد منكِ أن تكفّي عن تثبيت الأشياء بالدّبابيس عليّ»، قالت جودي: «تقول إنّكِ تثقّبين ملابسي».

أمُّكِ قحبةٌ كذّابة، أرادت السّيّدة مودفورد أن تقول، لكنّها قالت عوضًا عن هذا: «لا مشكلة يا جودي، سنستخدم دبّاسةَ الورق معك بدلًا من ذلك».

واحدًا تلو الآخر، تركَ الأطفال السّيّدةَ مودفورد تثبّت الأوراق على كنزاتهم، ثمّ ساروا في طابورهم خارجين من الباب، الّذي ما إن اجتازوا عضادتَه حتّى اكتسبوا سرعةً من فورهم مثل أمهار صغيرة ظلّت مربوطةً لساعات.

«إلّا أنتِ يا مادلين»، قالت: «أنتِ ابقي هنا».

«دعيني أتأكّد أنّني فهمتُ الأمر»، قالت هارييت حين بيّنَت ماد لها سببَ تأخّرِها: «اضطررتِ إلى البقاء بعد موعد الانصراف لأنّك قلتِ لمدرّستك إنّ النّاس حيوانات؟ لماذا قلت شيئًا كهذا يا عزيزتي؟ هذا ليس لطيفًا كثيرًا».

«أحقًّا؟»، قالت مادلين محتارة: «لكن لماذا؟ نحن حيوانات بالفعل».

تساءلت هارييت بينها وبين نفسها إذا ما كانت ماد على حقّ - هل النّاس حيوانات حقًّا؟ ليست متأكّدة. «ما أريد أن أقوله»، قالت: «هو أنّ الأفضل في بعض الأحيان ألّا نجادل. مدرّستك تستحقّ منكِ الاحترام، وهذا يعني أحيانًا أن توافقيها حتّى عندما لا تكونين موافقة. هكذا تعمل الدّبلوماسيّة».

- كنتُ أظنّ أنّ الدّبلوماسيّة تعني التّصرّف بلطف.

- هذا ما أعنيه.

- حتّى إن كانت تقول لنا أشياء خاطئة.

- أجل.

مضغَت مادلين شفتَها السّفليّة.

- أنتِ ترتكبين الأخطاء أحيانًا، أليس كذلك؟ ولن ترغبي أن يصحّح شخصٌ لكِ أمام الكثير من النّاس، صحيح؟ الأرجح أنّ السّيّدة مودفورد شعرت بالإحراج لا أكثر.

- لم يبدُ عليها الإحراج. وهذه ليست أوّل مرّةٍ تعطينا فيها معلومات سيّئة؛ الأسبوع الماضي قالت إنّ الله خلق الأرض.

«الكثير من النّاس يعتقدون ذلك»، قالت هارييت: «لا مشكلة في هذا الاعتقاد».

«أنتِ تعتقدين ذلك؟»

«لِمَ لا نُلقِ نظرةً على هذه الورقة؟»، قالت بسرعة، تفكّ الورقة عن كنزة مادلين.

«إنّه مشروع شجرة عائلة»، قالت مادلين وهي تُسقط علبةَ طعامها من يدها على المنضدة: «على ماما أن تملأها».

«هذه الأشياء لا تعجبني»، غمغمت هارييت وهي تتفحّص السّنديانة المرسومة بشكل رديء؛ غصونُها تطالبُ بأسماء الأقرباء -أحياء، مفقودين، موتى- الّذين يربط بين واحدهم والآخر الزّواجُ أو الولادة أو الحظّ العاثر. «نقّارةُ الخشب الحشريّة هذه. ألم تُعطِكم معها مذكّرةَ استدعاءٍ أيضًا؟»

«هل كان ينبغي أن تفعل؟»، سألت مادلين في خشية.

«أتعرفين ما هو رأيي؟»، قالت هارييت وهي تُعيد طيَّ الورقة: «أرى أنّ هذه الشّجرات تمثّل سعيًا هزيلًا من المرء كي يشعر أنّه شخصٌ ما بناءً على شخصٍ آخر. وعادةً ما تترافق مع انتهاكٍ للخصوصيّة. أمّك سوف تستشيط غضبًا. لو كنتُ مكانك، لما أريتُها هذا».

«لكنّني لا أعرف أيًّا من الأجوبة. أنا لا أعرف أيَّ شيء عن أبي». فكّرت في قصاصة الورق الّتي تركَتها أمُّها في علبة طعامها هذا الصّباح. *أمينة المكتبة هي المعلّم الأهمّ في المدرسة؛ بوسعها أن تبحث وتكتشف ما لا تعرفه. هذا ليس رأيًا، بل حقيقة. لا تشاركي هذه الحقيقة مع السّيدة مودفورد.*

لكن حين سألت مادلين أمينةَ مكتبةِ مدرستها إذا ما كان بوسعها أن ترشدها إلى بعض الكتب السّنويّة من كامبريدج، عبسَت في وجهها، ثمّ ناولتها نسخةَ الشّهر الماضي من مجلّة *هايلايتس*[1].

«أنت تعرفين الكثير عن والدك»، قالت هارييت: «على سبيل المثال، تعرفين أنّ والدَيه -جدَّيكِ- ماتا بحادثة قطار حين كان صغيرًا. وأنّه ذهب كي يعيش مع عمّته إلى أن اصطدمت بشجرة. ثمّ ذهب ليعيش في دارٍ للبنين - نسيتُ اسمها لكنّه بدا بناتيًّا. وأنّ والدك كانت لديه عرّابةٌ من نوعٍ ما، إلّا أنّ العرّابات لا يدخلن في شجرة العائلة».

ما إن أتت هارييت على ذكر العرّابة حتّى تمنّت لو أنّها لم تفعل. هي لم تعرف بأمر العرّابة إلّا بسبب تطفّلها، لكن مع ذلك، كان واضحًا أنّها لم تكن عرّابة حقيقيّة، بل أقرب إلى عرّابة من قصص الجنّيّات. وهي تعرف كلّ هذا لأنّ كالفن، ذاتَ يومٍ قبل حتّى أن يلتقي إليزابيث بكثير، غادر إلى عمله على عجَلٍ فترَكَ بابه الأماميّ مفتوحًا، وهي تصرّفت بما يقتضيه واجبُ الجيرة وذهبت كي تغلقه.

وبطبيعة الحال، لأنّها من نوع الأشخاص الّذين لا يكتفون بالحدّ المطلوب، فقد دخلت إلى المنزل كي تتأكّد أنّه لم يتعرّض للسّطو، وهذا استلزمَ أن تصحب نفسها في جولة شاملة أعلمَتها أنّ شيئًا لم يحدث خلال الثّواني السّتّ والأربعين الّتي انقضت منذ مغادرة كالفن.

---

(1) هايلايتس: مجلّة أطفال أمريكيّة نُشِر عددها الأوّل عام 1946. (المترجم)

غير أنّها بدخولها اكتشفت عدّة أشياء. أوّلًا: أنّ كالفن إيفانز عالمٌ ذو شأنٍ من نوعٍ ما، فقد ظهر على غلاف مجلّة. ثانيًا: أنّه فوضويّ. ثالثًا: أنّه نشأ في مدينةِ سو، نزيلَ دارِ بنين تبدو سيّئةَ السّمعة ولها طابعٌ دينيّ. وهي لم تعرف بموضوع الدّار سوى لأنّها رأت ورقةً مكرمشةً ملقاةً في قمامته - ورقةً التقطَتها لأنّ ما من أحدٍ ليس معرّضًا لأن يرمي بالغلط أكثر شيء حرص على الاحتفاظ به. وفقًا للرّسالة، الدّار بحاجة إلى المال. لقد فقدوا متبرّعَهم الأبرز - شخصًا تكفّل ذاتَ مرّة بمنح الأولاد «فرصًا تربويّةً علميّةً ونشاطات خارجيّة صحّيّة». وكانت الدّار الآن تطلب مساعدةَ نزلائها السّابقين. هل بوسع كالفن إيفانز أن يقدّم العون؟ *بادرِ إلى الموافقة! تبرّع لدار جميع القدّيسين للبنين اليوم!* جوابُه هو الآخر كان في القمامة، وكان يقول بصيغة أو بأخرى: كيف تجرؤون؟ تبًّا لكم، يجب أن تكونوا في السّجن كلّكم.

«ما هي العرّابة؟»، سألتها مادلين.

«صديقة مقرّبة للعائلة أو واحدة من الأقارب»، قالت هارييت تدفع الذّكرى بعيدًا: «شخص يُفترض أن يعتني بحياة المرء الرّوحانيّة».

- هل لديّ واحدة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- عرّابة؟

- حياة روحانيّة.

«أوه»، قالت هارييت: «لا أدري. هل تؤمنين بأشياء لا تستطيعين رؤيتها؟»

«أحبّ الخدع السّحريّة».

«أنا لا أحبّها»، قالت هارييت: «لا أحبّ أن أُخدَع».

- لكنّك تؤمنين بالله.

- حسنًا، أجل.

- لماذا؟

- أؤمن وحسب. معظم النّاس يفعلون.

- أمّي لا تفعل.

«أدري»، قالت هارييت محاولةً أن تخفي استنكارها.

هارييت تعتقد أنّ عدم الإيمان بالله أمر خاطئ، ويفتقر إلى التّواضع. برأيها، الإيمان بالله مطلوب، مثل تفريش الأسنان أو ارتداء الملابس الدّاخليّة. وبالتّأكيد، كلّ الأشخاص المحترمين يؤمنون بالله - حتّى غير المحترمين، مثل زوجها، يؤمنون بالله. الله هو السّبب الّذي يجعلهما يظلّان متزوّجين ويجعل زواجَهما العبءَ الّذي يثقل كاهلها - لأنّ الله هو من أعطاها إيّاه. الله مولَعٌ بالأعباء، وهو يحرص أن ينال كلٌّ نصيبَه منها. إلى جانب أنّ من لا يؤمن بالله لا يتسنّى له بالتّالي أن يؤمن بالجنّة أو الجحيم، وهي تريد كثيرًا أن تؤمن بالجحيم، لأنّها تريد كثيرًا أن تؤمن أنّ مصيرَ السّيّد سلون سينتهي به إلى هناك. نهضت واقفة: «أين حبلك؟ أظنّ أنّ الوقت قد حان للتّدريب على العُقَد».

«أنا أجيدها أساسًا»، قالت ماد.

- أتستطيعين تنفيذها مغمضةَ العينين؟

- أجل.

- لكن ماذا عن ربطِها من خلف ظهرك؟ هل تستطيعين أن تفعلي هذا؟

- أجل.

كانت هارييت تتظاهر أنّها داعمة لهوايات ماد الغريبة، لكنّ الحقيقة أنّها ليست كذلك. الطّفلة لا تحبّ دمى باربي ولا لعبةَ الصّقلة[1]، بل تحبّ عقدَ الحبال والكتبَ الّتي تتحدّث عن الحرب والكوارثَ الطّبيعيّة. البارحة سمعَتها تمتحنُ معلوماتِ أمينةِ مكتبةِ وسطِ البلد حول بركان كراكاتوَا - متى يمكن أن يحدث انفجارُه التّالي برأيها؟ وكيف سيحذّرون السّكّان؟ وكم عدد الأشخاص الّذين سيموتون تقريبًا؟

التفتت هارييت تراقب مادلين وهي تحدّق في شجرة العائلة؛ عيناها الرّماديّتان الكبيرتان تمسحان غصونها الخاوية، أسنانها تقضم طرفَ شفتِها بمثابرة. كالفن كان ماضغَ شفاهٍ مخضرمًا. هل يمكن توريث هذه الأشياء جينيًّا؟ ليست متأكّدة. لقد أنجبت هارييت أربعة أولاد، كلٌّ منهم يختلف تمامَ الاختلاف عن البقيّة ويختلف كلّيًّا عنها هي نفسها. والآن؟ باتوا غرباء جميعهم، كلٌّ يعيش في مدينة بعيدة وله حياته الخاصّة وأولاده. هي ترغب أن تفكّر أنّ ثمّة رابطةً فولاذيّةً

(1) الصّقلة أو الزّقطة أو اللّقطة أو الخمس حصوات (السّبع حصوات أحيانًا): لعبة أطفال قد تُلعب فرديّةً أو بين عددٍ من اللّاعبين، يقذف اللّاعبُ حصوةً واحدةً عاليًا ويلتقط البقيّةَ تباعًا، وباتت تُلعَب حديثًا بكرةٍ وقطعٍ معدنيّة مخصّصة لهذا الغرض عوضًا عن الحصى. (المترجم)

حصينةً تربطها بهم مدى الحياة، لكنّ الأمور لا تسير هكذا. العائلات تتطلّب تعهُّدًا متواصلًا بالرّعاية.

«هل أنتِ جائعة؟»، قالت هارييت: «أترغبين ببعض الجبنة؟»، مدّت يدها في البرّاد، فيما أخرجت مادلين كتابًا من حقيبتها المدرسيّة. *خمسة أعوام مع أكَلةِ لحوم البشر في الكونغو*[1].

نظرت هارييت إلى الخلف من فوق كتفها: «عزيزتي، هل تعرف مدرّستك أنك تقرئين هذا؟»

- كلّا.

- لا تخبريها.

هذه ناحية أخرى لا يتآلف فيها رأيُها ورأي إليزابيث: القراءة. قبل خمسة عشر شهرًا، كانت هارييت تفترض أنّ مادلين تتظاهر بإجادة القراءة تظاهرًا، فالأطفال يحبّون أن يقلّدوا أهلهم. لكن سرعان ما اتّضح أنّ إليزابيث لم تعلّم مادلين القراءة وحسب، بل قراءة أشياء بالغة التّعقيد: الصّحف، الرّوايات، *بوبيولر ميكانيكس*.

وضعت هارييت في اعتبارها احتمالَ أن تكون الطّفلة عبقريّة، فوالدها كان كذلك. لكن لا، الأمر فقط أنّ ماد تلقَّت تعليمًا جيّدًا، وهذا بفضل إليزابيث. إليزابيث ببساطة ترفض أن تقبل القيود، لا لنفسها فقط، بل للآخرين كذلك. بعد مرور نحو عام على وفاة السّيّد إيفانز، صادفت هارييت على مكتب إليزابيث بعضَ الملاحظات، الّتي بدت تشير إلى أنّها تحاول تعليم ستّة ونصف عددًا غير معقول من

(1) Five Years with the Congo Cannibals.

الكلمات. وقتئذٍ، عزَت هارييت الأمر إلى شيءٍ من الخبَل المؤقّت – هكذا هي لوعة الفقد. لكن في ما بعد، حين كانت ماد في الثّالثة، سألت ذات مرّة إن كان أحدٌ قد رأى اليويو خاصّتها، فجاء ستّة ونصف بعد دقيقة وألقاه في حضنها.

يَظهر عنصرُ الاستحالة هذا نفسُه في «العشاء عند السّادسة»؛ إليزابيث تفتتح كلَّ حلقة بالتأكيد على أنّ الطّبخ ليس سهلًا وأنّ الدّقائق الثّلاثين التّالية يمكن كثيرًا أن تكون شاقّةً بحقّ.

«الطّبخ ليس علمًا مضبوطًا»، قالت إليزابيث البارحة تمامًا: «حبّة الطّماطم الّتي أمسكها بيدي مختلفةٌ عن تلك الّتي تُمسكنها بأيديكنّ. لهذا يجب أن تتفاعلن مع المكوّنات بأنفسكنّ. قُمنَ بالتّجريب: تذوّقن، المسن، اشممن، انظرن، أنصتن، اختبرن، قيّمن». ثمّ صحبَت مشاهِداتِها في وصفٍ محكمٍ لعمليّات التّحلّل الكيميائيّ، الّتي –عندما تُحفَّز عن طريق ضمّ مكوّناتٍ متفاوتةٍ بعضها إلى بعض في شروطٍ مضبوطةِ الحرارة– تُنتِجُ مزيجًا معقّدًا من التّأثُرات الإنزيميّة يقود إلى شيءٍ جاهزٍ للأكل. هنالك كلام كثير عن الأحماض والأسُس وشوارد الهيدروجين، وبعد سماعه باستمرار طيلة أسابيع، بدأت هارييت تفهم بعضَه على نحوٍ مستغرَب.

طوالَ العمليّة، ظلّت إليزابيث تقول لمشاهداتها بوجهٍ جديٍّ إنّهنّ على قدر هذا التّحدّي الصّعب، إنّها تعلم أنّهنّ قادرات وواسعاتُ الحيلة، وإنّها تؤمن بهنّ. إنّه برنامج غريب جدًّا. ليس ترفيهيًّا تمامًا، بل هو أقرب إلى تسلّق جبل. شيء يشعر المرء بشعور جيّد إزاءه، لكن فقط بعد أن ينتهي.

ومع ذلك، كانت هي ومادلين تشاهدان «العشاء عند السّادسة» معًا كلّ يوم، حابستَين أنفاسهما، جازمتَين كلَّ مرّة أنّ هذه الحلقة ستكون الأخيرة.

كانت مادلين قد فتحت كتابها، وهي الآن تمعن النّظر في رسمٍ يصوّر رجلًا يقضم عظمَ فخذِ رَجلٍ آخر. «هل مذاق النّاس لذيذ؟»

«لا أدري»، قالت هارييت وهي تضع لها بضعة مكعّبات من الجبنة أمامها: «أنا واثقة أنّ الأمر يتعلّق بطريقة التّحضير. بوسع والدتك على الأرجح أن تجعل مذاق أيّ شخصٍ لذيذًا». *باستثناء السّيد سلون*، أضافت في قرارتها: *لأنه متعفّن*.

أومت مادلين برأسها: «الجميع يحبّون ما تعدّه ماما».

«من هؤلاء الجميع؟»

«الأولاد»، أجابت مادلين: «بات بعضهم يُحْضِر نفس الغداء الّذي أحضره معي الآن».

«حقًّا؟»، قالت هارييت متفاجئة: «طعام متبقٍّ؟ من عشاء اللّيلة السّابقة؟»

- أجل.

- أمّهاتهم يشاهدن برنامج أمّك؟

- على ما يبدو.

- *حقًّا؟*

«أجل»، أجابت مادلين بنبرة توكيد، كما لو كانت هارييت تعاني بطئًا في الاستيعاب.

لقد كانت هارييت تفترض أنّ مشاهدي «العشاء عند السّادسة» قلّة قليلة، وإليزابيث أكّدت هذا حين أسرّت إليها أنّ مدّة الأشهر السّتّة التّجريبيّة خاصّتها تكاد تنتهي، وأنّ الأمر كان معركةً طيلة الوقت، وأنّها واثقة إلى حدٍّ بعيد أنّها لن تحصل على تجديد.

«لكنّك تستطيعين بالتّأكيد أن تلاقيهم في الوسط؟»، سألتها هارييت آنذاك، محاولةً تمويهَ لهفتِها، فهي تحبّ مشاهدة إليزابيث على التّلفاز: «ربّما لو تجرّبين أن تبتسمي».

«أبتسم؟»، ردّت إليزابيث: «هل يبتسم الجرّاحون خلال عمليّات استئصال الزّائدة الدّوديّة؟ كلّا. هل كنتِ لترغبي أن يفعلوا؟ كلّا. الطّبخ، مثل الجراحة، يتطلّب تركيزًا. على أيّة حال، فيل ليبنزمال يريد منّي أن أتصرّف كما لو كان النّاسُ الّذين أخاطبهم هُبلًا. لن أفعل هذا يا هارييت، لن أساهم في تكريس الخرافة الّتي تقول إنّ النّساء ناقصاتُ كفاءة. إن أرادوا إلغاء العقد فليكن، سأشتغل شُغلًا آخر».

لكنّ الشّغل الآخر لن يعود بما يقارب هذا المردود، فكّرت هارييت. بفضل نقود التّلفاز، استطاعت إليزابيث أن تفي بوعدها: صارت الآن تدفع لهارييت. كان هذا أوّل راتب تتقاضاه هارييت في حياتها، ولم تستطع أن تصدّق كم جعلها تشعر بالقوّة.

«تعلمين أنّني أتّفق معك»، أجابت هارييت، تخطو بحذر: «لكن ربّما بوسعك أن تتظاهري أنّك تفعلين ما يريدونه مجرّدَ تظاهُر. تعرفين، أن تُسايِسيهم».

أمالت إليزابيث رأسها إلى الجانب: «أسايِسهم؟»

«تفهمين قصدي»، قالت هارييت: «أنت ذكيّة. وهذا قد يكون منفّرًا بالنّسبة إلى السّيّد باين، أو ذاك الّذي يُدعى ليبنزمال. تعرفين كيف هم الرّجال».

فكّرت إليزابيث في هذا. كلّا، هي لا تعرف كيف هم الرّجال. فباستثناء كالفن، وأخيها الميت جون، ود. ماسون، وربّما والتر باين، بدا أنّها لا تستنهض لدى الرّجال إلّا أسوأ ما فيهم. فهم إمّا يريدون التّحكّم بها، لمسها، الهيمنة عليها، إسكاتها، التّصحيح لها، وإمّا إخبارها ماذا عليها أن تفعل. لا تفهم لماذا لا يستطيعون ببساطة أن يعاملوها على أنّها كائن بشريّ مثلهم، على أنّها زميلة، صديقة، فردٌ مساوٍ لهم، أو حتّى غريبة في الشّارع، شخصٌ يتعامل معه المرءُ تلقائيًّا باحترام إلى أن يكتشف أنّه دفن مجموعةً من الجثث في الفناء الخلفيّ.

هارييت هي صديقتها الحقيقيّة الوحيدة، وهما تتّفقان في معظم الأشياء، أمّا هذا الموضوع، فلا. وفقًا لهارييت، الرّجال عالَمٌ مستقلٌّ عن النّساء. يتطلّبون تغنيجًا، يملكون أنا هشّة، لا يمكن أن يجيزوا ذكاءَ امرأةٍ أو مهارتها إن كانت تتفوّق على ما لديهم. «هارييت، هذا سخيف»، جادلتها إليزابيث: «الرّجال والنّساء كلّهم كائنات بشريّة. وبصفتنا بشرًا، نحن مُنتَجاتٌ ثانويّة لتنشئتنا، وضحايا لأنظمتنا التّعليميّة الباهتة، ونحن من نختار سلوكيّاتنا. باختصار، تخفيض مرتبة النّساء إلى ما دون مرتبة الرّجال، ورفع مرتبة الرّجال إلى ما فوق مرتبة النّساء، ليس أمرًا بيولوجيَّ المنشأ: إنّه ثقافيّ. ويبدأ من كلمتين اثنتين: ورديّ وأزرق. كلّ شيء يتفاقم ويخرج عن السّيطرة من هذه النّقطة».

بالحديث عن الأنظمة التّعليميّة الباهتة، لقد استُدعيَت الأسبوع الماضي تمامًا إلى غرفة صفّ مودفورد كي تتناقشا في مشكلة لها صلة بهذا: على ما يبدو، مادلين ترفض المشاركة في نشاطات البنات، مثل لعبة بيت بيوت.

«مادلين تريد القيام بأعمال تناسب الصّبيان أكثر»، قالت مودفورد: «هذا ليس صائبًا. واضحٌ أنّكِ تؤمنين أنّ مكان المرأة هو المنزل، بناءً على»، سعلت بصوتٍ خفيض، «*برنامجك التّلفزيونيّ*. لذا كلّميها. كانت تريد أن تكون في دوريّة السّلامة[1] هذا الأسبوع».

- ولماذا هذه مشكلة؟

- لأنّ دوريّة السّلامة تكون من الصّبيان فقط. الصّبيان يحمون البنات، لأنّهم أكبر.

- لكن مادلين هي أطول التّلاميذ في صفّك.

«وهذه مشكلة أخرى»، قالت مودفورد: «طولُ قامتها يُشعر الصّبيان بشعور سيّئ».

«لذا كلّا يا هارييت»، قالت إليزابيث بحدّة، عائدةً إلى موضوع النّقاش: *«لن أسايسهم»*.

(1) دوريّة السّلامة: مجموعة تطوّعيّة من الطّلاب الأكبر سنًّا لمساعدة الطّلاب الأصغر في عبور الشّوارع، وهذا أمر دارج في الولايات المتّحدة. (المترجم)

كشطت هارييت بعض الأوساخ العالقة تحت ظفرها فيما مضت إليزابيث في خطابها الرّنّان عن النّساء اللّاتي يقبلن موضع التّبعيّة كأنّه قضاء وقدر، كأنّهنّ يرين في أجسادهنّ الأصغر دلالةً بيولوجيّة على أدمغة أصغر، كأنّهنّ أدنى سويّةً بطبيعة الحال، لكن على نحوٍ ساحر. بل أسوأ، تابعت إليزابيث الشّرح: الكثير من هؤلاء النّساء يورّثن هذه الأفكار لأطفالهنّ، باستخدام عبارات مثل «الصّبيان يظلّون صبيانًا» أو «تعرفون كيف هنّ البنات».

«ما خطب النّساء؟»، تساءلت إليزابيث: «لماذا ينقَدنَ خلف هذه القوالب النّمطيّة الثّقافيّة؟ بل أسوأ، لماذا يساهمن في تكريسها؟ أليست لديهنّ فكرة عن الدّور المهيمن لإناث قبائل الأمازون المنعزلة؟ أما عادت المطابع تطبع كُتبَ مارغريت ميد؟». لم تتوقّف إلّا عندما نهضت هارييت واقفة، في إشارة إلى أنّها لا ترغب أن تتعرّض ولو لكلمةٍ واحدةٍ غير موجزة بعد.

«هارييت، *هارييت*»، كرّرت مادلين: «أتصغين؟ هارييت، ماذا حدث لها؟ هل ماتت هي الأخرى؟»

«من الّذي مات؟»، سألتها هارييت مشتّتة، تفكّر في أنّها لم تقرأ مارغريت ميد يومًا. أهي الّتي كتبت *ذهب مع الرّيح*؟

«العرّابة».

«أوه، هي»، قالت: «ليست لديّ فكرة. وعلى كلّ حال، هي -أو هو- لم تكن عرّابةً من النّاحية التّقنيّة».

- لكنّكِ قلتِ...

- كانت عرّابةً جنّيّة - شخصًا يقدّم المال إلى دار البنين الّتي سكن أبوك فيها. هذا كلّ ما قصدتُه. عرّابة جنّيّة. وهي... يمكن أن يكون هو، بالمناسبة... هو أو هي كانت تقدّم المال إلى كلّ من في الدّار، لا إلى والدك فقط.

- من كان هذا الشّخص؟

- ليست لديّ فكرة. هل هذا مهمّ؟ العرّابة الجنّيّة مجرّد تسمية تُطلق على فاعلي الخير، أي الأشخاص الأثرياء الّذين يقدّمون المال من أجل قضايا معيّنة - مثل أندرو كارنيغي ومكتباته. لكن عليكِ أن تعلمي أنّ الأعمال الخيريّة توفّر تخفيضًا ضريبيًّا، لذا فالأمر ليس إيثارًا خالصًا. ألديك وظيفة أخرى يا ماد؟ في ما خلا الشّجرة اللّعينة؟

- ربّما يمكنني أن أكتب رسالةً إلى دار بابا وأسأل عن العرّاب، حينها أستطيع أن أضع اسمه في الشّجرة - ربّما على شكل ثمرة بلّوط، لا غصنٍ كاملٍ أو ما شابه.

- لا. ما من ثمار بلّوط في أشجار العائلة. كما أنّ العرّابات الجنّيّات -فاعلي الخير- أشخاص يحافظون على خصوصيّتهم؛ الدّار لن تخبركِ أبدًا من كان يقدّم المبالغ الكبيرة. ثالثًا، نحن لا نقول "عرّاب جنّيّ"، الجنّيّات إناث دائمًا.

«بسبب المافيا؟»، سألتها مادلين.

زفرَت هارييت بصوت مسموع في مزيج من العجب والسّخط. «*الفكرة* هي أنّ العرّابين أو العِرّابات الجنّيّات لا يدخلون في شجرة

العائلة. أوّلًا لأنّهم ليسوا أقرباء بالدّم، وثانيًا لأنّهم أشخاص يحافظون على السّرّيّة. وهم مضطرّون أن يفعلوا ذلك، وإلّا سيطالبهم الجميع بالمال».

- لكنّ إخفاء الأسرار أمر خاطئ.

- ليس دائمًا.

- هل تخفين الأسرار؟

«لا»، كذبت هارييت.

«أتظنّين أنّ أمّي تفعل؟»

«لا»، قالت هارييت، لكنّها كانت تقصد ما تقوله هذه المرّة. كم تتمنّى لو تحتفظ إليزابيث ببضعة أسرار -أو آراء على الأقلّ- لنفسها. «والآن، دعينا نملأ هذه الشّجرة بحفنةٍ من الأسماء الملفّقة، لن تميّز مدرّستُك الفرق. ثمّ يمكننا أن نشاهد برنامج أمّك».

«تريدين منّي أن *أكذب*؟»

«ماد»، قالت هارييت مغتاظة: «هل قلتُ اكذبي؟»

«ألا تملك الجنّيّات دمًا؟»

«بالطّبع تملك الجنّيّات دمًا!»، زعقت هارييت، ثمّ وضعت يدها على جبينها: «دعينا نؤجّل هذا مؤقتًّا، اذهبي والعبي في الخارج».

- لكن...

- اذهبي وارمي الكرة لستّة ونصف.

«عليّ أن آخذ معي صورةً فوتوغرافيّةً أيضًا يا هارييت»، أضافت مادلين: «صورة تضمّ العائلة كلّها».

من تحت الطّاولة، وضع ستّة ونصف رأسه على ركبتها البارزة.

«العائلة *كلّها*»، أكّدت مادلين: «هذا يعني أنّها يجب أن تضمّ أبي أيضًا».

«كلّا، ليس بالضّرورة».

نهض ستّة ونصف ومضى في طريقه إلى غرفة نوم إليزابيث.

– إن كنتِ لا تريدين أن ترمي الكرة لستّة ونصف، خذيه واذهبا إلى المكتبة. لقد تأخّرتِ في إرجاع كتبك. هيّا، كي تعودي قبل بدء برنامج أمّك.

– لا أشعر برغبة في ذلك.

– أحيانًا يكون علينا أن نفعل أمورًا لا نشعر برغبة في فعلها.

– ما الأمور الّتي تفعلينها ولا تشعرين برغبة في فعلها؟

أغمضت هارييت عينيها، وتخيّلت السّيّد سلون.

الفصل 28

قدّيسون

«مادلين»، قالت أمينة مكتبة المدينة: «كيف يمكنني أن أساعدك اليوم؟»

- أحتاج أن أجد عنوانَ مكانٍ في آيوا.

- اتبعيني.

قادت الأمينةُ مادلين عبر متاهة المكتبة، متوقّفةً سريعًا لتوبّخ أحد القرّاء على ثنيِه زوايا الصّفحات كي يعلّم المواضع وآخر على وضعه ساقيه فوق الكرسيّ المجاور. «هذه مكتبة كارنيغي»، همست غاضبة: «يمكنني أن أحظر عليكما الدّخول مدى الحياة».

«هنا يا مادلين»، قالت تقودها إلى رفِّ أدلّةِ هاتف: «قلتِ آيوا، صحيح؟»، مدّت يدها وأنزلت ثلاثة مجلّدات سميكة، «هل من بلدة محدّدة؟»

«أنا أبحث عن دار بنين»، قالت مادلين: «لكن لها اسم فتاة. هذا كلّ ما أعرفه».

«سنحتاج إلى معلومات أكثر من هذه»، قالت أمينة المكتبة: «آيوا ليست صغيرة».

«أراهن على مدينة سو»، جاء صوتٌ من الخلف.

«سو ليس اسم فتاة»، قالت أمينة المكتبة وهي تستدير: «إنّه اسمٌ هنديّ... أوه، أبونا، أهلًا. أنا آسفة... لقد نسيت أن أبحث عن ذلك الكتاب الّذي طلبتَه، سأفعل هذا الآن».

«لكن يمكن أن يخطئ البعض فيظنّوه اسم فتاة، أليس كذلك؟»، تابع الرّجل ذو الثّوب الدّاكن: «اللّفظ نفسه[1]، قد يرتكب الأطفال هذا الخطأ».

«ليس هذه الطّفلة»، قالت أمينة المكتبة.

«ليس هنا»، قالت مادلين بعد خمس عشرة دقيقة وهي تمرّر إصبعها على قائمة حرف الـ B: «لا توجد "دار بنين"».

«أوه»، قال الكاهن من الجانب الآخر لطاولة المكتبة: «كان ينبغي أن أذكر هذا، بعض هذه الأماكن تسمّى على أسماء قدّيسين».

- لماذا؟

- لأنّ الأشخاص الّذين يرعون أطفالَ أشخاصٍ آخرين قدّيسون.

- لماذا؟

- لأنّ رعاية الأطفال أمرٌ شاقّ.

(1) اسمُ المدينة "Sioux" واسم الفتاة "Sue" لهما اللّفظ نفسه. (المترجم)

قلبت مادلين عينيها.

«جرّبي القدّيس فينسنت»، قال وهو يدسّ إصبعه تحت طوق ياقته الكهنوتيّة ليفسح مجالًا لبعض الهواء.

«ماذا تقرأ؟»، سألته مادلين وهي تنتقل إلى صفحة حرف الـ S في دليل الهاتف.

«أشياء دينيّة»، أجابها: «أنا كاهن».

«لا، قصدتُ الآخر... ذاك»، قالت تشير إلى مجلّة يدسّها بين صفحات الكتاب المقدّس.

«أوه»، قال بإحراج واضح: «هذه فقط... للتّسلية».

«مجلّة *ماد*»، قرأت العنوان بصوتٍ عالٍ وهي تجذب المجلّة من مخبئها.

«إنّها مجلّة ساخرة»، شرح الكاهن وهو يستردّها بسرعة.

- أيمكن أن أراها؟

- لا أظنّ أنّ والدتك ستوافق.

- لأنّ فيها صورًا عارية؟

«كلّا!»، قال: «لا، لا... ليست مجلّةً من هذا النّوع أبدًا. كلّ الأمر أنّني أحتاج أحيانًا إلى الضّحك، فعملي ليس فيه الكثير من الدّعابة».

«لماذا؟»

تلكّأ الكاهن: «لأنّ الله ليس مضحكًا كثيرًا، كما أظنّ. لماذا تبحثين عن دار بنين؟»

«أبي نشأ فيها. أنا أنجز شجرةَ عائلة».

«فهمت»، قال مبتسمًا: «حسنًا، شجرة العائلة تبدو شيئًا فيه الكثير من المتعة».

- هذا أمرٌ جدَليّ.

- جدَليّ؟

«يعني "يثير النّقاش"»، قالت ماد.

«هذا صحيح»، قال متفاجئًا: «أتمانعين لو سألتك؟ كم تبلغين من العمر؟»

«ليس مسموحًا أن أعطي معلومات خاصّة».

«أوه»، قال وقد احمرّ وجهه: «بالطّبع لا. أحسنتِ».

مضغت مادلين طرف ممحاتها.

«على كلّ حال»، قال: «من الممتع أن يتعلّم المرء عن أسلافه، أليس كذلك؟ هذا رأيي. إلى ماذا توصّلتِ حتّى الآن؟»

«حسنًا»، قالت مادلين تمرجح ساقيها تحت الطّاولة: «من جهة أمّي: أبوها في السّجن لأنّه أحرق بعض الأشخاص، وأمّها في البرازيل بسبب الضّرائب، وأخوها ميت».

- أوه...

- ليس لديّ أيّ شيء من جهة أبي حتّى الآن، لكن يخطر لي أنّ الأشخاص الّذين في دار البنين يشبهون العائلة بشكل ما.

- من أيّة ناحية؟

- لأنّهم تعهّدوه بالرّعاية.

فرك الكاهن مؤخّر عنقه. وفقًا لخبرته، هذه الدُّور تعجّ بالبيدوفيليّين.

«*قدّيسون*، هكذا سمّيتَهم»، ذكّرته.

تنهّد في داخله. المشكلة في كون المرء كاهنًا هي عدد المرّات الّتي يضطرّ فيها أن يكذب في اليوم الواحد. وهذا لأنّ النّاس بحاجة إلى تطمين متواصل أنّ الأمور على ما يرام أو ستكون على ما يرام عوضًا عن الواقع الأكثر وضوحًا والّذي يقول إنّ الأمور سيّئة ولن تزداد إلّا سوءًا. لقد كان يقيم جنّازًا الأسبوعَ الماضي تمامًا - أحد أبناء كنيسته مات بسرطان الرّئة، وكانت رسالته إلى أفراد العائلة، الّذين يدخّنون جميعهم مثل المداخن أيضًا، هي أنّ الرّجل مات، ليس بسبب علب السّجائر الأربع اليوميّة، بل لأنّ الله دعاه. تنهّد كلٌّ من أفراد العائلة في شهيق عميق، وشكروه على حكمته.

«لكن لماذا تكتبين إلى دار البنين؟»، سألها: «لمَ لا تسألين أباك وحسب؟»

«لأنّه ميت هو الآخر»، تنهّدت.

«رحماك يا إلهي!»، قال الكاهن يهزّ رأسه: «أنا آسف جدًّا».

«شكرًا لك»، أجابت مادلين بطريقة جدّيّة: «يظنّ بعض النّاس أنّ المرء لا يستطيع أن يشتاق إلى شيءٍ لم يحظَ به يومًا، لكنّني أظنّه يستطيع. أتوافقني؟»

«دون شكّ»، قال يتلمّس مؤخّر عنقه إلى أن حدّد موقع خصلة الشّعر الصّغيرة الّتي كانت أطول من اللّازم بقليل. حين سافر لزيارة صديقٍ له في ليفربول، ذهبا ليشاهدا فرقةً موسيقيّة جديدة تسمّى البيتلز. كان أفرادها بريطانيّين ولديهم شعر يتدلّى على جباههم. لم يكن من المعهود أن تكون للرّجل غرّة طويلة، لكنّه وجد نفسه معجبًا بمظهرهم بقدر إعجابه بموسيقاهم تقريبًا.

«ما الّذي تبحث عنه هنا؟»، سألته تشير إلى كتابه.

«الإلهام»، أجاب: «شيء يحرّك الرّوحَ من أجل عِظةِ الأحد».

«ما رأيك بالعرّابات الجنّيّات؟»، سألته.

- العرّابات الجـ...

- كانت لدار أبي عرّابة جنّيّة، وكانت تقدّم إليهم المال.

«أوه»، قال: «أظنّك تقصدين «متبرّع». قد يكون لدى الدّار عدّة متبرّعين، فإدارة هذه الأماكن تتطلّب الكثير من المالِ».

«كلّا»، أجابت: «أنا أقصد عرّابة جنّيّة. أظنّ أنّ على المرء أن يكون سحريًّا بعض الشّيء كي يقدّم المال إلى أشخاصٍ لا يعرفهم أصلًا».

شعر الكاهن بخضّة أخرى من المفاجأة. «صحيح»، اعترف.

- لكنّ هارييت تقول إنّ الحصول على راتبٍ أمرٌ أفضل. هي لا تحبّ السّحر.

- من هي هارييت؟

- جارتي. إنّها كاثوليكيّة. لا تستطيع أن تتطلّق. هارييت تظنّ أنّه ينبغي بي أن أملأ شجرة العائلة بأسماء ملفّقة، لكنّني لا أريد، فهذا يجعلني أشعر أنّ في عائلتي أمرًا خاطئًا.

«حسنًا»، قال الكاهن بحذر، يفكّر أنّ ثمّة بالفعل ما يبدو خاطئًا في عائلة الطّفلة: «هارييت على الأرجح تقصد أنّ بعض الأشياء تكون خصوصيّة لا أكثر».

- تقصد سرّيّة.

- كلّا، أقصد خصوصيّة. على سبيل المثال، لقد سألتُك عن عمرك فأجبتِني -وأنت محقّة- أنّها معلومة خاصّة. ليس الأمر سرًّا؛ كلّ القصّة أنّك لا تعرفينني بما يكفي كي تقولي لي. لكنّ السّرّ هو شيء نخفيه لأنّ هنالك احتمالًا إن عرفه أحدٌ ما أن يستخدمه ضدّنا أو يجعلنا نشعر بشعور سيّئ. الأسرار عادة تتعلّق بأمور نخجل منها.

- هل تخفي أسرارًا؟

«أجل»، اعترف: «وماذا عنكِ؟»

«أنا أيضًا»، أجابت.

«أنا متأكّد أنّ الجميع يفعلون ذلك»، قال: «ولا سيّما الّذين يدّعون العكس. لا يمكن أن تمضي حياتك دون أن تشعري بالإحراج أو الخجل من شيء ما».

أومت مادلين برأسها.

– على كلّ حال، النّاس يظنّون أنّهم يعرفون أكثر عن أنفسهم بناءً على هذه الغصون المليئة بأسماء أشخاصٍ لم يقابلوهم قطّ. على سبيل المثال، أنا أعرف شخصًا فخورًا جدًّا بكونه سليلًا مباشرًا لغاليليو، وأخرى تستطيع أن تتتبّع نسبَها وصولًا إلى سفينة *ماي فلاور*. كلاهما يتكلّم عن أصله كأنّه يملك سجلَّ نسب، لكنّ هذا غير صحيح. لا يمكن لأقربائك أن يجعلوك مهمّة أو ذكيّة، لا يمكن لهم أن يجعلوكِ *أنت*.

– ما الّذي يجعلني *أنا* إذًا؟

– ما تختارين أن تفعليه. الطّريقة الّتي تعيشين بها حياتك.

– لكن هنالك الكثير من النّاس لا يتسنّى لهم اختيار طريقة عيشهم. كالعبيد.

«حسنًا»، قال الكاهن متكدّرًا من حكمتها البسيطة: «هذا صحيح أيضًا».

جلسا صامتَين للحظات، مادلين تمرّر إصبعها على صفحات دليل الهاتف، والكاهن يقلّب في رأسه فكرةَ شراء غيتار. «على كلّ حال»، أضاف: «أظنّ أنّ شجرة العائلة ليست طريقة ذكيّة كثيرًا كي يفهم المرء جذوره».

رفعت مادلين عينيها إليه: «قبل دقيقة قلتَ إنّ التّعلّم عن أسلافي سيكون ممتعًا».

«أجل»، اعترف: «لكنّني كنت أكذب»، ما جعلهما يضحكان كلاهما. من الطّرف الآخر، رفعت أمينة المكتبة رأسها على سبيل التّحذير.

«أنا الكاهن ويكلي»، همس وهو يومئ معتذرًا إلى أمينة المكتبة العابسة: «من الكنيسة المشيخيّة الأولى».

«ماد زوت»، قالت مادلين: «ماد - مثل مجلّتك».

«طيّب يا ماد»، قال بحذر، يفكّر أنّ «ماد» لا بدّ أن يكون اسمًا فرنسيًّا: «إن لم تجدي طلبَكِ تحت عنوان القدّيس فينسنت، جرّبي القدّيس إلمو. أو لحظة... جرّبي «جميع القدّيسين». هكذا يسمّون الأماكن حين لا يستطيعون اختيار قدّيس محدّد».

«جميع القدّيسين»، قالت وهي تقلب إلى صفحة حرف الـ A: «جميع، جميع، جميع. مهلًا. ها هي. دار جميع القدّيسين للبنين!»، غير أنّ حماستها لم تَدُم طويلًا، «لكن لا يوجد عنوان، فقط رقم هاتف».

- وهل هذه مشكلة؟

- أمّي تقول إنّني لا أستطيع إجراء المكالمات البعيدة إلّا إن مات أحدٌ ما.

- حسنًا، لعلّني أستطيع أن أتّصل نيابةً عنكِ من مكتبي. يتعيّن عليّ إجراء المكالمات البعيدة طوال الوقت. يمكنني أن أقول إنّني أساعد أحد أبناء كنيستي.

- ستكون تكذب مجدّدًا. هل تفعل هذا كثيرًا؟

«ستكون كذبة *بيضاء* يا ماد»، قال مغتاظًا بعض الشّيء. ألن يفهم أحدٌ تناقضات عمله على الإطلاق؟ «أو»، قال بنبرة أشدّ: «يمكنك أن تأخذي بنصيحة هارييت وتملئي الشّجرة بأسماء ملفّقة. وهذه ليست فكرة سيّئة للغاية، فكثيرًا جدًّا ما يظلّ الماضي حبيسًا في الماضي».

- لماذا؟

- لأنّه لا يكون له معنًى إلّا في الماضي.

- لكنّ أبي ليس في الماضي. إنّه ما يزال أبي.

«هذا صحيح طبعًا»، قال الكاهن وقد لانت نبرته: «كلّ ما قصدتُه، بخصوص اتّصالي بدار كلّ القدّيسين، هو أنّهم قد يشعرون براحة أكبر في التّحدّث معي، لأنّنا أنا وهم نعمل ضمن مجال الدّين. مثلما قد تشعرين على الأرجح براحة أكبر في التّحدّث مع الأطفال في المدرسة بشأن الأمور المدرسيّة».

بدت المفاجأة على مادلين؛ هي لم تشعر ولو مرّة واحدة بالرّاحة في التّحدّث مع الأطفال في المدرسة.

«أو، عرفت»، قال وقد بات يريد أن يخلّص نفسه من الموضوع برمّته: «اطلبي من والدتك أن تتّصل هي. إنّه زوجها؛ أنا واثق أنّهم سيساعدونها. قد يحتاجون إلى إثباتٍ للزّواج قبل أن يُقدموا على إعطائها أيّ شيء ذي مغزى - مثل شهادة أو ما شابه، لكن لا شكّ أنّ هذا ليس صعبًا».

جمدت مادلين.

«غيّرتُ رأيي»، قالت وهي تكتب كلمتين بسرعة على قصاصة ورق: «ها هو اسم أبي»، ثمّ أضافت رقم هاتفها وناولته الورقة، «متى تستطيع أن تتّصل؟»

ألقى الكاهن نظرةً على الاسم.

«كالفن إيفانز؟»، قال مجفلًا من الدّهشة.

أيّامَ ارتياده مدرسةَ اللّاهوت بجامعة هارفارد، حضر ويكلي مقرّرَ كيمياء بصفة مستمع. كان هدفه أن يتعلّم كيف يشرح المعسكرُ المعادي مسألةَ الخلق كي يتمكّن من دحض كلامهم، لكنّه -بعد سنة من الكيمياء- وجد نفسه في مأزق. بفضل فهمه الّذي اكتسبه حديثًا للذّرّات والمادّة والعناصر والجزيئات، بات يجد عناءً بالغًا في تصديق أنّ الله خلق أيّ شيء. لا السّماوات، ولا الأرض، ولا حتّى البيتزا.

وباعتباره كاهنًا من الجيل الخامس يرتاد إحدى أكثر مدارس اللّاهوت هيبةً في العالم، كانت هذه مشكلة هائلة. الأمر ليس محصورًا بالتّوقّعات العائليّة، بل يمتدّ إلى العلم بحدّ ذاته، فالعلم يشدّد على شيء نادرًا ما يصادفه في مجال عمله المستقبليّ: الأدلّة. ووسطَ هذه الأدلّة كان يوجد رجلٌ شابّ، وكان اسمه كالفن إيفانز.

لقد جاء إيفانز إلى هارفارد كي يشارك في مناظرةٍ بين باحثين في الحمض النّوويّ الرّيبوزيّ، وكان ويكلي من ضمن الحضور كونَه لم يملك شيئًا أفضل يفعله ليلة الأحد تلك. بالكاد قال إيفانز، الّذي كان أصغر المتناظرين سنًّا بفارق شاسع، أيَّ شيء. كان الآخرون

يرطنون بكلام تخصّصيّ كثير حول تشكّل الرّوابط الكيميائيّة وتفكّكها ثمّ تشكّلها من جديد وفقَ شيءٍ يسمّى «التّصادم الفعّال». وبصراحة، الأمر برمّته كان مملًّا بعض الشّيء. مع ذلك، تابع أحد المتناظرين دندنتَه الرّتيبة بشأن أنّ التّغيّر الحقيقيّ لا ينشأ إطلاقًا إلّا عبر تطبيق الطّاقة الحركيّة. حينذاك طالَبَ واحدٌ من الجمهور بمثال على التّصادم غير الفعّال - شيء يفتقر إلى الطّاقة ولا يتغيّر أبدًا لكن له أثر كبير رغم ذلك. انحنى إيفانز نحو ميكروفونه وقال: «الدّين»، ثمّ نهض وغادر.

ظلّ هذا التّعليق بشأن الدّين ينهشه، لذا قرّر أن يكتب إلى إيفانز ويقول ذلك. وأمام مفاجأته الكبيرة، ردّ إيفانز عليه... ثمّ كتب هو يردّ على إيفانز، ثمّ كتب إيفانز يردّ عليه، وهكذا. ورغم أنّهما كانا يختلفان، بدا واضحًا أنّ واحدهما يروق للآخر. لهذا، ما إن تجاوزا عقبات الدّين والعلوم، حتّى اتّخذت رسائلهما طابعًا شخصيًّا. حينئذٍ اكتشفا لا أنّهما في السّنّ نفسها فحسب، بل أنّ بينهما قاسمين مشتركين اثنين: حبٌّ يكاد يكون متعصّبًا لرياضات مائيّة (كالفن كان مجدّفًا، وهو راكب أمواج)، وهوسٌ بالطّقس المشمس. إضافةً إلى ذلك، لا أحد منهما لديه صاحبة، ولا أحد منهما يستمتع بدراساته العليا، ولا أحد منهما متأكّد ممّا تخبّئه الحياة بعد التّخرّج.

بيد أنّ ويكلي لم يلبث حتّى أفسد الأمر برمّته، إذ أتى على ذكر شيءٍ بخصوص أنّه يسير على خطى أبيه، وتساءل إذا ما كان إيفانز يفعل الشّيء نفسه. ردًّا عليه، كتب كالفن بحروف كبيرة يقول إنّه يكره أباه ويتمنّى لو أنّه ميت.

صُعِقَ ويكلي. كان واضحًا أنّ إيفانز تعرّض لأذًى بالغٍ من والده، وبناءً على معرفته بإيفانز، فلا بدّ أنّ كراهيته ترتكز على أقلّ الأشياء رأفةً: الأدلّة.

لقد همّ بالكتابة ردًّا على إيفانز عدّة مرّات، بيد أنّه لم يستطع التّوصّل إلى شيء يقوله. هو. الكاهن. الرّجل الّذي يكتب حاليًّا أطروحةً في اللّاهوت عنوانها «الحاجة إلى المواساة في المجتمع المعاصر». ما من كلمات.

انتهت صداقتهما بالمراسلة.

وبعد التّخرّج بقليل، مات والدُه دون سابق إنذار. عاد إلى كومنز من أجل الجنازة، وقرّر أن يبقى. وجد منزلًا صغيرًا قرب الشّاطئ، وتولّى رعايةَ أبناءِ كنيسة والده، وأخرج لوحَ ركوب الأمواج خاصّته.

كان قد مضى على وجوده هناك بضع سنوات حين بلغ إلى علمه أخيرًا أنّ إيفانز في كومنز هو الآخر. لم يستطع أن يصدّق. ما احتمال حدوث ذلك؟ لكن قبل أن يستطيع استجماع جرأته كي يعيد التّواصل مع صديقه المشهور، لقي إيفانز مصرعه في حادثةٍ استثنائيّة.

ذاع الخبر: ثمّة حاجة إلى من يقيم الجنّازَ للعالِم. تطوّع ويكلي. كان يشعر أنّه ملزَم بتأديةِ فروض الاحترام لواحد من الأشخاص القلّة الّذين يكنّ لهم إعجابًا، والمساعدةِ بأيّة طريقة يستطيعها في إرشاد روح إيفانز إلى مستقرٍّ يعمّه السّلام. إضافةً إلى أنّه كان يشعر بالفضول. من سيكون هناك؟ من سيحزن على فقدان هذا الرّجل الألمعيّ؟

الجواب: امرأة وكلب.

«في حال كان هذا يساعد»، أضافت مادلين: «أخبرهم أنّ أبي كان مجدّفًا».

سكت ويكلي، يتذكّر التّابوت ذا الطّول الزّائد.

حاول أن يستحضر بالضّبط ما قاله آنذاك للمرأة الشّابّة الواقفة عند القبر: *آسف لخسارتك*؟ على الأرجح. لقد خطّط أن يكلّمها بعد الجنّاز، لكن قبل حتّى أن يُتمّ الصّلاة الختاميّة، كانت قد سارت مبتعدة والكلب في إثرها. قال لنفسه إنّه سيذهب ويراها، بيد أنّه لم يكن يعرف اسمها ولا مكان سكنها، ورغم أنّ التّوصّل إلى هذه المعلومات لم يكن بتلك الصّعوبة، فهو لم يسعَ خلف الأمر. كان فيها شيء جعله يشعر أنّ الكلام عن روح إيفانز قد يزيد الطّين بلّة.

بعد الجنازة، وطيلة شهور، لم يستطع إخراجَ قِصَرِ حياةٍ إيفانز من رأسه. ثمّة القليل جدًّا من النّاس الّذين قاموا فعلًا بأفعال مهمّة في العالم، توصّلوا إلى اكتشافات وغيّروا أشياء. إيفانز انسلّ في صدوع المجهول واستكشف الكونَ بطريقةٍ يتجنّبها اللّاهوتُ بشكل كامل. ولمدّة قصيرة جدًّا من الزّمن، شعر أنّه هو نفسه كان جزءًا من ذلك.

مع هذا، ذلك يومٌ وهذا يومٌ آخر. إنّه كاهن؛ هو لا يحتاج إلى العلم. ما يحتاج إليه هو طرقٌ أكثر إبداعًا ليطلب من رعيّته أن يتصرّفوا مثل أناس محترمين، أن يكفّوا عن معاملة بعضهم بهذا اللّؤم، أن يحسنوا السّلوك. وعلى ذلك، في النّهاية، رغم شكوكه، صار كاهنًا، لكنّه ظلّ يفكّر في إيفانز الاستثنائيّ. والآن، ها هي هذه الفتاة الصّغيرة تزعم أنّها ابنته. إنّ لله طرقَهُ الخفيّة بالفعل.

«للتأكّد فقط»، قال: «نحن نتحدّث عن كالفن إيفانز، الّذي مات في حادثة سيّارة قبل نحو خمسة أعوام».

«لقد مات بسبب رسن، لكن أجل».

«آه»، قال: «لكن إليكِ الجزء الإشكاليّ. كالفن إيفانز لم يكن لديه أطفال. في الواقع، هو لم يكن...»، تلكّأ.

«ماذا؟»

«لا شيء»، أجاب سريعًا. من الواضح أنّ الفتاة الصّغيرة غير شرعيّة فوق كلّ شيء. «وما هذه الّتي هناك؟»، سألها مشيرًا إلى قصاصة جريدة مصفرّة بارزة من دفترها: «شيء آخر من أجل الوظيفة؟»

«عليّ أن أحضر صورة عائليّة»، قالت وهي تسحب القصاصة الّتي ما تزال رطبةً من لعاب كلب. مدّتها إليه بحذر شديد، كمن يتعامل مع كنزٍ لا يعوَّض. «هذه هي الصّورة الوحيدة الّتي تضمّنا كلّنا».

فتح الورقة المطويّة بحرص. كانت مقالة عن جنازة كالفن إيفانز، وفيها صورة فوتوغرافيّة للمرأة والكلب آنفَي الذّكر، ظهراهما إلى الكاميرا لكنّ الحزن الّذي يثقلهما واضح، يشاهدان الأرض تبتلع التّابوت الّذي باركه بنفسه لا غيره. اجتاحته موجةٌ من الكآبة.

«لكن يا ماد، كيف يمكن لهذه أن تكون صورةً عائليّةً بحقّ السّماء؟»

«حسنًا، هذه أمّي»، قالت مادلين تشير إلى ظهر إليزابيث، «وهذا ستّة ونصف»، أضافت تشير إلى الكلب، «وأنا داخل أمّي، هناك تمامًا»، أشارت إلى إليزابيث من جديد، «وأبي في الصّندوق».

لقد أمضى ويكلي آخر سبع سنوات من حياته يقدّم المواساة إلى النّاس، لكن كان في الطّريقة التّقريريّة الّتي تتكلّم بها هذه الطّفلة عن فقدها شيءٌ جعله يشعر بالإفلاس.

«ماد، أحتاج منك أن تفهمي شيئًا»، قال مصدومًا إذ لاحظ أنّ يديه ظاهرتان في الصّورة: «مكانُ العائلات ليس على الأشجار. ربّما لأنّ البشر ليسوا جزءًا من المملكة النّباتيّة، فنحن جزء من المملكة الحيوانيّة».

«بالضّبط»، شهقت مادلين: «هذا هو *بالضّبط* ما كنت أحاول أن أقوله للسّيّدة مودفورد».

«لو أنّنا أشجار»، أضاف، شاعرًا بالقلق حيال مقدار الأسى الّذي ستختبره هذه الطّفلة خلال شرح أصلها: «ربّما كنّا أكثر حكمةً بعض الشّيء. بسبب الحياة الطّويلة وما إلى هنالك».

ثمّ فطن إلى أنّ كالفن إيفانز لم يحظَ بحياة طويلة كثيرًا، وها هو قد لمّح لتوّه أنّ سبب ذلك على الأرجح هو أنّ إيفانز لم يكن ذكيًّا جدًّا. بصراحة، إنّه كاهن مريع - الأسوأ على الإطلاق.

بدت مادلين تتفكّر في كلامه هذا، ثمّ اتّكأت بجذعها على الطّاولة. «ويكلي»، قالت بصوت خفيض: «عليّ أن أذهب كي أشاهد أمّي الآن. لكنّني كنت أتساءل: هل تستطيع أن تحفظ سرًّا؟»

«أستطيع»، أجاب، متسائلًا ماذا تقصد بمشاهدة[1] أمّها. هل أمّها مريضة؟

(1) فعل "watch" في الإنجليزيّة يفيد معانيَ كثيرة، بما في ذلك مشاهدة التّلفاز وتقديم الرّعاية لشخصٍ ما، ومن هنا جاء الالتباس. (المترجم)

نظرت إليه عن كثب كأنّها تحاول أن تقرّر إذا ما كان يكذب مجدّدًا، ثمّ نهضت عن كرسيّها وذهبت إلى جانبه وهمست شيئًا في أذنه بحيويّةٍ جعلت عينيه تتّسعان من العجب. وقبل أن يستطيع إيقاف نفسه، وضع يده عند أذنها وفعل الشّيء نفسه. انفضّ واحدهما عن الآخر متفاجئين.

«هذا ليس سيّئًا إلى هذه الدّرجة يا ويكلي»، قالت مادلين: «حقًّا».

لكن بشأن ما قالته هي، لم يستطع أن يجد كلمات مناسبة.

الفصل 29

روابـــط

«اسمي إليزابيث زوت، وهذا برنامج *العشاء عند السّادسة*».

بيدين على الخصر، وشفتين يحدّدهما لونٌ أحمر قرميديّ، وشعرٍ سميك مشدود إلى الخلف في رفعةٍ فرنسيّةٍ بسيطة يثبّتها قلم رصاص رقم اثنين، رفعت إليزابيث عينيها تدريجيًّا ونظرت في الكاميرا مباشرةً.

«خبرٌ مشوّق»، قالت: «اليوم سوف ندرس ثلاثة أنواع مختلفة من الرّوابط الكيميائيّة: الشّارديّة، والتّساهميّة، والهيدروجينيّة. لماذا نتعلّم عن الرّوابط؟ لأنّ ذلك يجعلنا نستوعب أساس الحياة الأوّل، إضافةً إلى أنّه سيجعل الكيك الّذي نعدّه ينتفخ».

في جميع منازل جنوب كاليفورنيا، جهّزت النّساء الأوراق وأقلام الرّصاص.

«الرّابطة الشّارديّة هي الّتي تقوم على مبدأ "تجاذب الأضداد"»، راحت إليزابيث تشرح وهي تترك موضعَها خلف المنضدة وتبدأ الرّسم على لوحٍ ورقيّ قلّاب: «على سبيل المثال، لنقل إنّكِ كتبتِ أطروحةَ الدّكتوراه خاصّتك عن اقتصاد السّوق الحرّة، لكنّ زوجك

يكسب عيشه من تبديل إطارات السّيّارات. أنتما تحبّان بعضكما، لكنّه على الأرجح لا يهتمّ بالسّماع عن اليد الخفيّة. ومن له أن يلومه؟ فأنتِ تعلمين أنّ اليد الخفيّة محض هراء ليبرتاريّ».

أطلّت تنظر إلى الجمهور فيما راحت العديد من الحاضرات يخربشن الملاحظات، الّتي تقول بمعظمها: «اليد الخفيّة: هراء ليبرتاريّ».

«الفكرة أنّك أنتِ وزوجك مختلفان تمامًا، ومع ذلك يجمعكما ارتباط قويّ. لا بأس في هذا، فهو رابطة شارديّة». توقّفت قليلًا، ترفع الصّفحة وتقلبها لتكشف عن صفحة جديدة من ورق الصّحف.

«أو ربّما كان زواجكما أقرب إلى الرّابطة التّساهميّة»، قالت ترسم صيغةً بنيويّةً جديدة: «وإن صحّ ذلك، فيا لحظّك، لأنّ هذا يعني أنّكما كليكما تملكان قوًى تشكّل شيئًا أفضل حين تتّحد. مثلًا، حين يتّحد الهيدروجين والأكسجين، علامَ نحصل؟ على الماء - أو H_2O كما يُعرف على نطاق أوسع. من نواحٍ عديدة، لا تختلف الرّابطة التّساهميّة كثيرًا عن الحفلة - فالحفلة تصبح أفضل بفضل الفطيرة الّتي أعددتِها والنّبيذ الّذي أحضرَه. إلّا إن كنتِ لا تحبّين الحفلات - أنا لا أحبّها؛ ففي هذه الحالة بوسعك أيضًا أن تفكّري في الرّابطة التّساهميّة على أنّها دولة أوروبيّة صغيرة، لنقل سويسرا». *جبال الألب*، كتبت على اللّوح سريعًا: *+ اقتصاد قويّ = الجميع يريد أن يعيش هناك.*

داخلَ غرفة معيشة في لاهويا، كاليفورنيا، كان ثلاثة أطفال يتشاجرون على لعبة شاحنةِ تفريغ، محورُها المكسور ملقًى بلصقِ ناطحةِ سحابٍ من ملابس تنتظر الكيَّ وتهدّد أن تنقلب على امرأةٍ

صغيرة البنية شعرُها ملفوفٌ ببكرات وفي يديها دفتر صغير تكتب فيه: *الانتقال للعيش في سويسرا.*

«وبهذا نصل إلى الرّابطة الثّالثة»، قالت إليزابيث تشير إلى مجموعة أخرى من الجزيئات: «الرّابطة الهيدروجينيّة - أضعف الرّوابط وأكثرها هشاشةً على الإطلاق. أنا أسمّيها رابطة «الحبّ من النّظرة الأولى»، لأنّ الطّرفين ينجذبان إلى بعضهما بناءً على المعلومات البصريّة فقط: تعجبكِ ابتسامته، يعجبه شعرك. لكن ما إن تتكلّما حتّى تكتشفي أنّه نازيٌّ متخفٍّ بثيابه ويظنّ أنّ النّساء كثيرات التّذمّر. بووف. تتحطّم الرّابطة الضّعيفة بلمح البصر. وهذه هي الرّابطة الهيدروجينيّة يا سيّداتي - تذكيرٌ كيميائيّ يقول لكنّ: إن بدت الأشياء أفضل من أن تكون حقيقيّة، فهي كذلك على الأرجح».

عادت إلى خلف المنضدة، واستبدلت بقلم اللّوح سكّينًا، ثمّ نزلت بواحدة من ضربات بول بونيان[1] على حبّة بصل أصفر كبيرة فشقّتها نصفين. «اللّيلة ليلة فطيرة القِدر بالدّجاج»، أعلنت: «هيّا بنا نبدأ».

«أرأيتِ؟»، قالت امرأةٌ في سانتا مونيكا وهي تلتفت نحو ابنتها العابسة ذات السّبعة عشر ربيعًا، الّتي تضع خطًّا من الكحلة سميكًا إلى درجة يبدو معها بوسع الطّائرات أن تهبط عليه: «ماذا قلتُ لك؟ رابطتك مع ذلك الفتى ما هي إلّا رابطة هيدروجينيّة، متى ستستيقظين وتنتبهين إلى الشّوارد؟»

---

(1) بول بونيان: شخصيّة حطّاب من قصص الفلكلور الأمريكيّ. (المترجم)

- لن نخوض في هذا مجدّدًا.

- بوسعك أن تذهبي إلى الجامعة. بوسعك أن تصبحي شيئًا مهمًّا!

- إنّه يحبّني!

- إنّه يعيقك!

«المزيد بعد الفاصل»، قالت إليزابيث استجابةً لإشارة المصوّر.

على كرسيّ المنتج، تهالك والتر باين. كان قد استطاع -بعد مقدارٍ هائل من التّذلُّل- أن يُقنع فيل ليبنزمال بتمديد عقد زوت لستّة أشهر أخرى، لكن فقط عن طريق موافقته على اعتماد الإثارة والتّخلّص من العلوم. حذّره فيل أنّ السّاعة تتكّ حقًّا هذه المرّة. وفقًا له، كانوا يتلقّون الكثير من الشّكاوى. فتح والتر السّيرة مع إليزابيث قُبيل الحلقة تمامًا. «علينا أن نجري بعض التّغييرات»، شرح لها.

أصغت إليه تومئ برأسها متفكّرة، كأنّها تدرس كلّ تغيير بأناة، ثمّ قالت: «لا».

بالإضافة إلى هذه المشكلة الصّغيرة، كانت لدى أماندا وظيفة مدرسيّة غبيّة لها علاقة بشجرة عائلة، تتطلّب صورة عائليّة مع ماما، رغم أنّ ماما خارجة من الصّورة منذ وقت طويل. بل أسوأ، الوظيفة تصرّ على الاحتفاء بالعلاقة البيولوجيّة بينه وبين طفلته، وهي رابطة غير موجودة ولن توجد يومًا. هو يخطّط وضوحًا لإخبار أماندا بالحقيقة وعمّا قريب: أنّ أمّها القذرة لن تعود يومًا، وأنّه -من النّاحية التّقنيّة- ما من قرابة تجمعهما بأيّ شكل. للأطفال المتبنّين الحقّ في أن يعرفوا، وهو ينتظر اللّحظة المناسبة، عيد ميلادها الأربعين.

«والتر»، قالت إليزابيث وهي تتّجه نحوه بخطًى واسعة: «هل وصلك ردٌّ من جماعة التّأمين؟ كما تعلم، حلقة الغد تركّز على الاحتراق، ورغم أنّني ما زلت أعتقد أنّ ليس في الأمر خطر يُذكر، فأنا... والتر؟»، لوّحت بيدها أمام وجهه، «والتر؟»

«ستّون ثانية يا زوت»، قال المصوّر.

«لن يضرّ أن يكون في حوزتنا بعض الطّفّايات الإضافيّة. مجدّدًا، أفضّل النّيتروجين المضغوط على طفّايات الماء والرّغوة الحديثة، لكن لكم حرّيّة التّصرّف؛ أنا واثقة أنّ هذه أو تلك ستفي بالغرض. والتر؟ هل تصغي؟ أجِب»، عبست واستدارت عائدة إلى المنصّة: «سنتكلّم خلال الفاصل التّالي».

فيما راحت تشقّ طريقها لتصعد إلى المنصّة، التفت والتر كي يشاهدها ترتقي الدّرجات، ببنطالها الأزرق -كانت ترتدي *بنطالًا*- ذي الخصر العالي. من تظنّ نفسها؟ كاثرين هيبورن؟ سيُجنّ جنون ليبنزمال. التفت يشير إلى أخصّائيّة المكياج.

«نعم، سيّد باين؟»، قالت روزا ويداها مشغولتان بقطع الإسفنج الصّغيرة: «أتحتاج إلى شيء؟ وجه زوت كان على ما يرام بالمناسبة، لم يكن يلتمع».

تنهّد. «وجهها لا يلتمع أبدًا»، قال: «رغم أنّ هذه الأضواء وحدها كفيلة أن تلفح شريحةَ لحم خلال ثلاثين ثانية، لا تنزل منها قطرةُ عرق. كيف هذا؟»

«الأمر غير مألوف بالفعل»، وافقت روزا.

«ها قد عدنا»، سمع إليزابيث تقول وهي تشير بكلتا يديها إلى الكاميرا.

«أرجوكِ كوني طبيعيّة»، همس والتر.

«والآن»، قالت إليزابيث لمشاهداتها في المنازل: «أنا واثقة أنّكنّ استغللتنّ فاصلنا القصير في تقطيع الجزر والكرفس والبصل إلى قطع صغيرة متفاوتة، بحيث تكون للأسطح المساحة الضّروريّة لتسهيل امتصاص التّوابل، إلى جانب تقليص الوقت اللّازم للطّهي. والآن باتت الأمور على هذا الشّكل»، قالت وهي تميل مقلاةً نحو الكاميرا، «الخطوة التّالية، إضافة مقدار حرّ من كلوريد الصّوديوم...»

«أيقتلها أن تقول «ملح؟»»، همس والتر من خلف أسنانه: *«أيقتلها؟»*

«يعجبني أنّها تستخدم كلمات ذات طابع علميّ»، قالت روزا: «هذا يجعلني أشعر.. لا أدري.. بالكفاءة».

«كفاءة؟»، قال: *«كفاءة؟* ماذا حدث لرغبتكنّ أن تشعرن أنّكنّ نحيلات وجميلات؟ وما قصّة هذا البنطال بحقّ الجحيم؟ من أين طلع لنا؟»

«هل أنت على ما يرام، سيّد باين؟»، سألته روزا: «أأحضر لك شيئًا ما؟»

«أجل»، أجابها: «سيانيد».

انقضت عدّة دقائق أخرى وإليزابيث تمرّ بمشاهداتِها على التّركيب الكيميائيّ للعديد من المكوّنات، شارحةً -وهي تضيف كلًّا منها إلى المقلاة- نوعَ الرّوابط الّتي تتشكّل.

«انظرن»، قالت تميل المقلاة إلى الكاميرا من جديد: «ماذا لدينا الآن؟ خليط، وهو ما نحصل عليه عند الجمع بين اثنتين أو أكثر من الموادّ الخالصة مع احتفاظ كلّ منها بخواصّها الكيميائيّة الفرديّة. وفي حالة فطيرة القِدر بالدّجاج خاصّتنا، لاحظنَ كيف يختلط الجزر والبازلّاء والبصل والكرفس ومع ذلك يظلّ كلٌّ منها كيانًا مستقلًّا. فكّرنَ في هذا. فطيرة القِدر بالدّجاج النّاجحة تشبه مجتمعًا يؤدّي وظائفه بمستوًى عالٍ من الفعّاليّة. فلنعتبرها السّويد. هنا لكلّ نوع من الخضار مكانه، لا نوع من المحاصيل يطالب أن يكون أكثر أهمّيّة من غيره. وحين نضع التّوابل الإضافيّة -الثّوم والزّعتر والفلفل وكلوريد الصّوديوم- نكون خلقنا نكهةً لا تحسّن قوام كلّ مادّة وحسب بل تضبط الحموضة أيضًا. والنّتيجة؟ دعم رعاية الأطفال. مع أنّني واثقة أنّ السّويد لديها مشاكلها أيضًا، كسرطان الجلد على أقلّ تقدير»، تلقّت إشارةً من المصوّر، «سنعود بعد هذا التّعريف بالمحطّة».

«ما كان *هذا*؟»، شهق والتر: «ماذا قالت؟»

«دعم رعاية الأطفال»، أجابت روزا وهي تمسح له جبينه بإسفنجة: «ينبغي أن نضيف هذا إلى المطالب الشّعبيّة». انحنت تنظر إلى عرق ينبض في جبين والتر: «استمع إليّ، لمَ لا أذهب وأجلب لك القليل من حمض الأسيتيل ساليسيليك، سوف...»

«ماذا قلتِ؟»، هسهس وهو يدفع الإسفنجة عنه.

- دعم رعاية الأطفال.

- لا، الأخرى...

- حمض الأسيتيل ساليسيليك؟

«أسبرين»، قال بصوت أجشّ: «هنا في كي سي تي في، نسمّيه *أسبرين*. أسبرين باير. تريدين أن تعرفي لماذا؟ لأنّ باير هم أحد رعاتنا. الّذين يدفعون لنا فواتيرنا. أيذكّرك هذا بشيء؟ قوليها. *أسبرين*».

«أسبرين»، قالت: «سأعود على الفور».

«والتر؟»، أتاه صوت إليزابيث من الأعلى دون سابق إنذار، فجعله ينطّ في محلّه.

«ربّاه يا إليزابيث!»، قال: «لا بدّ أن تتسلّلي؟»

- لم أتسلّل، عيناك كانتا مغمضتين.

- كنت *أفكّر*.

- في طفّايات الحريق؟ وأنا كذلك. لنقل ثلاث. ستكفي اثنتان، لكن من شأن ثلاث طفّايات أن تقضي على أيّ احتمال للمآسي بشكل كامل تقريبًا. بنسبة تسعة وتسعين بالمئة، أو ربّما أكثر قليلًا.

«يا إلهي»، قال لنفسه مرتعدًا وهو يمسح راحتيه الرّطبتين ببنطاله: «أهذا كابوس؟ لماذا لا أستطيع الاستيقاظ؟»

«تتساءل عن الواحد بالمئة المتبقّية»، قالت إليزابيث: «لا تشغل بالك بها، هذه النّسبة الضّئيلة شغلُ الله، أشياء من قبيل الزّلازل والتّسونامي، لا يمكن أن نتنبّأ بها لأنّ العلم لم يبلغ هذه المرحلة بعد».

سكتت قليلًا تضبط حزامها. «والتر، ألا ترى من اللّافت أن يستخدم النّاس مصطلح «شغل الله» هذا أساسًا؟ نظرًا إلى كون معظمهم يريدون تصديق أنّ الله مختصّ بالحُملان والحبّ والأطفال الرّضّع في المذاوِد، ومع ذلك فهذا الكائن نفسه الّذي يدّعون أنّه كُلّيُّ الخير يبطش بالأبرياء ذات اليمين وذات الشّمال، ما يوحي بمشكلة في إدارة الغضب، بل ربّما حتّى هوس اكتئابيّ. في أقسام الأمراض النّفسيّة، يخضع مريضٌ كهذا لعلاج بالصّدمات الكهربائيّة. وهذا أمر لا أؤيّده، فالعلاج بالصّدمات الكهربائيّة ما زال يفتقر إلى الإثبات على نحو كبير. لكن أليس من اللّافت أن يكون بين «شغل الله» والعلاج بالصّدمات الكهربائيّة كلّ هذه القواسم المشتركة؟ من حيث العنف، القسوة...»

«ستّون ثانية، زوت».

–... انعدام الرّحمة، الهمجيّة...

– ربّاه يا إليزابيث، أرجوكِ.

– أيًّا يكن، فلننقل ثلاث طفّايات. ينبغي أن تعرف كلُّ امرأة كيف تطفئ الحرائق. سنبدأ بتقنيّة خنق الحريق، ثمّ حين تفشل ننتقل إلى النّيتروجين.

«أربعون ثانية يا زوت».

«وما قصّة البنطال؟»، قال والتر مطبقًا أسنانه بشدّةٍ بالكاد تسمح بخروج الكلمات.

– ماذا تقصد؟

– تعلمين ماذا أقصد.

- أيعجبك؟ لا بدّ أنّه يعجبك، فأنت ترتدي البناطيل طوالَ الوقت، وأستطيع أن أفهم السّبب. إنّها مريحة جدًّا. لا تقلق؛ وضعتُ في نيّتي أن أنسب إليك الفضل كاملًا.

- لا! إليزابيث، أنا لم...

«تفضّل الأسبرين، سيّد باين»، قاطعته روزا إذ ظهرت بجانبه: «وأنتِ يا زوت، دعيني ألقِ نظرةً سريعةً على... جيّد، جيّد... أديري وجهك بهذا الاتّجاه... جيّد... بل مدهش في الواقع. حسنًا، أنت جاهزة».

«زوت، عشر ثوانٍ»، نادى المصوّر.

«أتشعر بتوعّكٍ يا والتر؟»

«هل رأيتِ مشروعَ شجرة العائلة؟»، همس.

«ثماني ثوانٍ يا زوت».

«تبدو شاحبًا، والتر».

«الشّجرة»، نطق الكلمة بالكاد.

«مجّانًا[1]؟ لكن ظننتُك قلتَ إنّي لا أستطيع توزيع الأشياء على الجمهور بعد الآن».

اعتلت إليزابيث المنصّة من جديد، وقالت تستدير إلى الكاميرا: «ها قد عدنا».

---

(1) يتشابه لفظ كلمتي «شجرة» و«مجّانًا» في الإنجليزيّة. (المترجم)

«لا أعرف ما الّذي تظنّين أنّكِ أعطيتِني إيّاه»، قال والتر لروزا بانفعال: «لكنّه لا يجدي نفعًا».

«يتطلّب بعض الوقت».

«وأنا لا *أملك* هذا»، قال: «أعطيني العلبة».

«لقد تناولتَ الحدَّ الأقصى».

«أوه، حقًّا؟»، قال منفعلًا وهو يهزّ العلبة: «إذًا اشرحي لي لماذا ما يزال فيها بعض الحبوب».

«والآن نسكب تصوُّرَنا عن السّويد»، كانت إليزابيث تقول: «داخل تشكيلِ النّشاء واللّيبيدات والبروتينات الجزيئيّ الّذي حضّرناه مسبقًا - العجينة، تلك الّتي فعّلنا روابطَها الكيميائيّة باستخدام جزيء الماء، H_2O، والّتي حصلنا من خلالها على الزّواج الأمثل بين الاستقرار والبنية»، توقّفت تشير بيديها المعفّرتين بالطّحين إلى عجينة الفطيرة المحشوّة بالخضراوات والدّجاج.

«الاستقرار والبنية»، كرّرت تنظر إلى جمهور الاستديو: «لا يمكن فصل الكيمياء عن الحياة - فالكيمياء هي الحياة تعريفًا. لكن كما حال الفطيرة، الحياةُ تتطلّب أساسًا قويًّا. في منازلكنّ، أنتنّ هذا الأساس. إنّها لمسؤوليّة هائلة؛ الوظيفة الأقلّ تقديرًا في العالم، والّتي -مع ذلك- تحافظ على تماسك الأشياء كلّها».

أومأت عدّةُ نساء بين جمهور الاستديو بنشاط.

«والآن خُذنَ لحظةً لتنظرن إلى تجربتكنّ بإعجاب»، تابعت إليزابيث: «لقد استخدمتنّ أناقةَ التّرابطِ الكيميائيّ لبناء عجينةِ فطيرةٍ

ستتكفّل بإيواء ناخبيكم وتحسين نكهتهم في آن واحد. فكّروا في حشوتكنّ مرّةً بعد، ثمّ اسألن أنفسكنّ: ما الّذي تريده السّويد؟ حمض السّتريك؟ ربّما. كلوريد الصّوديوم؟ على الأرجح. قمن بالتّعديلات. وعندما تصبحن راضيات، افردن طبقتكنّ الثّانية من العجينة مثل البطّانيّة فوق الحشوة، ثمّ اقرصن الأطراف لتختِمن الفطيرة. وبعد ذلك اصنعن بضعة شقوق على السّطح لتُحدثن منفسًا. الغاية من المنفس هي إعطاء جزيء الماء المساحةَ الّتي يحتاج إليها كي يتحوّل إلى بخار ويخرج. دون هذا المنفس، ستكون فطيرتكنّ جبلَ فيزوف. لحماية سكّان القرية من الموت المحتوم، اصنعن الشّقوق كلّ مرّة».

التقطت سكّينًا وأحدثت ثلاثة شقوق قصيرة على السّطح. «هكذا»، قالت: «والآن نضعها في الفرن على حرارة ثلاثمئة وخمس وسبعين درجة فهرنهايت، ونخبزها لمدّة خمس وأربعين دقيقة تقريبًا»، نظرت إلى السّاعة في الأعلى.

«يبدو أنّه ما زال لدينا القليل من الوقت»، قالت: «ربّما بوسعي تلقّي سؤال من جمهور الاستديو». نظرت إلى المصوّر، الّذي رفع إصبعه ومرّره على عنقه كأنّه يحزّه. «**لا، لا، لا**»، قال بشفتيه.

«مرحبًا»، قالت تشير إلى امرأة في الصّف الأماميّ، تثبّت نظّارتَها فوق تسريحة متيبّسة ويضغط جورباها الطّويلان على ساقيها الممتلئتين.

«أنا السّيّدة جورج فيليس من كيرنفيل»، قالت المرأة بتوتّر وهي تنهض واقفة: «وأنا في الثّامنة والثّلاثين من عمري. أردت فقط أن أقول لك كم أستمتع ببرنامجك. أنا... أنا لا أستطيع أن أصدّق كم تعلّمت. أعلم أنّني لستُ شعلةَ ذكاء»، أضافت وقد تورّد وجهها من

الخجل، «هذا ما يقوله زوجي دائمًا... ومع ذلك، عندما قلتِ الأسبوعَ الماضي إنّ التّناضح هو حركة انتقال المذيب الأقلّ تركيزًا من خلال غشاءٍ نصف نافذ إلى المذيب الأكثر تركيزًا، وجدتُ نفسي أتساءل إذا... حسنًا...»

- تابعي.

- حسنًا، إذا ما كان يمكن أن تكون وذمةُ ساقي نتيجةً ثانويّةً لعيبٍ في التّوصيل الهيدروليكيّ مترافقٍ مع شذوذ في معامل الانعكاس التّناضحيّ لبروتينات البلازما. ما رأيك؟

«تشخيص مفصَّل جدًّا يا سيّدة فيليس»، قالت إليزابيث: «ما المجال الطّبّيّ الّذي تعملين فيه؟»

«أوه»، تلعثمت المرأة: «كلّا، أنا لست طبيبة. أنا فقط ربّة منزل».

«ما من امرأة في العالم تكون *فقط* ربّة منزل»، قالت إليزابيث: «ماذا تعملين أيضًا؟»

- لا شيء. بضع هوايات. أحبّ مطالعة المجلّات الطّبّيّة.

- مثير للاهتمام. وماذا أيضًا؟

- الخياطة.

- الملابس؟

- الأجسام.

- خياطة الجروح؟

- أجل. لديّ خمسة صبيان، وهم لا يكفّون عن إلحاق الأذى بأنفسهم.

- وحين كنتِ في مثل سنّهم، تخيّلتِ نفسَك تصبحين...

- زوجةً وأمًّا مُحبّة.

- كلّا، جدّيًّا...

«جرّاحة قلب مفتوح»، قالت المرأة قبل أن يتسنّى لها كبح جماح نفسها.

خيّم على القاعة صمت كثيف، وظلّ وزنُ حلمِها الباعثِ على السّخرية معلّقًا مثل غسيلٍ مغرَّقٍ في يومٍ ساكنِ الهواء. جراحة القلب المفتوح؟ للحظةٍ بدا العالمُ بأسره ينتظر الضّحك الّذي ينبغي أن يتبع ذلك. لكن سرعان ما أتى تصفيقٌ غير متوقّع من إحدى جهات الجمهور، تلاهُ آخرُ مباشرةً، ثمّ آخر، ثمّ عشرة بعد، ثمّ عشرون بعد، ولم يلبث الجمهور حتّى صار كلّه على أقدامه ونادى صوتٌ: «د. فيليس، جرّاحة قلب»، ثمّ أخذ التّصفيق يدوّي كالرّعد.

«لا، لا»، أصرّت المرأة من فوق الضّوضاء: «كنتُ أمزح لا أكثر. لا يمكنني أن أفعل هذا حقًّا. على كلّ حال، لقد فات الأوان».

«الأوان لا يفوت أبدًا»، أصرّت إليزابيث.

- لكنّني لم أستطع، ولن أستطيع.

- لماذا؟

- لأنّ الأمر صعب.

- وتربية خمسة صبيان ليست صعبة؟

لمست المرأة برؤوس أصابعها حبّات العرق الصّغيرة الّتي تنقّط جبينَها. «لكن من أين يمكن لشخص مثلي أن يبدأ أصلًا؟»

«من المكتبة العامّة»، أجابت إليزابيث: «وبعد ذلك اختبارات القبول في الكلّيّات الطّبّيّة، ثمّ الدّراسة في الكلّيّة، ثمّ الإقامة».

بدت المرأة فجأةً قد أدركت أنّ إليزابيث تأخذها على محمل الجدّ. «تظنّين *حقًّا* أنّ بوسعي فعلها؟»، قالت وصوتها يرتجف.

- ما هو الوزن الجزيئيّ لكلوريد الباريوم؟

- 208.23

- ستكونين على ما يرام.

- لكن زوجي...

«رجلٌ محظوظ. بالمناسبة، اليوم هو يوم الهديّة المجّانيّة يا سيّدة فيليس»، قالت إليزابيث: «وهو شيءٌ ابتكره المنتجُ توًّا. لنعبّرَ عن دعمنا لمستقبلك المقدام، ستأخذين معك فطيرة القدر بالدّجاج خاصّتي إلى المنزل. تفضّلي إلى هنا واستلميها».

وسط تصفيقٍ صاخب، سلّمت إليزابيث السّيّدةَ فيليس -ذاتَ المظهر الّذي بات واثقًا- الفطيرةَ المغلّفة بورق الألومنيوم. «لقد انتهى وقتُ الحلقة رسميًّا»، قالت إليزابيث: «لكن أتمنّى أن تنضممن إلينا غدًا حيث سنسبر أغوار عالم الحرائق المطبخيّة».

ثمّ نظرت -كمن لا تخفى عليه خافية- عبرَ عدسة الكاميرا، مباشرةً إلى الوجوه المشدوهة لأولاد السّيّدة جورج فيليس الخمسة المنتشرين أمام التّلفاز في كيرنفيل، مشرعين أعينَهم فاغرين أفواههم، كأنّهم للتّوّ رأوا أمَّهم لأوّل مرّة على الإطلاق.

«أيّها الصّبيان، جهّزوا الطّاولة»، أمرَت إليزابيث: «والدتكم تحتاج إلى لحظةٍ لنفسها».

99 بالمئة

«ماد»، بدأت إليزابيث كلامها باحتراس بعد أسبوع: «لقد اتّصلت بي السّيّدة مودفورد في العمل اليوم. بشأن صورة عائليّة غير ملائمة؟»

أثارت انتباهَ مادلين فجأةً قشرةٌ في ركبتها.

«وكان ثمّة شجرة عائلة مرفقة بهذه الصّورة»، أضافت إليزابيث برفق: «تدّعين فيها أنّك سليلةٌ مباشرةٌ لـ»، سكتت قليلًا تراجع قائمة، «نفرتيتي وسوجورنر تروث وأميليا إيرهارت. أيبدو لك هذا الكلام مألوفًا؟»

رفعت مادلين رأسها تنظر ببراءة: «ليس حقًّا».

- والشّجرة تضمّ ثمرة بلّوط كُتب عليها «العرّابة الجنّيّة».

- ها.

- وفي الأسفل هناك من كتب: «البشر حيوانات». وُضعت ثلاثة خطوط تحت هذا، ثمّ كُتب: «في الدّاخل، البشر متطابقون جينيًّا بنسبة تسعة وتسعين بالمئة».

رفعت مادلين عينيها إلى السّقف.

«تسعة وتسعون بالمئة؟»، قالت إليزابيث.

«ماذا؟»، قالت مادلين.

- هذا غير دقيق.

- لكن...

- في العلم، الدّقّة مهمّة.

- لكن...

«الحقيقة أنّ النّسبة قد تبلغ تسعة وتسعين فاصلة تسعة بالمئة. تسعة وتسعون *فاصلة تسعة*»، ثمّ توقّفت ولفّت ابنتَها بذراعيها، «هذا ذنبي يا عزيزتي. باستثناء الثّابت باي، نحن لم نتطرّق حقًّا إلى موضوع الأعداد العشريّة بعد».

«آسفة على المقاطعة»، نادت هارييت وهي تدخل من الباب الخلفيّ: «رسائل هاتفيّة، لقد نسيت أن أتركها»، وضعت قائمةً أمام إليزابيث واستدارت تذهب.

«هارييت»، قالت إليزابيث وهي تلقي نظرةً على القائمة: «من هذا؟ الكاهن من الكنيسة المشيخيّة الأولى؟»

انتصب شعر ذراعَي مادلين.

«بدت كواحدة من مكالمات التّرويج الكنسيّة تلك. طلب أن يتحدّث إلى ماد. كان يعتمد على قائمة سيّئة على الأرجح. على أيّة

حال، هذه هي الرّسالة الّتي أردتُ التّوثّق من أن تريها»، قالت تنقر على القائمة: «*لوس أنجلس تايمز*».

«كانوا يتّصلون في العمل أيضًا»، قالت إليزابيث: «يريدون إجراء لقاء».

«لقاء!»

«ستظهرين في الصّحيفة مجدّدًا؟»، قالت ماد بقلق. لقد ظهرت عائلتها في الصّحف مرّتين: واحدةً حين مات والدها، وأخرى حين نسفت رصاصةٌ طائشة شاهدةَ قبر والدها. ليس سجلًّا رائعًا.

«كلّا يا ماد»، أجابت إليزابيث: «الشّخص الّذي يريد إجراء لقاء معي ليس حتّى صحفيًّا مختصًّا بالعلوم؛ هو يكتب موادًّ للصّفحة النّسائيّة. لقد أخبرني مسبقًا أنّه ليس مهتمًّا بالحديث عن الكيمياء، العشاء فقط. من الواضح أنّه لا يفهم أنّ الفصل بين الأمرين غير ممكن. وأظنّ أنّه يريد أيضًا طرح أسئلة عن عائلتنا، رغم أنّ عائلتنا ليست من شأنه».

«لمَ لا؟»، سألتها مادلين: «ما *الخطأ* في عائلتنا؟»

تحت الطّاولة، رفع ستّة ونصف رأسه. كان يكره أن تظنّ ماد أنّ في عائلتهم خطأً ما. أمّا بالنّسبة إلى نفرتيتي والأخريات، فالأمر لا يتعلّق بأمنيات ماد وحسب، بل هو دقيق من ناحية محدّدة حاسمة: جميع البشر يتشاركون سلفًا مشتركًا. كيف لمودفورد ألّا تعرف هذا؟ إنّه كلبٌ وحتّى هو يعرف هذا. بالمناسبة، وفي حال كان الأمر يهمّ أيَّ أحد، لقد تعلّم لتوّه كلمةً جديدة: «يوميّات». إنّها مكانٌ يكتب المرءُ

فيه أشياءَ خبيثةً عن عائلته وأصدقائه راجيًا من الله ألّا يروها. ومع «يوميّات»، وصل عدد كلماته الآن إلى 648.

«أراكما في الصّباح»، نادت هاربيت وهي تصفق الباب خلفها.

«ما الخطأ في عائلتنا، ماما؟»، كرّرت مادلين.

«لا شيء»، قالت إليزابيث بحدّة وهي ترفع الأطباق عن الطّاولة: «ستّة ونصف، ساعدني على مُخلِية الدّخان. أريد أن أجرّب تنظيف الأطباق باستخدام بخارٍ هيدروكربونيّ».

«أخبريني عن بابا».

«لقد أخبرتك كلّ شيء يا عزيزتي»، قالت وقد أضاء الحنوُّ وجهَها فجأة: «لقد كان رجلًا لامعًا نزيهًا محبًّا. مجدّفًا عظيمًا وكيميائيًّا موهوبًا. كان طويلًا ورماديَّ العينين، مثلك، وكانت يداه كبيرتين جدًّا. مات والداه في حادثة قطار مؤسفة، واصطدمت عمّته بشجرة. ذهب ليعيش في دار بنين، وهناك...»، سكتت، وراح فستانُها ذو المربّعات الزّرقاء والبيضاء يتمايل عند ربلتَيها وهي تعيد النّظر في تجربة تنظيف الأطباق. «أسدي لي معروفًا يا ماد، ارتدي قناعَ الأكسجين هذا. وأنت يا ستّة ونصف، دعني أساعدك على ارتداء نظّارة الوقاية خاصّتك. هاكُما»، قالت تضبط لهما الأربطة: «المهمّ، ثمّ ذهب والدُكِ إلى كامبريدج حيث...»

«دار.. البنين...»، حاولت ماد أن تقول من خلف القناع.

«لقد تناقشنا في هذا يا عزيزتي، أنا لا أعرف الكثير بشأن دار البنين. لم يكن والدك يحبّ الحديث عنها، كان موضوعًا خصوصيًّا».

«خصو..صيّ؟ أم.. سرّيّ؟»، حاولت من خلف القناع.

«خصوصيّ»، أجابت والدتُها بحزم: «الأمور السّيّئة تحدث أحيانًا. هذه من حقائق الحياة. أمّا بالنّسبة إلى دار البنين، فوالدك لم يكن يحبّ الحديث عنها لأنّه -كما أظنّ- كان يعلم أنّ التّركيز على الأمر لن يغيّر الواقع. لقد نشأ دون عائلة، دون والدين يستطيع الاعتماد عليهما، دون الحماية والحبّ اللّذين من حقّ كلّ طفل. لكنّه تحمّل. كثيرًا ما تكون أفضل طريقة للتّعامل مع الأمور السّيّئة»، قالت تتلمّس بحثًا عن قلمها الرّصاص، «هي أن نقلبها رأسًا على عقب - نستخدمها مصدرًا للقوّة، نرفض السّماح لها بتحديدنا، *نقاومها*».

الطّريقة الّتي قالت بها كلمتَها الأخيرة -كالمحاربين- جعلت مادلين تشعر بالقلق.

«هل حدثت أمور سيّئة لك أنت أيضًا، ماما؟»، حاولت أن تسألها: «في ما خلا موت بابا؟»، لكنّ تجربة تنظيف الأطباق كانت تجري على قدم وساق، فضاع سؤالُها بين القناع ورنين الهاتف.

«نعم، والتر»، قالت إليزابيث بعد لحظة.

«آمل أنّني لا أقاطع أيّ شيء...»

«على الإطلاق»، أجابت، رغم طنينٍ غير معتاد في الخلفيّة: «كيف يمكنني أن أساعدك؟»

«حسنًا، اتّصلتُ بكِ من أجل أمرين. الأوّل هو وظيفة شجرة العائلة. كنتُ أتساءل...»

«أجل»، أكّدت: «نحن في ورطة».

«ونحن كذلك»، قال ببؤس: «يبدو أنّها عرفت أنّ الأسماء الّتي وضعتُها على الغصون مختلقة بالكامل. أهذا ما فعلتِه أنتِ أيضًا؟»

«لا»، قالت إليزابيث: «لقد ارتكبت ماد خطأً رياضيًّا».

سكت، إذ لم يفهم.

«عليّ أن أقابل مودفورد غدًا»، تابعت: «بالمناسبة، لستُ متأكّدة إن كنتَ سمعت، لقد فُرزت الفتاتان كلتاهما إلى صفّها من جديد في الخريف. سوف تُدرّس الصّفّ الأوّل، وحين أقول «تدرّس» فأنا أتهكّم بالطّبع. لقد قدّمتُ شكوى بالفعل».

«ربّاه»، تنهّد والتر.

«ما الأمر الثّاني يا والتر؟»

«فيل»، أجاب: «إنّه، آه... إنّه ليس... سعيدًا».

«ولا أنا»، قالت إليزابيث: «كيف أصبحَ منتجًا تنفيذيًّا أصلًا؟ إنّه يفتقر إلى الرّؤيا والصّفات القياديّة والأسلوب. والطّريقة الّتي يعامل بها النّساء في المحطّة وضيعة».

«حسنًا»، قال والتر، يتذكّر كيف أنّ ليبنزمال -حين كانا يتناقشان بشأن إليزابيث قبل بضعة أسابيع- بصق عليه حرفيًّا: «أتّفق معك على أنّ شخصيّته تكون غريبة أحيانًا».

«هذه ليست شخصيّة يا والتر، بل انحطاط. سوف أتقدّم بشكوى إلى مجلس الإدارة».

هزّ والتر رأسه. *الشّكاوى مجدّدًا.* «إليزابيث، فيل عضوٌ في المجلس».

«حسنًا، يجب إعلام أحدهم بسلوكه».

«بالتّأكيد»، قال والتر متنهّدًا: «بالتّأكيد بتِّ تعلمين بحلول هذا الوقت أنّ العالم مليء بأشباه فيل. أفضل ما يمكننا المراهنة عليه هو أن نحاول التّأقلم، ونخرج بأفضل ما في هذا الوضع السّيّئ. لمَ لا تستطيعين أن تفعلي هذا وحسب؟»

حاولت أن تفكّر في سبب وجيه للخروج بأفضل ما في فيل ليبنزمال. كلّا، لم تستطع التّوصّل ولو إلى شيء واحد.

«اسمعي، لديّ فكرة»، تابع: «فيل يحاول أن يجذب راعيًا محتملًا جديدًا؛ صاحب مصنع حساء. وهو يريد منك أن تستخدمي الحساء في برنامجك، ضمن طاجن مثلًا. افعلي هذا، اجذبي راعيًا كبيرًا، وأظنّ أنّه سيخفّ علينا بعض الشّيء».

«صاحب مصنع حساء؟ أنا لا أستخدم إلّا المكوّنات الطّازجة».

«هلّا *حاولتِ* على الأقلّ أن تلاقيني في منتصف الطّريق؟»، توسّل: «ما هي إلّا علبة حساء واحدة. فكّري في الآخرين، كلّ النّاس الّذين يعملون على برنامجك. جميعنا لدينا عائلات نطعمها يا إليزابيث؛ جميعنا نحتاج أن نحافظ على وظائفنا».

حلّ الصّمت على طرفها من الخطّ، كأنّها تزن كلماته. «أودّ أن أقابل فيل وجهًا لوجه»، قالت: «لنفنّدَ الخلافات».

«لا»، أكّد والتر: «ليس هذا. إلّا هذا».

زفرت بحدّة: «حسنًا. اليوم هو الاثنين. أحضر العلبة يوم الخميس، وسأرى ما أستطيع فعله».

غير أنّ الأسبوع ازداد سوءًا باطّراد. في اليوم التّالي، الثّلاثاء، صارت المفاجآت الّتي كشفت عنها وظيفة شجرة مودفورد حديثَ المدرسة: مادلين وُلدت خارج إطار الزّوجيّة؛ أماندا لا تملك أمًّا؛ والدُ تومي ديكسون مدمنُ كحول. ليس أنّ أحدًا من الأطفال يبالي بهذه الحقائق، لكنّ مودفورد -وعيناها اللّئيمتان تدمعان من الحماسة- التهمت المعلومات مثل فيروس جائع، ثمّ أطعمتها لبقيّة الأمّهات، اللّاتي نشرنها في أنحاء المدرسة مثل الصّقيع.

ويوم الأربعاء، قام أحدهم خلسةً بإقحام ورقةٍ تُبيّنُ أجورَ كلِّ موظّفٍ في كي سي تي في تحت باب إليزابيث. حدّقت إليزابيث إلى الأرقام. هي تجني ثلثَ ما يجنيه مذيع الرّياضة؟ رجل لا يظهر على الهواء أكثر من ثلاث دقائق في اليوم ومهارته الوحيدة تتضمّن قراءة النّتائج؟ بل أسوأ، الظّاهر أنّ ثمّة شيئًا يسمّى «اقتسام الأرباح» في كي سي تي في، لكن الموظّفون الذّكور هم وحدهم الّذين دُعوا إلى المشاركة.

بيد أنّ ما أثار سخطَ إليزابيث العارمَ هو مظهر هارييت حين وصلت صباح الخميس.

كانت إليزابيث قد أنهت لتوّها كتابةَ ملاحظةٍ ودسّها في علبة طعام مادلين -*المادّة لا تفنى ولا تُستحدث من العدم، وإنّما تتحوّل*

من شكل إلى آخر. بصياغة أخرى، لا تجلسي بجانب تومي ديكسون- عندما جلست هارييت إلى الطّاولة، ورغمَ عتمةِ الصّباح، لم تنزع نظّارتَها الشّمسيّة.

«هارييت؟»، قالت إليزابيث وقد تنبّهت من فورها.

بصوتٍ يبذل قصارى جهده كي يُظهر أنّ الأمر ليس قضيّة كبيرة، شرحت هارييت أنّ السّيّد سلون كان على غير عهده اللّيلةَ السّابقة. لقد رمت بعض مجلّاته البناتيّة، وخسر فريقُ الدّودجرز في المباراة، ولم يرُق له كيف شجّعت إليزابيث تلك المرأةَ على أن تصبح جرّاحة قلب. ألقى عليها زجاجةَ بيرة فارغة أطاحت بها مثل دريئةٍ في مضمارِ رماية.

«سأتّصل بالشّرطة»، قالت إليزابيث تمدّ يدها إلى الهاتف.

«لا»، قالت هارييت واضعةً يدها على ذراع إليزابيث: «لن يفعلوا أيّ شيء، وأنا أرفض أن أمنحه هذا الرّضى. إضافةً إلى أنّني ضربته بحقيبتي».

«سوف أذهب إليه الآن فورًا»، قالت إليزابيث: «عليه أن يفهم أنّ هذا النّوع من السّلوك لن يُسكَت عنه»، نهضت واقفة، «سأحضر مضرب البيسبول خاصّتي».

«لا. إن اعتديتِ عليه سينقضّ رجال الشّرطة عليكِ أنتِ، لا عليه هو».

فكّرت إليزابيث في الأمر. هارييت على حقّ. تقبّض فكُّها وشعرت بالحنق المألوف للغاية من صدامها مع الشّرطة قبل سنوات.

لا إفادةَ تندُّمٍ إذًا؟... مدّت يدها إلى الخلف وتلمّست تبحث عن قلمها الرّصاص.

«بوسعي أن أعتني بنفسي. هو لا يخيفني يا إليزابيث، بل يثير تقزّزي. ثمّة فرق».

إليزابيث تعرف هذا الشّعور تمامًا. انحنت ولفّت هارييت بذراعيها. على الرّغم من صداقتهما، كانت المرأتان نادرًا ما تتلامسان. «ما من شيء سأتردّد في فعله من أجلك»، قالت إليزابيث تضمّها: «*تعلمين* هذا، أليس كذلك؟»

متفاجئةً، رفعت هارييت رأسها تنظر إلى إليزابيث، والدّمع يترقرق في عينيها. «وأنا أيضًا، الأمر نفسه». ثمّ انفضّت المرأة الأكبر سنًّا أخيرًا. «ستكون الأمور على ما يرام»، وعدتها هارييت وهي تمسح وجهها: «فقط دعي الأمر وشأنه».

غير أنّ إليزابيث ليست من النّوع الّذي يدع الأمور وشأنها. حين خرجت من مدخل السّيّارات بعد خمس دقائق، كانت قد صاغت خطّةً وانتهى الأمر.

«مرحبًا بمشاهداتِنا الكرائم»، قالت إليزابيث بعد ثلاث ساعات: «وأهلًا بعودتكنّ. أترين هذا؟»، مدّت علبة حساء نحو الكاميرا، «إنّه مُنتَجٌ يوفّر الوقت حقًّا».

على كرسيّ المنتج، تنفّس والتر الصّعداء. سوف تستخدم الحساء!

«وهذا لأنّه مليء بالمواد الكيميائيّة»، قالت ثمّ ألقت العلبة في سلّة قمامة قريبة لتصدر صوتًا مكتومًا: «أطعمن أحبّاءكنّ كفايةً منه وسوف يموتون في النّهاية، وهذا يوفّر لكنّ الكثير جدًّا من الوقت إذ لن يتوجّب عليكنّ إطعامهم بعدها».

التفت المصوّر إلى والتر مرتبكًا، فأطرق الأخيرُ ينظر إلى ساعة يده كأنّه نسيَ موعدًا هامًّا، ثمّ نهض وسار إلى الخارج، شاقًّا طريقه مباشرةً نحو باحة السّيّارات، وهناك ركب سيّارتَه وقادها إلى المنزل.

«لحسن الحظّ، ثمّة طرق أسرع بكثير لقتل أحبّائكنّ»، تابعت تسير إلى لوحها القلّاب، حيثُ تُعرَض مجموعة رسومات لأنواعٍ مختلفة من الفطر: «والفطر مكان ممتاز نبدأ منه. لو كنتُ مكانكنّ، لاخترت *الأمانيت الفالوسياني*»، قالت وهي تنقر على أحد الرّسومات، «المعروف أيضًا باسم فطر قبّعة الموت. ليس الأمر فقط أنّ سمّه يحتمل الحرارة المرتفعة، ما يجعله الوجهة الأولى لمن يريد صنعَ طاجن بريءِ المظهر، بل هو أيضًا يشبه ابنَ عمّه غير السّامّ، فطر القشّ. لذا إن مات أحدهم وأُجريَ تحقيق، يمكنكنّ بسهولة تمثيل دور ربّة المنزل الحمقاء والتّذرّع أنّكنّ أخطأتنّ في تحديد نوع الفطر».

رفع فيل ليبنزمال عينيه عن طاولته إلى إحدى الشّاشات المتناثرة في مكتبه. ما الّذي قالته للتّوّ؟

«الأمر الرّائع في الفطور السّامّة»، تابعت: «هو سهولة تكيّفها مع صنوف الطّبخ المختلفة. إن لم ترغبن بالطّاجن، لمَ لا تجرّبن الفطر المحشوّ؟ شيءٌ تستطعن مشاركته مع جاركم في المنزل المجاور، ذلك

الّذي يبذل جهدًا خاصًّا ليجعل حياةَ زوجته بائسة. إحدى قدميه في القبر أصلًا، لمَ لا نساعده على نقل الأخرى؟»

عند هذا، أطلق شخصٌ بين الحضور ضحكةً صاخبةً غير متوقّعة ثمّ صفّق. وفي تلك الأثناء، استطاعت الكاميرا أيضًا أن تلتقط عدّةَ أيادٍ تدوّن بحرص: *«أمانيت فالوسياني»*.

«بالطّبع، أنا أمزح لا أكثر بشأن تسميم أحبّائكنّ»، قالت إليزابيث: «إنّني واثقة أنّ أزواجكنّ وأطفالكنّ جميعهم أشخاص رائعون يبذلون كامل الجهد دائمًا كي يعبّروا لكنّ عن تقديرهم لعملكنّ الجادّ. أو، في حال كنتنّ تعملن خارج المنزل - وهذا مستبعَد، فأنا متأكّدة أنّ رئيسكنّ الحقّانيّ يكفل أن تتقاضين الأجرَ الّذي يتقاضاه نظراؤكنّ الذّكور نفسه»، هذا أيضًا نال مقدارًا أكبر من الضّحك والتّصفيق الّذي رافقها وهي تسير عائدةً إلى خلف المنضدة. «اللّيلة ليلة طاجن البروكلي و*الفطر*»، قالت وهي ترفع سلّةً من - ربّما؟- فطر القشّ: «هيّا بنا نبدأ».

ليس مبالغةً إن قيل إنّ أحدًا في كاليفورنيا لم يلمس عشاءه تلك اللّيلة.

«زوت»، قالت روزا، أخصّائيّة المكياج، وهي خارجة: «ليبنزمال يريد أن يراكِ عند السّابعة».

«السّابعة؟»، امتقع وجهُ إليزابيث: «واضحٌ أنّ الرّجل ليس لديه أطفال. بالمناسبة، هل رأيتِ والتر؟ أظنّ أنّه غاضب منّي».

«لقد غادر مبكّرًا»، قالت روزا: «اسمعي، لا أظنّ أنّه يجدر بكِ الذّهاب لمقابلة ليبنزمال بمفردك. سآتي معك».

- أنا بخير، روزا.

- ربّما ينبغي أن تتّصلي بوالتر أوّلًا. هو لا يترك أحدًا منّا يقابل ليبنزمال بمفرده.

«أعرف»، قالت إليزابيث: «لا تقلقي».

تردّدت روزا، تنظر إلى السّاعة.

«اذهبي إلى المنزل. ليس أمرًا جللًا».

«على الأقلّ اتّصلي بوالتر أوّلًا»، قالت روزا: «أخبريه»، استدارت لتجمع أغراضها، «بالمناسبة، لقد أحببتُ حلقة اللّيلة. كانت مضحكة».

نظرت إليزابيث إليها رافعةً حاجبيها: «مضحكة؟»

قبل السّابعة ببضع دقائق، بعد أن أتمّت تدوين ملاحظاتها من أجل حلقة الغد، رفعت إليزابيث حقيبتها الكبيرة إلى كتفها وسارت في دهاليز كي سي تي في الخاوية إلى مكتب ليبنزمال. طرقت الباب مرّتين، ثمّ أذِنَت لنفسها بالدّخول. «أردتَ أن تراني يا فيل؟»

كان ليبنزمال جالسًا خلف طاولة مكتب هائلة الحجم تغطّيها أكداس من الأوراق وطعامٌ أُكِلَ نصفُه، أربع شاشات تلفاز ضخمة تبثّ برامج معادةً بصوتٍ صاخب في ألوان بيضاء وسوداء شبحيّة،

وللهواء رائحة دخان سجائر بائت. شاشة تعرض مسلسل سوب أوبرا؛ وأخرى جاك لالان؛ وأخرى برنامج أطفال؛ والرّابعة «العشاء عند السّادسة». لم يسبق لها أن شاهدت برنامجها قطّ، لم تختبر مرّةً سماعَ صوتِها صادرًا من مكبّر. كان رهيبًا.

«أخيرًا»، قال ليبنزمال بصوتٍ منفعلٍ وهو يسحق عقبَ سيجارةٍ في زبديّةٍ زينةٍ مصنوعة من الزّجاج المحفور. أشار نحو كرسيٍّ إلى إليزابيث كي تجلس، ثمّ هبّ إلى الباب وصفقه، ليضغط بعد ذلك على زرّ القفل.

«قيل لي عند السّابعة»، قالت.

«هل قلتُ لكِ تكلّمي؟»، ردّ بانفعال.

من على يسارها، سمعت نفسها تشرح تفاعل الحرارة مع الفركتوز. أمالت رأسها نحو التّلفاز. هل كانت درجة الحموضة صحيحة؟ أجل.

«هل تعرفين من أنا؟»، سألها بنبرةٍ سليطة من طرف الغرفة الآخر، بيد أنّ دويّ أجهزة التّلفاز شوّش كلامه.

«هل أعرف عن... *البطاطا الحلوة*[1]؟»

«قلتُ»، تكلّم بصوت أعلى هذه المرّة، وهو يعود إلى طاولته: *«هل تعرفين من أنا؟»*

مكتبة
t.me/soramnqraa

(1) تشابهٌ لفظيّ في الإنجليزيّة. (المترجم)

«أنت **فيل ليبنزمال**»، أجابت إليزابيث بصوتٍ عالٍ: «أتمانع أن أطفئ أجهزة التّلفاز؟ من الصّعب أن نسمع».

«لا تتواقحي معي!»، قال: «حين أقول هل تعرفين من أنا، فأنا أعني *هل تعرفين من أنا؟* »

بدت مشوّشةً للحظة. «مجدّدًا، أنت فيل ليبنزمال. لكن إن أردتَ، بوسعنا أن نتأكّد من رخصة قيادتك».

تضيّقت عيناه.

«تمرين ثني الجذع!»، هتف جاك لالان.

«حفلة رقص!»، قال مهرّجٌ ضاحكًا.

«أنا لم أحبّكَ يومًا»، اعترفت ممرّضة.

«مستوًى حمضيّ مرتفع»، سمعت نفسها تقول.

«أنا *السّيّد* ليبنزمال، المنتج التّنفيذيّ في...»

«آسفة يا فيل»، قالت تشير إلى مكبّر الصّوت الأقرب إليها: «لكنّني حقًّا لا أستطيع...»، مدّت يدها نحو قرص التّحكّم بالصّوت.

«إيّاكِ»، دوّى صوتُه: **«أن تلمسي أجهزة التّلفاز خاصّتي!»**

نهض وحمل كدسةً من حافظات الملفّات، ثمّ سار عبر الغرفة بخطوات مسموعة، لينزعَ أمامها منفرجَ السّاقين كأنّه حاملُ كاميرا.

«تعرفين ما هذه؟»، قال يلوّح بالحافظات أمام وجهها.

- حافظات ملفّات.

- لا تتحاذقي معي. إنّها استبيانات جمهور «العشاء عند السّادسة»، حسابات مبيع الإعلانات، تقييمات نيلسن.

«حقًّا؟»، قالت: «أودّ لو ألقي...»، لكن قبل أن تستطيع إلقاء نظرة، خطف الملفّات من أمامها.

«كما لو كان بوسعك أن تفسّري النّتائج أصلًا»، قال بحدّة: «كما لو كانت لديكِ أدنى فكرة عن معنى أيٍّ من هذا». صفق الملفّات على فخذه، ثمّ عاد إلى طاولته بخطًى واسعة. «لقد سمحتُ لهذا الهراء أن يستمرّ أكثر من اللّازم بكثير. والتر فشل في أن يلجمك، لكن أنا لن أفشل. إن كنتِ تريدين الحفاظ على وظيفتك، سوف تلبسين ما أختاره، وتعدّين الكوكتيلات الّتي أريدها، وتحضّرين العشاء باستخدام كلمات طبيعيّة. وكذلك سوف...»

توقّف في منتصف الجملة، إذ شتّتته ردّةُ فعلها - أو بالأحرى، غياب ردّة فعلها. إنّها طريقة جلوسها على كرسيّها، مثل والدة تنتظر أن ينتهي طفلها من فورة غضبه.

«غيّرتُ رأيي»، بصق الكلامَ من فمه بتهوّر: «أنتِ مفصولة!». وعندما ظلّت لا تبدي ردّة فعل، نهض وسار يدكّ الأرض إلى أجهزة التّلفاز الأربعة وأطفأها جميعًا، كاسرًا قرصَي تحكّمٍ خلال ذلك. «**الجميع مفصولون!**»، جأر: «أنتِ وباين وكلُّ شخصٍ كان له دورٌ مهما صغر في مساعدة هرائك ومناصرته. جميعكم **إلى الخارج!**». بأنفاسٍ ثقيلة، عاد إلى طاولته وألقى نفسه على كرسيّه، منتظرًا ردّتَي الفعل الوحيدتين اللّتين يمكن أو ينبغي أن تتبعا ذلك حتمًا: البكاء أو الاعتذار، والأفضل كلاهما.

في الغرفة الّتي عمّها الهدوء، أومت إليزابيث برأسها ودي تمسّد وجهَ بنطالها. «أنت تفصلني بسبب حلقة اللّيلة عن الفطور السّامّة. إضافةً إلى كلّ شخص آخر له علاقة بالبرنامج».

«هذا صحيح»، شدّد على الكلمة، عاجزًا عن إخفاء مفاجأته بكون تهديده لم يؤثّر بها: «الجميع مفصول، وهذا بسببكِ *أنت*. فقدوا وظائفهم، كلّ هذا بسببك. *انتهينا*». اعتدل في جلسته ينتظر منها أن تتذلّل.

«إذًا كي نوضّح الأمور»، قالت: «أنا أُفصَل لأنّني أرفض أن أرتدي ملابسك وأبتسم في وجه الكاميرا خاصّتك، لكن أيضًا لأنّني -هل هذا صحيح؟- لا أعرف «من أنت». ولتزيد في إثبات وجهة نظرك، أنت تفصل كلَّ من له علاقة بـ «العشاء عند السّادسة» رغم أنّ هؤلاء الأشخاص يعملون أيضًا على أربعة برامج أخرى أو خمسة سيغيبون عنها دون سابق إنذار. ما يعني أنّ هذه البرامج الأخرى ستتأثّر هي أيضًا إلى درجة تحول دون بثّها».

توتّر فيل مغتاظًا من منطقها الواضح. «بوسعي ملء هذه الشّواغر في غضون أربع وعشرين ساعة»، قال وهو يفرقع بأصابعه: «بل أقلّ».

«وهذا قرارك النّهائيّ، رغم نجاح البرنامج».

«*أجل*، إنّه قراري النّهائيّ»، أجاب: «وكلّا، البرنامج *ليس* ناجحًا - هذه هي الفكرة». التقط الملفّات من جديد وراح يلوّح بها، «الشّكاوى تتدفّق علينا كلّ يوم - بشأنك، بشأن آرائك... بشأن

العلوم خاصّتك. رعاتنا يهدّدون بتركنا. مصنع الحساء ذاك – سوف يقاضوننا على الأرجح».

«الرّعاة»، قالت تضع رؤوس أصابعها على بعضها، كأنّها مسرورة أنّه ذكّرها: «كنتُ أنوي أن أكلّمك بشأنهم. أقراص قلس حمضيّ؟ أسبرين؟ هذه المنتجات تلمّح إلى أنّ الطّعام الّذي يقدّمه البرنامج لن يكون مريحًا للمعدة».

«لأنّه كذلك فعلًا»، ردّ فيل دون إبطاء. كان قد مضغ أكثر من عشرة أقراص مضادّة للحموضة خلال السّاعتين الأخيرتين وما تزال أحشاؤه مقلوبة رأسًا على عقب. مكتبة سُر مَن قرأ

«أمّا بالنّسبة إلى الشّكاوى»، أقرّت: «فقد تلقّينا بضعًا منها. لكنّها ليست شيئًا بالمقارنة مع رسائل الدّعم، الّتي لم أتوقّعها. لديّ تاريخ حافل بعدم الاندماج يا فيل، غير أنّني بدأت أفكّر أنّ عدم الاندماج هو السّبب الّذي يجعل البرنامج يلاقي نجاحًا».

«البرنامج لا يلاقي نجاحًا»، أصرّ: «إنّه كارثة!». ما هذا الّذي يحدث هنا؟ لماذا تتابع الكلام كأنّها لم تُفصَل؟

«الشّعور بعدم الاندماج شعورٌ رهيب»، تابعت برباطة جأش: «البشر بطبيعتهم يريدون أن ينتموا؛ هذا جزءٌ من بيولوجيّتنا. إلّا أنّ مجتمعنا يجعلنا نشعر أنّنا لا نحقّق المستوى المطلوب كي ننتمي. أتعرف ما أقصده يا فيل؟ لأنّنا نقيس أنفسنا وفقًا لمعايير عديمة الجدوى تتعلّق بالجنس والعرق والدّين والسّياسة والمدارس، بل حتّى بالطّول والوزن...»

– ماذا؟

– على عكس ذلك، يركّز «العشاء عند السّادسة» على قواسمنا المشتركة، على كيميائنا. لذا رغم أنّ مشاهدينا قد يجدون أنفسهم رهنَ سلوكٍ مجتمعيٍّ مكتسب – خذ مثلًا العبارات المعهودة من قبيل «الرّجال هكذا والنّساء كذاك»، فالبرنامج يشجّعهم على التّفكير أبعد من هذه السّذاجة الثّقافيّة، على التّفكير بوعي، مثل العلماء.

ألقى فيل ظهرَه إلى الخلف فوق كرسيّه، مستغربًا إحساس الخسارة غير المألوف.

«لهذا تريد أن تفصلني. لأنّك تريد برنامجًا يعزّز المعايير المجتمعيّة، يحدّد قدرات الفرد. أنا أتفهّم تمامًا».

بدأ صدغُ فيل ينبض. مدّ يدَه الرّاعشة إلى علبة سجائر مارلبورو، أخرج منها واحدةً وأشعلها. للحظة، كان الهدوء سائدًا وهو يسحب الدّخان بعمق، وطرف السّيجارة المتوهّج يصدر طقطقة بالكاد مسموعة، مثل نارِ حلقةِ سمرٍ في مخيّم دمى. نفث الدّخان، وراح يدرس وجهَها. نهض على حين غرّة، والإحباط يتذبذب من جسده، متوجّهًا إلى درسوار تتناثر فوقه زجاجات ويسكي وبوربون كهرمانيّة ذات مظهر يوحي بالأهمّيّة. أخذ واحدةً وسكب منها في قدح سميك، إلى أن بلغ الشّرابُ الحافةَ مهدّدًا بالاندلاق. أفرغه في حلقه وصبَّ آخر، ثمّ استدار ينظر إليها. «يوجد ترتيبُ نقرٍ[1] هنا»، قال: «وقد حان الوقت كي تتعلّمي كيف تسير الأمور».

---

(1) ترتيب النّقر: نظام تسلسل هرميّ يسود بين الدّجاج، إذ ينقر الطّائرُ الطّيورَ الأدنى منه دون خوفٍ من الانتقام ويرضخ للطّيور الأعلى مرتبة. (المترجم)

نظرت إليه بلا مبالاة: «إحقاقًا للحقّ، أريد أن أقول إنّ والتر باين لم يألُ جهدًا في سعيِه إلى جعلي أتّبع اقتراحاتك، وهذا على الرّغم من أنّه هو الآخر يعتقد أنّ البرنامج يمكن وينبغي له أن يكون أكثر. لا يجدر أن يُعاقَب على تصرّفاتي، فهو رجل جيّد وموظّف مخلص».

لدى ذكر والتر، وضع ليبنزمال قدحه وأخذ سحبةً أخرى من سيجارته. هو لا يحبّ أيّ شخصٍ يشكّك في سلطته، لكنّه لا يستطيع ولن يتسامح مع امرأةٍ تفعل هذا. وقف، وسترة بدلته المقلّمة منفرجةٌ عند خصره، مثبّتًا عينيه عليها، ثمّ بدأ يفكّ إبزيم حزامه برويّة. «كان ينبغي بي على الأرجح ألّا أتباطأ في فعل هذا منذ البداية»، قال يستلّ الحزام من عُراه: «أن أرسّخ القواعدَ الأساسيّة. لكن في حالتك، دعينا نعتبر هذا جزءًا من مقابلة خروجك».

ضغطت إليزابيث بساعديها على ذراعَي الكرسيّ، وقالت بصوتٍ ثابت: «أنصحك ألّا تقترب خطوةً أخرى يا فيل».

نظر إليها بدناءة: «يبدو حقًّا أنّك لا تفهمين من الّذي يتولّى زمام الأمور هنا، أليس كذلك؟ لكنّك سوف تفهمين»، ثمّ ألقى نظرةً إلى الأسفل، ونجح في فكّ الزّرّ وإنزال سحّاب بنطاله. متخلّصًا من البنطال، سار نحوها متعثّرًا، وأعضاؤه تتمايل مرتخيةً على بعد إنشات من وجهها.

هزّت رأسها في عجب. هي لا تملك أدنى فكرة عمّا يجعل الرّجال يظنّون أنّ النّساء يرين الأعضاء الذّكريّة مثيرةً للإعجاب أو الخوف. انحنت ومدّت يدها داخل حقيبتها.

«إنّني أعرفُ من أنا!»، صاح بصوتٍ ثخين، دافعًا نفسه نحوها: «السّؤال هو: من تظنّين نفسك بحقّ الجحيم؟»

«أنا إليزابيث زوت»، قالت بهدوء، تسحب سكّين طُهاةٍ طولها أربعة عشر إنشًا شُحِذَت حديثًا. لكنّها لم تتأكّد أنّه سمع، إذ خرّ مغشيًّا عليه.

بطاقة الشّفاء العاجل

كانت نوبة قلبيّة. ليست شديدة، لكنّ معظم النّاس في عام 1960 لا ينجون حتّى من أخفّ النّوبات القلبيّة. الرّجل محظوظ بكونه على قيد الحياة. قال الأطبّاء إنّه سيبقى في المستشفى ثلاثةَ أسابيع، تلي ذلك راحةٌ تامّة في سريره طوالَ عامٍ على الأقلّ. العمل ليس خيارًا واردًا.

«أنتِ الّتي اتّصلتِ بالإسعاف؟»، شهق والتر: «كنتِ *هناك*؟». إنّه اليومُ التّالي، ووالتر سمع الخبر لتوّه.

«أجل»، أجابت إليزابيث.

- وهو كان... ماذا؟ على الأرض؟ يده على قلبه؟ يشهق؟

- ليس تمامًا.

«إذًا *ماذا*؟»، قال والتر يمدّ ذراعيه بإحباط فيما تبادلت إليزابيث وأخصّائيّة المكياج النّظرات: «ماذا *حدث*؟»

«لِمَ لا أرجع لاحقًا؟»، قالت روزا بسرعة وهي تلمّ حقيبتها، وضغطت برفق على كتف إليزابيث قبل أن تغادر: «أتشرّف دائمًا يا زوت، أتشرّف بحقّ».

تفرّج والتر على هذا التّفاعل المتبادل وحاجباه مرفوعان فزعًا. «أنقذتِ حياةَ فيل»، قال بتوتّرٍ مع طقّة انغلاقِ الباب: «أفهم هذا. لكن ما الّذي حدث بالضّبط؟ لا تُغفلي أيّ تفصيل، ابدئي بالسّبب الّذي جعلك تكونين هناك من الأساس. بعد السّابعة مساءً؟ هذا غير منطقيّ على الإطلاق. أخبريني. لا تهملي شيئًا».

أدارت إليزابيث كرسيّها كي تواجه والتر. مدّت يدها إلى قلمها الرّصاص رقم اثنين، وسحبته من كعكتها لتثبّته خلف أذنها اليسرى، ثمّ التقطت كوبَ قهوتها وأخذت رشفة. «طلب لقائي»، قالت: «قال إنّ الأمر لا ينتظر».

«لقاء؟»، قال مرتاعًا: «لكنّني قلت... تعلمين... لقد *تكلّمنا* في هذا. ينبغي ألّا تقابلي فيل بمفردك أبدًا. ليس أنّني لا أظنّك قادرةً على تدبّر أمرك، الأمر فقط أنّني منتجك وأعتقد أنّ الأفضل دائمًا...»، أخرج منديلًا ووضعه على جبينه. «إليزابيث»، قال مخفضًا صوته: «بيني وبينك، فيل ليبنزمال ليس رجلًا صالحًا... هل تعلمين ماذا أقصد؟ هو ليس جديرًا بالثّقة. لديه طريقة في التّعامل مع المشاكل...»

«لقد فصلني».

شحب وجهُ والتر.

- وأنت كذلك.

- *ربّاه!*

- فصلَ كلَّ من يعمل على البرنامج.

- لا!

- قال إنّك فشلت في أن تلجمني.

انقلب لون والتر إلى لون الرّماد. «لا بدّ أن تفهمي»، قال قابضًا على منديله: «تعرفين شعوري تجاه فيل؛ تعرفين أنّني لا أتّفق مع كلّ شيء يقوله. *هل* لجمتُك؟ لا تُضحكيني. *هل* أرغمتك على ارتداء تلك الأزياء السّخيفة؟ ولا مرّة. *هل* توسّلت إليك كي تقرئي بطاقات التّلقين المرحة؟ حسنًا، بلى، لكن فقط لأنّني أنا من كتبتُها»، ألقى يديه في الهواء، «انظري، لقد أمهلني فيل أسبوعين... أسبوعين اثنين كي أجد طريقة ملائمة لجعله يرى أنّ أسلوبك الصّارخ في القيام بالأمور ينجح فعلًا... أنّ لديكِ رسائل معجبين واتّصالات وأشخاصًا يصطفّون ليكونوا بين جمهورك في الاستديو أكثر من كلّ البرامج الأخرى مجتمعة، وأنّكِ -لهذه الأسباب وحدها- يجب أن تبقي. لكن تعلمين أنّني لا أستطيع أن أدخلَ عليه وأقول ببساطة: «فيل، أنت مخطئ وهي محقّة». هذا انتحار. كلّا. التّعامل مع فيل يعني مداعبةَ الأنا خاصّته، الالتفافَ عليه، إسماعَه ما يحبّ. أنت تعرفين ما أعنيه. عندما رفعتِ علبةَ الحساء تلك، قلتُ لنفسي صارَ مرادُنا في يدنا، إلى أن قلتِ للجميع إنّه سمّ».

«لأنّه كذلك».

«انظري»، قال والتر: «أنا أعيش في العالم الحقيقيّ، وفي هذا العالم نقول ونفعل أشياءَ كثيرة في سبيل الحفاظ على وظائفنا الغبيّة. ألديكِ أدنى فكرة عن كمّيّة الهراء الّتي تحمّلتُها خلال العام الماضي؟ وأيضًا، هل تعرفين هذا أصلًا؟ رعاتنا يهمّون بتركنا».

«فيل أخبركَ بهذا».

«أجل، وإليك خبر عاجل. لا يهمّ عدد الرّسائل الدّافئة النّاعمة الّتي تتلقّينها؛ إن قال الرّعاة: «نحن نكره زوت»، يكون الأمر قد انقضى. وبحوثُ فيل تفيد أنّهم يكرهونك». أقحم منديله في جيبه من جديد، ثمّ نهض وملأ كوبَ ديكسي ورقيًّا بالماء، منتظرًا بقبقةَ الغالون، الصّوت الكريه الّذي يذكّره بقرحته كلَّ مرّة. «انظري»، قال ويده على بطنه: «علينا أن نبقي هذا بيننا ريثما أتوصّل إلى شيء ما. كم عدد الّذين يعرفون؟ أنا وأنت فقط، صحيح؟»

- أخبرتُ جميع العاملين في البرنامج.

- لا.

- أظنّنا لا نبالغ إن قلنا إنّ المبنى بأكمله بات يعرف الآن.

«لا»، كرّر وحطّ براحةِ يده على جبينه: «اللّعنة يا إليزابيث، ما الّذي كنتِ تفكّرين فيه؟ ألا تعرفين شيئًا عن التّعرّض للفصل؟ أوّلًا: لا تخبري أحدًا بالحقيقة أبدًا - ادّعي أنّكِ ربحتِ اليانصيب، ورثتِ مزرعةَ مواشٍ في وايومنغ، حصلتِ على عرضٍ ضخم في نيويورك، أشياء من هذا القبيل. ثانيًا: أفرطي في الشّرب حتّى تتوصّلي إلى ما ينبغي أن تفعليه. ربّاه. كأنّ أعراف التّلفاز القبليّة غريبة عنك!»

أخذت إليزابيث رشفةً أخرى من القهوة. «أتريد أن تسمع ما حدث أم لا؟»

«هنالك المزيد؟»، قال بقلق: «ماذا؟ سيسحب منّا سيّاراتنا أيضًا؟»

نظرت إليه مباشرةً، وقد تجعّد جبينها -الخالي من الخطوط عادةً- بعض الشّيء، فتحوّل انتباهُه بلحظةٍ من نفسه إليها. شعر

بالاضطراب. لقد غفل تمامًا عن أخطر جوانب لقائها بفيل؛ أنّها قابلته بمفردها.

«أخبريني»، قال، يحسّ أنّه قد يتقيّأ: «أرجوكِ أخبريني».

هل معظم الرّجال مثل فيل؟ برأي والتر، لا. لكن هل *يفعل* معظم الرّجال شيئًا حيالَ الرّجال الّذين مثل فيل، بمن فيهم هو نفسه؟ لا. بالتّأكيد، قد يبدو هذا مخزيًا أو جبانًا، لكن -بصراحة- ماذا يستطيع أيّ أحد أن يفعل في الواقع؟ المرء لا يفتعل شجارًا مع رجل مثل فيل. في سبيل تلافي هذه النّتائج، يفعل المرء ببساطة ما قيل له. الجميع يعرفون هذا، والجميع يقومون به. لكنّ إليزابيث ليست مثل الجميع. وضع يده المرتجفة على جبينه، كارهًا كلَّ عظمةٍ في جسده الرّخويّ. «هل حاول أن يفعل شيئًا؟ هل اضطررتِ أن تتصدّي له؟»، همس.

اعتدلت في جلستها على الكرسيّ، وضوءُ مرآة المكياج يضاعف هالةَ جلادتِها. تمعّن في وجهها بخشية، يفكّر أنّ جان دارك بدت هكذا على الأرجح قُبيل أن يشعلوا عودَ الثّقاب.

«حاوَل».

«ربّاه!»، صاح والتر، ساحقًا الكوب الورقيّ بيده: «ربّاه، لا!»

«والتر، هدّئ من روعك. لقد أخفق».

تلكّأ والتر. «بسبب النّوبة القلبيّة»، قال شاعرًا بالانفراج: «بالطّبع! يا له من توقيت عجيب. النّوبة القلبيّة. حمدًا لله!»

نظرت إليه نظرةً ساخرة، ثمّ مدّت يدها داخل حقيبتها، الحقيبة نفسها الّتي أخذتها إلى مكتب فيل اللّيلة الماضية.

«ما كنتُ لأنسب الفضل إلى الله»، قالت تسحب سكّين الطُهاةِ ذات الأربعة عشر إنشًا نفسها من حقيبتها.

شهق. مثل معظم الطّهاة، كانت إليزابيث تصرّ على استخدام سكاكينها الخاصّة. تحضرها معها كلّ صباح وتعيدها إلى المنزل كلّ مساء. الجميع يعرفون ذلك. الجميع باستثناء فيل.

«لم ألمسه»، شرحت: «تهاوى من تلقاء نفسه».

«يا يسوع...»، همس والتر.

«طلبتُ سيّارة إسعاف، لكن تعرف كيف تكون حركة المرور في ذلك الوقت من اليوم. استغرقَت دهرًا. لذا فيما أنا أنتظر، استغللتُ وقتي جيّدًا. هاك. ألقِ نظرة»، ناولته الملفّات الّتي لوّح بها ليبنزمال في وجهها. «عروض شراء حقوق بثّ»، قالت والمفاجأة من محتوى الملفّات بادية عليه: «هل كنت تعلم أنّ برنامجنا يُبثّ في ولاية نيويورك منذ ثلاثة أشهر؟ وأيضًا، بعض عروض الرّعاية الجديدة المثيرة للاهتمام. على الرّغم ممّا أخبرك به فيل، الرّعاة يتدافعون بالمناكب ليكونوا جزءًا من البرنامج. كهذا مثلًا»، أضافت تنقر على إعلان لشركة آر سي إيه فيكتور.

ظلّت عينا والتر إلى الأسفل، تحدّقان في الكدسة. أشار إلى إليزابيث كي تناوله كوبَ قهوتها، وحين فعلت أفرغَه في جوفه.

«آسف»، استطاع أن يقول أخيرًا: «كلّ القصّة أنّ الأمر مباغت للغاية».

نظرت بنفاد صبر إلى ساعة الحائط.

«لا أستطيع أن أصدّق أنّنا مفصولون»، تابع: «أقصد، بين أيدينا برنامجٌ يحقّق رواجًا كاسحًا *ونُفصَل*؟»

نظرت إليزابيث إليه باهتمام. «كلّا يا ولتر»، قالت على مهل: «لسنا مفصولين، بل نحن من يتولّى زمام الأمور».

بعد أربعة أيّام، جلس والتر خلف طاولة مكتب فيل القديمة، وقد أُخلِيَت الغرفة من منافض السّجائر، وأزيلت السّجّادة الفارسيّة، وراحت أزرار الهاتف تشتعل بالمكالمات الهامّة.

«والتر، أجرِ التّغييرات الّتي تعلم أنّها لازمة وهذا كلّ شيء»، قالت تذكّره أنّه المنتج التّنفيذيّ بالوكالة. وحين أحجم أمام المسؤوليّة، بسّطت له التّوصيف الوظيفيّ. «فقط افعل ما تعلم أنّه صائب يا والتر. ليس الأمر بهذه الصّعوبة، صحيح؟ ثمّ قل للآخرين أن يفعلوا الشّيء نفسه».

لم يكن الأمر بالسّهولة الّتي تجعله يبدو عليها تمامًا - أسلوب الإدارة الوحيد الّذي يعرفه هو التّرهيب والتّلاعب؛ هكذا كان هو نفسه يُدار دائمًا. لكن بدا أنّها تعتقد -ربّاه، كم هي ساذجة!- أنّ إنتاجيّة الموظّفين تزداد حين يشعرون أنّهم يعامَلون باحترام.

«كفّ عن العبث يا والتر»، قالت وهما واقفان خارج مدرسة وودي الابتدائيّة بانتظار اجتماع آخر مع مودفورد: «تولَّ الدّفة. وجِّهها. وحين ينتابُكَ الشّكّ، تظاهر».

التّظاهر. *هذا* أمرٌ يستطيع أن يفعله. في غضون أيّام، كان قد أبرم سلسلةً من الصّفقات، فصار «العشاء عند السّادسة» يُعرَض من السّاحل إلى السّاحل. ثمّ تفاوض حول مجموعة جديدة من عقود الرّعاية الّتي من شأنها مضاعفة الرّبح الإجماليّ لدى كي سي تي في. وأخيرًا، قبل أن يتسنّى له التّراجع جبنًا، دعا إلى اجتماع على مستوى المحطّة ليُطلع الجميع على مستجدّات حالة فيل القلبيّة الوعائيّة، بما في ذلك دور إليزابيث في إنقاذ حياته، وكيف أنّه -على الرّغم من «الحادث»- يأمل جدًّا من الجميع أن يتابعوا تمتُّعَهم بعملهم الهادف في كي سي تي في. ومن بين كلّ هذه الأشياء، نوبة فيل القلبيّة هي الّتي تلقّت التّصفيق الأشدّ.

«طلبتُ من فنّان التّصميمات أن يصنع بطاقة التّمنّيات بالشّفاء العاجل هذه»، قال يرفع بطاقة عملاقة تضمّ رسمًا كاريكاتوريًّا يُظهر فيل وهو يسجّل هدف الفوز في مباراة كرة قدم. لكن عوضًا عن الكرة، كان فيل يقبض على قلبه، والآن إذ يفكّر والتر في ذلك، يجد أنّه ربّما لم يكن الخيار الأفضل. «أرجو أن تأخذوا وقتكم كي توقّعوا بأسمائكم»، أضاف والتر: «وإن أردتم، يمكنكم أن تضيفوا ملاحظات شخصيّة».

في وقت لاحق من اليوم، حين أعيدت البطاقة إليه كي يوقّع بدوره، ألقى نظرةً على التّمنّيات، فكان معظمها من عبارات «بالشّفاء العاجل!» المعهودة، لكنّ بعضها أكثر قتامةً إلى حدٍّ ما.

تبًّا لك، ليبنزمال.

ما كنتُ لأطلب الإسعاف.

مُتْ وخلِّصنا.

تعرّف على خطّ كاتب العبارة الأخيرة - إحدى سكرتيرات فيل.

رغم إدراكه أنّه لا يمكن أن يكون الوحيد الّذي يكره الرّئيس، فهو لم يكن يملك فكرةً عن ضخامة النّادي الّذي ينتمي إليه. كان في ذلك إثباتٌ لشرعيّة شعوره بالطّبع، لكنّه أيضًا منهكٌ للأعصاب. فبصفته منتجًا، هو جزء من فريق فيل الإداريّ، وهذا يعني أنّه مسؤول عن فرض أجندةِ فيل مع تجاهل أولئك الّذين يدفعون ثمنها في المحصّلة. مدّ يده إلى قلم، وللمرّة الرّابعة ذلك اليوم تبع نصيحةَ إليزابيث زوت البسيطة: افعل الأمر الصّائب.

آملُ ألّا تُشفى أبدًا، كتب بحروف ضخمة في منتصف البطاقة، ثمّ أقحمها في ظرفٍ هائل الحجم وضعه في سلّة البريد الصّادر، وقطع وعدًا مُغلّظًا: على الأمور أن تتغيّر، وسيبدأ من نفسه.

نصف استواء

«هل تعلم ماما؟»، سألت ماد هارييت الّتي تحثّها على الدّخول إلى سيّارتها الكرايسلر. لقد بدأ العام الدّراسيّ الجديد منذ فترة، ومودفورد هي مدرّستها مرّةً أخرى كما كان مقرّرًا. لهذا لم ترَ هارييت ضيرًا في أن تفوّت يومًا، أو عشرين.

«يا ساتر، كلّا!»، أجابت هارييت وهي تضبط المرآة الخلفيّة: «لو أنّها تعلم، هل كنّا سنفعل هذا؟»

– لكن ألن تغضب؟

– فقط إن اكتشفت.

«لقد قمتِ بعملٍ جيّدٍ بخصوص توقيعها»، قالت ماد تعاين الورقة الّتي كتبتها هارييت لإخراجها من المدرسة: «باستثناء حرفَي الألف والزّاي».

«حسنًا»، أجابت هارييت مغتاظة: «ألستُ محظوظةً لكون المدرسة لا تستعين بخبراء شرعيّين في خطّ اليد؟»

«بلى، محظوظة بحقّ»، وافقت ماد.

«إليكِ الخطّة»، قالت هارييت تتجاهلها: «سنقف في الطّابور مثل الجميع، وحين ندخل، نتوجّه من فورنا إلى الصّفّ الخلفيّ. لا أحد يختار الصّفّ الخلفيّ أبدًا. الأفضل أن نجلس هناك كي نكون بجانب مخرج الطّوارئ في حال حدوث خطأ ما».

«لكن مخرج الطّوارئ يجب ألّا يُستخدم سوى في الحالات الطّارئة»، قالت ماد.

- أجل، حسنًا، إن حدث ولمحتنا أمُّك، سيكون ذلك بمثابة حالة طارئة.

- لكنّ الأبواب ستكون مزوّدة بنظام إنذار.

- أجل، زيادة الخير بركة. إن اضطررنا إلى خروجٍ سريع، ستتكفّل الضّجّة بإلهائها.

«هل أنتِ *واثقة* أنّه يجدر بنا القيام بهذا يا هارييت؟»، قالت ماد: «ماما تقول إنّ استديوهات التّلفاز ليست آمنة».

- كلام فارغ.

- تقول إنّها...

- ماد، إنّها آمنة. إنّها بيئة للتّعلّم. أمُّك تعلّم الطّبخ على التّلفاز، أليس كذلك؟

«تعلّم الكيمياء»، صحّحت مادلين.

«ما نوع الخطر الّذي يمكن أن نواجهه أصلًا؟»

أطلّت مادلين تنظر من النّافذة. «فرط في النّشاط الإشعاعيّ»، قالت.

زفرت هارييت بصوت مسموع. الطّفلة تتحوّل إلى أمّها. هذا لا يحدث عادةً إلّا في وقت لاحق من الحياة، لكنّ ماد متقدّمة على الجدول الزّمنيّ بمراحل. راحت تفكّر في ماد حين تكبر. *لقد بُحَّ صوتي وأنا أقول لك*، هكذا ستصيح على طفلها: *إيّاك أن تترك موقد بنسن دون مراقبة!*

«وصلنا!»، هتفت ماد فجأةً إذ لاحت باحةُ سيّارات الاستديو: «كي سي تي في! يا سلام!»، ثمّ تجهّم وجهها، «لكن يا هارييت، انظري إلى الطّابور».

«يا ربّ العرش»، قالت هارييت وهي تنظر إلى الحشد البشريّ المصطفّ في أنحاء الباحة. مئات من النّاس، معظمهم نساء تتدلّى حقائبهنّ الثّقيلة عن سواعدهنّ المتعرّقة، لكن أيضًا بضع عشرات من الرّجال يعلّقون سترات بدلاتهم على رؤوس أصابعهم. الجميع يستخدم مراوح مرتجَلة - خرائط، قبّعات، صحف.

«هل جميعهم هنا من أجل برنامج ماما؟»، قالت مادلين ممتلئة بالرّهبة.

«كلّا يا عزيزتي، فهم يسجّلون الكثير من البرامج هنا».

«المعذرة يا سيّدتي»، قال حارسُ الباحة يشير إلى هارييت كي تتوقّف، ثمّ انحنى إلى داخل السّيّارة من جانب مادلين: «ألم تري اللّافتة؟ الباحة ممتلئة».

- حسنًا إذًا، أين ينبغي أن أركن؟

- هل أنتِ هنا من أجل «العشاء عند السّادسة»؟

- أجل.

«يؤسفني أن أبلّغك هذا إذًا، لن تستطيعي الدّخول»، قال يومئ إلى الطّابور الطّويل: «هؤلاء النّاس، معظمهم هنا دون طائل. النّاس يبدؤون بالاصطفاف عند الرّابعة صباحًا، لقد تمّ اختيار معظم جمهور الاستديو أساسًا».

«ماذا؟»، قالت هارييت متعجّبة: «لم تكن لديّ فكرة».

«البرنامج يحظى بشعبيّة»، قال الرّجل.

تلكّأت هارييت: «لكنّني أخرجت الطّفلة من المدرسة من أجل هذا».

«آسف يا جدّة»، قال، ثمّ انحنى أكثر إلى الدّاخل: «أعتذر منكِ أيضًا يا صغيرتي. أنا أردّ الكثير من النّاس خائبين كلّ يوم. ليس عملًا ممتعًا، صدّقيني. النّاس يصيحون عليّ طوال الوقت».

«هذا لن يروق لأمّي»، قالت ماد: «لن يعجبها أن يصيح أيّ أحد على أحد».

«يبدو أنّ أمّك لطيفة»، قال الرّجل: «لكن هلّا تحرّكتما؟ لديّ الكثير من النّاس الّذين عليّ أن أرجعهم».

«حسنًا»، قالت ماد: «لكن هلّا أسديتَ لي معروفًا سريعًا؟ هلّا كتبتَ لي اسمك على دفتري؟ سأخبر أمّي عن المشقّة الّتي تواجهها هنا».

«ماد»، همست هارييت مستهجنة.

«تريدين توقيعي؟»، ضحك: «هذه سابقة». وقبل أن يتسنّى لهارييت إيقافه، أخذ الدّفتر من ماد وكتب سيمور *براون*، متحرّيًا الدّقّة في الالتزام بسطور دفترها المدرسيّ لكتابة الحروف الكبيرة والصّغيرة. ثمّ أغلق الدّفتر، لتصعقه الكلمتان المكتوبتان على الغلاف مثل سلك كهربائيّ فالت.

«مادلين *زوت*؟»، قرأ غيرَ مصدّق.

كان الاستديو مظلمًا لطيفَ البرودة، تمتدّ الأكبُل الثّخينة من أحد طرفيه إلى الآخر، وعلى جانبيها كاميرات ضخمة مهيّأة كي تدور وتسجّل ما تنيره الأضواء من الأعلى.

«ها نحن أولاء»، قالت سكرتيرة والتر باين مرشدةً مادلين وهارييت إلى مقعدين صارا شاغرين فجأةً في الصّفّ الأماميّ: «أفضل مقعدين لدينا».

«في الحقيقة»، قالت هارييت: «هل تمانعين؟ لقد هيّأنا نفسينا للجلوس في الخلف».

«يا إلهي، كلّا»، قالت المرأة: «السّيّد باين سيقتلني».

«لا بدّ أن يموت شخصٌ ما»، غمغمت هارييت.

«هذان المقعدان يعجبانني»، قالت مادلين وهي تجلس.

«مشاهدة البرنامج مباشرةً تختلف جدًّا عن مشاهدته في المنزل»، شرحت السّكرتيرة: «فالمرء لا يعود يشاهد البرنامج وحسب، بل

يصبح جزءًا منه. والأضواء... إنّها تغيّر كلّ شيء. أؤكّد لكما، هذا هو المكان الّذي ينبغي أن تجلسا فيه».

«الأمر أنّنا لا نريد أن نشتّت إليزابيث زوت»، قالت هارييت تحاول من جديد: «لا نريد جعلها تتوتّر».

«زوت، تتوتّر؟»، ضحكت السّكرتيرة: «هذا مضحك. على أيّة حال، هي لا تستطيع أن ترى الجمهور، فإضاءة موقع التّصوير تبهر عينيها».

«هل أنت *واثقة*؟»، سألتها هارييت.

«مثل ثقتي بالموت والضّرائب».

«الجميع يموتون»، علّقت ماد: «لكن ليس الجميع يدفعون ضرائبهم».

«كم أنت طفلة ناضجة»، قالت السّكرتيرة وقد شاب الاغتياظُ صوتَها فجأة. لكن قبل أن يتسنّى لمادلين تقديم بعض الإحصائيّات بخصوص التّهرّب الضّريبيّ، انطلقت الفرقةُ الرّباعيّة في عزف شارةِ «العشاء عند السّادسة» واختفت السّكرتيرة دون أثر. على اليسار، شاهدت مادلين والتر باين يستقرّ على كرسيّ ذي ظهرٍ قماشيّ. أومى برأسه، فاتّخذت إحدى الكاميرات موضعها، ثمّ رفع رجلٌ يضع سمّاعة رأس إبهامَه. ومع وصول المقطوعة إلى نهايتها، تقدّم ظلٌّ مألوفٌ بخطوات واسعة مثل رئيس جمهوريّة يعتلي المنبر، برأس مرفوع، وقامة منتصبة، وشعر يتوهّج تحت الأضواء السّاطعة.

لقد سبق لمادلين أن رأت أمّها بألف طريقة مختلفة - في الصّباح الباكر، في آخر اللّيل، وهي تنحني مبتعدة عن موقد بنسن، وهي تنظر في مجهر، وهي تواجه السّيّدة مودفورد، وهي تعبس أمام علبة مليئة بمساحيق التّبرّج، وهي تخرج بعد الاستحمام، وهي تضمّها بين ذراعيها. لكنّها لم ترَ أمّها هكذا قطّ... لم ترها هكذا في حياتها. *أمّي!* قالت في قرارتها والفخر يملأ قلبها: *ماما!*

«مرحبًا»، قالت إليزابيث: «اسمي إليزابيث زوت، وهذا برنامج *العشاء عند السّادسة*».

كانت السّكرتيرة على حقّ. الأضواء لها تأثيرها، كيف تكشف أشياءَ تعجز ألوان الأبيض والأسود المبرغلة في المنزل عن كشفها.

«اللّيلة ليلة السّتيك»، قالت إليزابيث: «وهذا يعني أنّنا سنستكشف التّركيب الكيميائيّ للّحم، ونركّز بصورة دقيقة على الفرق بين «الماء المرتبط» و«الماء الحرّ»، لأنّ اللّحم - وهذا قد يفاجئكنّ»، قالت ترفع شريحةً كبيرةً من لحم أعلى الخاصرة: «يتكوّن من الماء بنسبة تقارب الاثنين وسبعين بالمئة».

«مثل الخسّ»، همست هارييت.

«ليس مثل الخسّ طبعًا»، قالت إليزابيث: «فالخسّ يحتوي على مقادر أكبر بكثير من الماء - نسبة تبلغ ستّة وتسعين بالمئة. لماذا الماء مهمّ؟ لأنّه الجزيء الأكثر شيوعًا في أجسامنا: ستّون بالمئة من تركيبنا. وفي حين أنّ أجسامنا تستطيع الصّمود دون طعام لمدّة قد تبلغ ثلاثة أسابيع، فنحن سنموت خلال ثلاثة أيّام دون ماء، أو أربعة كحدّ أقصى».

صدرت عن الجمهور غمغمةُ ضيق.

«لهذا السّبب»، قالت إليزابيث: «حين نفكّر في إمداد أجسادنا بالوقود، يجب أن يكون الماء أوّلَ ما يخطر لنا. لكن الآن، لنعد إلى اللّحم»، التقطت سكّينًا كبيرة مصقولة، وفيما هي تشرح كيفيّة شقّ شريحة اللّحم وفتحها، انطلقت تتحدّث عن محتويات السّتيك من الفيتامينات، متطرّقةً إلى ما يفعله الجسمُ بالحديد والزّنك ومجموعة فيتامين ب، وما يجعل البروتين شديد الأهمّيّة للنّموّ. ثمّ تكلّمت عن النّسبة المئويّة من الماء في النّسيج العضليّ الّتي تكون على شكل جزيئات حرّة، لتختم بما تظنّه وضوحًا تعريفاتٍ مشوّقة للماء الحرّ والمرتبط.

طوالَ شرحها، ظلّ جمهور الاستديو مستغرقًا - لا سعال، لا همس، لا ساقَ توضع على ساق أو تُرفع عن ساق. إن كان ثمّة صوت واحد، فهو فقط احتكاك قلم بورقة من آنٍ إلى آخر حين يدوّن أحد الحضور ملاحظةً ما.

«حان الوقت للتّعريف بالمحطّة»، قالت إليزابيث، مستجيبةً لإشارة من المصوّر: «ابقينَ معنا». ثمّ وضعت السّكّين من يدها وسارت إلى خارج الموقع، متوقّفةً للحظات ريثما تضغط أخصّائيّةُ المكياج بإسفنجة على جبينها وتثبّت لها بضع خصلات فالتة.

استدارت مادلين تنظر إلى الجمهور الغفير. كانوا يجلسون متوتّرين، لا يطيقون صبرًا حتّى ترجع إليزابيث زوت. شعرت بوخزة غيرة صغيرة، إذ أدركت فجأةً أنّها مضطرّةٌ أن تتقاسم أمّها مع الكثير من النّاس الآخرين. لم يرُق لها هذا.

«بعد أن تفركن الشّريحة بسنٍّ مقسومة من الثّوم الطّازج»، قالت إليزابيث بعد بضع دقائق: «ارششنَ كلوريد الصّوديوم والفُلفُلين على كلا وجهيها. ثمّ، حين نلاحظ أنّ الرّغوة بدأت تتشكّل في الزّبدة»، أشارت إلى مقلاة ساخنة من الحديد الصّبّ، «نضع شريحة اللّحم في المقلاة. احرصن على أن تنتظرن حتّى تشكُّل الرّغوة، فالرّغوة تشير إلى أنّ المحتوى المائيّ للزّبدة قد غلى. هذا أمر شديد الأهمّيّة، إذ بوسع الشّريحة الآن أن تُطهى باللّيبيدات عوضًا عن أن تمتصّ الـ H_2O».

وإذ أخذت الشّريحة تئزّ، أخرجت ظرفًا من جيب مئزرها. «ريثما تُطهى الشّريحة، أريد أن أشارككنّ رسالةً تلقّيتُها من نانيت هاريسون في لونغ بيتش. كتبت نانيت تقول: «عزيزتي السّيّدة زوت، أنا نباتيّة. وهذا ليس لأسباب دينيّة، الأمر فقط أنّني لا أرى أكلَ الكائنات الحيّة أمرًا لطيفًا جدًّا. زوجي يقول إنّ الجسم يحتاج إلى اللّحم وإنّني أتصرّف بغباء، لكنّني أكره فكرة أن يضحّي حيوانٌ بحياته من أجلي. ها هو يسوع قد فعل ذلك، وانظري ما حلّ به. مع فائق الودّ، السّيّدة نانيت هاريسون، لونغ بيتش، كاليفورنيا»».

«لقد طرحتِ موضوعًا مثيرًا للاهتمام يا نانيت»، قالت إليزابيث: «بالفعل، تترتّب عمّا نأكله عواقبُ على الكائنات الحيّة الأخرى. بيد أنّ النّباتات أيضًا كائنات حيّة، ومع ذلك قلّما نضع في حسباننا أنّها تكون ما تزال حيّة ونحن نقطّعها قطعًا صغيرة، ونطحنها بأضراسنا، وندفعها عبر أمرئتنا، ثمّ نهضمها في معداتنا المليئة بحمض كلور الماء. بالمختصر، أنا أحيّيكِ يا نانيت، فأنت تفكّرين قبل أن تأكلي. لكن لا تنخدعي، لأنّكِ ما زلتِ فعليًّا تُنهين حياةً أخرى كي تدعمي حياتك،

ما من سبيل إلى الالتفاف حول هذا. أمّا بالنّسبة إلى يسوع، فلا تعليق». استدارت وغرزت السّكّين في الشّريحة، ورفعتها عن المقلاة تتقاطر منها عصارة لها حمرة الدّم، ثمّ نظرت إلى الكاميرا مباشرةً: «والآن، كلمة من راعي برنامجنا».

التفتت هارييت ومادلين كلٌّ تنظر إلى الأخرى وقد اتّسعت عيناها. «أحيانًا أسأل نفسي: كيف يحظى هذا البرنامج بشعبيّة؟»، همست هارييت.

«المعذرة يا سيّدتَيّ»، عادت السّكرتيرة: «السّيّد باين يسألكما إن كنتما تسمحان بكلمة سريعة؟»، صاغت الأمر على شكل سؤال رغم أنّه لم يكن كذلك، «هلّا تبعتماني؟». هرّبتهما من أمام المنصّة وعبر دهليز حتّى وصلنَ إلى مكتبٍ كان والتر باين يذرع أنحاءه ذهابًا وإيابًا، وعلى جداره تصطفّ أربع شاشات تعرض كلّها «العشاء عند السّادسة».

«مرحبًا يا مادلين»، قال: «تسرّني رؤيتك، لكنّني متفاجئ أيضًا. ألا ينبغي أن تكوني في المدرسة؟»

أمالت ماد رأسها إلى الجانب. «أهلًا، سيّد باين»، أشارت إلى هارييت: «هذه هارييت. الفكرة كانت فكرتها، هي زوّرت الورقة».

حدجتها هارييت بنظرة.

«والتر باين»، قال والتر وهو يأخذ يد هارييت: «وأخيرًا. يسرّني لقاؤك للغاية يا هارييت... سلون، صحيح؟ أنا لم أسمع عنكِ إلّا كلّ خير. لكن»، تابع مخفضًا صوته: «ما الّذي كنتما تفكّران فيه؟ لو اكتشفَت أنّكما هنا...»

«أعلم»، قالت هارييت: «للأمانة، لقد طلبنا أن نجلس في الخلف».

«أماندا كانت تريد أن تأتي أيضًا»، قالت ماد: «لكنّ هارييت لم ترغب أن تضاعف الجريمة. التّزوير جناية، لكن الخطف...»

«شكرًا لمراعاتك يا سيّدة سلون»، قاطعها: «لكن لعلمكما، إن كان الأمر لي، فأنا أرحّب بكما هنا دائمًا. بيد أنّ الأمر ليس لي. والدتك»، تابع ملتفتًا إلى مادلين: «تحاول حمايتك لا أكثر».

«من النّشاط الإشعاعيّ؟»

تردّد: «أنتِ فتاة ذكيّة جدًّا يا مادلين، لذا عندما أخبرك أنّ والدتك تحاول حمايتك من الشّهرة، أراهن أنّك ستعرفين ما أعنيه».

- لستُ أعرف.

- أعني أنّها تريد أن تحمي خصوصيّتك، أن تحميكِ من الأشياء الّتي يقولها النّاس ويفكّرون فيها بخصوص الأشخاص ذائعي الصّيت، الأشخاص المشاهير.

- ما مدى شهرة أمّي؟

«منذ بدأ البرنامج يُعرض في الولايات الأخرى»، قال والتر وهو يضع رؤوس أصابعه على جبينه: «باتت معروفة أكثر بعض الشّيء. إذ صار الآن بوسع النّاس في أماكن أخرى مثل شيكاغو وبوسطن ودنفر أن يشاهدوا والدتك هم أيضًا».

«قطّعنَ إكليلَ الجبل»، كانت إليزابيث تقول بصوت خفيض في الخلفيّة: «بالسّكّين الأكثر حدّة لديكنّ، فهذا يقلّص الضّررَ الّذي يلحق بالنّبتة إلى الحدّ الأدنى ويجنّبكنّ التّسرّب الزّائد للكهارل».

«ما الّذي يجعل الشّهرة أمرًا سيّئًا؟»، سألت مادلين.

«ما كنتُ لأقول إنّها أمر سيّئ»، قال والتر: «القصّة فقط أنّها تترافق مع بعض المفاجآت الّتي لا تكون كلّها جيّدة. أحيانًا يرغب النّاس أن يصدّقوا أنّهم يعرفون شخصيّةً مشهورةً مثل والدتك على مستوًى شخصيّ، فهذا يُشعرهم بأهمّيّتهم. لكن كي يفعلوا هذا، عليهم أن يختلقوا قصصًا عن والدتك، وليست كلّ هذه القصص لطيفة كثيرًا. والدتك تحاول فقط ضمان ألّا يختلق أحدٌ قصّةً عنك».

«النّاس يختلقون قصصًا عن أمّي؟»، قالت مادلين مذعورة. لا بدّ أنّ الأضواء هي السّبب، فهي تجعل أمّها تبدو لا تُقهر. هذا ما يحتاج الجمهور أن يراه: امرأة تطالب بالاحترام وتناله في آنٍ معًا، حتّى إن كانت لدى أمّها مشاكل مثل الآخرين جميعهم. خمّنت ماد أنّ الأمر يشبه بعض الشّيء ادّعاءها أنّها لا تجيد القراءة كثيرًا. المرء يفعل ما عليه أن يفعله كي يدبّر أموره.

«لا تقلقي»، قال والتر ووضع يده على كتفها النّحيلة: «إن كان ثمّة شخص يستطيع أن يتولّى زمام نفسه فهو والدتك. قليلون جدًّا من يمكن أن يجرّبوا منازلةَ إليزابيث زوت. كلّ ما تحاول فعله هو ضمان ألّا يجرّبوا استغلالك. هل تفهمين ما أقوله؟ وهذا ينطبق عليك أنت أيضًا يا سيّدة سلون»، أضاف والتفت ينظر إلى هارييت، «أنتِ تمضين وقتًا برفقة إليزابيث أكثر من معظم النّاس، وأنا واثق أنّ أصدقاءك يودّون لو تحكين لهم كلّ شيء».

«ليس لديّ الكثير من الأصدقاء»، قالت هارييت: «وحتّى لو كان، أنا أوعى من ذلك».

«امرأة ذكيّة»، قال والتر: «أنا أيضًا ليس لديّ الكثير من الأصدقاء».

في الواقع، فكّر بينه وبين نفسه، هو ليس لديه إلّا واحدة: إليزابيث زوت. وهي ليست صديقة وحسب، بل إنّها صديقته المفضّلة. لم يخبرها بذلك قطّ، لكن هذه هي الحقيقة. أجل، قد يجادل الكثيرُ من النّاس قائلين إنّه ليس بوسع رجل وامرأة أن يكونا صديقين بحقّ، لكنّهم مخطئون. هو وإليزابيث يتناقشان في كلّ شيء، الأمور الحميميّة - الموت والجنس والأطفال. إضافةً إلى أنّ واحدهما يساند الآخر كما يفعل الأصدقاء، بل هما حتّى يضحكان معًا كما يفعل الأصدقاء. بالطّبع، إليزابيث ليست ممّن يضحكون كثيرًا في الأساس. ومع ذلك، رغم تنامي شعبيّة البرنامج، كانت تبدو أكثر كآبةً من أيّ وقتٍ مضى.

«إذًا»، قال والتر: «لمَ لا نخرجكما من هنا قبل أن ترانا والدتك فنُقلى كلّنا في حمض المعدة؟»

«لكن لماذا برأيك تحظى أمّي بهذه الشّعبيّة؟»، سألته مادلين وهي ما تزال تتمنّى لو لم يكن عليها أن تتقاسمها.

«لأنّها تقول ما تفكّر فيه بالضّبط»، أجاب والتر: «وهذا نادر جدًّا. لكن أيضًا لأنّ الطّعام الّذي تعدّه جيّد، جيّد للغاية. ولأنّ الجميع يُبدون رغبةً في تعلّم الكيمياء، للغرابة».

«لكن لماذا قول المرء ما يفكّر فيه أمر نادر هكذا؟»

«لأنّ هنالك عواقب»، قالت هارييت.

«عواقب هائلة»، وافق والتر.

من تلفاز في الزّاوية، قالت إليزابيث: «يبدو أنّ لدينا وقتًا اليوم لنأخذ سؤالًا من جمهورنا في الاستديو. نعم... حضرتُكِ هناك، في الفستان الأرجوانيّ».

نهضت امرأةٌ تبتسم ببهجة: «نعم، مرحبًا، اسمي إدنا فلاتيشتاين وأنا من تشاينا ليك؟ أريد أن أقول إنّني أحبّ البرنامج، وأحببتُ على وجه التّحديد ما قلتِه بشأن الامتنان للطّعام، فسألتُ نفسي إذا ما كانت لديكِ صلاةُ مائدةٍ مفضّلةٌ تتلينها قبل كلّ وجبة، كي تشكري إلهنا ومخلّصنا على خيراته! أودّ لو أسمعها! شكرًا لك!»

ظلّلت إليزابيث عينيها كما لو تريد أن تلقي نظرةً أفضل على إدنا. «أهلًا بكِ يا إدنا»، قالت: «وشكرًا على سؤالك. الجواب هو لا، ليست لديّ صلاة مائدة مفضّلة. في الحقيقة، أنا لا أتلو صلاة المائدة على الإطلاق».

شحب لون كلٍّ من والتر وهارييت من موضع وقوفهما في المكتب.

«أرجوكِ»، همس والتر: «لا تقوليها».

«لأنّني ملحدة»، قالت إليزابيث بنبرة تقريريّة.

«يا مرحبًا يا مرحبًا»، قالت هارييت.

«بصياغة أخرى، لا أؤمن بالله»، أضافت إليزابيث وراح الجمهور يشهق.

«مهلًا، هل هذا نادر؟»، جاء صوتُ مادلين فجأة: «هل عدم الإيمان بالله واحد من تلك الأشياء *النّادرة*؟»

«لكنّني أؤمن بالنّاس الّذين جعلوا الطّعام ممكنًا»، تابعت إليزابيث: «بالمزارعين، بالقاطفين، بسائقي الشّاحنات، بالعمّال الّذين يرتّبون البضائع على رفوف المتاجر. لكن، وهذا هو الأهمّ، أنا أؤمن بكِ أنتِ يا إدنا. لأنّكِ أنت من أعدّ الوجبة الّتي تغذّي عائلتك. بفضلكِ أنت يزدهر جيلٌ جديد. بفضلك أنت يحيا آخرون».

توقّفت قليلًا تتفقّد السّاعة، ثمّ التفتت إلى الكاميرا مباشرةً: «هذا كلُّ ما أتاحه لنا الوقتُ اليوم. آمل أن تنضممن إليّ غدًا، إذ سنستكشف العالم السّاحر لدرجات الحرارة وتأثيرها على النّكهة». ثمّ أمالت رأسها إلى اليسار قليلًا، تقريبًا كما لو أنّها تفكّر إذا ما كانت قد تمادت أكثر من اللّازم أم لم تبلغ الحدّ الكافي بعد. «أيّها الأطفال، جهّزوا الطّاولة»، قالت بتصميمٍ إضافيّ: «والدتكم تحتاج إلى لحظةٍ لنفسها».

وفي غضون ثوانٍ معدودة، بدأ هاتف والتر يرنّ ولم يتوقّف.

إيمـــان

في عام 1960، لم يكن النّاس يظهرون على التّلفاز ويقولون إنّهم لا يؤمنون بالله ثمّ يتوقّعون أن يستمرّ ظهورهم على التّلفاز طويلًا بعد ذلك. بدليل أنّ هاتف والتر سرعان ما اكتظّ بتهديدات الرّعاة والمشاهدين الّذين أرادوا أن تُفصل إليزابيث زوت، أن تُسجن، و/ أو أن تُرجم حتّى الموت. الأخيرة صدرت عن أشخاصٍ نصّبوا أنفسهم جماعةَ الله - الله نفسه الّذي يبشّر بالتّسامح والغفران.

«اللّعنة يا إليزابيث»، قال والتر، بعد أن هرّب هارييت ومادلين من الباب الجانبيّ بعشر دقائق: «بعض الأشياء يكون من الأفضل ألّا يُفصَح عنها!». كانا جالسين في غرفة ملابس إليزابيث، ومئزرها ذو المربّعات الصّفراء ما يزال مشدودًا بثبات حول خصرها النّحيل. «لديكِ كلّ الحقّ في أن تؤمني بما تريدين، لكن لا ينبغي بك أن تفرضي معتقداتك على الآخرين، ولا سيّما على التّلفاز الوطنيّ».

«كيف فرضتُ معتقداتي على الآخرين؟»، سألته متفاجئة.

- تعرفين ما أقصده.

- إدنا فلاتيشتاين وجّهت إليّ سؤالًا مباشرًا وأنا أجبته. يسرّني شعورها أنّها قادرة على التّعبير عن إيمانها بالله، وأنا أرحّب بحقّها في

فعل ذلك. لكن يجب أن أُعامَل بالمثل. الكثير من النّاس لا يؤمنون بالله؛ بعضهم يؤمن بالتّنجيم أو أوراق التّاروت. هارييت تؤمن أنّك إن نفختَ على أحجار النّرد ستحصل على أرقام أفضل في الياتزي[1]».

«أظنّنا نعرف كلانا»، قال والتر مطبقًا أسنانه: «أنّ الله مختلفٌ قليلًا عن الياتزي».

«أتّفق»، قالت إليزابيث: «الياتزي مسلّية».

«سوف ندفع ثمن هذا»، حذّرها والتر.

«بحقّك يا والتر»، قالت: «تَحلَّ ببعض الإيمان».

الإيمان - من المفترض أن يكون هذا ميدان خبرة الكاهن ويكلي، إلّا أنّه اليوم يواجه صعوبةً في العثور على إيمانه. بعد ساعاتٍ أمضاها في مواساة رعيّةٍ كثيرة التّذمّر تلقي باللّوم على الجميع في كلّ شيء، عاد إلى مكتبه يريد أن يكون وحده. لكنّه عوضًا عن ذلك وجد موظّفة الآلة الكاتبة الّتي عيّنها بدوام جزئيّ، الآنسة فراسك، جالسةً إلى طاولته تكدح على آلته بمعدّل ثلاثين كلمة في الدّقيقة، وعيناها مسمّرتان على تلفاز مكتبه.

---

(1) Yahtzee: لعبة نرد تمّ تطويرها عن مجموعة من ألعاب النّرد القديمة، تقوم على رمي أحجار النّرد لتحقيق مجموعات معيّنة من النّقاط يختارها اللّاعب بعد كلّ شوط بحيث يستخدم كلّ مجموعةِ نقاطٍ لمرّة واحدة في الجولة. (المترجم)

«أمعِنَّ النّظر في حبّة الطّماطم هذه»، سمع امرأة ذات مظهر مألوف على نحوٍ ضبابيّ تقول على التّلفاز، ومن خلف رأسها ينتأُ قلم رصاص: «قد لا تصدّقن أنّ بينكنّ وبين هذه الفاكهة أيّ قاسم مشترك، لكن هذا صحيح. الحمض النّوويّ منقوص الأكسجين. بنسبة تصل إلى ستّين بالمئة. والآن، فلتلتفت كلٌّ منكنّ وتنظر إلى الّتي تجلس بجانبها. أتبدو مألوفة؟ قد تكون كذلك وقد لا تكون. مع هذا، أنتما تتشاركان نسبة أكبر: تسعة وتسعين فاصلة تسعة بالمئة من الحمض النّوويّ - وهذا ينطبق على جميع البشر فوق وجه الأرض»، تركت حبّةَ الطّماطم ورفعت صورةً فوتوغرافيّةً لروزا باركس، «لهذا السّبب أنا أقف مع قادتنا في حركة الحقوق المدنيّة، بمن فيهم روزا باركس ذات الشّجاعة الفائقة. التّمييز على أساس لون البشرة ليس سخيفًا من النّاحية العلميّة وحسب، بل هو علامةٌ على جهلٍ عميق».

«آنسة فراسك؟»، قال ويكلي.

«لحظة يا أبانا»، قالت رافعةً إصبعها: «يكاد ينتهي. تفضّل عِظتك»، انتزعت ورقةً من الآلة الكاتبة.

«إنّ المرء ليظنّ أنّه كان من المفترض بالجهلة أن يموتوا قبل هذا الوقت»، تابعت إليزابيث: «غير أنّ داروين غفل عن حقيقة أنّ الجهلة نادرًا ما ينسون أن يأكلوا».

- ما هذا؟

- «العشاء عند السّادسة». ألم تسمع بـ«العشاء عند السّادسة»؟

«لديّ وقت من أجل سؤال»، كانت إليزابيث تقول: «نعم، حضرتكِ هناك في...»

«مرحبًا، اسمي فرانسين لوفتسون وأنا من سان دييغو! وأريد فقط أن أقول إنّني من كبار معجبيك حتّى إن كنتِ لا تؤمنين بالله! كنت أتساءل: أهناك نوع معيّن تنصحين به من الحمية الغذائيّة؟ أنا أعلم أنّني أحتاج أن أخسر من وزني، لكنّني حقًّا لا أريد أن أشعر بالجوع. علمًا أنّني أتناول حبوبًا للحمية يوميًّا. شكرًا لك!»

«شكرًا يا فرانسين»، قالت إليزابيث: «لكنّني أرى بوضوح أنّكِ لا تعانين من زيادة الوزن. بناءً على ذلك، لا بدّ أن أفترض أنّكِ واقعة تحت التّأثير المجحف لصور النّساء مفرطات النّحول القاسيةِ الّتي تملأ مجلّاتنا اليوم، والّتي تحطّم معنويّاتك وتقلّص تقديرَك لذاتك. عوضًا عن اتّباع الحمية وتناول الحبوب...»، توقّفت، «هل لي أن أسأل؟ كم شخصًا بين الحضور يتناول حبوبًا للحمية؟»

ارتفعت بضع أيدٍ متوتّرة.

انتظرت إليزابيث.

ارتفعت معظم الأيدي الأخرى.

«اكففن عن تناول هذه الحبوب»، قالت بنبرة حاسمة: «إنّها أمفيتامينات، ويمكن أن تؤدّي إلى الذُّهان».

«لكنّني لا أحبّ أن أتمرّن»، قالت فرانسين.

– لعلّكِ لم تهتدي إلى التّمرين المناسب.

– أنا أشاهد جاك لالان.

لدى ذكر اسم جاك، أغمضت إليزابيث عينيها. «ماذا عن التّجديف؟»، قالت وقد ظهر التّعب عليها فجأة.

«التّجديف؟»

«التّجديف»، كرّرت وهي تفتح عينيها: «إنّه شكل وحشيّ من الاستجمام مصمّمٌ ليختبر كلّ عضلة في جسدك وذهنك. يُمارَس قبل الفجر، وكثيرًا جدًّا تحت المطر. تنتج عنه ثخانات جلديّة قاسية. يزيد عرض الذّراعين والصّدر والفخذين. كسور في الأضلاع؛ بثور على اليدين. المجدّفون يسألون أنفسهم أحيانًا: "ما الّذي يجعلني أفعل هذا؟"».

«يا للهول»، قالت فرانسين بقلق: «يبدو التّجديف رهيبًا!»

بدت الحيرة على إليزابيث: «ما أرمي إليه هو أنّ التّجديف يَحول دون الحاجة إلى الحمية والحبوب، كما أنّه جيّد من أجل روحك».

«لكنّني ظننتُ أنّك لا تؤمنين بالأرواح».

تنهّدت إليزابيث. أغمضت عينيها من جديد. كالفن. *أتُراكِ تقولين إنّ النّساء لا يستطعن أن يجدّفن؟*

«كنتُ أعمل معها»، قالت فراسك وهي تطفئ التّلفاز: «في هاستينغز، إلى أن فُصلنا كلتانا. حقًّا، ألم يسبق لك أن سمعتَ بها؟ إليزابيث زوت. برنامجها يُعرض في كلّ الولايات».

«هي الأخرى مجدّفة؟»، قال ويكلي مدهوشًا.

«ما قصدك بـ«هي الأخرى»؟»، سألته فراسك: «تعرف مجدّفين آخرين؟»

«ماد»، قال ويكلي وهو ينظر إلى الكلب الهائل الّذي أحضرته مادلين معها إلى الحديقة: «لماذا لم تخبريني أنّ والدتك تعمل في التّلفاز؟»

«ظننتك تعرف. الجميع يعرفون، لا سيّما الآن بما أنّها لا تؤمن بالله».

«لا بأس في عدم الإيمان بالله»، قال ويكلي: «هذا أحد الأشياء الّتي نقصدها حين نقول إنّه بلد حرّ. بوسع النّاس أن يؤمنوا بما يريدون على الرّحب والسّعة طالما كانت معتقداتهم لا تؤذي الآخرين. إضافةً إلى ذلك، يصادف أنّني أرى العلمَ شكلًا من أشكال الدّين».

رفعت مادلين حاجبها.

«من هذا، بالمناسبة؟»، سألها يمدّ يده إلى الكلب كي يشمّها.

«ستّة ونصف»، أجابت لدى مرور امرأتين تدردشان بصوتٍ عالٍ قربهم.

«صحّحي لي إن كان كلامي خاطئًا يا شيلا»، كانت إحداهما تسأل: «ألم تقل إنّ الحديد الصّبّ يتطلّب صفرًا فاصلة أحد عشر حريرة كي يرفع حرارةَ غرامٍ واحدٍ من الكتلة الذّرّيّة بمقدار درجة مئويّة واحدة؟»

«بلى يا إلين، هذا ما قالته»، أجابت الأخرى: «لذلك سأشتري مقلاةً جديدة».

«تذكّرتُه الآن»، تابع ويكلي بعد مرور المرأتين: «من صورتك العائليّة. يا له من كلب وسيم».

دفن ستّة ونصف رأسَه في راحة يد الرّجل. رجلٌ طيّب.

«على كلّ حال، أراهن أنّكِ ظننتِني نسيتُ الأمر برمّته، فقد انقضى الكثير من الوقت، بيد أنّني تابعتُ موضوعَ دار جميع القدّيسين أخيرًا. الحقيقة أنّني اتّصلتُ عدّة مرّات بعد أن تكلّمنا للمرّة الأولى، لكنّ الأسقف لم يكن موجودًا ولا مرّة. غير أنّني اليوم تواصلتُ مع سكرتيرته، فقالت إنّ اسمَ كالفن إيفانز ليس واردًا في سجلّاتهم. يبدو أنّنا توصّلنا إلى الدّار الخطأ».

«لا»، قالت مادلين: «هذه هي، أنا *متأكّدة*».

«ماد، أشكّ أن تُقدم سكرتيرةُ كنيسةٍ على الكذب».

«ويكلي»، قالت: «الجميع يكذبون».

جميع القدّيسين

«ما اسمُها مرّةً أخرى؟ جميع القدّيسين؟»، كرّر الأسقف مصدومًا. إنّه عام 1933، ورغم أنّه كان يأمل في تعيينٍ جديد ضمن أبرشيّة ثريّة غارقة في الويسكي، فقد انتهى به المطاف إلى دار بنين حقيرة في وسط آيوا، يتلقّى فيها أكثرُ من مئة صبيٍّ في أعمار مختلفة تدريبًا كي يصبحوا مجرمين مستقبليّين، ليكون ذلك تذكيرًا مستمرًّا له كي يحاول -في المرّة القادمة حين يسخر من رئيس أساقفة- ألّا يفعل ذلك في وجهه.

«جميع القدّيسين»، قال رئيس الأساقفة: «المكان يحتاج إلى الانضباط، مثلك تمامًا».

«الحقيقة أنّني لستُ ماهرًا في التّعامل مع الأطفال»، قال لرئيسِ الأساقفة: «الأرامل، المومسات - هذا هو المجال الّذي أتألّق فيه بحقّ. ماذا عن شيكاغو؟»

«بالإضافة إلى الانضباط»، قال رئيس الأساقفة متجاهلًا التِماسَه: «المكان يحتاج إلى المال. سيتمثّل جزءٌ من عملك هناك في تأمين تمويلٍ طويلِ الأمد. افعل ذلك، وربّما أجد لك شيئًا أفضل في المستقبل».

لكنّ المستقبل بدا لا يحلّ أبدًا. مع دخول عام 1937، لم يكن الأسقف قد وجد حلًّا لمشكلة التّدفّق الماليّ بعد. الشّيء المثمر الوحيد الّذي أنجزه؟ اختزال قائمته الخانقة الّتي تمتدّ على عشر صفحات تحت عنوان «أكره هذا المكان» إلى خمس مشاكل محوريّة: الكهنة من النّخب الثّالث، الطّعام الّذي يغلب عليه النّشاء، العفن، البيدوفيليّون، التّوافد المستمرّ لصبيانٍ اعتُبِروا أكثر جموحًا أو أكثر جوعًا من أن يكونوا جزءًا من عائلة طبيعيّة. كانوا أطفالًا لا يريدهم أحد، والأسقف يتفهّم تمامًا لأنّه هو الآخر لا يريدهم.

كانت الدّار تتدبّر أمورها بمشقّة، معتمدةً على الوسائل الكاثوليكيّة المعهودة: مبيعات نبيذ شيري، فواصل كتب للإنجيل، استجداء، تملّق. لكنّ ما تحتاج إليه هو بالضّبط ما اقترحه رئيس الأساقفة – العطيّة. المشكلة أنّ الأثرياء يميلون إلى تمويل أشياء لا تملكها الدّار: الكراسي الأستاذيّة، المنح الدّراسيّة، الفعاليّات التّذكاريّة. ومهما كرّر محاولاته لإقناع المتبرّعين المحتمَلين بفكرة تقديم العطيّة، كانوا ينتبهون إلى الخلل الفادح من فورهم: «منح دراسيّة؟»، يقولون متهكّمين. دار البنين ليست مدرسةً حقًّا، مثلما السّجن ليس حقًّا مكانًا لإعادة التّأهيل – لا أحد يسعى للدّخول إلى هذا أو تلك. تمويل كرسيٍّ أستاذيّ؟ المشكلة نفسها: الدّار لا تضمّ أقسامًا، ناهيك بكراسي رئاسة أقسام. فعاليّات تذكاريّة؟ نزلاء الدّار أصغر سنًّا بكثير من أن يموتوا، وعلى كلّ حال، من ذا الّذي يرغب في إحياء ذكرى أطفال يحاول الجميع نسيانهم؟

لذلك ها هو ذا، بعد أربع سنوات، ما يزال عالقًا وسطَ حقول الذّرة مع حفنة من الأولاد المنبوذين. بدا واضحًا جدًّا أنّ الصّلوات

مهما كثرت لن تتكفّل بتغيير ذلك. ولكي يُمضي الوقت، كان يرتّب الفتيان وفقًا لمقدار إثارتهم للمتاعب، لكن حتّى هذا كان تضييعًا للوقت، لأنّ فتًى واحدًا يتصدّر القائمة دائمًا: كالفن إيفانز.

«ذلك الكاهن الّذي من كاليفورنيا اتّصل من أجل موضوع كالفن إيفانز مجدّدًا»، قالت السّكرتيرة للأسقف، الّذي بات الآن أشيبَ الشّعر وأكبر سنًّا بكثير، وهي تضع بعض الملفّات على مكتبه: «سبق وفعلتُ كما قلتَ لي؛ أخبرتُه أنّني راجعتُ السّجلّات ولا أحد بهذا الاسم كان هنا يومًا».

«رحماك يا الله. لماذا لا يستطيع أن يدعنا وشأننا؟»، قال الأسقف يدفع الملفّات جانبًا: «البروتستانت. لا يعرفون أبدًا متى يكون عليهم أن يكفّوا عن المحاولة!»

«من كان كالفن إيفانز هذا على أيّة حال؟»، سألته بفضول: «كاهن؟»

«لا»، أجاب الأسقف يتراءى له الصّبيُّ الّذي كان السّببَ في أنّه *ما يزال* في آيوا بعد عقود من الزّمن: «بل لعنة».

بعد مغادرتها، هزّ الأسقف رأسه، متذكّرًا كم مرّة وقف كالفن في مكتبه هذا وقد اقترف مخالفةً أخرى من جديد: كسر نافذة، سرقة كتاب، كدمة حول عين كاهنٍ كان يحاول فقط أن يُشعره بالحبّ. كان

الأزواج طيّبو النّيّة يجيئون إلى الدّار من آنٍ إلى آخر ليتبنّوا واحدًا من الصّبيان، إلّا أنّ أحدًا لم يُظهر اهتمامًا بكالفن قطّ. ومن له أن يلومهم؟

لكن ذات يوم ظهر ذلك الرّجل، ويلسون، من العدم. قال إنّه من مؤسّسة باركر، وهي هيئة مموِّلة كاثوليكيّة فاحشة الثّراء. وعندما سمع الأسقف أنّ شخصًا من مؤسّسة باركر في المبنى، أيقن أنّ فرصته جاءت أخيرًا. راح قلبه ينبض بسرعة وهو يتخيّل حجمَ التّبرّع الّذي قد يعرضه هذا الرّجل ويلسون. سوف يصغي إلى العرض، ثمّ يسعى إلى تحصيل المزيد بطريقةٍ وقورة.

«مرحبًا يا جناب الأسقف»، قال السّيّد ويلسون كأنّه لا يملك وقتًا يضيعه: «أنا أبحث عن فتًى صغير، في العاشرة من عمره، طويل القامة بشعر مائل إلى الشّقرة على الأرجح». تابع يشرح أنّ هذا الفتى فقد عائلته في سلسلة من حوادث السّير قبل نحو أربع سنوات، وأنّ لديه ما يجعله يعتقد أنّ الفتى هنا في دار جميع القدّيسين. للفتى أقارب أحياء عرفوا بوجوده مؤخّرًا، ويريدون استعادته. «اسمه كالفن إيفانز»، أنهى كلامه ملقيًا نظرةً على ساعته كأنّ لديه موعدًا آخر عليه اللّحاق به: «إن كان يوجد فتًى بهذه المواصفات هنا، أودّ أن أقابله. في الواقع، أنا أنوي أن آخذه معي».

راح الأسقف يحدّق في ويلسون، وشفتاه منفرجتان من الخيبة. بين لحظة سماعه أنّ الرّجل الثّريّ موجود في المبنى ولحظة لقائه ومصافحته، كان قد صاغ في رأسه خطابَ قبولٍ للتّبرّع.

«هل كلّ شيء على ما يرام؟»، سأله السّيّد ويلسون: «أكره أن أُلحّ، لكن لديّ طائرة بعد ساعتين».

لم يفتح سيرة المال بأيّ شكل. أحسّ الأسقف بشيكاغو تنسرب من بين يديه. ألقى نظرةً متمعّنةً على ويلسون؛ كان الرّجل طويلَ القامة ومتغطرسًا، مثل كالفن تمامًا.

«ربّما يمكنني أن أخرج وأمشي بين الفتيان، فأرى لعلّي أستطيع التّعرّف إليه بنفسي».

استدار الأسقف نحو النّافذة. لقد ضبط كالفن لتوّه ذاك الصّباح يغسل يديه في جرن المعموديّة. «لا شيء مقدّس في هذا الماء»، أخبره كالفن: «فهو ينزل من الحنفيّة مباشرةً».

لكن رغم توقه إلى التّخلّص من كالفن، ما تزال مشكلته الأكبر -المال- قائمة. أطلّ يحدّق إلى دستة شواهد القبور الذّابلة المتناثرة في الفِناء، وقد كُتب عليها: *«إحياء لذكرى»*.

«جناب الأسقف؟»، كان ويلسون قد نهض واقفًا، وحقيبته الجلديّة تتدلّى من يده.

لم يحر الأسقف ردًّا. الرّجل لا يروق له، لا هو ولا ملابسه الفاخرة، ولا الطّريقة الّتي جاء بها دون موعد مسبق. إنّه أسقف، حبًّا بالله... أين الاحترام؟ تنحنح مسلّكًا حلقه، يماطل ليكسب الوقت وهو يحدّق إلى شواهد جميع الأساقفة المستضعَفين الّذين سبقوه. لا يمكن له أن يترك مؤسّسة باركر الواعدة بتمويل لا يُحصى تفلت من يديه.

التفت إلى ويلسون. «لديّ خبر مريع»، قال: «كالفن إيفانز ميت».

«بالمناسبة، إن حدث واتّصل ذلك الكاهن المزعج من جديد»، تابع الأسقف المسنّ توجيهاته لسكرتيرته وهي تأخذ كوبَ قهوته: «قولي له إنّني متّ. أو مهلًا، كلّا... قولي له»، قال واضعًا رؤوس أصابعه على بعضها، «إنّكِ علمتِ أنّ شخصًا يدعى كالفن إيفانز كان في دار أخرى... في مكان مثل، لا أدري، بوكيبسي؟ لكنّ الدّار احترقت وضاعت جميع سجلّاتها».

«أتريدني أن أختلق شيئًا؟»، سألته بقلق.

«لن يكون أمرًا مختلَقًا»، أجابها: «ليس حقًّا. فالمباني تحترق طيلة الوقت، قلّما يأخذ النّاس قوانينَ البناء على محمل الجدّ».

«لكن...»

«افعلي ذلك وحسب»، قال الأسقف: «هذا الكاهن يضيع وقتنا. تركيزنا منصبٌّ على جمع التّبرّعات، تتذكّرين؟ المال من أجل أطفالنا *الأحياء الّذين يُرزَقون*. إن جاءتك مكالمة من أجل المال فأنا جاهز، أمّا هذا الهراء بشأن كالفن إيفانز فنهايتُه مسدودة».

نظر ويلسون كأنّه يعتقد أنّه لا بدّ أخطأ السّمع. «ماذا... ماذا تقول؟»

«لقد توفّي كالفن مؤخّرًا بذات الرّئة»، قال الأسقف ببساطة: «صدمة مريعة، فقد كان من المفضّلين هنا». وفيما هو ينسج الحكاية، أتى على ذكر سلوك كالفن الحسن، وتفوّقه في دروس الكتاب المقدّس، وحبّه للذُّرة. كلّما قدّم تفاصيلَ أكثر ازدادت ملامحُ ويلسون

تيبّسًا، وعلى ذلك توجّه الأسقف إلى خزانة الملفّات -مدفوعًا بالسّلاسة الّتي تسير بها القصّة- ليُخرج صورةً فوتوغرافيّة. «سوف نستخدم هذه الصّورة من أجل صندوقه التّذكاريّ»، قال يشير إلى صورة لكالفن بالأبيض والأسود، تُظهره واضعًا يديه على خصره، حانيًا جذعه إلى الأمام، وفمه مفتوح عن آخره كأنّه يوبّخ أحدَهم: «أحبّ هذه الصّورة، فهي تذكّرني بشخصيّة كالفن تمامًا».

راقب الأسقفُ ويلسون وهو يطرق محدّقًا في الصّورة، صامتًا. انتظر منه أن يطلب إثباتًا من نوع ما، لكن لا - بدا في صدمة، بل حتّى في حِداد.

فجأةً سأل نفسه إذا ما كان هذا السّيّد ويلسون هو نفسه قريب كالفن الّذي انقطعت صلته به منذ زمن. ثمّة قاسم مشترك: طول القامة. أيكون كالفن ابن أخيه، ربّما؟ أو كلّا... *ابنه*؟ رحماك يا الله. إن صحّ هذا، فالرّجل لا يملك أدنى فكرة عن كمّ المتاعب الّتي يوفّرها عليه. تنحنح مفسحًا بضع دقائق أخرى من أجل استيعاب الخبر المحزن.

«بالطّبع، سنرغب بتقديم تمويل للصّندوق التّذكاريّ»، قال ويلسون أخيرًا بصوت مضطرب: «سوف ترغب مؤسّسة باركر بتكريم ذكرى هذا الفتى الصّغير». زفر نفَسًا بدا أنّه جعله يفرغ من الهواء أكثر، ثمّ مدّ يده في حقيبته وأخرج دفتر شيكات.

«بالطّبع»، قال الأسقف بنبرة تعاطف: «صندوق كالفن إيفانز التّذكاريّ... تكريم مميّز لفتًى مميّز».

«سأتواصل معكم من أجل التّفاصيل التّنظيميّة لمساهمتنا المستمرّة يا جناب الأسقف»، قال ويلسون بمشقّة: «لكن ريثما يحدث

ذلك، أرجو أن تقبلوا هذا الشّيك بالنّيابة عن مؤسّسة باركر. نحن نشكركم على كلّ ما... فعلتموه».

أرغم الأسقف نفسه على أخذ الشّيك دون أن ينظر إليه، لكن ما إن خرج ويلسون من الباب حتّى وضع الورقةَ على سطح طاولته. هبشةٌ محترمة. والمزيد قادم، بفضل فكرته لإقامة صندوق من أجل إحياء ذكرى شخصٍ لم يمت بعدُ أصلًا. أرجع ظهرَه فوق كرسيّه وشابك أصابعه على صدره. إن كان ثمّة من يحتاج إلى دليلٍ آخر على وجود الله، فلا داعي إلى البحث بعد الآن. دار جميع القدّيسين: المكان الّذي يساعد اللهُ فيه أولئك الّذين يساعدون أنفسهم بالفعل.

بعد أن ترك مادلين في الحديقة، عاد ويكلي إلى مكتبه ورفع سمّاعة الهاتف على مضض. السّبب الوحيد الّذي يجعله يتّصل بدار جميع القدّيسين مرّةً أخرى هو أنّه يريد أن يثبت لماد أنّها مخطئة؛ ليس الجميع يكذبون. لكن يا للمفارقة السّاخرة، فعليه هو نفسه أن يكذب أوّلًا.

«طاب يومكم»، قال يقلّد لهجةً بريطانيّةً لدى سماعه صوت السّكرتيرة المألوف: «أودّ أن أتحدّث إلى شخص في القسم المسؤول عن التّبرّعات لديكم، فأنا مهتمّ بتقديم تبرّعٍ مُعتبَر».

«أوه!»، قالت السّكرتيرة مبتهجة: «دعني أمرّرك إلى الأسقف مباشرةً».

«فهمتُ أنّكم ترغبون بتقديم تبرّع»، قال الأسقف المسنّ لويكلي بعد لحظات.

«هذا صحيح»، كذب ويكلي: «خدمتي الكهنوتيّة مكرّسة لمساعدة ااا... الأطفال»، قال متخيّلًا وجهَ ماد المتجهّم، «الأيتام على وجه التّحديد».

لكن هل كان كالفن إيفانز يتيمًا؟ تأمّل ويكلي بينه وبين نفسه. حين كانا صديقين بالمراسلة، وضّح كالفن توضيحًا تامًّا أنّ لديه والدًا على قيد الحياة. ***أنا أكره أبي؛ أتمنّى لو أنّه ميت***. ما يزال بوسع ويكلي أن يرى الحروف الكبيرة.

- ولكي أحدّد أكثر، أنا أبحث عن المكان الّذي نشأ كالفن إيفانز فيه.

- كالفن إيفانز؟ أنا آسف، لكنّ الاسم لا يبدو مألوفًا على الإطلاق.

على الطّرف الآخر من الخطّ، سكت ويكلي. الرّجل يكذب. هو يستمع إلى الكاذبين كلّ يوم، لذلك يعرف. لكن ما احتمال أن يكذب رَجُلا دينٍ على بعضهما في الوقت نفسه؟

«حسنًا، هذا مؤسف»، قال ويكلي بحذر: «لأنّ تبرّعي مخصّص للدّار الّتي أمضى فيها كالفن إيفانز صباه. أنا واثق أنّكم تقومون بعمل مدهش، لكنّك تعرف كيف هم المتبرّعون، إذا وضعوا هدفًا محدّدًا نصبَ أعينهم لا يعودون يرون غيره».

على الطّرف الآخر، ضغط الأسقف برؤوس أصابعه على جفنه. أجل، إنّه يعرف كيف هم المتبرّعون. لقد حوّلت مؤسّسة باركر حياتَه إلى جحيم؛ أوّلًا بكتب العلوم وسخافات التّجديف، ثمّ بردّة فعلهم

المبالغ فيها حين اكتشفوا أنّ عطيّتهم كانت تكرّم ذكرى شخصٍ ليس ميتًا من النّاحية التّقنيّة. وكيف عرفوا ذلك؟ لأنّ كالفن العزيز استطاع أن يُبعث من موته المزعوم ويظهر على غلاف مجلّة مغمورة تدعى *الكيمياء اليوم*. وبعد ذلك بنحو ثانيتين، كانت امرأةٌ تدعى آفري باركر على الهاتف تهدّده بنحو مئة دعوى قضائيّة مختلفة.

ومن تكون آفري باركر؟ هي الّتي تحمل مؤسّسةُ باركر اسمَها.

لم يكن الأسقف قد كلّمها من قبل، إذ لم يتعامل إلّا مع ويلسون، الّذي فهم حينها أنّه ممثّلها الشّخصيّ ومحاميها. لكنّه إذ فكّر في الأمر تذكّر توقيعًا غير متقن كان يذيّل كلّ وثيقة تبرّعٍ بجانب توقيع ويلسون طوال الأعوام الخمسة عشر السّابقة.

«*كذبتَ* على مؤسّسة باركر؟»، صاحت آنذاك على الهاتف: «ادّعيتَ أنّ كالفن إيفانز مات بذات الرّئة في العاشرة من عمره فقط كي تحصل على عطيّة؟»

وقال بينه وبين نفسه: *سيّدتي، ليست لديك أدنى فكرة عن سوء الوضع هنا في آيوا*.

«سيّدة باركر»، قال محاولًا تهدئتها: «أتفهّم أنّك مستاءة، لكنّني أقسم إنّ كالفن إيفانز الّذي كان هنا مات بالفعل. أمّا الشّخص الّذي ظهر على ذلك الغلاف أيًّا كان فهو يحمل الاسم نفسه، لا أكثر. إنّه اسم شائع جدًّا».

«لا»، أصرّت: «إنّه كالفن، لقد ميّزتُه على الفور».

«إذًا فأنتِ قابلتِ كالفن من قبل؟»

تلكّأت: «حسنًا، كلّا».

«فهمت»، قال مستخدمًا نبرةً أوصلت لها بفعّاليّة مدى السّخافة الّتي تتصرّف بها.

قامت بإلغاء التّمويل بعد ذلك بخمس ثوانٍ.

«مجال عملنا مجال شاقّ، أليس كذلك يا أبانا ويكلي؟»، قال الأسقف: «المتبرّعون ينزلقون من اليد بسهولة. لكن عليّ أن أصارحك؛ يمكننا حقًّا أن نستفيد من تبرّعكم. حتّى إن لم يكن كالفن إيفانز هذا قد أقام هنا، لدينا فتيان آخرون يستحقّون بالقدر نفسه».

«أنا واثق من ذلك»، قال ويكلي موافقًا: «لكنّ الأمر ليس بيدي، لا أستطيع تقديم هذا التّبرّع -هل ذكرتُ لك أنّ قيمته خمسون ألف دولار؟- إلّا للدّار الّتي...»

«مهلًا»، قال الأسقف وقد راح قلبه يخفق بسرعة مع سماع المبلغ الكبير: «أرجوكَ حاول أن تتفهّم: المسألة مسألة خصوصيّة. نحن لا نتكلّم عن الأفراد. حتّى إن كان ذلك الفتى قد أقام هنا، لا يُسمح لنا أن نقول ذلك».

«صحيح»، قال ويكلي: «ومع هذا...»

رفع الأسقف رأسه ينظر إلى السّاعة. لقد اقترب موعدُ برنامجه المفضّل، ”العشاء عند السّادسة“. «كلّا، على *مهلك*»، صاح، لا يريد أن يخسر التّبرّع ولا أن يفوّت برنامجه: «لم تترك أمامي خيارًا. بيني وبينك وبين الجدار، بلى، هذه هي الدّار الّتي نشأ كالفن إيفانز فيها بالفعل».

«حقًّا؟»، قال ويكلي معتدلًا في جلسته: «ألديك إثبات على هذا؟»

«بالطّبع لديّ إثبات»، أجاب الأسقف شاعرًا بالإهانة، يتلمّس برؤوس أصابعه التّجاعيدَ الّتي سبّبها كالفن له على مرّ السّنوات: «أكنّا لنحتضن صندوق كالفن إيفانز التّذكاريّ لو أنّه لم يكن نزيلًا لدينا؟»

بوغت ويكلي: «المعذرة؟»

«صندوق كالفن إيفانز التّذكاريّ. لقد أقمناه قبل سنوات تكريمًا لذلك الفتى العزيز الّذي كبر وأصبح عالم كيمياء شابًّا مذهلًا. ما من مكتبة محترمة إلّا ولديها وثائق ضريبيّة تثبت وجوده. غير أنّ مؤسّسة باركر -الّتي كانت تموّله- أصرّت ألّا نعلن عن الأمر، وأعتقد أنّك تستطيع تخمين السّبب. بطبيعة الحال، ليس بمقدورهم أن يتحمّلوا كلفة تمويل كلّ دار فقدت طفلًا».

«فقدت طفلًا؟»، قال ويكلي: «لكنّ إيفانز كان راشدًا عندما مات».

«أ.. أ.. أجل»، تأتأ الأسقف: «صحيح. الأمر أنّنا نظلّ نشير إلى نزلائنا القدامى بـ«أطفالنا»، لأنّها المرحلة الّتي عرفناهم أفضل معرفة خلالها... الطّفولة. لقد كان كالفن إيفانز ولدًا مدهشًا بحقّ، ذكاؤه حادٌّ كالشّفرة، وقامته فارعة الطّول. والآن، بخصوص ذلك التّبرّع».

بعد بضعة أيّام، اجتمع ويكلي مع مادلين من جديد في الحديقة. «لديّ خبر جيّد وخبر سيّئ»، قال: «لقد كنتِ على حقّ، والدك كان

في دار جميع القدّيسين». تابع كلامه وأخبرها عمّا قاله الأسقف له: أنّ كالفن إيفانز كان «ولدًا مدهشًا» و«ذكاؤه حادٌّ كالشّفرة». «حتّى أنّ لديهم صندوقًا تذكاريًّا باسم كالفن إيفانز»، قال لها: «تأكّدتُ من ذلك في المكتبة. وكان الصّندوق يتلقّى تمويله لمدّة خمسة عشر عامًا تقريبًا من جهةٍ تسمّى مؤسّسة باركر».

عبست: «كان؟»

– لقد أوقفت المؤسّسة تمويله منذ فترة. هذا يحدث أحيانًا، فالأولويّات تتغيّر.

– لكن يا ويكلي، أبي مات قبل ستّة أعوام.

– إذًا؟

«إذًا ما الّذي يجعل مؤسّسة باركر تموّل صندوقًا تذكاريًّا لمدّة خمسة عشر عامًا؟ في حين أنّه»، أجرت حسابًا على أصابعها، «طوال أوّل تسعة أعوام من هذه المدّة لم يكن ميتًا بعد من الأساس؟»

«أوه»، قال ويكلي وقد احمرّ وجهه، لم يكن قد انتبه إلى التّعارض في التّواريخ: «حسنًا... لعلّه آنذاك لم يكن صندوقًا تذكاريًّا بحقّ يا ماد؛ ربّما كان أقرب إلى الصّندوق الفخريّ... لقد قال فعلًا إنّ الصّندوق أقيم *تكريمًا* لأبيك».

«وما دام هذا الصّندوق لديهم، لماذا لم يقولوا ذلك حين اتّصلتَ أوّل مرّة؟»

«مسألةُ خصوصيّة»، أجابها مكرّرًا ما قاله له الأسقف، فهذا على الأقلّ يبدو منطقيًّا إلى حدّ ما: «على كلّ حال، إليك الأمر الجيّد في

الموضوع. لقد بحثتُ حول مؤسّسة باركر واكتشفت أنّها تدار من قبل شخص يدعى السّيّد ويلسون، وهو يعيش في بوسطن». نظر إليها مترقّبًا. «ويلسون»، كرّر: «المعروف أيضًا بصفته عرّابَ ثمرةِ بلّوطك الجنّيّ». اعتدل في جلسته على المقعد منتظرًا استجابةً إيجابيّة، لكن حين لم تقل الطّفلة شيئًا أضاف: «ويلسون يبدو رجلًا نبيلًا جدًّا».

«يبدو مضلِّلًا»، قالت ماد تعاين قشرةً في جلدها: «كأنّه لم يقرأ *أوليفر تويست* يومًا».

وجهة نظر ماد سديدة. لكن مع ذلك، لقد كرّس ويكلي الكثير من الوقت لهذا، وكان يتوقّع منها أن تُظهر حماسةً أكثر بقليل، أو امتنانًا على الأقلّ. لكن ما الّذي جعله يظنّ ذلك؟ فلا أحد على الإطلاق يعبّر عن العرفان بعمله. إنّه يخوض المشاقّ يوميًّا ليواسي الأشخاص الّذين يمرّون بالمصاعب والمحن، ولا يسمع سوى سؤالهم المكرور المنهَك نفسه: «لماذا يعاقبني الله؟». حبًّا بيسوع، من أين له أن يعرف بحقّ الجحيم؟

«على أيّة حال»، قال محاولًا ألّا يبدو موهَن العزيمة: «هذه هي القصّة».

عقدت مادلين ذراعيها في خيبة. «ويكلي»، قالت: «أيفترض أن يكون هذا الخبرَ الجيّد أم الخبر السّيّئ؟»

«هذا كان الخبر *الجيّد*»، قال بنبرة موجَّهة. إنّ خبرته في التّعامل مع الأطفال ضئيلة، وها قد بدأ يفكّر أنّه لا يريد تنميتها. «الخبر السّيّئ الوحيد هو أنّ العنوان الّذي حصلتُ عليه لويلسون في مؤسّسة باركر لا يضمّ سوى رقم صندوق بريد».

«ما المشكلة في هذا؟»

«الأثرياء يستخدمون أرقام صناديق البريد ليحجبوا أنفسهم عن المراسلات غير المرغوبة، إنّها أشبه بسلّة نفايات للبريد»، مدّ يده في حقيبة أوراقه وأخرج بعد شيءٍ من التّقليب قصاصةَ ورق ناولها إيّاها قائلًا: «هذا هو الرّقم. لكن أرجوكِ يا ماد، لا ترفعي سقف آمالك».

«ليست لديّ آمال»، شرحت مادلين له وهي تمعن النّظر في القصاصة: «لديّ إيمان».

نظر إليها متفاجئًا: «حسنًا، هذه كلمة أستغرب أن أسمعها منك».

«كيف ذلك؟»

«لأنّ...»، قال: «حسنًا، كما تعلمين، الدّين يرتكز على الإيمان».

«لكنّك تدرك»، قالت بحذر كأنّها تتوخّى ألّا تزيد إحراجه: «أنّ الإيمان لا يرتكز على الدّين، صحيح؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 35

رائحةُ الإخفاق

في الرّابعة والنّصف من صباح الاثنين، غادرت إليزابيث منزلها في الظّلام مرتديةً ملابس تبعث الدّفء كما اعتادت أن تفعل، وتوجّهت إلى مستودع القوارب. لكن ما إن دخلت باحةَ السّيّارات، الّتي تكون خاويةً في العادة، حتّى لاحظت أنّ جميع الأماكن مشغولة. كما لاحظت شيئًا آخر أيضًا. النّساء. الكثير من النّساء. يمشين بتثاقل نحو المبنى في الظّلام.

«يا إلهي»، همست وهي تضع قبّعةَ سترتها على رأسها وتنسلّ قرب الحشد الصّغير، آملةً أن تجدَ د. ماسون في الوقت المناسب كي تشرح له. بيد أنّ الأوان كان قد فات، إذ وجدته جالسًا إلى طاولة طويلة يوزّع استمارات التّسجيل. رفع رأسه ينظر إليها، دون أن يبتسم.

«زوت».

«لعلّك تتساءل عن سبب كلّ هذا»، قالت بصوت خفيض.

«ليس حقًّا».

«أظنّ الأمرَ الّذي حدث»، قالت إليزابيث: «هو أنّ إحدى مشاهِداتي طلبت منّي نصيحة بشأن الحمية، فاقترحتُ عليها أن تبدأ بالتّمرّن، وربّما أتيتُ على ذكر التّجديف».

- ربّما.

- احتمال.

التفتت إحدى النّساء المصطفّات إلى صديقتها. «الشّيء الّذي يعجبني في التّجديف منذ الآن»، قالت تشير إلى صورةٍ تُظهر ثمانية رجال في قارب: «هو أنّه يتمّ بالكامل جلوسًا».

«لعلّ هذا ينعش ذاكرتَكِ»، قال ماسون وهو يناول المرأةَ التّالية قلمًا: «أوّلًا وصفتِ التّجديف أنّه أسوأ أشكال العقاب، ثمّ اقترحتِ على النّساء في جميع أنحاء البلاد أن يجرّبنَه».

- حسنًا، لا أظنّ أنّني استخدمتُ هذه الكلمات *بالضّبط*...

- بلى، أعرف هذا لأنّني رأيتُ برنامجك أثناء انتظاري تمدُّدَ عنقِ رحم إحدى المريضات. وزوجتي أيضًا شاهدَته، هي لا تفوّت حلقة.

- أنا آسفة يا ماسون، بصدق. لم أتوقّع على الإطلاق...

«حقًّا؟»، ردّ بانفعال: «لأنّ إحدى مريضاتي، قبل أسبوعين، رفضت أن تباشر دفع جنينها قبل أن تُتمّي شرحَ تفاعل ميار».

بدت المفاجأة عليها، ثمّ أعادت النّظر: «حسنًا، إنّه تفاعل معقّد بالفعل».

«أنا أتّصل بك من أجل هذا الشّأن منذ الجمعة»، قال بنبرة موجّهة.

همّت إليزابيث بالرّد. كلامه صحيح، لقد اتّصل بها في الاستديو وفي المنزل، وفي غمرة مشاغلها ومهامّها أهملت أن تعاود الاتّصال به.

«أنا آسفة»، قالت: «لقد كنتُ مشغولة للغاية».

- كنت لأستفيد من مساعدتك في تنظيم كلّ هذا.

- أجل.

- من الواضح أنّنا لن نخرج إلى الماء اليوم.

- مجدّدًا، آسفة.

«أتعرفين ما الّذي يقتلني بحقّ؟»، قال يشير إلى امرأة تقوم بتمرين الفتح والضّمّ: «إنّني أحاول أن أحثّ زوجتي على ممارسة التّجديف منذ سنوات. فكما تعلمين، أنا أؤمن أنّ عتبة الألم أعلى عند النّساء. ومع ذلك، لم أستطع إقناعها مهما قلت. لكن ما هي إلّا كلمة واحدة من إليزابيث زوت...»

توقّفت المرأة عن التّمرين كي تشير إلى إليزابيث رافعةً إبهامها.

«... حتّى انطلقت إلى هنا برجليها ويديها».

«أوه، فهمت»، قالت إليزابيث ببطء وهي تومئ إلى المرأة إيماءة استحسان صغيرة: «إذًا أنت مسرور في الواقع».

- أنا...

- إذًا، ما تحاول أن تقوله هو: *شكرًا لك* يا إليزابيث.

- لا.

- على الرّحب والسّعة يا د. ماسون.

-لا.

ألقت نظرةً نحو المرأة من جديد: «زوجتك تتّجه إلى الإرغ».

«يا إلهي»، نادى ماسون: «بيتسي، هذالا !»

حدث شيءٌ مماثل في مستودعات قوارب أخرى على امتداد البلاد. النّساء يتوافدن، وبعض الأندية تشجّعهنّ على الانضمام. لكنّ هذا لا يعني أنّ جميع الأندية تفعل ذلك، أو أنّ ما تقوله إليزابيث يروق لجميع من يشاهد برنامجها.

«**همجيّة كافرة!**»، هكذا خُربشَ على لافتةٍ احتجاجيّة مزخرفة برسمةٍ لإليزابيث ترفعها امرأةٌ لئيمة المظهر خارج استديوهات كي سي تي في.

إنّها ثاني باحة سيّارات تدخلها إليزابيث هذا الصّباح، ومثل الأولى، كانت ممتلئةً أكثر من المعتاد.

«محتجّون»، قال والتر إذ لحق بها: «لهذا لا نقول أمورًا معيّنة على التّلفاز يا إليزابيث»، ذكّرها، «لهذا نحتفظ بآرائنا*لأنفسنا*».

«والتر»، قالت إليزابيث: «الاحتجاج السّلميّ شكلٌ محترم من أشكال الحوار».

«تسمّين هذا حوارًا؟»، قال إذ صاح أحد الأصوات: «**فلتخلدي في الجحيم!**»

«إنّهم يسعون إلى لفت الانتباه»، قالت كأنّها تتحدّث من خبرة شخصيّة: «سيتجاوزون الأمر في النّهاية».

لكنّه ظلّ قلقًا مع ذلك. كانت تتلقّى تهديدات بالقتل، وهو شارك هذه المعلومات مع الشّرطة وأمن الاستديو، بل حتّى اتّصل بهاربيت سلون وأخبرها. لكنّه لم يخبر إليزابيث لأنّه يعلم أنّها ستتولّى الموضوع بنفسها، إلى جانب أنّ رجال الشّرطة طمأنوه بشأن التّهديدات. «حفنةٌ من المعاتيه غير المؤذين»، هكذا صاغوا الأمر.

في الطّرف الآخر من البلدة، بعد ساعات في غرفة معيشة آل زوت، وجد ستّة ونصف نفسه قلقًا هو الآخر. عند نهاية برنامج إليزابيث الجمعة الماضية، لاحظ كيف لم يصفّق الجميع. وفي حلقة اليوم، ها هو الأمر يتكرّر. امرأة غير مصفّقة.

انتظر بلهفة إلى أن انشغل الكائنُ وهاربيت في المختبر، ثمّ انسلّ من الباب الخلفيّ، يخبّ مسافةَ أربع كتلٍ بنائيّة جنوبًا، ثمّ اثنتين غربًا، إلى أن صار في موضع مناسب قرب التّحويلة. وحين أبطأت شاحنةُ نقلٍ مسطّحة كي تلتحق بطابور السّيّارات الدّاخل إلى الطّريق السّريع، قفز على متنها.

من نافلة القول أنّه يعرف كيف يصل إلى كي سي تي في، إذ بوسع أيّ شخص قرأ *الرّحلة العجيبة*(1) أن يفهم أنّ قدرة الكلاب على الوصول إلى أيّ شيء تقريبًا أمرٌ غير عجيب بالمرّة. لطالما تعجّب من قصّة الإبرة في كومة القشّ الّتي قرأتها إليزابيث له ذات مرّة؛ ما

(1) The Incredible Journey.

الصّعوبة في إيجاد إبرة في كومة قشّ؟ لا يمكن لأحد أن يضلّ عن رائحة المعدن الغنيّ بالكربون.

بمختصر العبارة، الوصول إلى كي سي تي في ليس صعبًا، أمّا الدّخول فمسألة أخرى.

فيما هو يقطع الباحة سالكًا طريقه بين السّيّارات ووميض زعانفها وشعاراتها البارزة تحت الشّمس القائظة في غير موسمها، راح يبحث عن مدخل.

«مرحبًا أيّها الفتى اللّطيف»، قال رجل ضخم يرتدي زيًّا كحليًّا، وكان يقف أمام باب يوحي مظهره بالأهمّيّة: «إلى أين تظنّ نفسك ذاهبًا؟»

ما كان ستّة ونصف يريد أن يقوله هو «إلى الدّاخل»، لأنّه -مثل هذا الرّجل ذي الزّيّ الكحليّ- مسؤول عن الأمن أيضًا. لكن بما أنّ الشّرح لم يكن أمرًا واردًا، اختار أن يمثّل - أن يستخدم اللّغة الخاصّة بأهل التّلفاز.

«يا إلهي»، قال الرّجل عندما انهار ستّة ونصف متكوّمًا على نفسه بشكل مُقنِعٍ جدًّا: «تماسك يا فتى، سوف أحضر المساعدة!». راح يطرق على الباب إلى أن فُتح له، ثمّ حمل ستّة ونصف ودخل به إلى المبنى المكيَّف. بعد دقيقة، كان ستّة ونصف يغرف الماء بلسانه من أحد أواني الخلط الخاصّة بإليزابيث لا غيرها.

قولوا ما شئتم عن البشر، سيظلّ لطفهم -برأي ستّة ونصف- هو ما يجعلهم في صدارة بقيّة الأنواع.

«ستّة ونصف؟»

إليزابيث!

ركض إليها بطريقة يستحيل أن يقدر عليها كلبٌ تعرّض لضربة شمس حقيقيّة.

«ما هذا الـ...»، همّ الرّجل ذو الزّيّ الكحليّ بالكلام، معلّقًا على التّعافي الإعجازيّ.

«كيف دخلت إلى هنا، ستّة ونصف؟»، قالت إليزابيث ملقيةً ذراعيها حوله: «كيف عثرتَ عليّ؟ هذا كلبي يا سيمور»، أخبرت الرّجل ذا الزّيّ الكحليّ، «ستّة ونصف».

«في الحقيقة، إنّها الخامسة والنّصف يا سيّدتي، لكنّ الجوّ ما يزال ملتهبًا في الخارج. على كلّ حال، لقد انقلب الكلب على الأرض، لذا حملتُه إلى الدّاخل».

«شكرًا يا سيمور»، قالت منفعلة: «أنا حقًّا مدينة لك. لا بدّ أنّه قطع كامل الطّريق ركضًا»، أضافت غير مصدّقة، «إنّها تسعة أميال».

«أو لعلّه جاء برفقة ابنتك الصّغيرة»، اقترح سيمور: «والجدّة في سيّارة الكرايسلر؟ كما فعلتا قبل بضعة أشهر؟»

«مهلًا»، قالت إليزابيث وقد رفعت رأسها بحدّة: *«ماذا؟»*

«يمكنني أن أشرح»، قال والتر رافعًا يديه كما لو ليردّ عن نفسه هجومًا محتملًا.

لقد وضّحت إليزابيث منذ وقت طويل أنّه ينبغي بمادلين ألّا تجيء إلى الاستديو أبدًا. ليست لديه أدنى فكرة عن السّبب، فأماندا تجيء طوال الوقت. لكنّه كان يومئ برأسه كلّما فتحت إليزابيث هذه السّيرة كأنّه يفهم ويوافق رغم أنّه لا يدرك دافعها وليس مهتمًّا أصلًا.

«كانت وظيفةً مدرسيّة»، قال كاذبًا: «مشاهدة الأهل أثناء العمل». لا فكرةَ لديه لماذا شعر بضرورة اختلاق عذر لهارييت سلون فجأةً، بيد أنّ الأمر بدا صائبًا. «أنت مشغولة»، أردف: «ولعلّكِ نسيتِ ببساطة».

سكتت إليزابيث مخضوضة. قد يكون هذا صحيحًا بالفعل، ألم يُشر ماسون إلى الأمر عينه هذا الصّباح تمامًا؟ «المسألة فقط أنّني لا أريد لابنتي أن تنظر إليّ بصفتي شخصيّةً تلفزيونيّة»، شرحت وهي تشمّر كمّها: «لا أريدها أن تعتقد أنّني... كما تعلم... أؤدّي دورًا تمثيليًّا». تراءى لها والدها، فتصلّبت ملامحُها مثل الإسمنت.

«لا تقلقي»، قال والتر بنبرة جافّة: «يستحيل لأحد أن يرى ما تقومين به دورًا تمثيليًّا».

انحنت إلى الأمام بجدّيّة: «شكرًا لك».

دخلت سكرتيرته تحمل كدسة بريدٍ كبيرة. «وضعتُ الأشياء الّتي تتطلّب عنايةً فوريّةً في الأعلى يا سيّد باين»، قالت: «ولستُ متأكّدةً إن كان عندك علم، لكن يوجد كلبٌ كبير في الدّهليز».

«يوجد ماذا؟»

«إنّه لي»، قالت إليزابيث بسرعة: «إنّه ستّة ونصف، وبسببه علمتُ بأمر زيارة ماد من أجل «مشاهدة الأهل أثناء العمل»، سيمور أخبرني...»

لدى سماع اسمه، نهض ستّة ونصف ودخل إلى المكتب يتشمّم الهواء. *والتر باين. رجلٌ يعاني من انخفاض في تقدير الذّات.*

فاغرًا عينيه، أرجع والتر ظهره بشدّة فوق كرسيّه. الكلب ضخم. سحب نفسًا قصيرًا، ثمّ نقل انتباهه إلى كدسة البريد، بالكاد يستمع إلى إليزابيث وهي تثرثر بإسهاب حول ما يستطيع هذا الشّيءُ أن يفعله - الجلوس، البقاء مكانه، الالتقاط، ربّما، الله وحده يعلم. جماعة الكلاب لا يملّون من التّبجّح، ويُظهرون فخرًا سخيفًا حين يتعلّق الأمر بأصغر إنجازات كلابهم. غير أنّ محاضرتها الّتي لا نهاية لها منحته الوقت الّذي يحتاج إليه كي يفكّر متى سيتسنّى له أن يتّصل بهارييت سلون ويُشركها في الكذبة كي تدعم القصّة من طرفها.

«ما رأيك؟ كنت تريد أن نجرّب شيئًا جديدًا»، كانت إليزابيث تقول: «هل سينفع هذا؟»

«لمَ لا؟»، قال مبديًا موافقته، دون أن تكون لديه أدنى فكرة عمّا وافق عليه لتوّه.

«رائع»، قالت: «نبدأ من الغد إذًا؟»

«تبدو خطّة ممتازة!»، أجاب.

«مرحبًا»، قالت إليزابيث اليومَ التّالي تمامًا: «اسمي إليزابيث زوت، وهذا برنامج *العشاء عند السّادسة*. أودّ أن أعرّفكنّ على كلبي،

ستّة ونصف. قل مرحبًا يا ستّة ونصف». أمال ستّة ونصف رأسه إلى الجانب فراح الجمهور يضحك ويصفّق، أمّا والتر -الّذي لم يبلغه قبل عشر دقائق أنّ في المبنى كلبًا مرّة أخرى فحسب، بل أيضًا أنّ مصفّفة الشّعر شذّبت له غرّتَه استعدادًا للقطات الكاميرا القريبة- فقد غاص في كرسيّ المنتج وأقسم أن يكفّ عن التّفوّه بالأكاذيب.

بعد شهرٍ صار ستّة ونصف خلاله جزءًا لا يتجزّأ من البرنامج، بدا من الصّعب على أحد أن يتصوّر أنّه لم يكن موجودًا منذ البداية. لقد أحبّه الجميع، حتّى أنّه بدأ يتلقّى بريد معجبين خاصًّا به.

الشّخص الوحيد الّذي ما زال لا يبدي حماسةً لوجوده هو والتر، وافترض أنّ السّبب هو أنّ والتر ليس من «جماعة الكلاب» - وهذا مفهومٌ يجد عناءً في استيعابه.

«ثلاثون ثانية قبل أن تُفتح الأبواب يا زوت»، سمع المصوّرَ يقول فيما كان يتّخذ موضعَه على ميمنة المنصّة، ويفكّر في طرقٍ جديدة لكسب والتر في صفّه. الأسبوع الماضي ألقى كرةً عند قدمَي والتر، داعيًا إيّاه إلى اللّعب. هو عن نفسه لا يحبّ لعبةَ التقاط الكرة، ويراها عديمة المغزى، وبدا أنّ ذلك رأي والتر أيضًا.

«حسنًا، أدخلوهم»، نادى أحدهم أخيرًا، ففُتحت الأبواب وانطلق المشاهدون المتنّون في صخب يبحثون عن مقاعدهم، بعضهم يشير إلى السّاعة الكبيرة -الّتي ما زال عقرباها مضبوطين بشكل دائم على وضع السّاعة السّادسة- بالطّريقة الّتي قد يشير بها السّيّاح إلى جبل راشمور. «ها هي»، راحوا يقولون: «ها هي السّاعة».

«وها هو الكلب!»، قال الجميع تقريبًا: «انظروا... إنّه ستّة ونصف!»

لم يكن يفهم لماذا لا تروق النّجوميّة لإليزابيث، فهو يعشقها.

«يتركّب قشر البطاطا»، كانت إليزابيث تقول بنبرة جازمة بعد عشر دقائق: «من خلايا فلّينيّة مُسوبرة، وهذه الخلايا تشكّل المكوّن الخارجيّ في الأدمة المحيطيّة للدّرنة، وبالتّالي فهي تمثّل استراتيجيّةَ الحماية الخاصّة بالبطاطا...»

كان واقفًا بجانبها مثل عميل خدمة سرّيّة، يمسح الجمهورَ بعينيه.

«... ما يثبت أنّ الدّرنات أيضًا تفهم أنّ الهجوم الجيّد خير وسيلة للدّفاع».

كان الجمهور مستغرقًا، ما سهّلَ مهمّةَ فهرسةِ جميع الوجوه.

«قشر البطاطا يعجّ بالقلويدات السّكّريّة»، تابعت: «وهي ذيفانات عصيّة على التّخريب إلى درجة أنّها تصمد بسهولة أمام الطّهو والقلي. ومع ذلك فأنا أستخدم القشر، ليس فقط لكونه غنيًّا بالألياف، بل أيضًا لأنّه يذكّرنا كلّ يومٍ أنّ الخطر في كلّ مكان، في البطاطا كما في الحياة. أفضل استراتيجيّة يمكن اتّباعها هي ألّا نخاف الخطر، بل نحترمه، ثمّ»، أضافت وهي تلتقط سكّينًا، «نتعامل معه». قرّبت الكاميرا الصّورةَ فيما راحت إليزابيث تستخرج بقعةً خضراء مبرعمة من حبّة البطاطا بحركة خبيرة. «علينا دائمًا أن نزيل البراعم والبقع الخضراء من البطاطا»، وضّحت وهي تُعمل السّكّين في حبّة أخرى: «ففيها تكمن القلويدات السّكّريّة بأعلى التّراكيز».

أخذ ستّة ونصف يمعن النّظر في الجمهور، باحثًا عن وجه واحد بالتّحديد. آه، وها هي ذي. غير المصفّقة.

أعلنت إليزابيث أنّ الوقت حان للتّعريف بالمحطّة، ثمّ غادرت المنصّة. كان يتبعها عادةً، لكنّه اليوم نزل إلى الجمهور عوضًا عن ذلك، فأثار على الفور بضع تصفيقات متحمّسة وصيحات تقول «هنا يا فتى!». والتر يصرّ عليه ألّا يفعل هذا، لأنّ بعض الأشخاص قد يخافون أو يعانون من الحساسيّة، غير أنّ ستّة ونصف قام بذلك على كلّ حال لأنّه يعرف أنّ من الضّروريّ التّفاعل مع الجمهور، وكذلك لأنّه أراد أن يقترب من غير المصفّقة.

كانت جالسةً في نهاية الصّفّ الرّابع، وجهها ثابت على تعبير استنكار بشفتين مطبقتين. هو يعرف هذا النّمط من النّاس. وبينما أخذ بقيّة الجالسين في الصّفّ يمدّون أيديهم كي يداعبوه، راح يمسح المرأة بعينيه كجهاز أشعّة سينيّة. كانت جامدة، قاسية الملامح. والحقّ أنّه شعر بشيء من الأسف تجاهها، فلا أحد يصبح لئيمًا هكذا إلّا أن سبق وكان ضحيّةً لمثل هذا اللّؤم.

التفتت المرأة ذات الشّفتين المطبقتين تنظر إليه، بتعبيرٍ وجهيٍّ قاسٍ. مدّت يدها بحذر داخل حقيبتها الكبيرة، وأخرجت سيجارة دقّتها مرّتين على فخذها.

مدخّنة. لا عجب. من الحقائق المعروفة أنّ البشر يظنّون أنفسهم أذكى الأنواع على وجه الأرض، ومع ذلك فهم الحيوانات الوحيدة الّتي تستنشق الموادّ المسرطِنة عن طيب خاطر. همّ بالالتفاف مبتعدًا،

ثمّ توقّف، إذ التقط رائحةً وراء النّيكوتين. كانت رائحةً واهيةً إنّما مألوفة. تشمّم من جديد فيما انطلقت فرقةُ «العشاء عند السّادسة» تعزف مقطوعة العودة من الفاصل. ألقى نظرةً على غير المصفّقة من جديد؛ لقد أرجعت حقيبتَها إلى الأرضيّة عند طرف الممشى، ويدُها ترتجف وهي ترفع السّيجارة إلى شفتيها.

رفع أنفه في الهواء. *نيتروغليسرين؟ لا يمكن.*

«نملأ قِدرًا كبيرةً بـ H_2O»، كانت إليزابيث تقول وقد عادت إلى المنصّة: «ثمّ نأخذ البطاطا...»

تشمّم من جديد. *نيتروغليسرين. حين يتمّ التّعامل معه بشكل خاطئ، يصدر ضجّةً مروّعة، مثل المفرقعات النّاريّة، أو* -بلع ريقَه بمشقّة، مفكّرًا في كالفن- *فرقعة عوادم السّيّارات.*

«... ونضعها في القدر على حرارة مرتفعة».

«جِدها، اللّعنة عليك»، استطاع أن يسمع مدرّبَه في معسكر بندلتون يأمره بإلحاح: «اعثر على القنبلة اللّعينة!»

«نشاء البطاطا، سلسلة كربوهيدرات طويلة تتألّف من جزيئات الأميلوز والأميلوبكتين...»

نيتروغليسرين. رائحة الإخفاق.

«... وحين يبدأ النّشاء بالتّفكّك...»

إنّها صادرة من حقيبة يدِ غير المصفّقة.

في معسكر بندلتون، كان المطلوب من الكلب تحديد موقع القنبلة فقط وليس إزالتها، فالإزالة مهمّة المدرّب. لكنّ بعض محبّي الاستعراض -الجيرمان شيبرد- كانوا يقومون من حين إلى آخر بهذا الجزء أيضًا.

على الرّغم من البرودة اللّطيفة في الاستديو، بدأ ستّة ونصف يلهث. حاول أن يتحرّك إلى الأمام، لكنّ قوائمه كانت مثل الماء. توقّف مكانه. قال لنفسه إنّ كلّ ما عليه فعله هو أن يلعبَ أقلّ لعبة يحبّها -الالتقاط- متعقّبًا أكثر رائحة يكرهها - النّيتروغليسرين. أصابته الفكرةُ بالغثيان.

«ما هذا بحقّ السّماء؟»، قال سيمور براون ما إن لمح حقيبةَ يدٍ نسائيّة حزامُها مبلّلٌ على طاولته عند الباب: «لا بدّ أنّ هناك سيّدةً في غاية القلق». فتح الحقيبة ليبحث عن أوراق ثبوتيّة، لكنّه -حالما فغرت الحقيبةُ فمها- أخذ نفَسًا حادًّا ثمّ مدّ يده إلى الهاتف.

«والآن، قف واعقد ذراعيك»، اقترح مراسلٌ صحفيّ على سيمور وهو يركّب مصباحًا جديدًا للكاميرا: «اتّخذ مظهرًا صلبًا، كأنّك تقول لمن فعل هذا كائنًا من كان إنّه عبثَ مع الشّخص الخطأ».

للمصادفة الّتي يتعذّر تصديقها، كان هذا الصّحفيَّ نفسه، ذاك الّذي كان في المقبرة. وفي محاولته الّتي ما تزال مستمرّة لرفع فُرصِه الصّحفيّة، كان قد ركّب مؤخّرًا جهاز راديو شرطة مخالفًا للقانون في

سيّارته، واليوم آتى أُكلَه أخيرًا: أحدهم عثر على قنبلة صغيرة في حقيبة نسائيّة داخل استديوهات كي سي تي في.

راح يدوّن الملاحظات فيما شرح سيمور أنّ الحقيبة ظهرت على طاولته ببساطة، وأنّه لا يملك أدنى فكرة عن كيفيّة وصولها إلى هناك. لقد فتحها ليبحث عن أوراق ثبوتيّة، بيد أنّه عثر بدلًا من ذلك على مجموعة مناشير تشجب إليزابيث زوت وتصفها بالشّيوعيّة الكافرة، إضافةً إلى إصبعَي ديناميت مربوطين معًا بالأسلاك على نحو غير متقن جعل الشّيء برمّته يبدو كلعبةِ أطفال معطوبة.

«لكن بحقّ السّماء، ما الّذي قد يجعل شخصًا يرغب في تفجير كي سي تي في؟»، سأله الصّحفيّ: «ألا يتألّف بثُّكم من برامج ما بعد الظّهيرة في معظمه؟ مسلسلات سوب أوبرا؟ برامج مهرّجين؟»

«لدينا برامج شتّى»، قال سيمور، ممرّرًا يده المرتجفة فوق رأسه: «لكنّنا نواجه بعض المتاعب منذ أن ذكرت إحدى مقدّمات برامجنا أنّها لا تؤمن بالله».

«ماذا؟»، قال الصّحفيّ غيرَ مصدّق: «من هذا الّذي لا يؤمن بالله؟ عن أيّ نوع من البرامج نتحدّث؟»

«سيمور... سيمور!»، نادى والتر باين وهو يشقّ طريقه برفقة رجل شرطة بين حشد صغير من الموظّفين القلقين: «سيمور، حمدًا لله أنّك على ما يرام. بعد ما فعلتَه... لقد خاطرتَ بحياتك!»

«إنّني بخير يا سيّد باين»، قال سيمور: «وأنا لم أفعل أيّ شيء. حقًّا».

«في الحقيقة يا سيّد براون»، قال الشّرطيّ مراجعًا ملاحظاته: «بلى، لقد فعلت. نحن نتعقّب هذه السّيّدة منذ فترة. إنّها مكارثيّة مستميتة، مختلّة بحقّ. قيل إنّها ترسل تهديدات بالقتل منذ شهور»، أغلق دفتره، «أظنّ أنّها سئمت من تجاهلها».

«*تهديدات بالقتل؟*»، هتف الصّحفيّ متحمّسًا: «إذًا فهذا... ما هو... برنامج أخبار؟ آراء سياسيّة؟ مناظرات؟»

«طبخ»، قال والتر.

«لو أنّك لم تضبط تلك الحقيبة يا سيّد براون، لربّما انتهى هذا النّهار على نحو مختلف جدًّا. كيف فعلت ذلك على كلّ حال؟»، ألحّ الشّرطيّ: «كيف أخذتَ الحقيبة دون علمها؟»

«هذا ما لا أكفّ عن قوله للجميع. أنا لم آخذها»، أصرّ سيمور: «كانت موضوعة على طاولتي ببساطة».

«أنت تبالغ في تواضعك»، قال والتر مربّتًا له على ظهره.

«وهذا من شيم الأبطال الحقيقيّين»، أومأ الشّرطيّ.

«سيعضّ محرّري على هذه المقالة بالنّواجذ»، قال الصّحفيّ.

على بعد مسافة، كان ستّة ونصف راقدًا في زاوية يراقب الرّجال منهكًا.

«بضع صور أخرى ونكون قد...». من زاوية عينه، لمح الصّحفيّ ستّة ونصف. «مهلًا»، قال: «ألستُ أعرف هذا الكلب؟ أنا أعرف هذا الكلب».

«الجميع يعرفون هذا الكلب»، قال سيمور: «إنّه يشارك في البرنامج».

نظر الصّحفيّ إلى والتر متحيّرًا: «ظننتُكَ قلتَ إنّه برنامج طبخ».

- هو كذلك.

- كلب في برنامج طبخ؟ ما الّذي *يفعله* الكلب بالضّبط؟

تلكّأ والتر. «لا شيء»، اعترف. لكن ما إن خرج كلامُه من فمه وتعلّق في الهواء حتّى شعر فجأةً بشعور بغيض.

من الطّرف الآخر للغرفة، التقت عينا ستّة ونصف بعينيه. والتر ليس من جماعة الكلاب، لكن حتّى هو يستطيع رؤية أنّ قلبَ هذا السّلوقيٍّ قد انكسر.

حياة وموت[1]

«أخبار هامّة!»، قال والتر بعد أسبوع، جسمه يرتجف من الحماسة وهو ينضمّ إلى إليزابيث وهارييت ومادلين وأماندا حول المائدة. لقد صار هذا طقسًا متكرّرًا؛ عشاء ليلة الأحد في مختبر إليزابيث. «اتّصلوا بنا من مجلّة *لايف* اليوم. إنّهم يريدون أن ينشروا مقالة غلاف!»

«لستُ مهتمّة»، قالت إليزابيث.

- لكنّها مجلّة *لايف*!

- سوف يطلبون تفاصيل شخصيّة؛ أشياءَ لا علاقة لأحد بها. أعرف كيف تجري هذه الأمور.

«انظري»، قال والتر: «نحن بحاجة إلى هذا حقًّا. لقد انتهت التّهديدات بالقتل، لكن بوسعنا أن نستفيد من بعض الأضواء الإعلاميّة الإيجابيّة».

(1) في عنوان هذا الفصل إشارة إلى مجلّة «لايف» الأمريكيّة، الّتي يعني اسمها «حياة». (المترجم)

- لا.

- لقد رفضتِ عروض جميع المجلّات يا إليزابيث، ولا يمكنكِ أن تظلّي على هذا.

- سأوافق بسرور أن أتحدّث إلى *الكيمياء اليوم*.

«أجل»، قال وهو يقلب عينيه: «مذهل. لا تمثّل جمهورنا المستهدف بالضّبط، لكنّني صاحبُ حاجةٍ أرعنُ إلى درجةِ أنّني اتّصلت بهم في الواقع».

«ثمّ؟»، قالت متلهّفة.

«قالوا إنّهم ليسوا مهتمّين بإجراء مقابلة مع سيّدة تطبخ على التّلفاز».

نهضت إليزابيث عن كرسيّها وخرجت.

«ساعديني يا هارييت»، توسّل والتر إليها وهما جالسان في الخارج على العتبة الخلفيّة بعد العشاء.

- ما كان ينبغي بك أن تصفها بالطّبّاخة التّلفزيونيّة.

- أعلم، أعلم. لكن ما كان ينبغي بها هي أن تخبر الجميع أنّها لا تؤمن بالله. لن نستطيع أن نجعل النّاس ينسون هذا أبدًا.

فُتح منخل الباب. «هارييت؟»، قاطعتهما أماندا: «تعالي والعبي».

«بعد قليل»، قالت هارييت وهي تطوّق الفتاة الصّغيرة بذراعها: «لمَ لا تبنين أنتِ وماد حصنًا أوّلًا، ثمّ آتي أنا».

«أماندا مولعةٌ بكِ للغاية يا هارييت»، قال والتر بهدوء حالما انطلقت ابنته عائدةً إلى الدّاخل، واستطاع أن يوقف نفسه قبل أن يضيف: *وأنا كذلك*. خلال الأشهر القليلة الماضية، جعلته زياراتُه المتكرّرة لمنزل آل زوت يرى هارييت أكثر وأكثر، وكان كلّما غادر يجد نفسه يفكّر فيها لساعات. إنّها متزوّجة - زواجًا غير سعيد وفقًا لإليزابيث، لكن وإن كان، فهي رغم ذلك لم تُظهر أيّ اهتمام به، ومن له أن يلومها؟ إنّه في الخامسة والخمسين من عمره، في طريقه إلى الصّلَع، وهو سيّئ في عمله، ولديه طفلة صغيرة ليست حتّى ابنته من النّاحية التّقنيّة. إن كان ثمّة كتاب مرجعيّ يُدعى «أكثر الصّفات المنفّرة في الرّجال» ستكون صورته هو على الغلاف.

«أوه؟»، قالت هارييت، وعنقها يتحوّل إلى اللّون القرمزيّ من أثر الإطراء. راحت تعبث بفستانها، وتشدّه إلى الأسفل نحو جوربيها. «سوف أكلّم إليزابيث»، وعدته: «لكن عليك أن تتحدّث إلى الكاتب أوّلًا، وتقول له أن يتجنّب الأسئلة الشّخصيّة، لا سيّما ما يتعلّق بكالفن إيفانز، ويبقي تركيزه منصبًّا على إليزابيث، على ما أنجزته هي».

حُدّد موعد المقابلة في الأسبوع التّالي. كان المراسل الصّحفيّ، فرانكلين روث، الحائز على جوائز في الصّحافة، مشهورًا بقدرته على كسب ثقة حتّى أكثر النّجوم استعصاءً. عندما انسلّ إلى مقعده وسط جمهور «العشاء عند السّادسة»، كانت إليزابيث على المنصّة تقطّع كومةً كبيرةً من الخضراوات. «يعتقد كثيرون أنّ البروتين يأتي من اللّحوم والبيض والسّمك»، كانت تقول: «بيد أنّ البروتين ينشأ في النّباتات،

والنّباتات هي ما يتغذّى عليه أكبر حيوانات العالم وأقواها». رفعت عددًا من مجلّة *ناشونال جيوغرافيك* يضمّ صورةً تمتدّ على صفحتين لمجموعة من الفيلة، ثمّ تابعت تشرح بالتّفصيل المملّ عمليّةَ الاستقلاب لدى أكبر الحيوانات البرّيّة في العالم، طالبةً تقريبَ الكاميرا على صورة لبراز الفيلة.

«بوسعنا أن نرى الألياف ظاهرة»، قالت تنقر على الصّورة.

كان روث قد شاهد البرنامج بضع مرّات ووجده مسلّيًا على نحو غريب. لكن الآن، وهو بين الجمهور، وجد أنّ هؤلاء الّذين حوله -الجمهور يتكوّن من النّساء بنسبة 98 بالمئة- يشكّلون جزءًا من مادّة المقالة مثلهم مثل زوت. بدا أنّ الجميع جاء مجهّزًا بدفتر وقلم رصاص، والبعض يحمل كتب كيمياء. كلّهم يركّزون كامل انتباههم كما يفترض بالمرء -على عكس ما يحدث في الواقع- أن يفعل في المدرّجات الجامعيّة أو الكنائس.

خلال أحد الفواصل الإعلانيّة، التفت إلى المرأة الجالسة بجانبه. «إن كنتِ لا تمانعين سؤالي»، قال بتهذيب، مُبرزًا أوراقه الثّبوتيّة: «ما الّذي يعجبك في البرنامج؟»

- أنّني أؤخذ على محمل الجدّ.

- ليس الوصفات؟

نظرت إليه غير مصدّقة. «أحيانًا أفكّر»، قالت برويّة: «أنّه إن قُيِّضَ لرجلٍ أن يقضي يومًا واحدًا محلَّ امرأة في أمريكا، فلن يصمد إلى الظّهيرة».

نقرت المرأة الجالسة على الجانب الآخر على ركبته: «هيّئ نفسك لثورة».

بعد انتهاء البرنامج، شقّ طريقه إلى الكواليس، حيث صافحته زوت وراح كلبها، ستّة ونصف، يتشمّمه مثل شرطيٍّ يجري تفتيشًا بدنيًّا. وبعد تعارفٍ موجز، دعته هو ومصوّره إلى غرفة ملابسها، حيث تكلّمت عن البرنامج - أو بالأحرى عن المواضيع الكيميائيّة الّتي تغطّيها في البرنامج. استمع بتهذيب، ثمّ علّق على بنطالها ناعتًا إيّاه بالخيار الجريء. نظرت إليه متفاجئة، ثمّ هنّأته على خياره الجريء نفسه، وكانت في كلامها نبرة.

وبينما أخذ المصوّر يطقطق بالكاميرا بهدوء، نقل موضوعَ النّقاش إلى تسريحة شعرها، فرمقته بجفاء.

نظر المصوّر إلى روث قلقًا؛ لقد كُلّف بالتقاط صورة واحدة على الأقلّ لإليزابيث زوت وهي تبتسم. *افعل شيئًا*، أومأ إلى روث: *قل شيئًا مضحكًا*.

«هل لي أن أسألك عن قلم الرّصاص الّذي في شعرك؟»، حاول روث مجدّدًا.

«بالطّبع»، قالت: «إنّه قلم رصاص رقم اثنين. الرّقم يدلّ على صلابة الرّصاص، رغم أنّ هذه الأقلام لا تحتوي على الرّصاص في الواقع، بل على الغرافيت، وهو من أشكال الكربون المتآصلة».

«كلّا، كنت أقصد لماذا قـ...»

«قلم رصاص عوضًا عن قلم حبر؟ لأنّ الغرافيت، على عكس الحبر، قابل للمحو. النّاس يرتكبون الأخطاء يا سيّد روث، وقلم الرّصاص يتيح للمرء أن يصلّح الخطأ ويتابع طريقه. العلماء يتوقّعون

الأخطاء، ولهذا السّبب نحن نتقبّل الإخفاق بصدر رحب»، ثمّ رمقت قلمَه الحبر باستنكار.

قلب المصوّر عينيه.

«انظري»، قال روث مغلقًا دفتره: «كان لديّ انطباع أنّك وافقتِ على هذه المقابلة، لكن بوسعي أن أخمّن أنّكِ أُرغِمتِ عليها. أنا لا أجري مقابلةً مع أحدٍ رغمًا عنه، لذا أعتذر بصدقٍ عن تطفّلنا»، ثمّ التفت إلى المصوّر وأشار برأسه نحو الباب. كانا قد قطعا نصف باحة السّيّارات حين أوقفهما سيمور براون قائلًا: «زوت تقول أن تنتظرا هنا».

بعد خمس دقائق، كان روث جالسًا بجانب إليزابيث زوت على المقد الأماميّ في سيّارتها البليموث الزّرقاء القديمة، فيما أُقصِيَ الكلب والمصوّر إلى المقعد الخلفيّ.

«لا يعضّ، أليس كذلك؟»، سألها المصوّر وهو يحشر نفسه لصقَ النّافذة.

«كلّ الكلاب تمتلك القدرة على العضّ»، قالت من فوق كتفها: «مثلما يمتلك جميع البشر القدرة على الأذى. السّرّ يكمن في التّصرّف بطريقة معقولة تجعل الأذى غيرَ ضروريّ».

«تقصدين أن تقولي إنّه يعضّ؟»، سألها، إلّا أنّهم كانوا يدخلون إلى الطّريق السّريع فضاع سؤاله في ضجّة تسارع المحرّك.

«إلى أين نحن ذاهبون؟»، سألها روث.

«إلى مختبري».

لكن حين توقّفت السّيّارة أمام بنغل بنّيٍّ صغير في حارةٍ باليةٍ إنّما مرتّبة، قال لنفسه إنّه لا بدّ أخطأ السّمع.

«أخشى أنّني أنا المدينة لكما بالاعتذار الآن»، قالت لروث وهي تدعوهما إلى الدّخول: «جهاز الطّرد المركزيّ خاصّتي معطّل، لكنّني أستطيع إعداد القهوة رغم ذلك».

شرعت في العمل فيما المصوّر يطقطق بالكاميرا، وفغر روث فمه عجبًا وهو يجوّل عينيه في أنحاء ما لا بدّ أنّه كان مطبخًا ذات يوم. بدا تهجينًا بين غرفةِ عمليّات وموقعٍ يهدّده الخطر البيولوجيّ.

«لقد حدث العطل بسبب تحميلٍ غير متوازن»، شرحت تضيف كلامًا بخصوص فصل السّوائل بناءً على كثافتها وهي تشير إلى شيء فضّيّ كبير. جهاز طرد مركزيّ؟ لا يملك أدنى فكرة. فتح دفتره من جديد، ووضعت أمامه طبقَ بسكويت.

«إنّها بألدهيد القرفة»، شرحت له.

التفت ليرى الكلب يراقبه.

«ستّة ونصف اسمٌ غير مألوف للكلاب»، قال: «ما معناه؟»

«معناه؟»، التفتت نحوه وهي تشعل موقد بنسن، عابسةً كأنّها -مرّةً أخرى- لم تفهم لماذا يصرّ على طرح أسئلة متعلّقةٍ بالبديهيّات كهذه. ثمّ راحت تتحدّث بإسهاب عن البابليّين، الّذين كانوا يعتمدون نظامًا ستّينيًّا -أي يعدّون متّخذين السّتّين أساسًا، كما شرحت له- في الرّياضيّات وعلم الفلك. «آمل أن أكون وضّحتُ المعنى»، قالت.

في هذه الأثناء، سألها المصوّر -الّذي كانت قد دعته إلى إلقاء نظرة على أنحاء المكان- عن الآلة الغريبة الّتي تتوسّط أرضيّة غرفة المعيشة. «الإرغ؟»، سألته: «إنّها ماكينة تجديف. أنا مجدّفة. ثمّة الكثير من المجدّفات النّساء».مكتبة سُر مَن قرأ

وضع روث دفتره على الطّاولة في المختبر وتبعهما إلى الغرفة المجاورة، حيث راحت تريهما حركات التّجديف. «الإرغ وحدة لقياس الطّاقة»، شرحت وهي تتحرّك إلى الأمام والخلف بطريقة رتيبة إلى حدٍّ ما، والمصوّر يلتقط الصّور من عدّة زوايا: «والتّجديف يتطلّب الكثير من الإرغات». ثمّ نهضت والتقط المصوّر عدّة صور للثّخانات الجلديّة على يديها قبل أن يعود الجميع إلى المختبر، حيث وجد روث الكلبَ واقفًا عند أوراقه ولعابُه يسيل عليها.

هكذا سارت المقابلة: من موضوع مملّ إلى آخر. ظلّ يطرح أسئلته وهي تجيب على كلٍّ منها - إجابات علميّة مهذّبة منبعثة من حسّ الواجب. أيّ أنّه، بصياغة أخرى، لم يحصل على شيء.

وضعت أمامه كوب قهوة. هو ليس من محبّي القهوة في الواقع - يجدها مُرّةً أكثر من اللّازم، لكنّها بذلت جهدًا يفوق المألوف كي تعدّها: حواجل، أنابيب، ممصّات، أبخرة. أخذ رشفةً بدافع التّهذيب، ثمّ أخذ أخرى.

«أهذه قهوة حقًّا؟»، سألها برهبة.

«لعلّك ترغب أن ترى كيف يساعدني ستّة ونصف في المختبر»، اقترحت عليه. تقدّمت وثبّتت نظّارةَ وقاية على رأس الكلب، وبعد

ذلك أخذت تشرح عن مجال بحثها: النّشوء اللّاحيويّ كما سمّته، ثمّ راحت تهجّي الكلمة، ثمّ أخذت دفتره وكتبتها بحروف كبيرة. في هذه الأثناء، كان المصوّر يلتقط الصّورة تلو الأخرى لستّة ونصف وهو يضغط زرًّا يرفع مُخلِيَةَ الدّخان ويُخفضها.

«لقد أردتُ أن أحضرك إلى هنا»، قالت لروث: «لأنّني، كما أريد أن يفهم قرّاؤك، لست مقدّمة برنامج طبخ تلفزيونيّ حقًّا، بل عالمة كيمياء. كنتُ أحاول لمدّة من الزّمن أن أحلّ واحدًا من أعظم الألغاز الكيميائيّة في عصرنا».

تابعت تشرح عن النّشوء اللّاحيويّ، وحماستُها بارزة في التّوصيف الدّقيق الّذي استخدمته لترسم صورةً شاملة. أدرك أنّها بارعة جدًّا في الشّرح، ولديها طريقتها في جعل أكثر المفاهيم إثارةً للضّجر تبدو مشوّقة. راح يسجّل ملاحظات مفصّلة وهي تلوّح بيديها وتشير إلى أشياء متنوّعة في مختبرها، عارضةً عليه من حين إلى آخر نتائج اختبارٍ ما وتفسيراتها لها، معتذرةً من جديد عن جهاز الطّرد المركزيّ المعطّل، شارحةً أنّ السّيكلوترون المنزليّ ليس خيارًا واردًا، مشيرةً إلى أنّ قوانين التّقسيم الحاليّة في المدينة منعتها من تركيب جهازٍ إشعاعيٍّ ما. «السّياسيّون لا يسهّلون الأمور علينا، أليس كذلك؟»، قالت: «المهمّ، منشأ الحياة. هذا هو الموضوع الّذي كنتُ أستقصيه».

«وما عدتِ تفعلين ذلك؟»، سألها.

«ما عدتُ أفعل ذلك»، أجابت.

راح روث يتلوّى فوق كرسيّه. العلوم لم تُثر لديه أدنى اهتمام يومًا؛ النّاس هم مجال نشاطه. لكن في ما يتعلّق بإليزابيث، فقد تبيّن أنّ الوصول

إلى هويّتها دون التّطرّق إلى عملها أمرٌ مستحيل. كان يرى أنّ ثمّة مدخلًا وحيدًا، لكنّه تلقّى تحذيرًا صريحًا من والتر باين كيلا يسلك هذا الطّريق، إذ قال له إنّ المقابلة ستنتهي بشكل سيّئ إن فعل ذلك. ومع هذا، قرّر روث أن يخاطر. «حدّثيني عن كالفن إيفانز»، قال.

بمجرّد ذكر اسم كالفن، استدارت إليزابيث على عقبيها بحدّةٍ والخيبةُ تملأ عينيها. حدجت روث بنظرةٍ مطوّلة؛ نظرة من النّوع الّذي يرمق المرءُ به شخصًا أخلَّ بوعده. «إذًا أنت مهتمٌّ أكثر بعمل كالفن»، قالت بفتور.

نظر المصوّر إلى روث وهزّ رأسه، ثمّ تنهّد كأنّه يقول: «أحسنتَ أيّها العبقريّ». أطبق غطاءَ عدسة الكاميرا بإذعان. «سأنتظر في الخارج»، قال مشمئزًّا.

«ليس عمله ما يثير اهتمامي»، قال روث: «أردتُ أن أعرف عن العلاقة الّتي ربطتك بإيفانز».

«وكيف يكون هذا من شأنك؟»

من جديد، شعر بثقل نظرات الكلب المثبّتة عليه. *لقد حدّدتُ موقع شريانكَ السّباتيّ وحفظتُه.*

– كلّ الأمر أنّ هنالك الكثير من اللّغو بشأن ما كان يحدث بينكما.

– لغو.

«لقد فهمتُ أنّه يتحدّر من خلفيّةٍ ثريّة، مجدّف، كامبريدج... وأنّكِ كنتِ»، راجع أوراقَه، «طالبةَ دراسات في يو سي إل إيه. بيد

أنّني لاحظتُ أنّكِ لم تدرسي هناك قبل التّخرّج. أين درستِ؟ بلغني أيضًا أنّكِ فُصلتِ من هاستينغز».

- تفقّدتَ أوراقي الثّبوتيّة.

- هذا جزء من عملي.

- إذًا فقد تفقّدتَ أوراق كالفن أيضًا.

- حسنًا، كلّا، لم يكن ذلك ضروريًّا بحقّ، فقد كان مشهورًا إلى درجة...

أمالت رأسها بطريقة وجدها تبعث القلق.

«آنسة زوت»، قال: «أنت أيضًا مشهورة إلى حدّ بعيد...»

«الشّهرة لا تثير اهتمامي».

«لا تتركي العامّةَ يروون قصّتَك نيابةً عنكِ يا آنسة زوت»، حذّرها روث: «فلديهم طريقتهم في ليّ عنق الحقيقة».

«هذا ينطبق على الصّحفيّين أيضًا»، قالت جالسةً على الكرسيّ الّذي بجانبه. بدت للحظةٍ قابَ قوسين أو أدنى من التّعاون معه، غير أنّها سرعان ما أعادت النّظر وصرفت انتباهها نحو الجدار.

جلسا على هذه الحال طويلًا، إلى درجة أنّ القهوة بردت وحتّى تكتكة ساعتها التّايمكس بدت قد فقدت حماستها. في الخارج، سُمعَ بوق سيّارة وصاحت امرأة: «لقد بُحَّ صوتي وأنا أقول لك».

إذا كانت في الصّحافة حقيقةٌ بديهيّةٌ فهي هذه: النّاس لا يبدؤون سردَ قصصهم إلّا عندما يكفّ الصّحفيّ عن طرح الأسئلة. روث يعرف هذا، لكنّه ليس السّببَ الّذي جعله يبقى صامتًا. هو صمت لأنّه كره نفسه بالأحرى. لقد قيل له ألّا يتجاوز هذا الخطّ، غير أنّه فعل ذلك على كلّ حال. كان قد كسب ثقتها، ثمّ داس الثّقةَ بقدميه. أراد أن يعتذر، لكنّه -كونَه كاتبًا- يعلم أنّ الكلمات لن تجدي نفعًا، فهي نادرًا ما تفعل في الاعتذارات الصّادقة.

زعقت صافرةُ شرطة فجأة، فأجفلت في مكانها مثل غزالة.

انحنت إلى الأمام وفتحت له دفتره. «تريد أن تعرف عنّي أنا وكالفن؟»، سألته بحدّة، ثمّ راحت تقول له الشّيءَ الوحيد الّذي ينبغي ألّا يقوله أحدٌ لصحفيٍّ أبدًا: الحقيقة العارية المجرّدة. وبالكاد عرف ماذا بوسعه أن يفعل بها.

نَفِدَت الطّبعة

إليزابيث زوت هي، من غير ريب، أكثر الشّخصيّات التّلفزيونيّة تأثيرًا وذكاءً اليوم، راح يكتب في المقعد 21C على الطّائرة المتّجهة إلى نيويورك في رحلة العودة. توقّف قليلًا، ثمّ طلب كأسًا أخرى من الويسكي بالماء وأطلّ ينظر إلى العدم الممتدّ تحته. إنّه كاتب جيّد ومراسل جيّد، ومن شأن هاتين المهارتين المجتمعتين إذا امتزجتا بكمّيّةٍ كحولٍ تُشبع القلبَ أن تجعلاه يخرج بشيءٍ كما يرجو. قصّتها ليست قصّة سعيدة، وهذا في مجال عمله أمرٌ جيّدٌ عادةً. لكن في هذه الحالة، ومع هذه المرأة...

راح يدقّ بأصابعه على الطّاولة القابلة للطّيّ أمامه. ثمّة قاعدة ينتهجها الصّحفيّون مفادها ألّا يحيدوا عن موقعهم في المنتصف؛ أن يتحلّوا بمناعةٍ أمام التّحيّز والعواطف. لكن ها هو ذا قد زاغ إلى الجانب بعض الشّيء؛ بدقّة أكبر، إلى جانبها هي، دون أدنى استعداد لرؤية القصّة من أيّ منظور آخر. راح روث يتلوّى في مقعده، وأفرغ كأسه الجديدة في جوفه بكرعةٍ طويلة واحدة.

اللّعنة. لقد قابل آخرين كثر – والتر باين، هارييت سلون، بضعة أشخاص من هاستينغز، كلّ فرد في طاقم «العشاء عند السّادسة».

حتّى أنّ الطّريق فُتح أمامه إلى الطّفلة، مادلين، الّتي دخلت إلى المختبر وهي تقرأ... هل كان تقرأ *الصّخب والعنف* فعلًا؟ لكنّه لم يطرح على الطّفلة أيَّ سؤال، لأنّ الأمر بدا خاطئًا برمّته، وأيضًا لأنّ الكلب تدخّل بدنيًّا. عندما انشغلت إليزابيث بجرحٍ صغير في ساق مادلين، استدار ستّة ونصف نحوه وكشّر عن أنيابه.

لكن بغضّ النّظر عمّا قاله الآخرون، كلماتُها هي وحدها الّتي سوف ترافقه بقيّةَ حياته.

«أنا وكالفن كنّا توءمَي روح»، بدأت كلامها.

تابعت تصف مشاعرها تجاه الرّجل غريب الأطوار متقلّب المزاج بلوعةٍ جعلته يشعر بالفقد هو نفسه. «لستَ بحاجة إلى فهمٍ متقدّمٍ للكيمياء كي تقدّر ندرةَ ما كان يجمعنا»، قالت: «أنا وكالفن لم نكن نتلاقى وحسب، بل كنّا نتصادم من فرط التّلاقي. حدث ذلك حرفيًّا في الواقع، في بهو مسرح. استفرغ عليّ. لديك فكرة عن نظريّة الانفجار العظيم، أليس كذلك؟»

تابعت كلامها وتحدّثت عن علاقتهما الغراميّة باستخدام كلمات مثل «تمدّد»، «كثافة»، «حرارة»، مشدّدةً على فكرة أنّ ما شكّل أساسَ عاطفتهما المشبوبة هو الاحترام المتبادل لكفاءات كلٍّ منهما. «أتدرك كم هذا أمر استثنائيّ؟»، قالت: «أن يتعامل رجلٌ مع عمل حبيبته بنفس الجدّيّة الّتي يعامل بها عمله هو؟»

سحب نفَسًا بحدّة.

«أنا كيميائيّة كما تعلم يا سيّد روث»، قالت: «وهذا يفسّر في ظاهر الأمر اهتمامَ كالفن بعملي البحثيّ. لكنّني عملت مع العديد من الكيميائيّين الآخرين، ولا أحد منهم كان يرى أنّ هذا مكاني. باستثناء كالفن وواحد آخر»، تجهّم وجهها، «وهو د. دوناتي، مدير قسم الكيمياء في هاستينغز. لم يكن يرى أنّني أنتمي إلى المجال وحسب، بل كان موقنًا أنّني في طريقي إلى تحقيق شيء ما. الحقيقة أنّه سرق عملي البحثيّ، ونشره باسمه».

اتّسعت عينا روث.

«استقلتُ في اليوم نفسه».

«لماذا لم تُخبري الجهةَ النّاشرة؟»، قال: «لماذا لم تطالبي بحقوقك؟»

نظرت إليزابيث إلى روث كما لو كان يعيش على كوكب آخر: «سأفترض أنّك تمزح».

شعر روث بالخجل يورّد وجهَه. بالطّبع. من عساه يأخذ بكلام امرأة ضدّ ذَكرٍ يترأّس القِسمَ بأكمله؟ إن تحرّى الصّدق مع نفسه، فهو لا يثق حتّى أنّه هو ذاته كان ليفعل.

«وقعتُ في حبّ كالفن»، كانت تقول: «لأنّه كان ذكيًّا وحنونًا، لكن أيضًا لأنّه كان أوّل رجل على الإطلاق يأخذني على محمل الجدّ. تخيّل لو كان الرّجال جميعهم يأخذون النّساء على محمل الجدّ. سوف يتغيّر التّعليم. سوف تشهد القوى العاملة ثورة. سيفقد استشاريّو العلاقات الزّوجيّة عملَهم. أتفهم قصدي؟»

كان يفهم قصدها بالفعل، لكنّه في الواقع لم يُرِد أن يفهم. لقد تركته زوجتُه مؤخّرًا، قالت إنّه لا يحترم عملها بوصفها ربّة منزل وأمًّا. لكنّ هذا ليس عملًا حقًّا، أليس كذلك؟ بل أقرب إلى الدّور. على أيّة حال، ها هي غادرت.

«لهذا أردتُ استغلال *العشاء عند السّادسة* في تعليم الكيمياء. لأنّ النّساء، حين يفهمن الكيمياء، يبدأن بفهم كيفيّة سير الأمور».

بدت الحيرة على روث.

«أتحدّث عن الذّرّات والجزيئات يا روث»، شرحت: «القواعد الحقيقيّة الّتي تحكم العالم الملموس. حين تفهم النّساء هذه المفاهيم الأساسيّة، يُتاح لهنّ أن يبصرن الحُدود الزّائفة الّتي وُضعت لهنّ».

- تقصدين من قِبل الرّجال.

- أقصد من قِبل السّياسات الثّقافيّة والدّينيّة المصطنعة الّتي بوّأَت الرّجالَ دورًا قياديًّا أحاديَّ الجنس أبعدَ ما يكون عن الطّبيعة السّويّة. من شأن أبسط فهمٍ لأساسيّات الكيمياء أن يكشف خطورةَ مقاربةٍ غير متوازنة كهذه.

«حسنًا»، قال مدركًا أنّه لم يسبق له أن رأى الأمر من هذه الزّاوية قطّ: «أوافقكِ أنّ المجتمع قاصرٌ عن الطّموح في كثير من الجوانب، لكن في ما يتعلّق بالدّين، فأنا أميل إلى أن أعتقد أنّه يجعلنا نتواضع، ويعرّفنا على منزلتنا في العالم».

«حقًّا؟»، قالت متفاجئة: «أنا أعتقد أنّه يبرّئنا من الذّنب. أعتقد أنّه يعلّمنا أنّ اللّائمة لا تقع علينا حقًّا في أيّ شيء، أنّ شيئًا أو شخصًا

آخر هو الّذي يتحكّم بنا، أنّنا لسنا الملومين في النّهاية على سيرورة الأمور، وأنّنا -في سبيل أن تتحسّن الأمور- علينا أن نصلّي. لكنّ الحقيقة أنّنا مسؤولون للغاية عمّا في العالم من سوء، وأنّنا نملك القدرة على إصلاحه».

- لكنّكِ حتمًا لستِ تشيرين إلى أنّ البشر قادرون على إصلاح الكون.

- أنا أتحدّث عن إصلاحنا *نحن* يا سيّد روث، عن إصلاح أخطائنا. الطّبيعة تعمل في سويّةٍ فكريّةٍ أعلى. بوسعنا أن نتعلّم المزيد، بوسعنا أن نتقدّم أكثر، لكن في سبيل تحقيق هذا، علينا أن نشرع الأبواب. ثمّة الكثير جدًّا من العقول اللّامعة الّتي يُحال دون خوضها حقلَ البحث العلميّ بسبب تحيّزاتٍ جاهلةٍ قائمةٍ على أشياء مثل الجنس أو العرق. هذا يثير غيظي، وينبغي أن يثير غيظك. أمام العِلم مشاكل كبيرة يحلّها: المجاعة، المرض، الانقراض. وأولئك الّذين يغلقون الأبواب عمدًا في وجه الآخرين، متذرّعين بأفكار ثقافيّة بالية لا تخدم إلّا مصالحها، لا يفتقرون إلى النّزاهة وحسب، بل هم أيضًا كسالى على نحوٍ واعٍ. معهد هاستينغز للبحوث مليء بهؤلاء.

توقّف روث عن الكتابة. هذا يذكّره بشيء. إنّه يعمل لصالح مجلّة مرموقة، ومع ذلك فرئيس تحريره الجديد قادمٌ من *ذا هوليوود ريبورتر* - صحافة صفراء، أمّا هو، رغم جائزة البوليتزر الّتي في جعبته، فيعمل تحت إمرة شخصٍ يشير إلى الأخبار بمصطلح «خبطة»، ويصرّ على أنّ «الغسيل الوسخ» عنصرٌ رئيسيّ في كلّ مقالة. *الصّحافة مؤسّسة ربحيّة!*، يذكّره رئيسه دائمًا: *النّاس يريدون الرّديء!*

«أنا ملحدة يا سيّد روث»، قالت مع تنهيدة ثقيلة: «في الواقع، إنسانويّة. لكن لا بدّ أن أعترف، تمرّ عليّ أيّامٌ تصيبني فيها البشريّةُ بالغثيان».

نهضت وأخذت كوبَيهما، ثمّ وضعتهما قرب لافتة محطّة غسل العيون. انتابه شعورٌ قويّ أنّ مقابلتهما انتهت، بيد أنّها سرعان ما استدارت عائدة إليه.

«أمّا بالنّسبة إلى شهادتي الجامعيّة»، قالت: «فليست لديّ واحدة، ولم أدّعِ ذلك يومًا. التحاقي ببرنامج الدّراسات العليا الخاصّ بمايرز كان على أساس التّعلّم الذّاتيّ وحده. على سيرة مايرز»، استدركت بنبرةٍ قاسية وهي تسحب قلم الرّصاص من شعرها، «ثمّة شيء ينبغي أن تعرفه». ثمّ حكَت له القصّة كاملة، وشرحت أنّها اضطرّت إلى ترك يو سي إل إيه لأنّ الرّجال، حين يغتصبون النّساء، يفضّلون ألّا يروين ما حدث لهنّ.

بلع روث ريقه بمشقّة.

«أمّا عن الخلفيّة الّتي أتحدّر منها، فأخي هو الّذي ربّاني»، تابعت: «علّمني كيف أقرأ، عرّفني على أعاجيب المكتبة، حاول أن يحجبني عن انكبابِ والدَيَّ على المال. يومَ عثرنا على جون متدلّيًا عن العوارض الخشبيّة في السّقيفة، ما كان من أبي حتّى أن ينتظر وصول الشّرطة، لم يشأ أن يتأخّر عن إحدى تمثيليّاته». كان والدها -كما شرحت- فنّانًا استعراضيًّا ينذر بيوم القيامة، وهو الآن يقضي محكوميّته بالسّجن المؤبّد خمسة وعشرين عامًا بعد قتله ثلاثة أشخاص أثناء تنفيذ إحدى أعاجيبه، علمًا أنّ الأعجوبة الحقيقيّة هي أنّه لم يقتل

المزيد. أمّا بالنّسبة إلى والدتها، فهي لم ترها منذ أكثر من اثني عشر عامًا. اختفت إلى الأبد في البرازيل مع عائلة جديدة كليًّا. يبدو أنّ التّهرّب من الضّرائب التزامٌ يظلّ قائمًا مدى الحياة.

«لكنّني أظنّ أنّ طفولة كالفن هي الّتي تفوز في السّباق حقًّا»، تابعت تتحدّث عن موت والديه، ثمّ عمّته، الأمر الّذي انتهى به إلى دار بنين كاثوليكيّة، حيث ذاق صنوفَ الإساءة على أيدي الكهنة إلى أن صار كبيرًا بما يكفي كي يوقفها. لقد عثرت على يوميّاته القديمة داخل الصّناديق الّتي سرقتها هي وفراسك، ورغم أنّ خربشاته الطّفوليّة بدت مستحيلة القراءة غالبًا، فقد كان حزنه يطنّ.

ما لم تقله لروث هو أنّها في صفحات يوميّات كالفن هذه اكتشفت منبعَ ضغينتِه الدّائمة. *أنا هنا رغم أنّه ينبغي بي ألّا أكون هنا*، كتب كأنّه يلمّح إلى توفّر بديل آنذاك: *ولن أسامح في حياتي كلّها ذلك الرّجل، إيّاه. على الإطلاق. ما دمتُ حيًّا*. بعد قراءة مراسلاته مع ويكلي، باتت تفهم أنّ من يتحدّث عنه هو الأب الّذي كان يتمنّى لو أنّه ميت. الشّخص الّذي وعد نفسه أن يكرهه إلى يوم مماته، وهو وعدٌ وفى به.

أطرق روث يحدّق في الطّاولة. هو حظيَ بنشأة طبيعيّة - والدان اثنان، لا انتحارات، لا جرائم قتل، ولا حتّى لمسة واحدة شاذّة من الكاهن في أبرشيّته. ومع ذلك يجد الكثير ممّا يتذمّر بشأنه. ما خطبه؟ مثلما يمتلك النّاس عادةً سيّئةً في شطب مشاكل الآخرين ومآسيهم، فهم يمتلكون عادةً سيّئة في عدم تقدير ما لديهم، أو ما كان لديهم. إنّه يشتاق إلى زوجته.

«أمّا في ما يخصّ موت كالفن»، قالت: «فأنا المسؤولة مئة بالمئة».

شحب لونه وهي تتابع لتصف الحادثة والرّسن والصّافرات، وكيف أنّها -بسبب ما حدث- لم تعد تردع أحدًا عن أيّ شيء بأيّة طريقة على الإطلاق. هي ترى أنّ موته فرّخَ سلسلةً من الإخفاقات الأخرى: صدمتُها من سرقة دوناتي جعلتها تتخلّى عن بحثها؛ إصرارها على مساعدة ابنتها على الانسجام جعلها تسجّلها في مدرسة لا تنسجم فيها؛ وأسوأ، لقد أصبحت آخر شخص تريد أن تكونه بالضّبط، مؤدّية مثل والدها. أوه، وأيضًا، لقد تسبّبت لفيل ليبنزمال بنوبة قلبيّة. «رغم أنّني لا أعتبر هذه الأخيرة إخفاقًا»، قالت.

«عمَّ كنتما تتحدّثان هناك في الدّاخل؟»، سأله المصوّرُ في الطّريق إلى المطار: «هل فاتني شيء؟»

«ولا شيء»، كذب روث.

قبل أن يركب سيّارةَ الأجرة، كان روث قد قرّر أنّه لن يكشف عمّا علمه. سوف يكتب مادّته على موعد التّسليم، كما هو مطلوب، دون كلمة زائدة. سيكتب الكثير لكن لن يقول شيئًا. سيحكي عنها، لكنّه لن يشي بها. بصياغة أخرى، لن يتأخّر عن موعد التّسليم، وهذا يشكّل 99 بالمئة من القانون في الصّحافة.

على الرّغم ممّا ستقوله إليزابيث زوت، «العشاء عند السّادسة» ليس مجرّد مدخل إلى الكيمياء، كتب ذلك اليومَ على متن الطّائرة: *إنّه*

درسٌ في الحياة لمدّة ثلاثين دقيقة خمسةَ أيام في الأسبوع. وهو لا يتحدّث عمّن نكون أو ممّا نتكوّن، بل بالأحرى عمّا نستطيع أن نكونه.

عوضًا عن أيّة معلومات شخصيّة، كتب وصفًا يمتدّ على ألفَي كلمة للنّشوء اللّاحيويّ، أتبعَه بمقطع من خمسمئة كلمة عن كيفيّة استقلاب الفيل لطعامه.

«هذه ليست مقالة!»، كتبَ رئيسُ تحريره الجديد بعد قراءة المسوّدة الأولى: «أين فضائح زوت؟»

«لم تكن ثمّة فضائح»، أجاب روث.

بعد شهرين فقط، هناك كانت، على غلاف مجلّة *لايف*، عاقدةً ذراعيها أمام صدرها، بتعبيرٍ متجهّم، وإلى جانبها عنوانٌ عريض يقول: «لماذا نحن مستعدّون لتناول أيّ طبق تقدّمه». ضمّت المقالة الممتدّة على ستّ صفحات خمس عشرة صورة لإليزابيث تمارس نشاطاتها - في البرنامج، على الإرغ، أثناء التّبرّج، وهي تداعب ستّة ونصف، وهي تتشاور مع والتر باين، أثناء تعديل شعرها. افتُتحت المقالة بما كتبه روث عن كونها أكثر الشّخصيّات التّلفزيونيّة ذكاءً اليوم، غير أنّ رئيس التّحرير شطب كلمة «ذكاء» ووضع مكانها «جاذبيّة». ثمّ تضمّنت وصفًا قصيرًا لحلقات برنامجها الّتي لاقت أكبر رواج -حلقة طفّايات الحريق، حلقة الفطر السّام، حلقة «أنا لا أؤمن بالله»، والكثير غيرها- لتختتم بعد ذلك بملاحظته عن أنّ برنامجها برنامج دروس حياتيّة. أمّا ما تبقّى؟

«إنّها ملاك الموت»، هكذا اقتبس صحفيٌّ غرٌّ متعطّشٌ للشّهرة من والد زوت في غرفة زيارة سجن سينغ سينغ: «بذرة الشّيطان. وهي متغطرسة».

كما استطاع الصّحفيّ الغرّ أن يحصل على اقتباس من د. مايرز في يو سي إل إيه، الّذي وصم زوت بقوله إنّها: «طالبة باهتة، تهتمّ بالرّجال أكثر ممّا بالجزيئات»، مضيفًا أنّ مظهرها في الواقع لا يقارب ما يبدو على التّلفاز.

«من؟»، سأل دوناتي الصّحفيَّ الغرَّ حين فتح سيرة سجلّ زوت الوظيفيّ: «زوت؟ أوه، مهلًا... تقصد ليزا اللّذيذة؟ جميعنا كنّا نناديها بـ «اللّذيذة»، وكانت تحتجّ على ذلك بالطّريقة المعهودة من الرّاغبات المتمنّعات»، ابتسم مبرهنًا على كلامه بإخراج مريولها المخبريّ القديم، الّذي ما زال يحمل حرفَي اسمها «إ. ز.»، «لذيذة كانت فنّيّة مختبر ممتازة، وهذه وظيفة نعطيها للأشخاص الّذين يريدون أن يعملوا في مجال العلوم لكنّهم يفتقرون إلى الأدمغة اللّازمة».

أمّا الاقتباس الأخير فكان من السّيّدة مودفورد. «النّساء مكانهنّ المنزل، وقد ثبت أنّ لغياب إليزابيث زوت عن منزلها آثارًا مدمّرةً على طفلتها. كثيرًا ما كانت تبالغ في تقدير إمكانيّات طفلتها، وهذه أوّل علامة تميّز الأهالي الّذين يستحون من حالتهم الاجتماعيّة. بطبيعة الحال، عندما كانت ابنتها طالبتي، بذلتُ أقصى جهدي كي أعاكس ذلك الأثر». أُرفقَت باقتباس مودفورد -من بين كلّ الأشياء الأخرى- نسخةٌ من شجرة عائلة مادلين. *أكاذيب!*، كانت مودفورد قد كتبت في الأعلى: *تعالي لمقابلتي!*

من بين كلّ ما ورد في المقالة، كانت شجرة العائلة ما سبّب أكبرَ الأذى. إذ لم تكتفِ مادلين بإدراج اسم والتر بوصفه أحد الأقارب -ما جعل القرّاء يفترضون من فورهم أنّ إليزابيث تنام مع منتِجها- بل أضافت أيضًا رسومًا صغيرةً تُظهر جَدًّا بثياب السّجن، وجدّةً تأكل التّامال في البرازيل، وكلبًا كبيرًا يقرأ *أولد يلر*[1]، وثمرة بلّوط كُتب عليها «العرّابة الجنيّة»، وامرأة تدعى هارييت تدسّ السّمّ لزوجها، وشاهدة قبر لأبٍ ميت، وفتًى تحيط أنشوطةٌ بعنقه، إضافةً إلى روابط غامضة تجمعها بنفرتيتي وسوجورنر تروث وأميليا إيرهارت.

نفدت طبعةُ المجلّة بأكملها في أقلّ من أربع وعشرين ساعة.

---

(1) Old Yeller: رواية شهيرة للكاتب الأمريكيّ فريد غيبسون (1908-1973) بطلُها كلب يحمل الاسم نفسه. (المترجم)

الفصل 38

بــــراونـــي

يوليو 1961

يقول البعض أن لا وجود لشيء اسمه دعاية سيّئة، وفي هذه الحالة هم على حقّ. لقد طالت شعبيّةُ «العشاء عند السّادسة» عنانَ السّماء.

«إليزابيث»، قال والتر لها وهي تجلس قبالته في مكتبه، متحجّرةَ الملامح: «أعلم أنّكِ مستاءة من المقالة، جميعنا مثلك. لكن دعينا ننظر إلى الجانب المشرق. المعلنون الجدد يصطفّون في جماعات، وأصحاب عدّة مصانع يتوسّلون من أجل إحداث خطوط إنتاج جديدة باسمك؛ قدور وسكاكين وكلّ ما يخطر بالبال!»

زمّت شفتيها بطريقة يعرف أنّها تعني المتاعب.

«حتّى أنّ ماتيل أرسلوا مخطّطات لعدّةِ كيمياء للبنات...»

«عدّة كيمياء؟»، قالت بشيء من الحماسة.

«ضعي في حسبانك أنّها مجرّد مخطّطات أوّليّة»، قال بحذر وهو يناولها رسالة الاقتراح: «أنا واثق أنّ بعض الأمور قد...»

«*يا بنات!*»، قرأت بصوت عالٍ: «*اصنعنَ عطركنّ الخاصّ... باستخدام العلوم!*. بحقّ السّماء يا والتر! والصّندوق ورديّ؟ اتّصل بالجماعة فورًا... أريد أن أخبرهم أين عليهم أن يضعوا دوارقهم البلاستيكيّة».

«إليزابيث»، قال يسترضيها: «لسنا مضطرّين أن نوافق على كلّ شيء، لكن لدينا هنا إمكانيّةٌ لأمانٍ ماليٍّ يستمرّ مدى الحياة. ليس لنا فحسب، بل لابنتينا. علينا ألّا نحصر تفكيرنا في أنفسنا».

«هذا ليس تفكيرًا يا والتر، بل تسويق».

«سيّد باين»، قالت سكرتيرة: «السّيّد روث على الخطّ رقم اثنين».

«إيّاك»، حذّرته إليزابيث ووجهها ما زال يحمل ألمَ ما تعرّضت له من افتراء: «أن تردّ على هذه المكالمة».

«مرحبًا»، قالت إليزابيث بعد عدّة أسابيع: «اسمي إليزابيث زوت، وهذا برنامج *العشاء عند السّادسة*».

كانت تقف خلف لوح تقطيع، وأمامها تنتشر مجموعة من الخضراوات في تشكيلة ألوان مبهرة. «عشاء اللّيلة قائم على الباذنجان»، قالت ملتقطةً ثمرةً كبيرة مائلة إلى البنفسجيّ: «أو الدّنجال، كما يُطلق عليه في بعض المناطق. للباذنجان قيمة غذائيّة عالية، لكنّ طعمه قد يكون مرًّا نتيجةَ ما يحتوي عليه من المركّبات الفينوليّة. للتّخلّص من مرارته...»، توقّفت فجأة، تقلّب الثّمرة في يديها كأنّها ليست راضية على الإطلاق، «فلأُعِد الصّياغة. لتجنُّبِ

ميلِ الباذنجان إلى المرارة...»، توقّفت من جديد وزفَرت بصوت مسموع، ثمّ رمت الباذنجانة جانبًا.

«انسينَ الأمر»، قالت: «الحياة مرّة بما فيه الكفاية». استدارت وفتحت درفةً خلفها، وأخرجت منها موادَّ مختلفة بالكامل. «خطّة جديدة»، قالت: «سوف نُعدّ البراوني».

كانت مادلين منبطحةً على بطنها أمام التّلفاز، تضع ساقًا على ساق في الهواء خلفها. «يبدو أنّنا سنتناول البراوني من جديد اللّيلة يا هارييت، لليوم الخامس على التّوالي».

«أنا أعدّ البراوني حين يكون يومي سيّئًا»، اعترفت إليزابيث: «لن أدّعي أنّ السّكروز مكوّن أساسيّ لازم لعافيتنا، لكنّني شخصيًّا أشعر بتحسّن حين أتناوله. والآن، هيّا بنا نبدأ».

«ماد»، قالت هارييت رافعةً صوتها فوقَ صوت إليزابيث وهي تجدّد أحمرَ الشّفاه وتنفش شعرها: «عليّ أن أخرج لبعض الوقت، اتّفقنا؟ لا تردّي على الباب ولا على الهاتف، ولا تغادري المنزل. سأعود قبل وصول أمّك. مفهوم؟ ماد؟ أتسمعينني؟»

«ماذا؟»

«أراكِ قريبًا»، سُمعت طقّة الباب وهو ينغلق خلفها.

«تكون البراوني في أفضل حالاتها حين تُصنع من مسحوق كاكاو عالي الجودة أو شوكولاتة طبخ غير محلّاة»، تابعت إليزابيث: «أنا أفضّل الكاكاو الهولنديّ، فهو يحتوي على نسبة عالية من عديدات

الفينول، وعديدات الفينول -كما تعلمنَ- عواملُ مختزِلة تحمي الجسم من المؤكسِدات...»

ثبّتت مادلين عينيها على الشّاشة فيما راحت أمّها تمزج مسحوق الكاكاو مع الزّبدة المُسيَّحة والسّكّر، خافقةً بالملعقة الخشبيّة محتويات الزّبديّة بحيويّة بدا معها أنّ الزّبديّة قد تنكسر. لقد شعرت بفخر كبير حين وصلت مجلّة لايف إلى الأكشاك: إنّها أمّها... على الغلاف! لكن قبل أن تتسنّى لها قراءتها، جمعت أمُّها كلَّ نسخها -ونسخ هارييت أيضًا- في كيس قمامة ورمت الحمولة الثّقيلة على طرف الرّصيف. «لن تقرئي كدسةَ الأكاذيب هذه»، قالت لمادلين: «أتفهمين؟ تحت أيّ ظرفٍ كان».

أومأت مادلين برأسها، بيد أنّها في النّهار التّالي ذهبت مباشرةً إلى المكتبة وقرأت بلا توقّف، إصبعها يرشد عينيها عبر الأعمدة. «لا»، قالت بغصّة: «لا، لا، لا». اندلقت الدّموع على صورة لأمّها وهي تضبط شعرها كما لو كان هذا ما تفعله طيلة يومها. «أمّي عالمة. كيميائيّة».

حوّلت انتباهها من جديد إلى التّلفاز، حيث كانت أمّها تفرم الجوز. «الجوز يحوي مقدارًا عاليًا بشكل استثنائيّ من فيتامين هـ على شكل غاما توكوفيرول»، قالت: «وثبت أنّه يؤمّن حماية للقلب». وعلى الرّغم من الطّريقة الّتي تابعت الفرم بها، بدا واضحًا أنّ الجوز لن يشكّل فرقًا يُذكَر بالنّسبة إلى الأذى الّذي أصاب قلبها.

جاء رنين جرس الباب من العدم، فقفزت ماد في مكانها. هارييت ما عادت تسمح لها بالرّدّ على الباب، لكن هارييت ليست هنا. نظرت من النّافذة خلسة تتوقّع أن ترى غريبًا، إلّا أنّها رأت ويكلي عوضًا عن ذلك.

«ماد»، قال الكاهن ويكلي عندما فتحت الباب: «كنتُ في غاية القلق».

على شاشة التّلفاز، كانت إليزابيث زوت تشرح كيف يحتكّ الهواء بالسّطوح الخشنة لكريستالات السّكّر ثمّ ينحبس داخل طبقة رقيقة من الدّسم مشكّلًا رغوة. «عندما أضيف البيض»، قالت: «سيتكفّل البروتين الموجود فيه بمنع فقاعات الهواء المكسوّة بالدّسم من التّهدّم عند تطبيق الحرارة». ثمّ أضافت وهي تترك الزّبديّة من يدها: «سنعود بعد هذا التّعريف بالمحطّة».

«آمل ألّا أسبّب الإحراج بمروري»، قال ويكلي: «خطر لي أنّني سأجدك في المنزل خلال عرض برنامج والدتك. أهي حقًّا تعدّ البراوني من أجل العشاء؟»

- إنّها تمرّ بيوم سيّئ.

- مقالة مجلّة لايف تلك... لا عجب. أين جليستك؟

«هارييت ستعود بعد قليل»، تردّدت، مدركةً أنّ ما ستطلبه غير صائب على الأرجح: «ويكلي، أتريد أن تبقى على العشاء؟»

سكت. إن كانت الأيّام السّيّئة تُملي على المرء ما يأكله، لتناولَ البراوني على كلّ وجبة في حياته. «لا يمكن أن أتطفّل هكذا أبدًا يا ماد، كلّ الأمر هو أنّني أردت فعلًا أن أطمئنّ عليك. ينتابني شعور فظيع لأنّني لم أستطع مساعدتك أكثر في موضوع شجرة العائلة تلك، إلّا أنّني فخور بما فعلتِه. لقد رسمتِ عائلتَكِ بخطوط جريئة صادقة. العائلة أكبر من البيولوجيا بكثير».

«أعلم».

ألقى نظرة على أنحاء الغرفة الصّغيرة المكتظّة بالكتب، لتقع عيناه على الإرغ. «ها هي ذي»، قال في عجب: «ماكينة التّجديف. لقد رأيتُها في المجلّة. والدك كان بارعًا جدًّا في الأعمال اليدويّة».

«*أمّي* هي البارعة»، قالت بنبرة جازمة: «أمّي حوّلَت مطبخنا إلى...»، لكن قبل أن تستطيع أن تريه المختبر، أعلنت إليزابيث عودتَها على التّلفاز. «من الأشياء الّتي أحبّها في الطّبخ»، قالت وهي تضيف الطّحين: «منفعته المتأصّلة. فنحن، حين نعدّ الطّعام، لا نكون نصنع شيئًا صالحًا للأكل فحسب، بل إنّنا نصنع شيئًا يمدّ خلايانا بالطّاقة، شيئًا يدعم الحياة. وهذا مختلف جدًّا عمّا يصنعه أشخاصٌ آخرون. على سبيل المثال»، سكتت قليلًا، ثمّ نظرت إلى الكاميرا مباشرةً وضيّقت عينيها، «المجلّات».

«يا لوالدتك المسكينة»، قال ويكلي يهزّ رأسه.

سُمع صوت انفتاح الباب الخلفيّ.

«هارييت؟»، نادت ماد.

«كلّا يا عزيزتي، هذه أنا»، كان الصّوت مرهَقًا: «عدتُ مبكّرًا».

جمد ويكلي: «والدتك؟»

لم يكن مهيّأً للقاء إليزابيث زوت. يكفي أنّه في المنزل الّذي عاش كالفن إيفانز فيه ذات زمان، لكن أن يقابل فجأةً المرأةَ الّتي أخفق في مواساتها خلال جنازة إيفانز؟ مقدّمة البرامج التّلفزيونيّة الملحدة الشّهيرة؟ الشّخص الّذي شرّف غلاف مجلّة لايف بظهوره مؤخّرًا؟ كلّا. عليه أن يغادر فورًا... الآن، قبل أن ترى رجلًا راشدًا بمفرده مع ابنتها الصّغيرة في منزل خالٍ من سواهما. ربّاه! ما الّذي كان يفكّر فيه؟ أيمكن للأمر أن يبدو أسوأ؟

«إلى اللّقاء»، همس إلى ماد من خلف أسنانه واستدار يتّجه إلى الباب الأماميّ. لكن قبل أن يستطيع فتح الباب، هرول ستّة ونصف إليه.

ويكلي!

«ماد؟»، نادت إليزابيث وهي تلقي حقائبها في المختبر ثمّ تدخل إلى غرفة المعيشة: «أين...»، سكتت، «أوه». عبست متفاجئةً من رؤية رجل يرتدي ياقةً كهنوتيّة يمسك مقبض بابها الأماميّ.

«أهلًا، ماما»، قالت مادلين محاولةً جعل نبرتها عرَضيّة: «هذا ويكلي، إنّه صديق لي».

«*الكاهن* ويكلي»، قال ويكلي وهو يترك المقبض على مضض ويمدّ يده: «الكنيسة المشيخيّة الأولى. أنا آسف جدًّا على الإزعاج يا سيّدة زوت»، أضاف متعجّلًا، «في غاية الأسف. لا شكّ أنّك متعَبة

بعد نهارك الطّويل، أنا ومادلين التقينا في المكتبة قبل مدّة، وهي على حقّ، نحن أصدقاء، نحن... كنتُ أهمّ بالمغادرة».

«ويكلي ساعدني في شجرة العائلة».

«وظيفة مريعة»، قال: «نابعة عن قرار خاطئ بالكامل. أنا أعارض بشدّة الوظائف المدرسيّة الّتي تتعدّى على الشّؤون العائليّة الخاصّة... لكن كلّا، لم أقدّم أيّة مساعدة في الواقع. أتمنّى لو *استطعتُ* أن أساعد. لقد كان لكالفن إيفانز تأثير هائل في حياتي... أعماله... حسنًا، قد يبدو هذا غريبًا بالنّظر إلى مجال عملي، لكنّني كنتُ من متابعيه، بل حتّى من كبار معجبيه؛ أنا وإيفانز كنّا في الحقيقة...»، توقّف، «مجدّدًا، إنّني في غاية الأسف لخسارتك... أنا واثق أنّ الأمر لم يكن...»

كان بوسع ويكلي أن يسمع نفسه يتدفّق مثل نهر جارف؛ هو يتابع ثرثرته وإليزابيث زوت تنظر إليه بطريقة ترعبه.

«أين هارييت؟»، سألت ملتفتةً إلى مادلين.

«ذهبت تقضي بعض الحوائج».

على شاشة التّلفاز، قالت إليزابيث زوت: «لديّ وقتٌ لتلقّي سؤال أو اثنين».

«هل أنتِ عالمة كيمياء حقًّا؟»، سألت إحداهنّ: «لأنّ مجلّة لايف قالت...»

«*أجل*، أنا عالمة كيمياء»، ردّت بانفعال: «أهناك من لديه سؤال حقيقيّ؟»

في غرفة المعيشة، بدا الذّعر على إليزابيث: «أطفئي هذا على الفور». لكن قبل أن تستطيع بلوغ التّلفاز، هتفت امرأة من جمهور الاستديو: «أليس صحيحًا أنّ ابنتك غير شرعيّة؟»

تقدّم ويكلي خطوتين نحو التّلفاز وأطفأه بنفسه. «تجاهلي هذا يا ماد»، قال: «العالم مليء بالجهل». ثمّ راح يجوّل عينيه كأنّه يتوثّق أنّه لم ينسَ شيئًا وقال: «أنا في غاية الأسف لأنّني أزعجتكم». لكن ما إن أمسك مقبض الباب الأماميّ من جديد حتّى وضعت إليزابيث زوت يدها على كمّه.

«حضرة الكاهن ويكلي»، قالت بأكثر الأصوات الّتي سمعها حزنًا في حياته: «لقد سبق لنا أن التقينا».

«أنت لم تقل لي هذا»، قالت مادلين وهي تمدّ يدها لتأخذ قطعة البراوني الثّانية: «لماذا لم تخبرني أنّك كنت في جنازة أبي؟»

«لأنّني»، أجابها: «كنتُ أؤدّي دورًا ثانويًّا لا أكثر. لقد كنتُ أكنّ إعجابًا كبيرًا لوالدك، لكن هذا لا يعني أنّني كنت أعرفه. أردتُ أن أساعد... أردتُ أن أجد الكلمات المناسبة لأساعد والدتك خلال محنتها، لكنّني أخفقت. أنا لم ألتقِ والدك قطّ كما تفهمين، لكنّني كنت أشعر أنّني أفهمه. قد يبدو هذا غرورًا على الأرجح»، أضاف ملتفتًا إلى إليزابيث، «أنا آسف».

طوال العشاء، لم تقل إليزابيث إلّا القليل، لكن بدا أنّ اعتراف ويكلي لامسها بطريقة غير مباشرة. أومأت برأسها.

«ماد»، قالت: «عبارة «غير شرعيّة» تعني أنّك وُلِدتِ خارج إطار الزّوجيّة، أي أنّني أنا ووالدك لم نكن متزوّجين».

«أعرف معناها»، أجابت: «الأمر أنّني لا أدري ما يجعل ذلك أمرًا جللًا».

«ليس أمرًا جللًا إلّا عند شديدي الغباء»، تدخّل ويكلي: «أنا أكلّم الأغبياء طوال نهاري، ما يجعلني خبيرًا بهم. بصفتي كاهنًا، كنتُ آمل أن أقلّص هذا النّمط من الغباء، أن أبيّن للنّاس أنّ تصرّفاتهم تسبّب ما لا داعيَ له من... على كلّ حال، والدتك محقّة تمامًا في ما قالته ضمن المقالة بشأن أنّ مجتمعنا قائم إلى حدّ بعيد على الخرافات، وأنّ الثّقافة والدّين والسّياسات لدينا تساهم في تشويه الحقيقة. وما هذه «اللّاشرعيّة» سوى إحدى تلك الخرافات. لا تشغلي بالك بهذه العبارة ولا بأيّ شخص يستخدمها».

رفعت إليزابيث رأسها متفاجئة: «هذا الكلام لم يُنشر في مقالة *لايف*».

- أيّ كلام؟

- الكلام عن الخرافات وتشويه الحقيقة.

جاء دوره هو كي يبدو متفاجئًا: «صحيح، ليس في *لايف*. لكن في مقالة روث الجديـ...». نظر إلى ماد، كأنّه لم يتذكّر إلّا الآن سبب مروره لرؤيتها: «يا إلهي الرّحيم». انحنى وأخرج من حقيبته ظرفًا مفتوحًا من ورق مانيلا ووضعه أمام إليزابيث. على وجه الظّرف كُتبت ثلاث كلمات: *إليزابيث زوت، خاصّ.*

«ماما»، قالت ماد بسرعة: «لقد جاء السّيّد روث قبل بضعة أيّام. لم أفتح الباب لأنّه يفترض بي ألّا أفعل ذلك، وأيضًا لأنّه روث، وهارييت تقول إنّ روث هو ”عدوّ الشّعب الأوّل“»، سكتت وطأطأت رأسها. «لقد قرأتُ مقالته في مجلّة لايف»، اعترفت: «أعلم أنّكِ قلتِ لي ألّا أفعل، لكنّني قرأتُها وكانت مريعة. كما أنّني لا أعلم كيف حصل روث على شجرة العائلة خاصّتي، لكنّه فعل والذّنب ذنبي، و...»، راحت الدّموع تجري على خدّيها.

«عزيزتي»، قالت إليزابيث وقد انخفض صوتها وهي تضمّ الطّفلة إليها: «كلّا، الذّنب ليس ذنبك بالطّبع؛ لا شيء من هذا ذنبك. أنتِ لم ترتكبي أيَّ خطأ».

«أوه، بلى، لقد فعلت»، اختنق صوت ماد فيما راحت أمّها تمسّد لها شعرها: «هذا»، قالت تشير إلى ظرف ورق مانيلا الّذي وضعه ويكلي على الطّاولة، «هذا من روث. لقد تركه على عتبة الباب وأنا فتحته، وقرأته رغم كلمة «خاصّ» المكتوبة عليه، ثمّ أخذته إلى ويكلي».

«لكن يا ماد، لماذا عساكِ...؟»، سكتت ونظرت إلى ويكلي متخوّفة: «مهلًا، قرأته أنت أيضًا؟»

«لم أكن موجودًا عندما مرّت ماد»، شرح ويكلي لها: «لكنّ موظّفة الآلة الكاتبة أخبرتني أنّها كانت هناك وأنّ ماد كانت مستاءةً جدًّا. لذا أعترف... أنا أيضًا قرأتُ المقالة. في الواقع، الموظّفة قرأتها هي الأخرى... إنّها حقًّا...»

«ربّاه!»، انفجرت إليزابيث: «ماذا دهاكم يا جماعة؟ أما عادت كلمة «خاصّ» تعني شيئًا؟»، خطفت الظّرف عن الطّاولة.

«لكن يا ماد»، قال ويكلي متجاهلًا سخط إليزابيث: «لماذا ضايقتك المقالة هكذا؟ على الأقلّ السّيّد روث يحاول تصويب الأمور. على الأقلّ كتب الحقيقة».

«ما الّذي تقصده بـ «الحقيقة»؟»، قالت إليزابيث: «هذا الرّجل لا يجيد...»، لكنّها ما إن سحبت محتوى الظّرف حتّى توقّفت. «لماذا عقولهنّ مُهمّة»، هكذا كان عنوان المادّة الجديدة.

كانت مسوّدة مقالة، لم تُنشر بعد. تحت العنوان العريض صورة لإليزابيث في مختبرها المنزليّ، وبجانبها ستّة ونصف يضع نظّارة وقاية. تحيط بصورتها صور لعالمات أخريات من أنحاء العالم في مختبراتهنّ. «تحيُّز العلوم»، يقول العنوان الفرعيّ: «وما تفعله هذه النّساء حياله».

ثُبّتَت ورقة ملاحظات في الأعلى.

آسفٌ يا زوت. استقلتُ من لايف. ما زلتُ أحاول إخراج الحقيقة إلى العلن، لكن لا يبدو أنّ ثمّة من يريدها. لقد قوبلتُ بالرّفض من قِبل عشر مجلّات علميّة حتّى الآن. أنا ذاهبٌ لتغطية الأحداث الجارية في مكان يدعى فيتنام.

مع مودّتي، ف. ر.

حبست إليزابيث أنفاسها وهي تقرأ المادّة الجديدة. كانت تضمّ كلّ شيء: أهدافها، تجاربها. وهؤلاء النّساء الأخريات وأعمالهنّ – لقد شدّت معاركُهنّ أزرَها، وألهمها التّقدّمُ الّذي يُحرزنه.

إلّا أنّ مادلين كانت تبكي.

«عزيزتي»، قالت إليزابيث: «لستُ أفهم. لماذا ضايقك هذا؟ السّيّد روث قام بعمل جيّد. هذه مقالة جيّدة. لستُ غاضبة منك؛ يسرّني أنّكِ قرأتِها. لقد كتب شيئًا صادقًا عنّي وعن هؤلاء النّساء، وآمل حقًّا أن يُنشَر هذا... في مكان ما». نظرت إلى ملاحظته من جديد. قوبل بالرّفض من مجلّات علميّة عشر مرّات حتّى الآن؟ حقًّا؟

«أعلم»، قالت مادلين تمرّر يدها تحت أنفها: «لكن هذا ما يجعلني حزينة يا ماما، لأنّك تنتمين إلى المختبر، بيد أنّك عوضًا عن ذلك تعدّين العشاء على التّلفاز و... و... وكلّ هذا بسببي أنا».

«كلّا»، قالت إليزابيث برفق: «غير صحيح. على كلّ الأهالي أن يكسبوا العيش، هذا جزء من حياة الرّاشدين».

- لكنّكِ لستِ في مختبر، والذّنب في هذا ذنبي...

- مجدّدًا، غير صحيح...

- بلى، صحيح. موظّفة ويكلي أخبرتني.

فغرت إليزابيث فمَها.

«يا يسوع المسيح»، قال ويكلي وغطّى وجهَه بيديه.

«ماذا؟»، قالت إليزابيث: «من تكون هذه الموظّفة؟»

«أظنّكِ قد تعرفينها»، أجاب ويكلي.

«أصغي إليّ يا ماد»، قالت إليزابيث: «أصغي إليّ جيّدًا. أنا ما زلتُ عالمةَ كيمياء. عالمة كيمياء على التّلفاز».

«لا»، قالت ماد بحزن: «لستِ كذلك».

السّادة الأعزّاء

كان ذلك قبل يومين، وكانت الآنسة فراسك تنجز عملها بجدٍّ ونشاط. بوسعها عادةً أن تضرب نحو 145 كلمة في الدّقيقة – وهذا سريعٌ وفقًا لجميع المعايير، لكنّ الرّقم القياسيّ العالميّ هو 216 كلمة في الدّقيقة، وفراسك الّتي تناولت ثلاثًا من حبوب الحمية مع القهوة تشعر اليوم أنّها قد تحطّمه. لكن ما إن دخلت المرحلةَ الأخيرة، أصابعها تخبط على المفاتيح وساعة التّوقيت تُتكتك بجانبها، حتّى سمعت كلمتين غير متوقّعتين.

«أرجو المعذرة».

«باسم الله!»، صاحت ودفعت نفسها عن الطّاولة، ثمّ أدارت رأسها إلى اليسار لترى طفلةً نحيلةً تمسك ظرفًا من ورق مانيلا بيديها.

«مرحبًا»، قالت الطّفلة.

«بحقّ الجحيم!»، شهقت فراسك.

«سيّدتي، أنتِ سريعة».

وضعت فراسك يدها على قلبها كما لو لتمنعه من القفز خارج جسمها. «شـ.. شكرًا لك»، استطاعت أن تقول.

- بؤبؤاكِ متوسّعان.

- الـ.. المعذرة؟

- هل ويكلي هنا؟

اعتدلت فراسك في جلستها على الكرسيّ وقلبُها مضطرب، فيما انحنت الطّفلة تمسح محتويات الآلة الكاتبة بعينيها.

«هل تسمحين؟»، قالت فراسك.

«أنا أحسب»، شرحت لها الطّفلة، ثمّ تراجعت إلى الخلف في رهبة: «أوه، أنتِ على وشك اللّحاق بستيلا باجوناس».

- مـ.. من أين تعرفين ستيلا...

- أسرع ضاربة على الآلة الكاتبة في العالم. مئتان وستّ عشرة كلمة في...

اتّسعت عينا فراسك.

«... لكنّني قاطعتُكِ، لذا علينا أن نأخذ ذلك في الحسبان...»

«من أنتِ؟»، ألحّت فراسك.

«سيّدتي، أنتِ تتعرّقين».

طارت يدُ فراسك إلى جبهتها الرّطبة.

- لقد بلغتِ مئةً وثمانين كلمة في الدّقيقة، إن اعتمدنا التّقريب.

- ما اسمك؟

«ماد»، قالت البنت.

تمعّنت فراسك في شفتَي الطّفلة الممتلئتين اللّتين تشوبهما مسحة أرجوانيّة وأطرافِها الطّويلة الخرقاء. «إيفانز؟»، أتبعت سؤالَها بآخر دون تفكير.

نظرت كلٌّ منهما إلى الأخرى بالقدر نفسه من الذّهول.

«أنا ووالدتك ووالدك كنّا نعمل معًا»، شرحت فراسك لماد على طبق من بسكويت الحمية: «في هاستينغز. كنتُ في قسم شؤون الموظّفين، ووالداك كلاهما كانا في قسم الكيمياء. والدك كان مشهورًا جدًّا؛ لا بدّ أنّك تعلمين. والآن والدتك باتت مشهورة هي الأخرى».

«بسبب مجلّة لايف»، قالت الطّفلة مطأطئةً رأسها.

«لا»، أجابت فراسك بحزم: «بل على الرّغم منها».

«كيف كان أبي؟»، سألتها ماد وهي تقضم قضمةً صغيرةً من البسكويت.

«لقد...»، تلكّأت فراسك، إذ أدركت أنّها لا تملك أدنى فكرة كيف كان: «لقد كان غارقًا في حبّ والدتك».

أضاء وجه مادلين: «حقًّا؟»

«ووالدتك»، تابعت للمرّة الأولى دون غيرة: «كانت غارقة في حبّه».

«ماذا أيضًا؟»، سألت ماد بلهفة.

«كانا سعيدين للغاية معًا، سعيدين إلى درجة أنّ والدك قبل وفاته ترك هديّةً لوالدتك. أتعرفين ما هي هذه الهديّة؟»، أمالت رأسها نحو ماد: «أنت».

قلبت ماد عينيها قليلًا. هذا شيء من النّوع الّذي يقوله الرّاشدون حين يحاولون التّغطية على أمرٍ أكثر قتامة. لقد سمعَت ويكلي ذات مرّة يقول لأمينة مكتبة إنّ ابنةَ عمّها جويس -الّتي سقطَت صريعةً وسطَ متجر إيه آند بي ويدُها على قلبها- لم تُعانِ. حقًّا؟ هل سأل أحدٌ جويس؟

«وما الّذي حدث بعد ذلك؟»

ما الّذي حدث؟، قالت فراسك في قرارتها: *حسنًا، نشرتُ شائعاتٍ خبيثة عن أمّك، أدّت إلى فصلها من العمل، ما أفضى مباشرةً إلى الفقر المدقع الّذي أصابها، فجعلها هذا تعود إلى هاستينغز في النّهاية، ما أفضى بدوره إلى صياح أمّكِ عليّ في حمّام النّساء، وهذا أفضى إلى اكتشافنا أنّنا تعرّضنا كلتانا لاعتداء جنسيّ، أفضى إلى عجزنا عن الحصول على الدّكتوراه، الأمر الّذي قاد كلًّا منّا إلى مسيرة مهنيّة لا تُحقّق الرّضى في شركة تقودها حفنة من الحمقى عديمي الأهليّة. هذا هو ما حدث.*

لكنّها قالت عوضًا عن ذلك: «حسنًا، قرّرت والدتك أنّ البقاء في المنزل وإنجابك سيكون أكثر متعة».

تركت مادلين قطعة البسكويت. ها نحن أولاء من جديد؛ الرّاشدون وعلاقة الكرّ والفرّ الّتي تجمعهم مع الحقيقة.

«لا أرى كيف لهذا أن يكون ممتعًا»، قالت ماد.

- ماذا تقصدين؟

- ألم تكن حزينة؟

أشاحت فراسك بوجهها.

«عندما أحزن، لا أشعر برغبة في البقاء وحيدة».

«بسكويت؟»، سألتها فراسك بفتور.

«وحيدة في المنزل»، تابعت مادلين: «دون أبي. دون عمل. دون أصدقاء».

انتقل انتباه فراسك فجأةً إلى مجلّة تدعى *خبزنا كفاف يومنا*.

«ما الّذي حدث حقًّا؟»، حثّتها ماد.

«لقد *فُصلت*»، أجابت فراسك دون تفكيرٍ في الأثر الّذي قد تتركه كلماتُها: «فُصلت من العمل لأنّها كانت حبلى *بك*».

تهاوت مادلين على نفسها كأنّها أصيبت برصاصة من الخلف.

«مجدّدًا، ليس الذّنب ذنبك»، طمأنت فراسك الطّفلةَ الّتي أمضت الدّقائق العشر الأخيرة تنتحب: «صدّقيني، لا يمكن أن تتخيّلي مدى انغلاق أذهان أولئك الّذين في هاستينغز، إنّهم محض أوغاد». أتت فراسك على ما تبقّى من البسكويت وهي تتذكّر أنّها كانت واحدةً من أولئك الأوغاد، فيما أشارت ماد -رغم أنفاسها

المتقطّعة- إلى أنّ البسكويت يحتوي على التّارترازين، وهو مُلوِّن غذائيّ أُثبِتَ ارتباطُه بتراجع وظيفة الكبد والكلية.

«على أيّة حال»، تابعت فراسك: «أنتِ تنظرين إلى الأمر بطريقة خاطئة بالمجمل. والدتك لم تترك معهد هاستينغز بسببك، بل نجَت منه بفضلك. ثمّ اتّخذَت قرارًا غير موفّق على الإطلاق بالعودة، لكن هذه قصّة أخرى».

أفلتت مادلين تنهيدة طويلة. «عليّ أن أذهب»، قالت وهي تَنِفُّ ناظرةً إلى السّاعة: «آسفة لأنّني أفسدتُ اختبارَ الآلة الكاتبة عليك. هلّا أعطيتِ هذا لويكلي؟». ناولتها الظّرف المفتوح الّذي كُتب عليه *«إليزابيث زوت، خاصّ»*.

«سأفعل»، وعدتها فراسك وهي تعانقها، لكن ما إن انغلق الباب خلف الطّفلة حتّى تجاهلت توصياتها وأخرجت ما في الظّرف. «يا عفوَ الله»، قالت بانفعال وهي تقرأ مادّةَ روث الأخيرة: «إنّ شأن زوت لَعظيمٌ بحقّ».

«أيّها السّادة»، راحت تضرب على الآلة الكاتبة بعنف، مخاطِبةً محرّري مجلّة لايف بعد ثلاثين ثانية: «لقد قرأتُ مقالةَ الغلاف الّتي نشرتموها عن إليزابيث زوت، وأعتقد أنّ عليكم فصلَ مدقّق الحقائق الّذي يعمل لديكم. أنا أعرف إليزابيث زوت، إذ كنتُ أعمل برفقتها، وأعلم علمَ اليقين أنّ كلّ شيء في هذه المقالة محض كذب. كما أنّني كنت أعمل برفقة د. دوناتي، وأعرف ما فعله في هاستينغز ولديّ الوثائق الّتي تثبت ما عندي».

تابعت كتابةَ رسالتها، معدِّدةً إنجازات إليزابيث بوصفها عالمة كيمياء، الّتي لم تكتشف معظمَها إلّا بعد قراءة مقالة روث الجديدة، مُلقيةً الضّوءَ على ما واجهَته زوت من إجحاف في هاستينغز. «لقد أعاد دوناتي توزيع مخصّصاتها التّمويليّة»، كتبت: «ثمّ فصلها من العمل دون سبب، وأنا أعلم هذا»، اعترفت، «لأنّني كنت جزءًا منه - وهذه خطيئة أحاول حاليًّا أن أكفّر عنها من خلال عملي في طباعة العِظات الكنَسيّة». ثمّ راحت تشرح كيف لم يكتفِ دوناتي بعد ذلك بسرقة أبحاث زوت، بل أيضًا كذب على مستثمرين مهمّين. وختمت تؤكّد أنّها، رغم يقينها أنّ لا يف لن تتجرّأ على طباعة رسالتها، شعرت أنّ من واجبها أن تكتبها على كلّ حال.

ظهرت الرّسالة في العدد التّالي مباشرةً.

«إليزابيث، اقرئي هذا!»، قالت هارييت بحماس، وهي تمسك أحدث نسخة من مجلّة لا يف: «لقد كتبت نساءٌ من جميع أنحاء البلاد إلى لا يف ليعبّرن عن احتجاجهنّ. إنّها ثورة؛ الجميع في صفّك. حتّى أنّ إحدى الرّسائل جاءت من امرأة تزعم أنّها كانت تعمل معك في هاستينغز».

«لستُ مهتمّة».

أغلقت إليزابيث غطاء علبة طعام مادلين بعد أن أنهت كتابة قصاصاتها اليوميّة، ثمّ تظاهرت بالانشغال بموقد بنسن. كانت قد بذلت قصارى جهدها، طوال الأسابيع القليلة الأخيرة، لتبقي رأسها مرفوعًا. *تجاهلي المقالة*، تقول لنفسها: *تابعي*. لقد سبق لاستراتيجيّة

التّصدّي هذه أن جعلتها تتجاوز الانتحار والاعتداء الجنسيّ والأكاذيب واللّصوصيّة والخسارة الكارثيّة، ولا بدّ أنّ من شأنها التّكفّل بذلك مجدّدًا. بيد أنّ هذا لم يحدث، إذ كانت هذه المرّة، كلّما أصرّت على رفع رأسها، تجد تدليسَ مجلّة لا يفِ لهويّتها الحقيقيّة يطيح بها أرضًا من جديد. بدا الضّررُ الّذي لحق بها لا يزول، مثل وسمٍ دائم لن تقدر على تخطّيه أبدًا.

راحت هارييت تقرأ من الرّسائل جهرًا: «لولا إليزابيث زوت...»

«هارييت، قلت لك إنّني *لست* مهتمّة»، قاطعتها بانفعال. ما المغزى من ذلك؟ حياتها انتهت.

«لكن ماذا عن مادّة روث غير المنشورة تلك؟»، قالت هارييت متجاهلةً نبرةَ إليزابيث: «ذات الطّابع العلميّ. لم أكن أعلم أنّ هنالك عالمات أخريات... أقصد غيرك أنت وكوري. قرأتُها مرّتين من الألف إلى الياء، وبدت لي آسرة. وهذا ليس أمرًا بسيطًا، لأنّها كما تعرفين... علميّة».

«لقد رفضَتها عشر مجلّات علميّة حتّى الآن»، قالت إليزابيث بصوتٍ واهٍ: «مشاركة النّساء في مضمار العلوم ليست موضوعًا يثير اهتمام أحد»، التقطت مفاتيح سيّارتها، «سأذهب كي أقبّل ماد ثمّ أغادر».

«هلّا أسديتِ إليّ معروفًا؟ حاولي ألّا توقظيها هذه المرّة».

«هارييت»، قالت إليزابيث: «هل سبق وفعلتُ ذلك؟»

بعد أن سمعت إليزابيث تخرج بسيّارة البليموث من مدخل السّيّارات، فتحت هارييت علبة طعام مادلين، يدفعها الفضول لترى الحِكَمَ الّتي كتبتها إليزابيث هذه المرّة. *الأمُر ليس من صنع خيالك*، كانت القصاصة الّتي في الأعلى تقول: *معظمُ النّاسِ مُريعون*.

ضغطت هارييت على رأسها بأطراف أصابعها قلقة. راحت تتنقّل في أنحاء المختبر، تمسح أسطحَ المنضدة، وكان ثقلُ كآبةِ إليزابيث حاضرًا بطرقٍ لم يسبق لها أن شهدتها حقًّا. كومة دفاتر البحث الفارغة، المعدّات الكيميائيّة الّتي لم تُلمَس، أقلام الرّصاص غير المبريّة. اللّعنة على مجلّة لايف تلك، قالت بينها وبين نفسها. فرغم الاسم الّذي تحمله، لقد سرقت هذه المجلّةُ حياةَ إليزابيث - أجهزَت عليها، والسّبب في ذلك يرجع بمقدار كبير إلى اقتباساتٍ كيديّة من أشخاص مثل دوناتي ومايرز.

«أوه، عزيزتي»، قالت هارييت حين ظهرت ماد عند الباب: «هل أيقظَتكِ والدتُك؟»

«مثل كلّ يوم».

جلستا معًا وراحتا تُنقّران من المافن الّذي خبزَته إليزابيث للإفطار في وقت سابق من الصّباح.

«أنا قلقة حقًّا يا هارييت»، قالت ماد: «على ماما».

«حسنًا، إنّها تشعر بإحباط شديد يا ماد»، ردّت هارييت: «لكنّها لن تلبث طويلًا حتّى تنهض على قدميها من جديد، سوف ترين».

«هل أنتِ متأكّدة؟»

أشاحت هارييت بوجهها. كلّا، هي ليست متأكّدة، بل لم تكن في حياتها أقلّ ثقة ممّا هي الآن. ما من أحدٍ إلّا وله نقطة انكسار، وهي تخشى أن تكون إليزابيث قد بلغت نقطةَ انكسارها أخيرًا.

نقلت انتباهها إلى آخر عددٍ من مجلّة *ليديز هوم جورنال*. «هل بإمكانكِ الوثوق بمُصفّف شعرك؟»، تسأل إحدى المقالات. «عام البلوزة المهمّة»، تقول أخرى. تنهّدت، ومدّت يدها نحو قطعة مافن أخرى. هي الّتي أقنعت إليزابيث بقبول إجراء المقابلة مع مجلّة *لايف*. إن كان اللّوم يقع على أحد، فعليها هي.

ظلّتا على وضعهما صامتتين؛ ماد تنزع الغلاف الورقيّ عن قطعة المافن خاصّتها وهارييت تدوّر في رأسها كلمات إليزابيث حول أنّ موضوع النّساء في العلوم لا يثير اهتمام أحد. هذا الكلام يبدو صحيحًا. أم تراه ليس كذلك؟

أمالت رأسها إلى الجانب. «لحظة يا ماد»، قالت برويّة وقد خطرت لها فكرة: «لحظةً واحدة، حبًّا بالله».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل 40

طبيعيّ

«أنا أفكّر في الموت كثيرًا»، اعترفت إليزابيث لويكلي ذات مساء تتخلّله نسمةٌ باردة في نوفمبر.

«وأنا أيضًا»، قال.

كانا جالسين معًا على العتبة الخلفيّة، يتحدّثان بصوت خفيض، ومادلين في الدّاخل تشاهد التّلفاز.

«لا أعتقد أنّ هذا طبيعيّ».

«ربّما»، قال موافقًا: «لكنّني لستُ متأكّدًا ما هو الطّبيعيّ. هل يميّز العلمُ الطّبيعيَّ؟ كيف تُعرّفين الطّبيعيّ؟»

«حسنًا»، أجابت: «أظنّ أنّ الطّبيعيّ يشبه المتوسّط بعض الشّيء».

«لستُ متأكّدًا. الطّبيعيّ ليس مثل الطّقس؛ لا يمكنكِ التّنبّؤ بالطّبيعيّ. لا يمكنكِ حتّى أن تُحدثي الطّبيعيّ. بناءً على ما يبدو لي، قد لا يكون للطّبيعيّ وجود».

نظرت إليه بطرف عينها: «غريبٌ أن يصدر هذا الكلام من شخص يجد الإنجيل طبيعيًّا».

«على الإطلاق»، أجاب: «لا أبالغ إن قلتُ إنّ الإنجيل لا يحتوي على حدث طبيعيّ واحد. ولعلّ هذا أحد الأسباب الّتي تجعله يحظى بكلّ هذه الشّعبيّة؛ من ذا الّذي يرغب في تصديق أنّ الحياة كما تبدو بالضّبط؟»

نظرت إليه بفضول: «لكنّك تصدّق هذه القصص، فأنت تَعِظ بها».

«أنا أؤمن ببضعة أشياء»، صحّح لها: «وهي في معظمها الأشياء الّتي تتعلّق بعدم التّخلّي عن الأمل، وعدم الانقياد للظّلام. أمّا بالنّسبة إلى أنّني «أعظ بها»، فأنا أفضّل أن أقول «أرويها». على أيّة حال، لا علاقة لما أصدّقه بموضوعنا. ما أظنّه هو أنّكِ تشعرين أنّكِ ميتة، لذا تصدّقين أنّكِ كذلك. لكنّكِ لستِ ميتة، بل حيّة للغاية، وهذا يضعك في وضعٍ حرج».

- ما الّذي ترمي إليه؟

- تعرفين ما أرمي إليه.

- أنت كاهن غريب.

«كلّا، بل أنا كاهن مريع»، صحّح لها.

تردّدت. «لديّ اعتراف يا ويكلي. لقد قرأتُ رسائلك، تلك الّتي كنتما تتبادلانها أنت وكالفن. أعرف أنّها رسائل خاصّة، لكنّها كانت بين متعلّقاته الشّخصيّة وقرأتُها. قبل سنوات».

التفت ويكلي ينظر إليها. «إيفانز *احتفظ* بها؟»، شعر بتوقٍ مفاجئ إلى صديقه القديم.

- لا أعرف إن كنتَ تعلم هذا، لكنّكَ أنت السّبب الّذي جعله يقبل الوظيفة في هاستينغز.

- ماذا؟

- أنتَ أخبرته أنّ الطّقس في كومنز هو الأفضل.

- أنا قلت ذلك؟

- تعرف كيف كان كالفن يشعر بشأن الطّقس. كان بوسعه أن يذهب إلى مليون مكان آخر ويجني الكثير من المال، لكنّه جاء إلى هنا، إلى كومنز. «أفضل طقس في العالم»، هكذا أظنّكَ صغتَ عبارتك.

شعر ويكلي بوطأة نصيحته الرّعناء. بسبب شيء قاله، جاء إيفانز إلى كومنز، ثمّ مات في كومنز. «لكنّ الطّقس لا يصبح جيّدًا إلّا في وقت لاحق من النّهار»، شرح كأنَّه مُلزَم بذلك: «بعد أن يزول ضباب الصّباح. لا أصدّق أنّه انتقل إلى هنا كي يجدّف في الشّمس. لا توجد شمس... ليس حين يمارس المجدّفون تجديفهم».

«ليس عليك أن تقول لي هذا».

«أنا المسؤول»، قال وقد نال منه الفزع، مستوعبًا تمامَ الاستيعاب الدّورَ الّذي لعبه في وفاة كالفن المبكّرة: «الذّنب كلّه ذنبي».

«لا، لا»، تنهّدت إليزابيث: «أنا الّتي اشتريتُ الرّسن».

ظلّا جالسين يستمعان إلى مادلين وهي تغنّي مع الشّارة التّلفزيونيّة المسموعة في الخلفيّة. *الحصان حصان، طبعًا، طبعًا، ولا أحد يستطيع*

أن يكلّم حصانًا طبعًا، وهذا -طبعًا- ما لم يكن الحصان هو السّيد إد الشّهير! [1]

فجأةً، تذكّر ويكلي السّرَّ الّذي همَسَته مادلين في أذنه ذلك اليوم في المكتبة. *كلبي يعرف 981 كلمة*. باغته الكلامُ حينذاك؛ ما الّذي يجعل طفلة مهووسة بالحقائق مثل مادلين تختار أن تشاركه كذبةً واضحةً كهذه؟

أمّا ماذا قال هو لها؟ شيء ولا أسوأ. *أنا لا أؤمن بالله*.

أغمضت عينيها قليلًا، ثمّ تنحنحت. «لقد كان لديّ أخٌ يا ويكلي»، قالت كأنّها تعترف بخطيئة: «مات هو الآخر».

تغضّن حاجبا ويكلي. «أخ؟ أنا آسف. متى كان هذا؟ ما الّذي حدث؟»

«قبل وقت طويل. كنت في العاشرة من عمري. شنق نفسه».

«رحماك يا *الله*»، قال ويكلي بصوت راعش. تذكّرة فجأةً شجرةَ عائلة مادلين؛ كان يوجد في أسفلها فتًى تُحيط أنشوطةٌ بعنقه.

«أنا نفسي كدتُ أموت مرّة»، قالت: «قفزتُ داخل مقلع مملوء بالماء. لم أكن أجيد السّباحة، وما زلت لا أجيدها».

- ماذا؟

---

(1) الكلمات من شارة مسلسل "Mister Ed"، وهو مسلسل كوميديّ أمريكيّ عُرض في ستّينيّات القرن العشرين. (المترجم)

- قفز أخي ورائي على الفور، واستطاع بطريقة ما أن يوصلني إلى طرف المقلع.

«فهمت»، قال ويكلي، وقد بدأ شعورُها بالذّنب يتكشّف أمامه شيئًا فشيئًا: «أخوكِ أنقذكِ... لذا تظنّين أنّه كان ينبغي بك أن تتمكّني من إنقاذه. أهذا هو الأمر؟»

التفتت تنظر إليه بوجهٍ غائر.

«لكنّكِ، يا إليزابيث، كنتِ لا تجيدين السّباحة... لهذا قفز وراءك. عليكِ أن تفهمي، الانتحار لا يشبه هذا. الانتحار أكثر تعقيدًا بكثير».

«ويكلي»، قالت: «هو أيضًا لم يكن يجيد السّباحة».

كفّا عن الكلام؛ اليأس يستبدّ بويكلي لأنّه لا يعرف ماذا يقول، وإليزابيث محبطة لأنّها لا تعرف ماذا تفعل. دفع ستّة ونصف نفسه خارجًا من منخل الباب ثمّ التصق بإليزابيث.

«أنتِ لم تسامحي نفسك قطّ»، قال ويكلي أخيرًا: «لكن هو الّذي عليك أن تسامحيه. ما تحتاجين أن تفعليه هو أن تَقبلي».

ندّ عنها صوتٌ حزين، مثل عَجلةٍ يتسرّب هواؤها ببطء.

«أنتِ عالمة»، قال لها: «عملك يتمحور حول طرح الأسئلة؛ حول البحث عن أجوبة. لكن أحيانًا، وأنا أعلم هذا علم اليقين، لا يكون ثمّة أجوبة. أتعرفين الدّعاء الّذي يبدأ بـ «اللّهمّ امنحني الطّمأنينةَ لقبول الأشياء الّتي لا يمكنني تغييرها»؟»

عبست.

«هذا الكلام لا ينطبق عليكِ إطلاقًا».

أمالت رأسها.

«الكيمياء تغيير، والتّغيير هو صُلب منظومة معتقداتك. وهذا أمرٌ جيّد، لأنّه الشّيء الّذي نحتاج إلى المزيد منه - أشخاص يرفضون قبول الوضع الرّاهن، أشخاص لا يخشون الخوض في ما هو غير مقبول. لكنّ الأمور غير المقبولة -مثل انتحار أخيك وموت كالفن- قد تكون دائمةً في الواقع يا إليزابيث. الأشياء تحدث. تحدث ببساطة».

«أحيانًا أفهم لماذا رحل أخي»، اعترفت بهدوء: «فبعد كلّ ما حدث، أشعر أحيانًا أنّني أريد الانسحاب أنا الأخرى».

«أتفهّم هذا»، قال ويكلي، يفكّر في مدى الضّرر الّذي خلّفَته مقالةُ لايف: «صدّقيني. لكن ليست هذه مشكلتك حقًّا، ليس أنّك تريدين الانسحاب».

التفتت تنظر إليه حائرة.

«بل أنّكِ تريدين الرّجوع».

تجديدُ التزام

«مرحبًا»، قالت إليزابيث: «اسمي إليزابيث زوت، وهذا برنامج *العشاء عند السّادسة*».

على كرسيّ المنتج، أغمض والتر باين عينيه وعادت به أفكاره إلى يوم لقائهما الأوّل.

لقد داهمت المكان غاضبةً ترتدي مريولها الأبيض وتجاوزت سكرتيراته، شعرها مردود إلى الخلف وصوتها واضح. يتذكّر أنّها أذهلته. أجل، هي جذّابة، لكنّه الآن فقط أدرك أنّ مظهرها لم تكن له علاقة تُذكر بذلك. كلّا، إنّها ثقتها، يقينها بمن تكون، الّذي تغرسه مثل بذرةٍ حتّى يضرب جذورَه في الآخرين.

«سوف أبدأ حلقةَ اليوم بإعلان هامّ»، قالت: «أنا سأغادر *العشاء عند السّادسة*، وهذا القرار نافذ منذ الآن».

ندّت عن الجمهور شهقات عدم تصديق. «ماذا؟»، راحوا يتساءلون: «ماذا قالت؟»

«ستكون هذه آخر حلقة لي»، أكّدت.

داخل منزل مزرعة في ريفرسايد، أسقطت امرأةٌ علبةَ بيضٍ من يديها. «لا يمكن أن تكوني جادّة!»، صاح صوتٌ من الصّفّ الثّالث.

«أنا جادّة دائمًا»، قالت إليزابيث.

ملأت الاستديو موجةُ اضطراب.

مذهولةً، التفتت إليزابيث تنظر إلى والتر، فنظر إليها وأومأ إيماءةَ تشجيع. كان هذا كلّ ما استطاع أن يفعله دون أن ينهار.

لقد ذهبت إلى منزله في اللّيلة السّابقة، دون موعد. كاد لا يفتح الباب، إذ كان لديه ضيوف. لكن حين نظر من العين السّاحرة فرآها واقفةً هناك، وماد نائمة في السّيّارة عند طرف الرّصيف، وستّة ونصف محشور خلف المقود مثل سائقٍ فارٍّ من مسرح جريمة، دفع الباب من فوره بقلق.

«إليزابيث»، قال وقلبه يتخبّط: «ما الأمر... ماذا حدث؟»

«أهي إليزابيث؟»، قال صوتٌ قلقٌ من ورائه: «يا ربّ السّماء، ما القصّة؟ ماد؟ هل حدث شيء لها؟»

«هارييت؟»، قالت إليزابيث متراجعةً إلى الخلف من الدّهشة.

مرّت لحظات دون أن ينبس واحدٌ من الثّلاثة بكلمة، مثل مسرحيّة لا أحد يتذكّر الجملةَ التّالية فيها. ثمّ استطاع والتر أن يقول أخيرًا: «كنّا نحاول إبقاء هذا طيَّ الكتمان قليلًا بعد»، وأضافت

هارييت دون تفكير: «إلى أن يتمّ طلاقي». مدّ والتر يده نحو يدها، فندّت عن إليزابيث صرخة مفاجأة، أجفل بسببها ستّة ونصف وضغط بالخطأ على بوق السّيّارة -عدّة مرّات- ليوقظ مادلين، ثمّ أماندا، ثمّ كلّ شخصٍ اقترف خطأَ الخلود إلى السّرير مبكّرًا في الحيّ.

ظلّت إليزابيث مسمَّرةً عند عتبة الباب. «لم تكن لديّ أدنى فكرة»، راحت تكرّر: «كيف لا تكون لديّ فكرة؟ هل أنا عمياء إلى هذا الحدّ؟»

تبادلت هارييت ووالتر النّظرات كأنّهما يؤكّدان: امم، أجل.

«سنخبرك القصّة بأكملها على الفور»، قال والتر: «لكن ما الّذي أتى بك إلى هنا؟ إنّها التّاسعة». لقد ظهرت إليزابيث عند الباب دون دعوة، وهذا أمر لم يسبق لها أن فعلته. «ما القصّة؟»

«كلّ شيء على ما يرام»، قالت إليزابيث: «لكنّني الآن أشعر بالإحراج من سبب قدومي، فخبركما إيجابيٌّ جدًّا، أمّا خبري...»

«ماذا؟ *ماذا؟* »

«في الواقع»، قالت كأنّها تنقّح إجابتها في الحال: «خبري إيجابيٌّ أيضًا».

لوّح والتر بيديه بنفاد صبر يستحثّها على المتابعة.

«لقد... لقد قرّرت أن أغادر البرنامج».

«ماذا؟»، شهق والتر.

«غدًا»، أضافت.

«لا!»، قالت هارييت.

«سأستقيل»، كرّرت.

إنّها نبرة صوتها؛ كانت من النّوع الّذي يوضّح أنّها لن تعدل عن قرارها رغم كونه متسرّعًا. التّفاوض عقيم، فلا جدوى من ذكر أمور هامشيّة مثل العقود أو الثّروة الضّائعة أو ما سيملأ الفراغ الّذي ستتركه. كان قرارها نهائيًّا، ولهذا السّبب بدأ والتر يبكي.

هارييت أيضًا ميّزت النّبرة، وبالفخر الّذي تتظاهر به أمٌّ حين يعلن طفلها أنّه قرّر تكريس حياته لشيء شحيح المردود، بدأت تبكي هي الأخرى، وضمّت والتر وإليزابيث إليها بكلتا ذراعيها.

«لقد استمتعتُ للغاية بالوقت الّذي قضيتُه في تقديم *العشاء عند السّادسة*»، تابعت إليزابيث تنظر في الكاميرا بثبات: «بيد أنّني قررت العودة إلى عالَم البحث العلميّ. أريد أن أنتهز هذه الفرصة كي أشكركنّ جميعًا، لا على متابعتكنّ فحسب»، قالت ترفع صوتها كي يُسمَع وسط الهرج والمرج، «بل أيضًا على صداقتكنّ. لقد أنجزنا الكثير معًا خلال السّنتين الأخيرتين. مئات الوجبات، صدّقنا أم لم نصدّق. لكنّ عملنا لم يقتصر على إعداد العشاء يا سيّداتي، فقد أعددنا لأنفسنا مكانًا في التّاريخ أيضًا».

تراجعت خطوة إلى الخلف متفاجئةً، فيما نهض الحضور على أقدامهم يجأرون معلنين موافقتهم.

«قبل أن أذهب»، صاحت: «سيهمكّن، كما أعتقد، أن تسمعن...»، رفعت يديها كي تهدّئ الجمهور. «هل ثمّة من يتذكّر سيّدةً تدعى السّيّدة جورج فيليس - تلك المرأة الّتي امتلكت الجرأة الكافية كي تخبرنا أنّها تريد أن تصبح جرّاحة قلب؟»، مدّت يدها إلى جيب مئزرها وأخرجت رسالة، «لديّ مستجدّات. يبدو أنّ السّيّدة فيليس لم تُتمّ دراستها التّحضيريّة في وقت قياسيّ وحسب، بل أيضًا حصلت على قبول في كلّيّة الطّبّ. تهانينا يا سيّدة جورج... كلّا، أنا آسفة... *مارجوري* فيليس. لم يُساوِرنا الشّكُّ ولو للحظة».

مع هذا الخبر، استعاد الجمهور روحَه على الفور. ورغم سيماء إليزابيث الجدّيّة في العادة، تخيّلت د. فيليس تتحضّر لعمليّة جراحيّة، فلم تستطع ألّا تبتسم.

«لكنّني أراهن أنّ مارجوري ستشاطرني الرّأي»، قالت إليزابيث ترفع صوتها مجدّدًا: «أنّ الصّعوبة لم تكمن في العودة إلى الدّراسة، بل بالأحرى في امتلاك الشّجاعة لفعل ذلك». سارت إلى لوحها القلّاب بخطوات واسعة والقلم في يدها، ثمّ كتبت *«الكيمياء تغيير»*.

«متى ما بدأنا نشكّك في أنفسنا»، قالت ملتفتةً إلى الجمهور: «متى ما شعرنا بالخوف، ليس علينا إلّا أن نتذكّر. الشّجاعة جذرُ التّغيير، والتّغيير هو ما صُمّمنا كيميائيًّا كي نفعله. لذا عندما تستيقظن غدًا، فلتتعهّدن لأنفسكنّ بما يلي: لن تكبحن أنفسكنّ بعد الآن، لن تمتثلن لآراء الآخرين بشأن ما يمكنكنّ وما لا يمكنكنّ تحقيقه، ولن تسمحن لأيّ أحد أن يحصركنّ في تصنيفات بالية حسب الجنس والعِرق والوضع الاقتصاديّ والدّين. لا تسمحن لمواهبكنّ أن تظلّ

هاجعة يا سيّدات، وتولَّين رسمَ مستقبلكنّ بأيديكنّ. حين ترجعن إلى المنزل اليوم، اسألن أنفسكنّ ما الّذي ستغيّرنه، ثمّ ابدأن».

في كلّ أنحاء البلاد، راحت النّساء يقفزن عن أرائكهنّ ويخبطن على طاولات المطبخ، هاتفاتٍ في مزيج من الحماسة لكلماتها والكمد لرحيلها.

«قبل أن أذهب»، صاحت فوق الجلبة: *«أريد أن أتقدّم بالشّكر إلى صديقة مميّزة للغاية، اسمها* ***هارييت سلون****»*.

في غرفة معيشة إليزابيث، ارتخى فكُّ هارييت.

«هارييت»، هتفت ماد: «صرتِ مشهورة!»

«كما تعلمن»، تابعت إليزابيث وهي تهدّئ الجمهور بيديها مجدّدًا: «كنتُ دائمًا أختتم البرنامج بقولي لأطفالكنّ أن يجهّزوا الطّاولة كي يتسنّى لكنّ أن تحظين بلحظة لأنفسكنّ. «لحظة لنفسك» - هذه كانت نصيحة هارييت سلون لي حين التقينا أوّل مرّة، وهذه هي النّصيحة الّتي أدّت إلى قراري بترك *العشاء عند السّادسة*. هارييت هي الّتي قالت لي أن أستغلّ تلك اللّحظة كي أعيد التّواصل مع احتياجاتي الخاصّة، كي أحدّد اتّجاهي الحقيقيّ، كي أجدّد التزامي. وبفضل هارييت، فعلتُ ذلك أخيرًا».

«لطفَكِ يا مريم العذراء»، قالت هارييت وقد شحب لونها.

«يا ساتر، باين سوف *يقتلك*»، قالت ماد.

«شكرًا لك يا هارييت»، قالت إليزابيث: «شكرًا لكنّ جميعكنّ»، أضافت تومئ للجمهور، «وللمرّة الأخيرة، أودّ أن أطلب من

أطفالكنّ أن يجهّزوا الطّاولة، ثمّ سأطلب من كلّ واحدة بينكنّ أن تأخذ لحظةً وتجدّد التزامها. تحدَّينَ أنفسكنّ يا سيّدات، استخدمن قوانين الكيمياء وغيّرنَ الوضعَ الرّاهن».

من جديد، نهض الحضور على أقدامهم، ومن جديد دوّى التّصفيق مثل الرّعد. لكن فيما استدارت إليزابيث كي تذهب، بدا واضحًا أنّ الجمهور لن يبرح مكانه - ليس دون توجيهٍ أخير. نظرت إلى والتر غيرَ واثقة ماذا تفعل الآن، فأشار بيده كأنّ فكرةً خطرت له، ثمّ خربش شيئًا على بطاقة تلقين ورفعها كي تراها. أومأت برأسها، ثمّ التفتت إلى الكاميرا من جديد.

«بهذا نختتم مدخلكنّ إلى الكيمياء»، أعلنت: «انصراف».

الفصل 42

شؤون الموظّفين

يناير 1962

لقد افترض الجميع -و«الجميع» هنا هم هاربيت ووالتر وويكلي وماسون وإليزابيث نفسها- أنّ عروض التّوظيف ستنهال عليها من كلّ حدب وصوب. جامعات، مختبرات بحوث، وربّما حتّى معاهد الصّحّة الوطنيّة. فهي -رغم أنّ مجلّة لايف حوّلت حياتها إلى أضحوكة- كانت شخصيّةً بارزة، نجمة تلفزيونيّة.

غير أنّ ذلك لم يحدث. في الواقع، لا شيء حدث. ليس فقط أنّها لم تتلقَّ ولو مكالمة واحدة، بل أيضًا قوبلت نُسخُ سيرتها الذّاتيّة الّتي أرسلتها إلى المؤسّسات البحثيّة بالتّجاهل التّامّ. فعلى الرّغم من شعبيّتها النّهاريّة، ظلّ المجتمع العلميّ يُضمر شكوكًا كبيرة تجاه ثبوتيّاتها الأكاديميّة. لقد اقتُبست أقوالٌ لكلٍّ من د. مايرز ود. دوناتي -وهما كيميائيّان مهمّان للغاية- في مجلّة لايف تصفها أنّها ليست عالمة حقيقيّة، وهذا تكفّل بما تبقّى.

وبذلك تعرّفت على الحقيقة البديهيّة الأخرى للشّهرة: أنّها سريعة الزّوال. «إليزابيث زوت» الوحيدة الّتي أظهر أحدٌ ما اهتمامًا بها ذات يوم كانت تلك الّتي ترتدي مئزرًا.

«بوسعكِ دائمًا أن ترجعي إلى البرنامج»، قالت هارييت حين دخلت إليزابيث من الباب برفقة ستّة ونصف، وقد جلبت من المكتبة كتبًا تُثقل ذراعيها: «تعلمين أنّ والتر لن يتردّد في إرجاعك اليوم إن تركتِه يفعل ذلك».

«أعلم»، قالت وهي تضع الكتب: «لكنّني لا أستطيع. على الأقلّ، إعادة عرض الحلقات تلاقي نجاحًا. قهوة؟»، سألتها وأشعلت موقد بنسن.

«ليس لديّ وقت، عندي موعد مع محاميَّ. لكن هاك»، قالت هارييت وهي تُخرج من جيب مئزرها قصاصات ورق صغيرة: «د. ماسون يريد الحديث عن بدلات جديدة للفريق النّسائيّ و... هل أنت مستعدّة لهذا؟... جاءتك مكالمة من هاستينغز. كنتُ قاب قوسين أو أدنى من أن أغلق الخطّ. هل تتخيّلين؟ *هاستينغز*. أيّ وقاحةٍ تلك الّتي تجعلهم يتّصلون».

«من كان المتكلّم؟»، سألتها إليزابيث محاولةً ألّا يظهر القلق في صوتها؛ إنّها تنتظر منذ عامين ونصف أن يلاحظوا اختفاء صناديق كالفن من هاستينغز.

– رئيسة قسم شؤون الموظّفين. لكن لا تشغلي بالك، قلتُ لها أن تذهب إلى الجحيم.

– «رئيسة»؟

قلّبَت هارييت القصاصات: «ها هي. تُدعى الآنسة فراسك».

«فراسك لا تعمل في هاستينغز»، قالت إليزابيث وقد شعرت بالارتياح: «لقد فُصلت قبل سنوات. هي تطبع العظات على الآلة الكاتبة لدى ويكلي».

«مثير للاهتمام»، قالت هارييت: «حسنًا، لقد ادّعت أنّها رئيسة شؤون الموظّفين في هاستينغز».

عبست إليزابيث: «هي تحبّ أن تمزح».

بعد أن خرجت سيّارة هارييت من مدخل السّيّارات، صبّت إليزابيث لنفسها كوبًا من القهوة، ثمّ مدّت يدها إلى الهاتف.

«مكتب الآنسة فراسك، معكم الآنسة فينتش»، قال الصّوت.

«مكتب الآنسة فراسك؟»، سخرت إليزابيث.

«المعذرة؟»، ردّ الصّوت.

تلكّأت إليزابيث. «أنا آسفة»، قالت: «لكن من معي؟»

«بل من معي؟»، سأل الصّوت بنبرة حاسمة.

«حسنًا، حسنًا»، قالت إليزابيث: «سأشارك في اللّعبة. أنا إليزابيث زوت، أتّصل في طلب الآنسة فراسك».

«إليزابيث زوت»، قال الصّوت على الطّرف الآخر: «مزحة جيّدة».

«هل من مشكلة؟»، سألت إليزابيث.

إنّها النّبرة؛ ميّزتها المرأة على الطّرف الآخر من الخطّ فورًا. «أوه»، ردّت بأنفاس مسموعة: «هذه أنت فعلًا. أنا آسفة للغاية يا آنسة زوت، إنّني من كبار معجبيك. يشرّفني أن أصلكِ بالآنسة فراسك. لحظة من فضلك».

«زوت»، جاء صوتٌ بعد قليل: «أخيرًا يا آنسة!»

«مرحبًا يا فراسك»، قالت إليزابيث: «رئيسة شؤون الموظّفين في هاستينغز؟ هل يعرف ويكلي أنّكِ تُجرين مكالمات ساخرة؟»

«ثلاثة أمور يا زوت»، قالت فراسك بحيويّة: «واحد: أحببتُ المقالة جدًّا. كنت موقنة دائمًا أنّني سأراك من جديد على غلافٍ ما، لكن هذا الغلاف؟ يا لها من فكرة عبقريّة. إن كنتِ تريدين التّواصل مع الجوقة، فمن المنطقيّ أن تذهبي إلى حيث تتعبّد».

- ماذا؟

- اثنان: أحببتُ مدبّرة منزلك تلك...

- هارييت ليست مدبّرة منزل...

- ... لم ألبث أن قلتُ لها إنّني أتّصل من هاستينغز حتّى قالت لي أن أذهب إلى الجحيم. ظللتُ سعيدةً طوال النّهار.

- فراسك...

- ثلاثة: أحتاج منكِ أن تأتي في أسرع وقت ممكن - وأقصد اليوم؛ ربّما خلال ساعة إن استطعتِ. هل تتذكّرين المستثمر الدَّسِم؟ لقد عاد.

«فراسك»، تنهّدت إليزابيث: «تعلمين أنّني أحبّ المزاح، لكن...»

ضحكت فراسك: «أنت تحبّين المزاح؟ أيفترض *بهذه* أن تكون مزحة؟ كلّا يا زوت، أصغي. لقد عدتُ إلى هاستينغز - بل في الواقع أنا الكلّ في الكلّ هنا. مستثمرُكِ هذا رأى الرّسالةَ الّتي كتبتُها إلى لايف واتّصل بي. سأُطلعكِ على التّفاصيل لاحقًا؛ ليس لديّ وقت الآن، فأنا أنظّف هذا المكان. ربّاه، كم أحبّ التّنظيف! أيمكنك أن تأتي أم لا؟ أيضًا، ولا أصدّق أنّني أقول هذا، لكن هل بوسعك أن تُحضري الكلب اللّعين؟ يريد المستثمرُ أن يقابله».

دخلت هارييت مكاتبَ شركة «هانسون آند هانسون» القانونيّة، وكانت يداها ترتجفان. طوال السّنوات الثّلاثين الأخيرة، كانت تعترف لكاهنها أنّ زوجها يشرب ويشتم ولا يحضر القدّاس أبدًا، وأنّه يعاملها كما لو كانت عبدًا لديه، وأنّه ينعتها بأقذع الصّفات. وطوال السّنوات الثّلاثين الأخيرة، كان الكاهن يومئ برأسه ثمّ يشرح لها أنّها تملك الكثير من الخيارات، علمًا أنّ الطّلاق ليس من بينها. على سبيل المثال، بوسعها أن تصلّي طلبًا لإيجاد طرقٍ تجعلها زوجةً أفضل، بوسعها أن تلقي نظرة جيّدة على نفسها وتحاول أن تفهم ما الّذي يضايقه فيها، بوسعها أن تبذل عنايةً أكبر بمظهرها.

لهذا كانت مشتركة بكلّ تلك المجلّات النّسائيّة؛ لأنّها أناجيل في تطوير الذّات ومن شأنها أن تدلّها على ما ينبغي فعله. لكن رغم كلّ النّصائح الّتي أخذت بها، لم تتحسّن الأمور بينها وبين السّيّد سلون. بل أسوأ، كان للنّصائح مفعولٌ عكسيٌّ في بعض الأحيان - مثلما

حدث حين جعّدت شعرها لدى الصّالون، الأمر الّذي زعمت المجلّةُ أنّه سوف «يجعله يعتدل في جلسته وينتبه»، غير أنّه أفضى عوضًا عن ذلك إلى تذمّر لا ينتهي بشأن الرّائحة البغيضة. لكن بعد ذلك دخلت إليزابيث إلى حياتها، فأدركت أخيرًا أنّ ما تحتاج إليه ربّما ليس ملابس جديدة أو تسريحة مختلفة؛ ما تحتاج إليه ربّما يكون مسيرة مهنيّة، في المجلّات.

هل يوجد في العالم كلّه أحدٌ يعرف عن المجلّات أكثر منها؟ غير ممكن. ولإثبات هذا، كانت تعلم بالضّبط من أين تبدأ. من مقالة روث غير المنشورة بعد.

برأي هارييت، روث اقترف الخطأ الكلاسيكيَّ في تعيين المكان الملائم للمقالة، إذ افترض أنّ المجلّات العلميّة هي وحدها الّتي ستبدي اهتمامًا بمادّة عن النّساء في ميدان العلوم. هارييت تعلم أنّ هذا خاطئ. اتّصلت به متهيّئةً لعرض حجّتها، لكنّ خدمة المجيب الآليّ أعلمتها أنّ روث ما يزال في... ماذا كان اسمها؟ فيتنام. لذا قامت بتقديم مقالته دون إذنه. لمَ لا؟ إن قُبِلت المقالة سوف يشكرها، وإن لم تُقبل فلن تزداد حاله سوءًا عمّا هي عليه الآن.

أخذت الطّرد إلى مكتب البريد كي تَزِنَه، وأضافت ظرفًا مزوّدًا بالطّوابع ومعنونًا بعنوان المرسل لضمان الرّدّ السّريع، ثمّ كرّرَت الصّلاة المريميّة ثلاثًا، ورسمت الصّليب على وجهها مرّتين، وأخذت نفسًا عميقًا واحدًا، وأدخلت الطّرد في فتحة صندوق البريد.

بعد أسبوعين دون أيّ ردّ، شعرت بوخزة قلق. بعد أربعة شهور، حرقة الرّفض. حاولت أن تواجه الحقائق. لعلّ درايتها بالمجلّات

ليست جيّدة كما اعتقدت. ربّما لا أحد يريد هارييت ومقالة روث خاصّتها، مثلما لم يُرِد أحدٌ إليزابيث ونشوءها اللّاحيويّ.

أو لعلّ السّيّد سلون، الّذي لم تسرّه سعادةُ هارييت المكتشَفة حديثًا، قرّر أن يعاقبها بطرق جديدة كلّيًّا. لعلّه رمى بريدَها.

«آنسة زوت»، قالت موظّفة الاستقبال في هاستينغز تغشاها النّشوةُ لدى دخول إليزابيث إلى البهو: «سأُعلِم الآنسةَ فراسك أنّكِ هنا». وصلَت قابسًا بلوحة التّوزيع. *«إنّها هنا!»*، همست من خلف أسنانها إلى شخص على الطّرف الآخر من الخطّ. «هل تمانعين؟»، مدّت يدها تحمل نسخةً من *رحلة البيغل*[1]: «لقد التحقتُ بالمدرسة اللّيليّة لتوّي».

«بكلّ سرور»، ردّت إليزابيث ووقّعت على الغلاف: «حسنًا فعلتِ».

«الفضل لكِ يا آنسة زوت»، قالت المرأة الشّابّة بجدّيّة: «أيضًا، إن لم يكن طلبي ثقيلَ الظّلّ، أيمكنك أن توقّعي على مجلّتي كذلك؟»

«لا»، أجابت إليزابيث: «لايف ميتةٌ بالنّسبة إليّ».

«أوه، آسفة»، قالت المرأة الشّابّة: «أنا لا أقرأ لايف. كنت أقصد الغلاف الأحدث»، مدّت لها عددًا سميكًا ذا أوراق ملساء.

(1) The Voyage of the Beagle: كتاب لتشارلز داروين. (المترجم)

أطرقت إليزابيث تنظر، فصدمتها رؤية وجهها يردّ لها التّحديق.

«لماذا عقولهنّ مهمّة»، يقول العنوان العريض على غلاف *فوغ*.

فيما هما تقطعان الدّهليز، وكعوبهما في تباينٍ حادٍّ مع الأصوات المكتومة للمولّدات ومراوح التّبريد الصّادرة من المختبرات الأخرى، أعلمت فراسك إليزابيث أنّهم سيجتمعون في مختبر كالفن القديم.

«لماذا *هناك*؟»، سألتها إليزابيث.

«لأنّ الثّريّ أصرّ على ذلك».

«يسرّني لقاؤك، آنسة زوت»، قال ويلسون وهو يفرد أطرافه الطّويلة فوق كرسيّ المختبر. مدّ يده فيما راحت إليزابيث تُجري عمليّة جرد: شعر أشيب مقصوص بعناية، عينان لهما لون نبات المريميّة، بدلة صوفيّة مقلّمة بخطوط رفيعة. ستّة ونصف هو الآخر أجرى تفتيشًا شاملًا بخطمه، ثمّ التفت إلى إليزابيث. *ما من خطر*.

«كنت أريد أن ألتقيكِ منذ وقت طويل جدًّا»، كان ويلسون يقول: «نحن نقدّر لك استعدادك لتلبية إخطارٍ عاجل هكذا».

«نحن؟»، سألته إليزابيث متفاجئة.

«يقصدني أنا»، قالت امرأة في الخمسينات من عمرها وهي تخرج من حجرة المعدّات حاملةً سنّادةَ ورق؛ شعرها من النّوع الّذي كان أشقر ذات زمان لكنّه أخذ يستسلم للشّيخوخة برويّة. مثل ويلسون،

كانت هي أيضًا ترتدي بدلة رسميّة، لكنّ لون بدلتها أزرق فاتح، وتبدو أقلّ جدّيّةً -رغم عناية خِياطتها- بسبب دبّوس زينة رخيص له شكل أقحوانة مثبّت بطيّة الصّدر. «آفري باركر»، قالت بتوتّر قابضةً على يد إليزابيث: «سُررنا».

تابع ستّة ونصف، الّذي أنهى تفتيشه لويلسون، عملَه وهمّ بفحص باركر. تشمّم ساقها. «مرحبًا يا ستّة ونصف»، قالت ثمّ انحنت تضغط رأسه على فخذها. أخذ شمّةً استكشافيّة، ثمّ سحب رأسه إلى الخلف متفاجئًا. «لقد شمّ رائحة كلبي على الأرجح»، قالت وهي تضمّه من جديد: «بينغو من كبار معجبيك»، أضافت تنظر إليه: «لقد أحبَّ عملكَ في البرنامج كثيرًا».

يا لها من كائن بشريّ عالي الذّكاء.

«سوف نحتاج إلى جرد كاملٍ لمحتويات جميع المختبرات»، قالت تلتفت إلى فراسك: «وسنحتاج أيضًا أن نعرف ما قد يلزمك يا آنسة زوت»، أردفت بنفحةِ إجلال، «من أجل بحوثك. أقصد بحوثك هنا في هاستينغز».

«كي تتابعي عملك على النّشوء اللّاحيويّ»، تدخّل ويلسون: «لقد أعلنتِ في حلقتك الأخيرة عن نيّتك العودةَ إلى عملك البحثيّ. وهل يوجد مكان أفضل من هنا؟»

أمالت إليزابيث رأسها إلى الجانب: «يخطر لي العديد من الأماكن».

حين كانت في هذه الغرفة آخر مرّة، فراسك كانت هنا أيضًا، بيد أنّ فراسك آنذاك كانت تُعلمها أنّ أغراض كالفن اختفت، وأنّ على ستّة ونصف أن يذهب، وأنّ مادلين في الطّريق.

تمعّنت في لوح الطّبشور الكئيب الّذي تملؤه كلمات خطّتها يدُ شخصٍ آخر، ثمّ نظرت من جديد إلى السّيّد ويلسون. كان مُنسدِلًا على كرسيّ كالفن القديم مثل ثوب قماش.

«أنا حقًّا لا أرغب أن أضيع وقتكما»، قالت إليزابيث: «لكنّني لا أرى نفسي عائدة إلى هاستينغز. الموضوع شخصيّ».

«بوسعي أن أتفهّم»، قالت آفري باركر: «بعد كلّ ما تكشّف هنا، من له أن يلومك؟ ومع ذلك، أودّ لو أحظى بفرصة كي أغيّر رأيك».

جالت عينا إليزابيث على أنحاء المختبر، لتستقرّا عند إحدى لافتات كالفن القديمة. **ممنوع الدّخول**.

«أنا آسفة»، قالت: «ستُتعبين نفسك سدًى».

نظرت آفري باركر إلى ويلسون، فنظر هذا بدوره إلى فراسك.

«لمَ لا نتناول بعض القهوة؟»، قالت فراسك وهبّت ناهضة: «سأُعدّ إبريقًا طازجًا. وريثما ننتظر، لعلّ مؤسّسة باركر تطلعكِ على بعض مخطّطاتها». لكن قبل أن تقطع منتصف الغرفة، دُفع باب المختبر مفتوحًا.

«ويلسون!»، هتف دوناتي كأنّه يحيّي صديقًا لم يرَه منذ زمن: «للتّوّ سمعتُ أنّك في البلدة»، اندفع إلى الأمام، مادًّا يده مثل بائعٍ شديد التلهّف، «ألقيتُ كلّ شيء من يدي وجئتك على الفور. ما زلتُ في إجازة من النّاحية التّقنيّة، لكن...». توقّف على حين غرّة، متفاجئًا

من رؤية وجه مألوف. «آنسة فراسك؟»، قال: «ما الّذي...»، ثمّ أدار رأسه نحو امرأة كبيرة عابسةِ المحيّا تحمل سنّادة ورق، ووراءها تمامًا -*ماذا بحقّ الجحيم؟* - إليزابيث زوت.

«مرحبًا، د. دوناتي»، قالت آفري، مادّةً يدها ما إن هوى بيده: «من اللّطيف أن يرتبط الاسم بوجهٍ أخيرًا».

«أنا آسف، لكن حضرتكِ...؟»، قال بتعالٍ، محاولًا أن يتجنّب النّظر إلى زوت كما يتجنّب المرء كسوفًا شمسيًّا.

«أنا آفري باركر»، أجابت تسحب يدها، ثمّ أضافت حين ظلّت الحيرة بادية عليه: «باركر، كما في مؤسّسة *باركر*».

انفرجت شفتاه من الخوف.

«يؤسفني أن أعلم أنّنا قاطعنا إجازتك، د. دوناتي»، قالت آفري: «لكن الخبر الجيّد أنّك على وشك أن تحظى بالكثير من وقت الفراغ».

هزّ دوناتي رأسه ناظرًا إليها، ثمّ تحوّل إلى ويلسون من جديد: «كما قلت، لو أعلم أنّك قادم...»

«لكنّنا لم نُرد أن تعلم أنّنا قادمان»، شرح ويلسون بدماثة: «أردنا أن نفاجئك. أو كلّا، تقنيًّا، أظنّ أنّ الأمر أقرب إلى المباغتة».

«عفـ... عفوًا؟»

«مباغتة»، كرّر ويلسون: «تفهم قصدي. مثلما باغتّنا باختلاسك تمويل مؤسّسة باركر. أو مثلما باغتَّ الآنسة زوت -أم ينبغي أن أقول *السّيّد* زوت؟- حين سرقتَ عملها».

في الطّرف الآخر من الغرفة، رفعت إليزابيث حاجبيها متفاجئة.

«انظر *إليّ*»، قال دوناتي شاهرًا إصبعه نحو زوت: «لا أدري ماذا أخبرتك هذه المرأة، لكن بوسعي أن أؤكّد لك...»، توقّف في منتصف الجملة، «ولماذا*أنتِ* هنا بحقّ الجحيم؟»، سأل بانفعال يشير إلى فراسك، «بعد تلك الأكاذيب السّخيفة الّتي كتبتِها في رسالتك الوقحة إلى مجلّة *لايف*؟ محاميَّ يريد أن يقاضيك». التفت إلى ويلسون: «أنت على الأغلب لا تدرك هذا، يا ويلسون، لكنّنا فصلنا فراسك قبل سنوات. إنّها تشحذ خنجرها لتطعننا».

«صحيح»، وافق ويلسون: «وخنجرها حادٌّ بحقّ».

«بالضّبط»، قال دوناتي.

«أعلم»، قال ويلسون: «لأنّني محاميها».

جحظت عينا دوناتي.

«دوناتي»، قالت آفري باركر وهي تنقّب في حقيبة ثمّ تسحب منها ورقة: «أكره أن أكون فظّة، لكنّنا لا نملك وقتًا. كلّ ما نحتاج إليه هو إمضاء سريع ثمّ تكون لك حرّيّة الانصراف». مدّت إليه وثيقة معنونة بثلاث كلمات بسيطة: *إخطار بانتهاء الخدمة*.

أطرق دوناتي، عاجزًا عن الكلام، يحدّق في الوثيقة فيما راح ويلسون يشرح أنّ مؤسّسة باركر وضعت يدها مؤخّرًا على معظم الأسهم في هاستينغز. رسالة فراسك المنشورة في مجلّة *لايف*، كما قال ويلسون، هي ما حثّهم على إلقاء نظرة عن كثب... كذا وكذا وكذا... مخالفات للواجب الرّسميّ... كذا وكذا وكذا... قرّروا تولّي أمور

المؤسّسة - بالكاد استطاع دوناتي أن يستمع. *أليس هذا مختبر كالفن إيفانز القديم؟* من مكانٍ ناءٍ، سمع ويلسون يُطنب في حديثه عن «إدارة رديئة» و«نتائج اختبارات مزوّرة» و«سرقة فكريّة». ربّاه، كم يحتاج إلى كأس.

«سوف نجري بعض التّغييرات»، قالت فراسك.

«ماذا تقصدين بـ*«نجري»*؟»، ردّ دوناتي بانفعال.

«سوف *أجري* بعض التّغييرات»، قالت فراسك.

«أنت *سكرتيرة*»، زفر دوناتي، كأنّه سئم من هذه التّمثيليّة العابثة: «مفصولة، تتذكّرين؟»

«فراسك هي رئيسة شؤون الموظّفين الجديدة لدينا»، أخبره ويلسون: «طلبنا منها أن تجد مديرًا جديدًا لقسم الكيمياء».

«لكنّني *أنا* رئيس قسم الكيمياء»، ذكّره دوناتي.

«لقد قرّرنا منح المنصب لشخص آخر»، قالت آفري باركر، ثمّ أومأت إلى إليزابيث.

من المفاجأة، تراجعت إليزابيث خطوة إلى الخلف.

«كلام *مرفوض!*»، دوّى صوت دوناتي.

«لم أكن آخذ رأيك»، قالت آفري باركر، وإخطار انتهاء الخدمة يتدلّى من يدها: «لكن إن أردتَ، بوسعنا أن نترك أمر حالتك الوظيفيّة لشخص على دراية حقّة بعملك». للمرّة الثّانية، أمالت رأسها نحو إليزابيث.

التفتت الأعين كلّها إلى إليزابيث، لكن لم يبدُ أنّها انتبهت؛ كانت مأخوذة بدوناتي الّذي يبقبق رشًّا ودراكًا. واضعةً يديها على خصرها، انحنت إلى الأمام قليلًا، وتضيّقت عيناها كأنّها تحدّق في مجهر. ساد صمتٌ بمقدار سكتتين موسيقيّتين، ثمّ أرجعت ظهرها كأنّها رأت ما يكفي.

«آسفة يا دوناتي»، قالت تناوله قلمًا: «الأمر وما فيه أنّك لست ذكيًّا بما يكفي».

الفصل 43

t.me/soramnqraa

جَهيض

«قلّة قليلة هم من يفاجئونني يا سيّدة باركر»، قالت إليزابيث وهي تشاهد فراسك ترافق دوناتي إلى الخارج: «لكنّكِ فاجأتني».

أومأت آفري باركر برأسها. «جيّد. العرض جدّيّ، ونتمنّى أن تقبلي. وبالمناسبة، اسمي هو الآنسة باركر؛ لست متزوّجة. في الواقع»، أضافت: «أنا لم أتزوّج قطّ».

«ولا أنا»، قالت إليزابيث.

«أجل»، قالت آفري باركر وقد انخفض صوتها بمقدار أوكتاف: «عندي علم».

انتبهت إليزابيث إلى التّغيّر في الجَرْس فشعرت بالسّخط يخزها فورًا. بفضل مجلّة لايف، بات العالم بأسره يعرف أنّ مادلين وُلدت خارج إطار الزّوجيّة، ولهذا السّبب كانت تسمع هذه النّبرة طيلة الوقت.

«لستُ متأكّدًا من مدى اطّلاعك على مؤسّسة باركر»، بدأ ويلسون كلامه وهو يتجوّل في أنحاء المختبر، متوقّفًا لحظةً ليقرأ الوصف المكتوب على حافظة ملفّات.

«أعلم أنّ نشاطكم يتركّز على البحث العلميّ»، قالت إليزابيث ملتفتةً إليه: «لكنّكم في الأساس كنتم منصرفين إلى المؤسّسات الخيريّة الكاثوليكيّة. كنائس، جوقات، دور أيتام...». سكتت فجأة، إذ تركَتها عبارتُها الأخيرة في حالة حادّة من الإدراك. نظرت إلى ويلسون بتمعّنٍ أكبر.

«أجل، لقد كرّس مؤسّسونا أنفسهم للقضايا الكاثوليكيّة؛ مع ذلك، مهمّتنا علمانيّة تمامًا. ما نفعله هو محاولة إيجاد أفضل الأشخاص العاملين على أهمّ قضايا يومنا الحاسمة»، وضع حافظة الملفّات جانبًا بطريقة توضّح أنّها لا تخصّ شخصًا تنطبق عليه هذه المواصفات بالمرّة: «قبل سبع سنوات، حين قمنا بتمويلك، كنت تفعلين هذا بالضّبط - النّشوء اللّاحيويّ. سواءً أكنتِ تعلمين أم لا، آنسة زوت، أنت سبب مجيئنا إلى هاستينغز في الأساس. أنت وكالفن إيفانز».

لدى ذكر اسم كالفن، أحسّت بتضيّقٍ في صدرها.

«غريبٌ موضوع إيفانز، أليس كذلك؟»، قال ويلسون: «لا يبدو أنّ أحدًا يملك فكرة عمّا حلّ بأعماله».

ضربتها كلماتُه ذاتُ النّبرة العرَضيّة مثل زوبعة. سحبت كرسيًّا وجلست، تشاهده وهو يفتّش في أنحاء المختبر مثل عالم آثار، متفحّصًا زاوية صغيرة هنا وأخرى هناك كأنّ ذلك قد يقوده إلى شيء أكبر بكثير.

«أعلم أنّكِ وضّحتِ موقفكِ وانتهى الأمر»، تابع: «لكن خطر لي أنّك قد تهتمّين بمعرفةِ أنّنا نخطّط لتحديث الكثير من التّجهيزات»، أشار إلى رفٍّ عليه جهاز تقطير بالٍ لا يستخدمه أحد. وإذ رفع ذراعَه،

نتأ زرٌّ لامع من تحت كمّ بدلته. «مثل هذا، على سبيل المثال. يبدو أنّ هذا الشّيء لم يُلمس منذ سنوات».

غير أنّ إليزابيث لم تُبدِ ردّة فعل؛ لقد انقلبت حجرًا.

حين كان كالفن في العاشرة، كتب عن رجل طويل القامة ذي مظهر يشي بالثّراء يضع أزرار أكمام لامعة أتى إلى دار البنين بسيّارة ليموزين فارهة. بدا يعتقد أنّ الدّار مُنحت كتب علوم جديدة بفضل هذا الرّجل. لكن عوضًا عن أن يفرح بالحصول على ما يقرؤه، كان كالفن يشعر بسخط عارم. *أنا هنا رغم أنّه ينبغي بي ألّا أكون هنا*، كتب بخطٍّ متعجّل: *ولن أسامح في حياتي كلّها ذلك الرّجل، إيّاه. على الإطلاق. ما دمتُ حيًّا.*

«سيّد ويلسون»، قالت بصوت متخشّب: «تقول إنّ مؤسّستكم لا تموّل سوى المشاريع العلمانيّة. هل يتضمّن هذا التّعليم؟»

«التّعليم؟ أجل، بالطّبع»، أجاب: «نحن نقدّم الدّعم إلى عدّة جامعات...»

- كلّا، أقصد، هل سبق أن أمددتم مدرسةً ما بكتب تعليميّة...

- حدث ذلك أحيانًا، لكن...

- ماذا عن دار أيتام؟

أحجم ويلسون مبغوتًا، وسدّد عينيه إلى باركر.

في ذهنها، كانت إليزابيث ترى رسالة كالفن إلى ويكلي. ***أنا أكره أبي؛ أتمنّى لو أنّه ميت.***

«دار بنين كاثوليكيّة»، قالت موضّحة.

مجدّدًا، نظر ويلسون إلى باركر.

«في مدينة سو، آيوا».

خيّم صمتٌ كثيف، لم يقاطعه إلّا أزيز مفاجئ لمروحة شفّاط.

حدّقت إليزابيث في ويلسون، بوجهٍ لا يُظهر الودّ.

بدا الأمر واضحًا فجأة: الوظيفة الّتي يعرضانها عليها ليست إلّا مطيّة. إنّهما هنا لسبب واحد لا ثاني له: كي يضعا أيديهما على أعمال كالفن.

الصّناديق. هما يعلمان بشأنها. لعلّ فراسك أخبرتهما؛ لعلّهما خمّنا تخمينَ العارف. في كلّ الأحوال، ويلسون وباركر اشتريا هاستينغز؛ من النّاحية القانونيّة، باتت أعمال كالفن ملكهما. إنّهما يُمطرانها بالإطراءات والوعود، على أمل أن يتكفّل التّملّقُ بإخراج الصّناديق من مخبئها. لكن إن لم ينجح ذلك، تظلّ لديهما بطاقة واحدة أخيرة يلعبانها.

لدى كالفن إيفانز قريبٌ تجمعه به رابطة دم.

«ويلسون»، قالت باركر وصوتها يرتجف: «هل تسمح؟ أودّ أن أكلّم الآنسة زوت على انفراد».

«كلّا»، قالت إليزابيث بحدّة: «لديّ أسئلة؛ أريد الحقيقة...»

نظرت باركر إلى ويلسون بوجهٍ منكمش: «لا بأس يا ويلسون، سأنضمّ إليك بعد بضع دقائق».

ما إن أُغلِق الباب حتّى التفتت إليزابيث إلى آفري باركر بحدّة. «أعلم ما الّذي يحدث هنا»، قالت لها: «*أعلم* لماذا طلبتما قدومي إلى هنا اليوم».

«طلبنا قدومكِ كي نعرض عليك وظيفة»، قالت باركر: «هذا كان هدفنا الوحيد، فنحن من المعجبين القدامى بعملك».

فتّشت إليزابيث وجهَ المرأة بحثًا عن علائم خداع. «انظري»، قالت بصوت أكثر هدوءًا: «ليست لديّ مشكلة معك، بل مع ويلسون. منذ متى تعرفينه؟»

- نحن نعمل معًا منذ ما يقارب ثلاثين عامًا، لذا يمكنني قول إنّني أعرفه جيّدًا جدًّا.

- ألديه أبناء؟

رمقت إليزابيث بنظرة محدّدة. «لست واثقة أنّ هذا من شأنك»، قالت: «لكن كلّا».

- أنت *متأكّدة*.

- بالطّبع متأكّدة، فهو محاميَّ. المؤسّسة مؤسّستي يا آنسة زوت، لكنّه وجهُها البارز.

«وما سبب هذا؟»، ألحّت إليزابيث.

نظرت آفري باركر إليها دون أن ترمش. «يُذهلني أن تسألي. أنا ربّما أملك أصولًا ماليّةً معتبَرة، لكن مثل معظم النّساء في العالم، يداي مربوطتان. لا أستطيع حتّى أن أكتب شيكًا ما لم يكن توقيع ويلسون عليه بجانب توقيعي».

«كيف يمكن هذا؟ اسمها مؤسّسة *باركر*»، أشارت إليزابيث: «وليس مؤسّسة ويلسون».

نخرت باركر. «صحيح، مؤسّسةٌ ورثتُها بشرط أن يكون *زوجي* هو من يتّخذ جميع القرارات الماليّة. ولأنّني لم أكن متزوّجةً آنذاك، عيّن المجلسُ ويلسون وصيًّا. وكوني ما أزال غير متزوّجة، يظلّ الزّمام بيد ويلسون. أنت لست الوحيدة الّتي خضتِ معركةً خاسرة يا آنسة زوت»، قالت ناهضةً تشدّ على سترة بدلتها بقوّة: «بيد أنّني محظوظة؛ ويلسون رجل محترم».

استدارت آفري باركر تسير مبتعدة فيما كانت إليزابيث تطرح سؤالًا آخر، فتجاهلتها عوضًا عن أن تجيب. *فيمَ كانت تفكّر؟* إليزابيث زوت ليست مهتمّة بالعودة إلى هاستينغز، وبالنّظر إلى أسئلتها المحدّدة بشأن ويلسون، عدا عن كلّ الأمور الشّائكة *الأخرى*، ربّما يكون الأفضل للجميع ألّا تعود. مشتّتةً، رفعت آفري يدها ولمست دبّوس الأقحوانة الرّخيص بإصبعها. أيّ امرأة حمقاء كانت بتصرّفاتها هذه؛ تشتري هاستينغز، تأتي إلى هنا، تقابل زوت. أجل، لطالما فتنتها زوت وبحوثها - هي نفسها كانت تحلم ذات زمان أن تصبح عالمة. لكنّها، عوضًا عن ذلك، رُبّيت كي تكون شيئًا واحدًا

فقط لا غير: مهذّبة. ولسوء الحظّ، وفقًا لوالديها وللكنيسة الكاثوليكيّة معًا، فقد أخفقت في ذلك أيضًا.

«آنسة *باركر*...»، ألحّت إليزابيث.

«آنسة *زوت*»، ردّت آفري بالنّبرة المشدّدة نفسها: «لقد ارتكبتُ خطأً. أنت لا تريدين أن ترجعي إلى هاستينغز؛ لا بأس. لن أتوسّل إليك».

أخذت إليزابيث شهيقًا قصيرًا.

«أمضيتُ حياتي كلّها وأنا أتوسّل»، تابعت باركر: «ولقد سئمت».

ردّت إليزابيث خصلةً فالتةً عن وجهها. «لستُ أنا الشّخص الّذي تريدينه أصلًا»، قالت بانفعال: «أليس صحيحًا؟ لم تأتي إلى هنا إلّا من أجل الصّناديق».

أمالت آفري رأسها كأنّها غير واثقة من صحّة ما سمعته: «صناديق؟»

– أنا أتفهّم. أنتِ اشتريتِ هاستينغز، فباتت الصّناديق ملكك. لكن هذه التّمثيليّة...

– *أيّة تمثيليّة*؟

–... أريد أن أعرف قصّة دار جميع القدّيسين، وأظنّ أنّ لي الحقّ في ذلك.

«المعذرة؟»، قالت باركر: «لك الحقّ؟ دعيني أخبرك سرًّا صغيرًا بشأن الحقوق: إنّها ليست موجودة».

«بلى، موجودة للأثرياء يا آنسة باركر»، أصرّت إليزابيث: «أخبريني عن ويلسون. عن ويلسون وكالفن».

حدّقت آفري باركر بارتباك واضح. «ويلسون وكالفن؟ لا، لا...»

«مجدّدًا، أظنّ أنّ لي الحقّ أن أعرف».

ضغطت آفري بيديها على المنضدة. «لم أكن أخطّط أن أفعل هذا اليوم».

«أن تفعلي ماذا؟»

«كنت أريد أن أتعرّف عليكِ جيّدًا أوّلًا»، تابعت آفري: «أظنّ أنّ هذا من حقّي؛ أن أعرف من تكونين».

عقدت إليزابيث ذراعيها: *«المعذرة؟»*

مدّت آفري يدها إلى ممحاة الطّبشور. «انظري. علـ.. عليّ أن أحكي لك قصّة».

«لستُ مهتمّة بالقصص».

«إنّها تخصّ فتاةً في السّابعة عشرة من عمرها»، قالت آفري باركر لا تحيد عن غايتها: «وقعَت في غرام رجل شابّ. قصّة لا تخرج عن المألوف»، أردفت بمرارة، «تحبل فيها الفتاة فيشعر والداها البارزان في المجتمع بالخزي من انحلالها ويرسلانها إلى دار كاثوليكيّة للأمّهات غير المتزوّجات»، أدارت ظهرها إلى إليزابيث، «لعلّك سمعتِ بهذه الدُّور يا آنسة زوت. إنّها تخضع لإدارة مثل إدارة السّجون، وهي

مليئة بنساء شابّات وقعنَ في الورطة نفسها. يأخذون أطفالهنّ، ثمّ يتركونهنّ. كان ثمّة استمارة رسميّة ينبغي توقيعها، ومعظمهنّ يوقّعن. أمّا اللّاتي يرفضن فيتعرّضن للتّهديد: سيتوجّب عليهنّ تحمّل الولادة بمفردهنّ، ويمكن أن ينتهي الأمر بوفاتهنّ. ورغم التّحذير، ظلّت فتاة السّابعة عشرة ترفض التّوقيع، وتصرّ أنّ لها *حقوقًا*»، سكتت باركر، تهزّ رأسها كأنّها ما زالت لا تصدّق مقدار السّذاجة.

«ولم يكذّبوا خبرًا. حين دخلت في المخاض، وضعوها داخل غرفة بمفردها وأقفلوا الباب. ظلّت هناك، وحدها، تصرخ ملءَ صوتها من الألم، طيلة يوم كامل. وفي مرحلة ما، اغتاظ الطّبيب من الضّجّة، فقرّر أخيرًا أنّه اكتفى. دخل إلى الغرفة وخدّرها. حين أفاقت بعد ساعات، بُلِّغَت الخبرَ المروّع: لقد وضعت طفلَها جهيضًا. تحت تأثر الصّدمة، طلبت أن ترى الجثّة، لكنّ الطّبيب قال إنّهم تخلّصوا منها.

«ثمّ تمرّ عشر سنوات»، تابعت آفري باركر، مستديرةً لتواجه إليزابيث وفكّها متقبّض: «تتّصل ممرّضةٌ من دار الأمّهات تلك بالمرأة الّتي صارت في السّابعة والعشرين من عمرها. تريد مالًا مقابل الحقيقة. تخبرها أنّ الطّفل لم يمت، بل عُرض للتّبنّي مثل جميع الأطفال هناك. الشّيء الوحيد غير المعتاد: لقد مات والدا الطّفل بالتّبنّي في حادثة مأساويّة، ثمّ ماتت عمّته، وأُرسِلَ إلى مكان يدعى جميع القدّيسين في آيوا».

جمدت إليزابيث على وضعها.

«ومنذ ذلك اليوم»، قالت آفري باركر وقد تشرّب صوتُها بالحزن: «بدأت المرأة الشّابّة مسعاها لإيجاد ابنها»، سكتت قليلًا، «ابني».

تراجعت إليزابيث متفاجئة، وقد امتقع وجهها حتّى خلا من كلّ لون.

«أنا والدة كالفن إيفانز البيولوجيّة»، قالت آفري باركر على مهل، والدّمع يملأ عينيها الرّماديّتين: «وإن أذنتِ لي يا آنسة زوت، أودّ بشدّة أن ألتقي بحفيدتي».

الفصل 44

ثمرةُ البلّوط

بدا كأنّ الهواء كلّه سُحب من الغرفة. راحت إليزابيث تحدّق في آفري باركر، لا تدري ماذا تفعل الآن. لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا؛ كالفن نفسه كتب في يوميّاته أنّ أمّه البيولوجيّة ماتت أثناء الولادة.

«آنسة باركر»، قالت إليزابيث بحذر، كأنّها تنتقي خطواتها على أرض مليئة بالجمر: «لقد حاول أناس كثرٌ أن يستغلّوا كالفن على مرّ السّنين، حتّى أنّ الكثير منهم ادّعوا أنّهم أقرباء انقطعت صلتهم به منذ زمن طويل. قصّتك...»، توقّفت. عادت بها أفكارها إلى كلّ تلك الرّسائل الّتي احتفظ كالفن بها. «الأمّ الحزينة»... لقد كتبت إليه مرّات عديدة. «إن كنت تعلمين أنّه في دار البنين تلك، لماذا لم تذهبي لاسترجاعه؟»

«فعلت»، قالت آفري باركر: «أو بالأحرى، أرسلت ويلسون. أخجل أن أعترف أنّني لم أمتلك الشّجاعة الكافية كي أذهب بنفسي»، نهضت وسارت إلى طرف المنضدة المقابل. «يجب أن تفهمي، كنت قد سلّمتُ منذ وقت طويل أنّ ابني ميت، ثمّ أعلم على حين غرّة أنّه حيّ؟ خشيت أن أرفع سقف آمالي. فكما هي حال كالفن، أنا أيضًا كنت هدفًا لعدد لا يحصى من محاولات الخداع، بما في ذلك عشرات

من الأشخاص الّذين ادّعوا أنّهم أقربائي. لذلك أرسلت ويلسون»، كرّرت مُطرقةً تنظر إلى الأرض كأنّها تراجع هذا القرار للمرّة الخمسين. «أرسلته إلى دار جميع القدّيسين في اليوم التّالي مباشرةً».

بدأت مضخّة التّفريغ دورةً جديدة، ومعها امتلأ المختبر بهسهسة مسموعة.

«ثمّ...»، حثّتها إليزابيث.

«ثمّ»، قالت آفري: «أخبر الأسقفُ ويلسون أنّ كالفن...»، تلكّأت.

«أنّ كالفن ماذا؟»، سألتها إليزابيث بإلحاح: *«ماذا؟»*

ترهّل وجه المرأة الكبيرة: «مات».

اعتدلت إليزابيث في جلستها مبهوتة. كانت الدّار بحاجة إلى المال، رأى الأسقف فرصة، أقيم صندوق تذكاريّ. راحت الحقائق تتدفّق من المرأة في سيلٍ فاترٍ لا حياة فيه.

«هل سبق وفقدتِ فردًا من عائلتك؟»، سألتها آفري فجأةً بنبرة باهتة.

- أخي.

- مرض؟

- انتحار.

«يا إلهي»، قالت: «إذًا فأنت تعرفين ماذا يعني أن تشعري بالمسؤوليّة عن موت شخص ما».

انقبضت إليزابيث. لقد جاءت الكلمات على المقاس تمامًا، مثل رباط حذاء عُقِد مرّتين. «لكنّكِ لم تقتلي كالفن»، قالت بقلبٍ مُثقَل بالقنوط.

«لا»، أجابت باركر بصوت أسقمته الحسرة: «فعلتُ شيئًا أسوأ بكثير. لقد دفنته».

من الطّرف الشّماليّ للغرفة، جاءت رنّةُ مؤقّت، فذهبت إليزابيث لتطفئه وهي ترجف. استدارت تمعن النّظر في المرأة الواقفة عند لوح الطّبشور. انحنت إلى اليمين. نهض ستّة ونصف وذهب إلى آفري، وضغط برأسه على فخذها. *أعرف شعور أن نخذل شخصًا نحبّه.*

«لفترة طويلة، قدّم والداي التّمويل إلى دور الأمّهات غير المتزوّجات والمياتم»، تابعت آفري، تعبث بالممحاة: «كانا يظنّان أنّ هذا يجعلهما شخصين صالحين. ومع ذلك، بفضل ولائهما الأعمى للكنيسة الكاثوليكيّة، نجحا في جعل ابني يتيمًا»، سكتت قليلًا، «أنا موّلتُ صندوق ابني التّذكاريّ قبل أن يموت يا آنسة زوت»، أردفت بأنفاس ضحلة، «لقد دفنتُه مرّتين».

أحسّت إليزابيث بموجة غثيان مفاجئة.

«بعد عودة ويلسون من دار البنين»، تابعت آفري: «غرقتُ في اكتئاب عميق. لم تتسنَّ لي فرصة كي أرى فلذة كبدي، لم أحضنه، لم أسمع صوته يومًا. بل أسوأ، تعيّن عليّ أن أحيا وأنا أعرف أنّه عانى. لقد فقدني أنا، ثمّ فقد والديه، ثمّ انتهى به المطاف في مكبّ القمامة ذاك

الّذي يدعى دار بنين. كلّ واحدة من تلك الخسارات وُقّعت وخُتمت ونُفِّذت باسم الكنيسة»، سكتت على حين غرّة وأخذ وجهها يحمرّ. «**أنت لا تؤمنين بالله لأسباب علميّة يا آنسة زوت؟**»، انفجرت فجأة: «**طيّب، أنا لا أؤمن بالله لأسباب *شخصيّة***».

حاولت إليزابيث أن تتكلّم، لكن لم تستطع أن تنطق بشيء.

«القرار *الوحيد* الّذي تمكّنتُ من اتّخاذه»، قالت آفري باركر تحاول أن تستعيد السّيطرة على صوتها: «هو أن أحرص على أن يذهب كلّ تمويل الصّندوق إلى المناهج العلميّة. بيولوجيا، كيمياء، فيزياء. والرّياضة أيضًا. والد كالفن -أقصد والده البيولوجيّ- كان رياضيًّا. مجدّفًا. لهذا تعلّم الفتيان في دار جميع القدّيسين التّجديف؛ كانت تلك بادرة لتكريم ذكراه».

رأت إليزابيث نفسها مع كالفن. كانا في القارب الزّوجيّ، وشمس الصّباح الباكر تضيء وجهه. كان يبتسم؛ يدٌ على المجداف، والأخرى تمتدّ إليها. «هكذا استطاع أن يلتحق بكامبريدج»، قالت والرّؤيا تتلاشى شيئًا فشيئًا: «بمنحة تجديف».

أسقطت آفري المحاة من يدها: «لم تكن لديّ فكرة».

راحت التّفاصيل تملأ فراغات الصّورة على مهل، لكن هناك شيء ظلّ يعتمل في نفس إليزابيث.

«لكن... لكن كيف اكتشفتِ في النّهاية أنّ كالفن...»

«مجلّة *الكيمياء اليوم*»، قالت باركر، منسلّةً إلى الكرسيّ المجاور لإليزابيث: «العدد الّذي ظهر كالفن على غلافه. ما زلت أتذكّر ذلك اليوم؛ داهم ويلسون مكتبي يلوّح بالمجلّة في الهواء. «لن تصدّقي هذا»، قال. التقطتُ سمّاعة الهاتف على الفور واتّصلت بالأسقف. وبطبيعة الحال، أصرّ أنّ الأمر محض مصادفة. قال إنّه اسم شائع جدًّا. عرفتُ أنّه يكذب ووضعت في نيّتي أن أقاضيه، إلى أن أقنعني ويلسون أنّ خروج الموضوع إلى الملأ لن يكون ذا أثر هدّام على المؤسّسة وحسب، بل أيضًا سيُحرج كالفن». اعتدلت في جلستها وأخذت نفسًا عميقًا قبل أن تتابع. «أوقفتُ التّمويل فورًا، ثمّ كتبتُ إلى كالفن... عدّة مرّات. شرحتُ الأمور بأفضل ما استطعت، وطلبتُ أن أقابله، وأخبرته أنّني أريد تمويل أبحاثه. بوسعي أن أتخيّل ما قاله لنفسه»، قالت بإحباط: «سيّدةٌ ما تكتب إليه دون سابق إنذار وتدّعي أنّها أمّه. أو لعلّني أقول هذا لأنّني لم أتلقَّ ردًّا منه قطّ».

همّت إليزابيث بالكلام، فتراءت لها رسائل «الأمّ الحزينة» من جديد، وراح التّوقيع الّذي يُذيّل كلًّا منها يضيء بوضوح مفاجئٍ قاسٍ. *آفري باركر*.

«لكن لا شكّ لو أنّكِ رتّبتِ للقاء، وأتيتِ إلى كاليفورنيا...»

اتّخذ وجهُ آفري لونَ الرّماد. «انظري. من الممكن أن تلاحقي طفلًا بهمّة وحماسة، لكنّ الأمور تتغيّر ما إن يبلغ هذا الطّفل رشده. لقد قرّرتُ أن أتصرّف برويّة، وأمنحه الوقت كي يتقبّل إمكانيّة صدقي، فيستعلم عن مؤسّستي ويدرك أنّني لا أملك سببًا لتضليله. كنتُ أعلم أنّ هذا قد يستغرق سنوات، وأرغمتُ نفسي على التّحلّي

بالصّبر. لكن...»، قالت: «بالنّظر إلى ما حدث...»، ثبّتت تحديقتها على كدسة من الدّفاتر: «من الواضح أنّني... صبرتُ أكثر من اللّازم».

«آه، يا إلهي»، قالت إليزابيث ودفنت رأسها بين يديها.

«مع ذلك»، أكملت باركر كلامها بنبرة رتيبة: «ظللتُ أتابع مسيرته. قلت لنفسي ربّما تظهر فرصة، تتيح لي أن أساعده بطريقة ما. لكن تبيّن أنّه ليس هو الّذي يحتاج إلى مساعدتي، بل أنتِ».

«لكن كيف علمتِ أصلًا أنّنا أنا وكالفن كنّا...»

«مرتبطين؟»، شدّت ابتسامةُ حسرةٍ زاويتَي فمها: «هذا كان الحديث الشّاغل. منذ وطئت قدمُ ويلسون أرض هاستينغز، لم يسمع سوى الهمز واللّمز بشأن كالفن إيفانز وفضيحة علاقته. وهذا من الأسباب الّتي جعلت دوناتي، حين أخبره ويلسون أنّه جاء كي يموّل أبحاث النّشوء اللّاحيويّ، يحاول باذلًا قصارى جهده أن يوجّهه إلى موضوع آخر. كان آخر شيء يريده هو النّجاح لكالفن أو لأيّ شخص على صلة بكالفن. ثمّ هناك حقيقة أنّك أنثى؛ إذ افترض دوناتي -وله الحقّ في ذلك- أنّ معظم المتبرّعين لن يُقدموا على تمويل امرأة».

«لكن ما الّذي جعلكِ، أنت دونًا عن كلّ النّاس، تصبرين على هذا؟»

«أكاد أستحي من الاعتراف أنّ جزءًا منّي استمتع بالموقف الّذي وضعناه فيه. لقد بذل جهودًا جبّارةً كي يُقنع ويلسون أنّكِ رجل. لكنّ ويلسون كان بالفعل يخطّط لمقابلتك دون علم دوناتي، حتّى أنّه في الواقع حجز تذكرة في الطّائرة. لكن بعد ذلك...»، ذوى صوتُها.

«ماذا؟»

«بعد ذلك مات كالفن»، قالت: «وبدا أنّ عملك مات معه».

بدت إليزابيث كمن تلقّى صفعة على وجهه: «آنسة باركر، أنا *فُصلت*».

تنهّدت آفري باركر: «علمتُ بهذا الآن، بفضل الآنسة فراسك. لكن آنذاك ظننتُ أنّكِ ربّما كنتِ تحاولين تخطّي ما حدث. أنتِ وكالفن لم تتزوّجا؛ ظننتُ أنّ المشاعر بينك وبين ابني لم تكن متبادلة. الجميع قالوا إنّه كان رجلًا صعب المراس، وإنّه اشتهر بحمل الضّغائن. كما هو واضح، لم تكن لديّ فكرةٌ أنّك حبلى. لقد اقتبست صحيفة *لوس أنجلس تايمز* في نعيها قولَك إنّك بالكاد كنت تعرفينه»، سحبت نفسًا عميقًا، «بالمناسبة، أنا كنت موجودة. في جنازته».

اتّسعت عينا إليزابيث.

«وقفتُ أنا وويلسون على مسافة بضعة قبور. جئتُ كي أدفنه للمرّة الأخيرة، وكي أكلّمك. لكن قبل أن أتمكّن من استجماع شجاعتي، كنتِ قد غادرت. حتّى أنّكِ ذهبتِ قبل انتهاء المراسم»، ألقت رأسها بين يديها، وراحت دموعها تتدفّق: «رغم رغبتي الشّديدة في تصديق أنّ هناك من أحبّ ابني...»

بهذه الكلمات، تداعت إليزابيث تحت حمل سوء التّفاهم الّذي أثقل كاهلها. «أنا أحببتُ ابنك حقًّا يا آنسة باركر!»، صاحت: «من كلّ قلبي. وما زلت أحبّه». رفعت رأسها تنظر في أنحاء المختبر الّذي شهد لقاءهما الأوّل، واللّوعةُ تُعبِّدُ تضاريسَ وجهها. «كالفن إيفانز

كان أفضل شيء حدث لي في حياتي»، قالت بصوت مخنوق: «كان أكثر الرّجال ألمعيّةً ومحبّة؛ أكثرهم حنانًا، أكثرهم إثارةً للاهتمام...»، توقّفت. «لا أعرف طريقةً أخرى لشرح الأمر»، أردفت: «سوى أن أقول: كانت بيننا كيمياء. كيمياء حقيقيّة. والأمر لم يكن مجرّد حادث».

ولعلّ ذلك بسبب استخدامها لكلمة «حادث» أخيرًا، لكنّ الحملَ الفادح لخسارتها استبدّ بها فاتّكأت برأسها على كتف آفري باركر وراحت تنتحب كما لم تفعل يومًا.

الفصل 45

العشاء عند السّادسة

بدا أنّ الوقت توقّف داخل المختبر. رفع ستّة ونصف رأسه يشاهد المرأتين؛ ذراعا المرأة الكبيرة تطوّقان إليزابيث مثل شرنقة تحميها ممّا حولها، والفقدان الّذيَ تشعر به إليزابيث يبدو شيئًا تعرفه هي عن ظهر قلب. رغم أنّه لن يصبح عالم كيمياء يومًا، فهو كلب. وبصفته كلبًا، كان يعرف الرّوابط الدّائمة حين يراها.

«لقد أمضيتُ أغلبَ عمري وأنا لا أعرف ماذا حلّ بابني»، قالت باركر وهي تضمّ إليزابيث المرتعدة إليها: «لا فكرة لديّ كيف كانت العائلة الّتي تبنّته، ولا إذا ما كانت قصّة الأسقف كاذبة بأكملها أم لا تخلو من حقيقة. لا أعرف حتّى ما الّذي جاء به إلى هاستينغز. والحقيقة أنّني ما زلت لا أعرف إلّا القليل. أو هذا ما كان إلى أن تفقّدتُ صندوق بريد المؤسّسة فعثرت على شيء غير مألوف مدفونًا تحت البريد المهمَل المتراكم على مدى شهور».

مدّت يدها داخل حقيبتها وأخرجت رسالة.

ميّزت إليزابيث الخطّ على الفور. مادلين.

«لقد كتبت ابنتُكِ إلى ويلسون وذكرت مشروع شجرة العائلة خاصّتها - ذاك الّذي ظهر في مجلّة *لايف*. أصرَّت أنّ والدها نشأ في دار بنين في مدينة سو، وكانت تعلم بطريقة ما أنّ ويلسون أمدّ تلك

الدّار بالتّمويل. أرادت أن تشكره شخصيًّا، وتخبره أنّها أوردت مؤسّسة باركر في شجرة عائلتها. خطر لي أن تكون واحدةً من رسائل النّصب المعتادة، لكنّ التّفاصيل الّتي ذكرَتها كانت كثيرة. إجراءات التّبنّي تُحاط عادةً بالكثير من السّرّيّة يا آنسة زوت، ويا لها من عادةٍ بلا رحمة، لكن بفضل معلومات مادلين، استطاع محقّق خاصٌّ أخيرًا أن يستطلع الحقيقة. كلّ شيء في حوزتي هنا»، مدّت يدها داخل الحقيبة من جديد وأخرجت حافظة ملفّات كبيرة. «انظري إلى هذا»، قالت باركر بنبرة متمرّدة وهي تعرض شهادة وفاتها المزوّرة، الّتي كانت ثمنًا لعدم تعاونها في دار الأمّهات غير المتزوّجات: «هكذا بدأ كلّ شيء».

أخذت إليزابيث الشّهادةَ بيديها. مادلين قالت ذات مرّة إنّ ويكلي يرى أنّ ثمّة أشياء ينبغي أن تظلّ حبيسةً في الماضي، إذ لا يكون لها معنًى إلّا في الماضي. وإليزابيث وجدت في ذلك حكمة، كما هي الحال غالبًا مع الأشياء الّتي يقولها ويكلي. لكن ما يزال هنالك سؤال واحد تشعر أنّ كالفن كان ليريدها أن تطرحه.

«آنسة باركر»، قالت إليزابيث بأناة: «ما الّذي حلّ بوالد كالفن البيولوجيّ؟»

فتحت آفري باركر حافظة الملفّات من جديد، وناولتها شهادة وفاة أخرى - بيد أنّ هذه كانت حقيقيّة. «لقد مات بالسّلّ»، قالت: «قبل حتّى أن يولد كالفن. لديّ صورة»، فتحت محفظةَ نقودها وأخرجت صورةً بالية.

«لكنّه...»، شهقت إليزابيث وهي تمعن النّظر في الشّابّ الواقف بجانب آفري الفتيّة.

«يشبه كالفن تمامًا؟ أعرف». سحبت نسخةً من مجلّة *الكيمياء اليوم* القديمة ووضعتها بجانب الصّورة، فجلست المرأتان جنبًا إلى جنب فيما ينظر كالفن وأبوه الأصغر سنًّا منه إليهما كلٌّ من تاريخه.

«كيف كان؟»

«جامحًا»، قالت آفري: «كان موسيقيًّا، أو أراد أن يكون. التقينا عن طريق حادث، إذ صدمني بدرّاجته».

«وهل تأذّيتِ؟»

«أجل»، قالت: «لحسن الحظّ. لأنّه حملني ووضعني على المقود وقال لي أن أتشبّث، ثمّ انطلق بي إلى طبيب. وبعد عشر قُطَب»، أضافت تشير إلى ندبة قديمة على ساعدها، «وقعنا في الغرام. أعطاني هذا الدّبّوس»، أشارت إلى الأقحوانة المائلة على طيّة سترتها، «ما زلت أضعه كلّ يوم». نقّلت عينيها في أنحاء المختبر: «آسفة لأنّني طلبتُ أن نلتقي هنا؛ أدركتُ متأخّرةً أنّ هذا ربّما سبّب لكِ بعض الألم. أعتذر. الأمر أنّني أردتُ أن أكون في الغرفة الّتي...»، سكتت.

«أتفهّم هذا»، قالت إليزابيث: «أتفهّم حقًّا. ويسرّني أن نكون هنا معًا. هنا التقيتُ بكالفن لأوّل مرّة. هناك تمامًا»، أشارت بيدها، «كنت بحاجة إلى دوارق، فسرقتُ دوارقه».

«هذا ينمّ عن سعة الحيلة»، قالت آفري: «هل كان حبًّا من النّظرة الأولى؟»

«ليس بالضّبط»، أجابت إليزابيث، تتذكّر كيف طلب كالفن أن تخبر رئيسها أن يتّصل به: «لكنّنا نحن أيضًا حظينا بحادثنا السّعيد في نهاية المطاف. سأحدّثك عن ذلك في وقتٍ ما».

«سوف يسعدني أن أسمع»، قالت: «أتمنّى لو تسنّى لي أن أعرفه. لعلّني سأستطيع ذلك عن طريقك». سحبت نفسًا راجفًا، ثمّ تنحنحت. «أودّ من كلّ قلبي أن أكون جزءًا من عائلتك يا آنسة زوت»، قالت: «وآمل ألّا يكون هذا وقاحةً بالغة».

«أرجوكِ، ناديني إليزابيث. وأنتِ بالفعل من العائلة يا آفري؛ مادلين فهمت هذا منذ وقت طويل. ليس ويلسون من وضعته على شجرة العائلة، بل أنت».

- لستُ واثقة أنّني أفهم قصدك.

- أنتِ ثمرة البلّوط.

حدّقت عينا آفري الرّماديّتان الدّامعتان إلى نقطة نائية من الغرفة. «بلّوطة العرّابة الجنّيّة»، قالت لنفسها: *«أنا»*.

سمعتا وقعَ أقدام في الخارج، ثمّ طرقًا سريعًا على الباب. فُتح باب المختبر ودخل ويلسون من جديد. «أعتذر عن تطفّلي»، قال بحرص: «لكنّني أردتُ التّأكّد من أنّ كلّ شيء...»

«كلّ شيء على ما يرام»، قالت آفري باركر: «أخيرًا».

«حمدًا لله»، قال واضعًا يده على صدره: «في هذه الحالة، رغم أنّني لا أودّ فتح سيرة العمل، ثمّة الكثير ممّا يحتاج إلى الاعتناء به يا آفري، قبل أن نغادر غدًا».

«سأوافيكَ على الفور».

«ستغادرين بهذه السّرعة؟»، سألتها إليزابيث متفاجئةً ما إن أغلق ويلسون الباب خلفه.

«أخشى أنّني مضطرّة»، قالت آفري: «فكما ذكرتُ سابقًا، لم أكن أخطّط حقًّا لإخباركِ بأيٍّ من هذا... ليس قبل أن تتسنّى لنا الفرصة للتّعرّف على بعضنا». ثمّ أضافت بنبرة مفعمة بالأمل: «لكنّنا سنرجع قريبًا، أعدك».

«لنقل إذًا إنّنا سنتناول العشاء عند السّادسة»، قالت إليزابيث، لا تريدها أن تذهب: «في المختبر المنزليّ. جميعنا: أنتِ، ويلسون، ماد، ستّة ونصف، أنا، هارييت، والتر. ولا بدّ أن تقابلي ويكلي وماسون في وقتٍ ما أيضًا. العائلة بأكملها».

أشرق وجهُ آفري باركر بابتسامةٍ كالفن المألوفة فجأة، والتفتت تأخذ يدَي إليزابيث بين يديها. «العائلة بأكملها»، قالت.

لدى انغلاق الباب خلفهما، انحنت إليزابيث وحضنت رأس ستّة ونصف بين يديها: «قل لي، متى عرفتَ بالضّبط؟»

في الثّانية وإحدى وأربعين دقيقة، أراد أن يقول: *وهذا هو الاسم الّذي أنوي منحها إيّاه.*

لكن عوضًا عن ذلك، استدار وقفز على المنضدة المقابلة، والتقط دفترًا جديدًا. سحبَت قلمَ الرّصاص من شعرها، وأخذت الدّفتر منه، ثمّ فتحت على الصّفحة الأولى.

«النّشوء اللّاحيويّ»، قالت: «هيّا بنا نبدأ».

شكر وعرفان

الكتابة مجهود فرديّ، لكن يلزمنا جيشٌ كي نوصل كتابًا إلى الرّفوف، وأنا أودّ أن أشكر جيشي:

من زيورخ، أصدقائي الّذين قرؤوا الفصول الأولى: مورغان غيلاردي، سي إس وايلد، شيريدا ديبروز، سارا نيكرسون، ميريديث ويدلي-سوتر، أليسون بيلي، وجون كوليت.

أصدقاء الكتابة على الإنترنت في وكالة كورتيس براون: تريسي ستيوارت، آنا ماري بول، موراغ هاستي، آل رايت، ديبي ريتشاردسون، سارا لوثيان، دينيس تيرنر، جين لورنس، إريكا رونسلي، غاريت سيمث، وديبورا غاسكينغ.

زملائي الموهوبين الّذين رافقوني طوال ثلاثة أشهر في دورة كورتيس براون للكتابة الرّوائيّة وأظهروا لي دعمًا منقطع النّظير: ليزي ماري كولين، كوثر ترابي، ماثيو كونينغهام، روزي أورام، إليوت سويني، ياسمينة حاتم، سيمون هاردمان ليا، مليكة براون، ميلاني ستايسي، نيل دوز، ميشيل غاريت، نيس ليونز، إيان شو، مارك سابويل، والرّائعة شارلوت ميندلسون، الّتي دفعتنا كي نكون أفضل.

آنا ديفيس من كورتيس براون على لطفها وتوجيهها؛ جاك هادلي وكيتي سمارت وجنيفر كيرسليك الّذين لا يكلّون ولا يملّون على دعمهم وتشجيعهم الدّائمين؛ ليسا باباليس، الّتي تكرّمت وقرأت افتتاحيّة روايتي ومنحتني الأمل؛ سارا هارفي وكيتي هاريسون وكويفا وايت وجودي فابري، أفضل فريق إدارة حقوق في الكون كلّه؛ روزي بيرس، الّتي تتعامل مع جميع التّفاصيل برباطة جأش؛ جنيفر جويل من وكالة آي سي إم، الصّوت الواثق المُطَمئن حين تزداد الأمور تعقيدًا؛ تيا إيكيموتو على المساعدة الكريمة؛ لوك سبيد، وكيل الحقوق في شركة سي بي للأفلام، المنهمك على الأرجح في تجربة علميّة من نوعٍ ما ليرى كم يمكن للمرء أن يبقى بلا نوم؛ وآنا ويغيلين، الّتي أَثقُ تمامًا أنّها لا تنام هي الأخرى.

في الواقع، لا أدري إن كان أحدٌ ينام في كورتيس براون أو آي سي إم.

شكرٌ إضافيٌّ هائلٌ أوجّهه إلى فيليسيتي بلانت في كورتيس براون. قبل انتقالي إلى لندن منذ بضع سنوات، كنتُ أبحث عن وكلاء فشاهدتُ مقابلةً أجرَتها فيليسيتي، وأتذكّر أنّني قلت لنفسي: *لو أمكنني أن أحظى بوكيل مثلها*... ثمّ هذا ما حدث. شكرًا يا فيليسيتي، على إيمانكِ بي، وحرصك وحماستك ولطفك وصلابتك ودعمك الّذي لا يملّ. والآن بعد أن أنجزنا الكتاب، أرجو أن تهنَئي باللّعب مع أطفالك.

أمّا على الجانب المتعلّق بالنّشر، فأودّ أن أقدّم شكرًا خاصًّا إلى كلٍّ من: جين لوسون ولي بودرو، أكثر المحرّرين الّذين يمكن لكاتبٍ

أن يتمنّاهم نباهةً؛ توماس تيبه على دعمه الحماسيّ[1]؛ بيتسي كيلي وإيميلي ماهون على الأغلفة الجذّابة؛ ماريا كاريلا على التّصميم الدّاخليّ الجميل؛ كارا رايلي على تولّي زمام الأمور دائمًا؛ وإيمي رايان على موهبتها في التّحرير الطّباعيّ. الشّكر أيضًا لناشريّ لاري فينلاي وبيل توماس؛ ووكلاء الدّعاية والإعلان الموهوبين أليسون بارو وإيلينا هيرشي ومايكل غولدسميث؛ وفريق التّسويق المذهل: فيكي بالمر ولورين ويبر وليندسي ماندل؛ وللعقول المبدعة: تود دوتي وليلي كوكس وصوفي ماكفاي وكريستين فاسلر وإرين ميرلو. شكر كبير للمنتجة المخضرمة الصّبورة الّتي لا تفوتها فائتة إلين فيلدمان، وكذلك للورين هايلاند. وأيضًا شكر كبير لتوم تشيكن، لورا ريتشيتي، إيميلي هارفي، لورا غارود، هانا سباركس، سارا آدمز، وكامل فريق المبيعات. وأخيرًا، شكر خاصّ لمادلين ماكنتوش، كلّ التقدير لتشجيعك ودعمك.

البحث في الكيمياء أمر، لكنّ تدقيقه وتصويبه أمر آخر تمامًا. لذلك، شكر خاصّ لـ د. ماري كوتو، الصّديقة القديمة وعالمة البيولوجيا المتألّقة وذوّاقة مثلّجات *إسكيمو باي* الّتي لا يُشقّ لها غبار، ولـ د. بيث موندي، ابنة سياتل، عالمة الكيمياء والقارئة المذهلة، اللّتين تكرّمتا عليّ بمراجعة التّفاصيل بحرص وإتقان.

كلّ المحبّة والامتنان لجميع زملائي في فريق التّجديف في غرين ليك وبوكوك بسياتل، وشكر خاصّ جدًّا للمجدّفة دونيا بيرنز، الّتي أصرّت ذات مرّة على فريقنا المتعَب أن «يجدّد التزامه بكلّ ضربة

(1) وردت هذه العبارة بالألمانيّة في النّصّ الأصليّ. (المترجم)

مجداف»، فاستوطن هذا التّحفيزُ عقلي ليتحوّل في النّهاية إلى نصيحةٍ تُسديها هارييت إلى إليزابيث.

للكتّاب الّذين يفهمون كم هو كفاح حقيقيّ جادّ: جوني ستانغلاند، الشّاعرة الاستثنائيّة؛ ديان أريف، أكثر شخص مضحك على وجه الأرض؛ سو مونشو على ثقتها المستمرّة؛ ولورا كازيسكي، الّتي لا تتذكّرني على الأرجح لكن كان لتشجيعها ونصائحها في الكتابة أثر كبير. وأخيرًا، شكر خاصّ جدًّا لسوزان بيسكبورن، الصّوت الدّاعم المواسي المُطَمئن في وِحشةِ الكتابة. شكرًا يا سوزان، لأنّك تعرفين دائمًا ما ينبغي أن يُقال ومتى ينبغي أن يُقال.

لبعض النّاس الّذين أتمنّى حقًّا لو كنت أستطيع مشاركة هذا معهم لكنّني لا أستطيع: والديّ، قارئيّ الأزليَّين؛ ولهيلين مارتن، أقدم أصدقائي وأعزّهم عليّ. أشتاق إليكِ، 86.

وللأشخاص الثّلاثة الّذين كانوا موجودين طوال الطّريق: صوفي، شكرًا لكِ لأنّكِ من جعلتِ المشروع يبدأ حين أرسلتِ إليّ رابط كورتيس براون ذاك في الأساس، لن أفيكِ شيئًا من حقّكِ إن قلتُ إنّني مدينة لك. كما أشكرك على دعمك المستمرّ ودعابتك ذات الوجه الجامد، وعلى تفهمّك المتعاطف لوعورة العمليّة الإبداعيّة، وعلى نفاذ بصيرتك في ما يخصّ النّشر، وعلى جاهزيّتك الدّائمة الّتي لا يُحيدها شيء لطرح السّؤال الأبديّ والإجابة عليه: بسكويت؟ أم جنّيّات؟

لِزوي، شكرًا على لطفك في الأيّام العصيبة وبهجتك في الأيّام الرّائقة، وأيضًا على قدرتك الخارقة مثل الرّجل العنكبوت في

استشعار الأخطاء الطّباعيّة، وعلى جميع صور إيلي الّتي دائمًا ما تجعلني أضحك، وعلى مجموعتك المنتقاة بعناية من الميمز والّتي تستحقّ مكانًا في متحف. رغم كلّ الالتزامات الّتي تشغلك، كنتِ دائمًا تجدين الوقت للاطمئنان والدّردشة.

ولديفيد، كلمة «شكرًا» تقف عاجزة، لذا سأكتبها بالخطّ العريض: **شكرًا**. على جاهزيّتك الدّائمة للقراءة، وعلى كونك الطّبّاخ الأمهر بيننا، وعلى إشراكي في المناظرات المستمرّة، وقبل كلّ شيء على تظاهرك أنّك لست مذعورًا حين اكتشفت أخيرًا كم أكلّم نفسي خلال اليوم. ما كنت لأتخيّل -لو عشتُ مليون عام- أنّ كلّ هذه المتعة (ناهيك بالقدرة المذهلة على العدّ التّنازليّ بمضاعفات السّبعة من الثّلاثمئة إلى ما تحت الصّفر بكثير خلال أقلّ من دقيقة) يمكن أن تأتي ضمن كائن بشريّ واحد. أحبّكَ وأُكنّ لك إعجابًا كبيرًا.

وأخيرًا، شكرًا لكلبي فرايداي الّذي رحل ولم يُنسَ، ولـ 99 الرّزين دائمًا. أعتذر عن كلّ مرّة قلت فيها لأحدكما: «دعني أكمل هذه الفقرة فقط ثمّ نذهب».

مكتبة
t.me/soramnqraa

عن الكاتبة

بوني غارموس محرّرةٌ إعلانيّة ومديرة إبداعيّة غطّت مجالًا واسعًا في عملها بين ميادين التّكنولوجيا والطّبّ والتّعليم. وهي سبّاحة مياه مفتوحة، ومجدّفة، وأمٌّ لابنتين مذهلتين جدًّا. وُلدت في كاليفورنيا واستقرّت في سياتل، قبل أن تنتقل للعيش في لندن برفقة زوجها وكلبها 99.

telegram @soramnqraa

دروس في الكيمياء

عالمة الكيمياء **إليزابيث زوت** ليست امرأةً متوسّطة السويّة، بل إنّها أوّل من يبادر ويشير إلى عدم وجود شيء اسمه امرأة متوسّطة السويّة. بيد أنّنا في مطلع ستّينيّات القرن العشرين، وطاقم عملها المكوّن من الذكور بأكمله في معهد هاستينغز للبحوث له موقف غير علميّ من المساواة، باستثناء شخص واحد: **كالڤن إيڤانز**؛ حامل الضغائن الألمعيّ الوحدانيّ المرشّح لجائزة نوبل، الذي يقع في غرام عقلها قبل أيّ شيء آخر.
لكنّ الحياة، مثل العلوم، لا يمكن التنبّؤ بها. لهذا لا تجد **إليزابيث زوت** نفسها بعد بضع سنوات أمًّا عزباء وحسب، بل نجمة تلفزيونيّة تقدّم – على مضض – أكثر برنامج طبخ محبوب في أمريكا، «**العشاء عند السادسة**».
تُثبت **إليزابيث** أنّ مقاربتها غير المعهودة للطبخ ثوريّة: «*نُضيف ملعقة طعام من حمض الأسيتيك مع رشّة من كلوريد الصوديوم*». لكن مع تزايد متابعيها، يتّضح أنّ الجمهور ليس مسرورًا كلّه؛ لأنّ **إليزابيث زوت** لا تعلّم النساء كيف يطبخن فقط، بل تحرّضهنّ على تغيير الوضع الراهن أيضًا.
كتابٌ يُضحكنا بعالي صوتنا، بنثر حاذق يَقظ، وطاقم مبهر من الشخصيّات الثانويّة.
دروسٌ في الكيمياء رواية أصيلة نابضة بالحياة مثل بطلتها.
يُذكر أنّه من المقرّر تحويل الرواية إلى مسلسل تلفزيونيّ.

ISBN 978-9957-39-486-8
9 789957 394868

الأهلية
الأردنّ، عمّان، وسط البلد، بناية 12، وبناية 34
ص.ب 7855 هاتف 4638688 6 00962
فاكس 4657445 6 00962 ◆ منشورات 2023
الغلاف: ® ☎ 95297109 7 00962